الفتوحات الإلهية

أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني

تحقيق

عبد الرحمن حسن محمود

عفا الله عنه



عالم الفكر

ميدان سيدنا الحسين - الأزهر الشريف ت ٥٩٢٣٦٦٠٩

ص . ب . الظاهرية ١١٦٣٩ رقم ٥٦ ٥٨٩٢٦٢٥١

الفتوحات الإلهية

في

شرح المباحث الأصلية

تاليــف

أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني

راجعــه وحققه وقدم له

خـادم المسـلمين

عبد الرحمن حسن محمود



ميدان سيدنا الحسين ـ الأزهر الشريف

هاتف ٩٣٦٦٠٩

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

وبعـــد :

يقول رسول الله ﷺ فى الحـديث الذى رواه الديلمى فى مســند الفردوس :

« الدنيا حرام على اهل الآخرة ، والآخرة حرام على اهل الدنيا ، والدنيا والآخرة حرام على اهل الله ..

(صدق رسول الله ﷺ)

المقصود من هذا الحديث ـ والله اعلم ـ ان راغب الدنيا لايمكن ان يكون راغبا فى الآخر ، لأن زخرف الدنيا وبهرجها قد اعمى عين قلبه عن رؤية الحقائق . فاصبح لا هم له إلا الجمع والمنع :

جمعها من حرام او حلال ، او منهما معا .

ومنعها عن مستحقيها الذين فرض الله لهم فريضة فى اموالهم .

فلذلك حرمت عليه الآخرة اى : الجنة ونعيمها وما فيها ، فلا يكون من المكرمين .

واما اهل الآخرة ، فإنهم ابتغوا الأجر من الله ، وعملوا على رضاه ولم يكن ديدنهم ولاهجّيراهم إلاّ رضا الله تبارك وتعالى .

فلذلك هانت عليهم الدنيا بحذافيرها فباعوها ، واشتروا ما عند الله من نعيم مقيم .

واما اهل الله ، فاولئك الذين لاشان لهم بالدنيا ولا بالآخرة لأنهم احبوا الله تعالى وشغلوا به .

ورد ان عبد الله بن محمد سمع امراة من المتعبدات تقول وهى تبكى والدموع على خدها جارية :

« والله لقد سئمت من الحياة حتى لو وجدت الموت يباع لاشــتريته شوقا إلى الله تعالى وحبا للقائه » .

قال : فقلت لها : فعلى ثقة انت من عملك ؟

قالت : لا ، ولكنى لحبى إياه وحسن ظنى به ، افتراه يعذبنى وانا احبه ؟ » انتهى كلامها رضى الله عنها .

وقد اجاب على هذا السؤال رجل منهم ، التقى مع احد العلماء فظن العالم ان الرجل احد المجاذيب الذين لا يدركون شيئا ، فأخــذ يوبخــه ، فقال له الصوفى : اتحفظ القرآن ؟ قال : نعم قال : اين تجد فيه أن الحبيب لا يعذب حبيبه ، فوقف الرجل هنيهة ، ثم قال : لا ادرى ، فقال له :

« الم يقل الله تعالى » :

« وقالت اليهود والنّصارى نحن ابناء الله واحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل انتم بشر ممن خلق (١) » فبهت الرجل وذهب الى حــال سبيله ، وعرف ان القوم على صلة بالله .

• • •

ورد ان من اهل الجنة اناسا لو حجب الله عنهم طرفة عين لاستغاثوا من الجنة ونعيمها كما يستغيث المستغيث من النار وعذابها .

وقال الثورى لرابعة العدوية : ما حقيقة إيمانك ؟

قالت : « ماعبدته خوفا من ناره ولا حبا فى جنته فاكون كالأجير السوء ، بل عبدته حبا له وشوقا اليه » .

تريد بالأجير السوء : الشخص الذى يستاجر لعمل مـّا . فإذا ما قضى عمله طالب بالأجر . وهو لا يدرى ايقبل صاحب العمل عمله هذا ام يرده لعيب فيه ؟

---

(١) الآية : ١٨ من سورة المائدة .

وقد قال الإمام الشعرانى رضى الله عنه ما معناه : إن الله سبحانه وتعالى شرط شرطا لقبول للعمل فقال : انا لانضيع اجر من احسن عملا (١) ولهذا يدعى انه احسن العمل حتى يطلب الأجر .

وقال الإمام الغزالى عن السيدة رابعة لما قالت :

احبك حبين ، حب الهوى ... وحبا لأنك اهل لذاكا

قال : لعلها ارادت بحب الهوى : حب الله لإحسانه إليها وانعامه عليها بحظوظ العاجلة . وبحبه لما هو اهل له : الحب لجماله وجلاله اذ انكشف لها .

وهو اعلا الحبين ولقواهما .

• • •

قال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى .

« العالم طبيب الدين ، والدنيا داء الدين ، فإذا كان الطبيب يجر الداء الى نفسه فمتى يبرىء غيره ؟ »

فى الواقع ان هذه الجملة « والدنيا داء الدين » هى عنصر التصوف الاصيل والاقوم ، ودائرة قطبه الأفخم إذ الدنيا والدين لا يجتمعان فى قلب عبد ابداً . . . إما دنيا وإما دين . . . لا ثالث لهما .

ولذلك قال رسول الله ﷺ فى ما رواه البيهقى فى شعب الايمان : « حب الدنيا راس كل خطيئة » يفيد ان حب الآخرة ورضى الله راس كل حسنة ، إذ بضدها تتميز الاشياء .

وقوله ﷺ : « من احب دنياه اضر بآخرته » الى آخره واضح بين لاينكره إلا من طمس على قلبه والعياذ بالله .

• • •

---

(١) سورة الكهف ، الآية : ٣٠

قوله تعالى ـ ويطعمون الطعام على حبه ـ اى على حب الله ـ على احد التفسيرين ، وذلك أعلى مراتب الايمان والعبودية لله رب العالمين ٠

والتفسير الآخر ـ على حب الطعام ـ لحاجتهم إليه ، وهو صحيح ايضا ، إذ فيه الايثار فى وقت الحاجة ، الذى عبر الله تعالى عنه بقوله جل شانه :

ـ ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ـ

ولما كان الايثار محبوبا لله تعالى عقّب الآية بقوله تبارك وتعالى : ـ ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون ـ ٠

والشح مضاد لحب الله ، لان الدنيا لاتنخلع من قلبه حتى ياكله التراب ويذوب فى القبر ٠

• • •

تقول السيدة عائشة بنت ابى عثمان رحمها الله تعالى :

« من تهاون بالعبيد فلقلة معرفته بالسيد ، فمن أحب الصانع احب صنعته » ٠

وهذا الذى ذكرته هذه المراة الصالحة له مغزاه الصحيح ، فالمسلم لا يبغض الا من يبغض الله تعالى ٠

ولم يدلك الله على انه يبغض شخصا بعينه ، إلا ماورد فى القرآن او صحيح السنة ، فانت مامور بان تبغضهم باعيانهم ، لان الله قال لك إنه يبغضهم ، والذى يبغضه الله هالك لا محالة ٠

واما غير ذلك، فعواقب الناس معلومة لله وحده ، مجهولة لكل الخلق

ولذلك انت مطالب بان تحب كل مسلم ، لانه اسلم نفسه لله رب العالمين ٠

وان تبغض الكافر لكفره ، فإذا ما ذهب منه الكفر واسلم كان محبوبا لك ٠

وقد قيل « ابغض الصفة ولا تبغض الموصوف » فإن الموصوف بصفة الكفر والنفاق مثلا ربما زالت عنه هذه الصفة وختم له بالايمان ، ولذلك غضب رسول الله ﷺ لما قتل اسامة بن زيد الرجل الذى أسلم اثناء الحرب وذلك لأن الصفة التى حورب من اجلها زالت عنه فى ظاهر الأمر .

فابغض صفة الكفر وحاربه عليها ، وأحب صفة الإيمان وصادقه وآخه عليهـــا .

واياك ايها العاقل ان تتكلم فى عواقب الخلق وخواتيم اعمالهم فإن الكلام فيه مهلكة اى مهلكة .

ولذلك قال رسول الله ﷺ .

« من احب لله ، وابغض لله ، واعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمـــان » .

(رواه ابو داود)

فقوله عليه الصلاة والسلام « لله » توجب على المسلم ان يكون فعله كله مجردا لله وحسب ، وذلك هو قمة الاسلام والتصوف .

* * *

هذا الذى ذكرته لك ايها الأخ القارىء الكريم ، ليس هو أخلاطاً من كلام شتى كما ستظن . ولكنه زهرات من بساتين قمة الاسلام « التصوف » وهو موضوع كتابنا الذى نقدم له .

هذه نتف من اخلاق القوم ، اخلاق اهـــل الحـــق رضى الله عنهم وارضاهم ، منها وعنها نعرف ان التصوف إن هو الا السير على خطا رسول الله ﷺ .

ـ وعندما اقول لك « التصوف » لا اقصد هذا التهـريج الذى تراه ـ وإنما اقصد سلوك اهل الحق العارفين بالله .

* * *

من قال : إن التصوف مجـــانف للإسلام فهو المجـانف للحق ، لأن التصوف كله من أوله الى آخره إن هو إلا التجرد لله فى كل اعمالك وذلك قمـــة الاســـلام .

إذا تجردت فى كل اعمالك لله ، فانت متصوف ، سواء انتسبت إلى طريق معينة ام لا .

وعلى هذا الأساس يجب عليك الا تبغض الصوفية فتبغض ما يحب الله ورسوله ، فتقع فى الشرك .

• • •

قالوا ان كلمة « تصوف » لم ترد فى الإسلام :

رغم اننا نقول : ان اغلب المسميات المعروفة لنا الآن كعلم اصول الفقه وعلم أصول الحديث ، ومصطلح الحديث ، والمعقولات ، والمنقولات، وما الى ذلك من مسميات كثيرة لم تكن فى عهد نزول الرسالة ، ولكنها وضعت فيما بعد لمقتضيات الحال .

رغم هذا نقول : إن التصوف له اصل كبير فى الإسلام ، اذ كان هو الحياة العملية لرسول الله ﷺ واصحابه ، ولا ينكر ذلك إلا من عمى عن طريق الحق واتبع طريق الضلالة والعياذ بالله .

وقد سبق ان ذكرت شيئا من اخلاق القوم ، وقلت لك إنهم ساروا على اثر قدم رسول الله ﷺ .

• • •

والآن قد آن الأوان لأن اسرد عليك بعض شىء من خلق اصحاب رسول الله ﷺ حتى تكون على بينة من امرك .

(١) لما هاجر المسلمون من مكة وغيرها الى المدينة المشرفة ، ألم يتركوا اموالهم وديارهم ، واولادهم واحب شىء إليهم .

لم فعلوا ذلك ؟

الم يفعلوه حبا فى الله ورسوله .

هل من المنكرين على التصرف من يفعل من ذلك من شىء ؟ أم انهم الآن يهاجرون الى مواطن الأموال ليترعوا من حثالات الدنيا ومستنقعات البترول .

الذى يدعوا اليه التصوف : الهجرة لله إذا هاجرت ، لينتفع بك المسلمون ، « المسلم اينما وقع نفع » .

اما ان تهاجر لجمع المال وتزعم انك مها جر لله ، فلا ، والف لا . لا يجتمعان فى قلب : حب الدنيا وحب الله .

اننى لا ادعوك لان تهاجر وطنك وولدك واهلك وتخرج منهم ، فإن رسول الله ﷺ قال : « لا هجرة بعد فتح مكة » .

(رواه البخارى) .

ولكنى ادعوك لان تكون هجرتك لله ... الله وحسب ، وعندئذ ستجد الدنيا بخذافيرها تحت قدميك .

يقول لك التصوف : اهجر اول ماتهجر : اخلاقك السوء ، فإذا فعلت فإنك مهاجر .

ولذلك قالوا : اذا اردت ان تهجر احداً من المسلمين ، فاهجر أنت اخلاقك السوء اولا .

واول خلق سوء يجب أن تهجره هو : هجر المسلم .

(٢) الانصار : لما ذهب إليهم المهاجرون ، الم يشاركوهم اموالهم وديارهم ، وحتى بلغ بهم الامر انهم كانوا إذا راو رجلا من المهاجرين غير متزوج طلق احدهم إحدى نسائه ليتزوجها اخوه المهاجر .

اليس هذا الإيثار هو قمة الإسلام .

لمن هذه الهجرة وهذا الايثار ؟ اليس هو لله رب العالمين حبا فى ذات اللـــــه .

كذلك الصوفية يفعلون . ، يحبون لله ، ويبغضون لله ، ويأمرون لله وينهون لله ، ويمشون لله ، ويقفون لله ، وينامون لله ، ويستيقظون لله ، ويسعون لقضاء حوائج المسلمين لله . ولا يسعون لقضاء شيىء فيه غضب من الله ابداً .

• • •

نظر النبى ﷺ الى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قـــد تنطق به . فقال النبى ﷺ :

« انظروا الى هذا الرجـــل الذى قد نور الله قلبه ، لقد رايته بين ابوين يغذوانه باطيب الطعــام والشراب . فـدعاه حب الله ورسـوله الى ما ترون »

(رواه ابو نعيم فى الحلية)

فما لهؤلاء لا يكادون يفقهون حديثا .

• • •

قال رسول الله ﷺ فى مارواه البيهقى فى شعب الإيمان :

« أنزل الله جبريل فى احسن ما كان ياتينى فى صورة ، فقال : ان الله تعالى يقرئك السلام يا محمد ويقول لك :

إنى اوحيت الى الدنيا ان تمررى وتكدرى ، وتضيقى وتشددى على اوليائى كى يحبوا لقائى ، فإنى خلقتها سجنا لأوليائى وجنة لأعدائى » .

ومن ذلك قول النبى ﷺ :

« الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر »

رواه الإمام احمد ، ومسلم ، والترمذى وابن ماجه عن ابى هريرة . والطبرانى ، والحاكم عن سلمان ، والبزار عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهم جميعــــا

وقال رسول الله ﷺ :

« الدنيا سجن المؤمن وسنته ، فإذا فارق الدنيا فارق السجن والسنة »

(رواه الإمام احمد ، والطبرانى ، وابو نعيم فى الحلية ، والحاكم) .

وروى « ابن لال » قول النبى ﷺ :

« الدنيا لا تصفو لمؤمن ، كيف وهى سجنه وبلاؤه » !!؟

وهكذا وضعها التصوف ـ اى الدنيا ـ فى الموضع اللائق بها ، فهم لم يخلقوا لها ، وإنما خلقوا للعبادة تنفيذا لقوله تعالى : ـ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون (١) .

• • •

الذين لايحبون التصوف ووضعوا حوله الأقاويل الملفقة إنما فعلوا ذلك لأن الدنيا ملكت عليهم كل شىء ، حتى كانت هى قلوبهم وافئدتهم : بها يمشون ، ويجلسون ، ويقومون ، ويقعدون ، وفيها ينامون ، وعليها يتكلون .

ضربت عليهم اطنابها من كل وجه فاحبوها من سويداء قلوبهم ، فكيف يترك الحبيب حبيبه ؟؟

ولكن الصوفية الملتزمين بسنة رسول الله ﷺ هربوا منها كما يهرب الإنسان من النار ، وهم يملكونها ولا تملكهم ، وهى الصفة التى احبها رسول الله ﷺ لأصحابه فى مثل قوله عليه الصلاة والسلام :

« كيف بكم إذا غدا أحدكم فى حلة وراح فى حلة ، ووضعت بين يديه صحفة ورفعت اخرى ، وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة . انتم اليوم خير منكم يومئذ »

(رواه الترمذى)

على اننا لانقول ابداً إن الدنيا هى المال والكسب والسعى على الرزق، وانما نقول : ان الدنيا هى الكسب الخبيث الذى قلنا عنه آنفا : جمع المال من غير حله ، وانفاقه على غير أهله . اللهم اجعلها فى أيدينا ولا تجعلها فى قلوبنا .

• • •

أصول التصوف :

أصول التصوف خمسة :

(١) تقوى الله فى السر والعلن

(٢) اتباع السنة : قولا وعملا

---

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٥٦

(٣) الاعراض عن الخلق

(٤) الرضا من الله بالقليل والكثير

(٥) الرجوع الى الله فى السراء والضراء

التصوف والحديث الشريف :

قال الجنيد (سيد الطائفة) رحمه الله ورضى عنه :

« علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يكتب الحديث ويجالس العلماء : لا يقتدى به فى هذا الشان » .

وقول إمام الصوفية أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه : لو غاب عنى رسول الله ﷺ طرفة عين ما عددت نفسى من المسلمين : يفيد مما يفيد : أنه مراقب لرسول الله ﷺ فى كل حركاته وسكناته ، وأنه لو لم يقتد فى لحظة برسول الله ﷺ لكان كما قال : اى إنه فى قلبه يقول : هذا أمر به رسول الله ﷺ وهذا لم يامر به رسول الله ﷺ . وهكذا هو مراقب لحركات رسول الله ﷺ فى كل حياته .

يعنى انه يتصور امره ونهيه فى كل حين .

على ان الصوفية الحق فى رؤية رسول الله ﷺ بهذه الصفة اصناف :

منهم من يراه مباركا له ومحبا ، فهو يراه فى المنام كثيرا ، ويكون دليله فى طريقه الى الله .

ومنهم من يراه فى عين قلبه ، لأن قلبه لا يغفل لحظة عن الصلاة والسلام عليه ﷺ .

وهكذا جل احوالهم مع الله ورسوله ﷺ ، ونسال الله ان يرزقنا حسن الأدب .

التصــوف واللغــة

على ان اصل التصوف كلمة غير مجهولة لغة ، فمثلا :

(١) أخذ بصوف رقبته وبصافها : بجلده ، او بشـعره المتدلى فى قفاه او بقفاه جمعاء او اخذه قهرا اهـ قاموس .

فالصوفى يمسك بدينه هكذا : يمسك بصوف رقبة نفسه ويأخذها قهرا الى الله ويلزمها ذلك حتى تمرن وتصبح العبادة لها عادة محبوبة مألوفة .

(٢) صوف : أبوحى من العـرب كانوا يخـدمون الكعبة ويجيزون الحـــاج .

وكذلك الصوفى يخدم دينه ويجيز نفسه وغيره من عذاب الله تعالى .

(٣) قوم من افناء القبائل تجمعوا وتشابكوا كتشابك الصوف .

كذلك الصوفية يتشابكون قلبا وقالبا كتشابك الصوف .

(٤) صاف الكبش فهو صَوِف : اذا كبر صوفه وحماه من البرد والحر

كذلك الصوفى يحميه دينه من المعاصى والذنوب ، لأنه تربى على الحمية الدينية والعزة الإلهية .

(٥) صاف السهم : عدل

وكذلك الصوفى يعدل عن القبائح والذنوب

(٦) أصاف عنى وجهه : أمال

وكذلك الصوفى يميل عن كل ما يغضب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

(٧) أصاف الله عنى شره : أماله عنى

وكذلك الصوفى يصرف الله عنه كل سيء ويهيؤه لكل جميل

ويصرفه عن الذنب لأنه محبوب الله تعالى : لا يريد غير الله .

وفى بلاد الصعيد يستعملون كلمة « صاف القمح » إذا استوى استواء تاما وقارب السقوط .

وكذلك الصوفى يستوى قلبه من ذكر الله حتى لا يوجد فيه شىء غير الله . . . والله تعالى أعلم .

التصوف الصحيح والادعاء

التصوف الحقيقى : التزام الطريق السوى على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كما قلت لك واننا مطالبون أمام الله تعالى بدينه الذى شرعه لنا على لسان رسوله ﷺ ، ولن ينفعنا شيخ الطريقة اذا لم يكن هو نفسه ملتزما .

فإياك يا اخى وادعياء السوء ، الذين لاهم لهم الا ملء بطونهم وكروشهم وحسب فإنهم هم الذين جلبوا علينا هذا العار والنكد ، وكانوا السبب فى طول الألسنة بالباطل .

فحاول أيها المحب لدينك وعقيدتك ان تكون بعيدا عن الشبهات والاباطيل ، فإننا الآن فى ساحة الدنيا وسعتها ، وغدا فى ضيق الحشر وظلماته ، ولن ينجيك الا نور القرآن والاسلام والتدين الصحيح والسير على طريق الصوفية الأصلاء . ودع عنك مداخل السوء ومواقف البهتان .

ونعيدها مرة ومرة والف مرة : التصوف الصحيح هو : الاسلام ، فلا تشوه وجه اسلامك أيها الأخ الصوفى الأصيل .

هذا الكتاب الذى قدمنا له .

وهذا الكتاب الذى قدمنا له هو نبراس التصوف الصحيح الذى لاشائبة فيه بإذن الله تعالى .

والحق ، أننى مهما قلت لك عنه فلن أوفيه حقه لأنك سترى فيه

الكلام يبسط عن : المحبة والشوق ، والسـلوك ، والانقياد ، والأخـوة والتلمذة الطيبة ، والعلم ، والعمل ، وما الى ذلك مما يطول الكلام عنه .

واخيرا أقول لك ما قال الأول :

تمتع من شميم عرار نجد .:. فما بعد العشية من عـرار

ولله الحمد فى الأولى والآخرة وله الكبرياء فى السماوات والأرض

وصلى الله على صاحب الشفاعة العظمى والصغرى يوم القيـامة والعرض .

ورحم الله امرءا دعى لنا ولمؤلفه وقارئه وناشره وسامعه والمسلمين جميعا بخير ، وجزاه الله عنا افضل الجزاء .

بسم الله الرحمن الرحيم

أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده
« قرآن كريم »

يقول العبد الفقير الى مولاه الغنى به عما سواه أحمد بن محمد بن عجيبة الحسنى لطف الله به وحباه :

الحمد لله بجميع المحامد الأصلية:القديمة والفرعية ، فهو المحمود ، وهو الحامد ، لاختصاصه بنهاية الأحدية ، الغنى الكريم . الماجد القديم ، الأزلى بلا بداية ولا أولية ، الفرد الصمد ، الواحد الباقى بلا نهاية ولا آخرية .

نحمده تعالى ونشكره على ما خوله وأولاه من أياديه الأبدية

ونستعينه سبحانه ونستنصره على سلوك طريق حضرته القدسية

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، المنزه عن الشريك والغيرية ، المقدس عن الحلول والاتحاد وثبوت السوية

ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً رسوله ومصطفاه ، المختص بالنزاهة الأصلية ، من غير معاناة تخلية ولا تحلية ، صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وأصحابه وعترته وأحزابه ، المنزهين عن الأخلاق الدنية ، الموصوفين بمحاسن الأخلاق السنية .

أما بعـــد كل شيء وقبله : فأعظم الوسائل إلى الله سلوك طريق الأدب والتربية ، وأقرب ما يوصل العبـد إلى مولاه صحبة العارفين ذوى الهمم العاليـة والتربية النبوية ، والتأدب بين يدى المشايخ : أهل النزاهة والتصفية ، على اختلاف مقاماتهم وأحوالهم من : عبّاد ، وزهاد ، وفقراء ، وصوفية ، والبحث عن سيرهم وأحوالهم ، والتأدب بآدابهم المرضية ، والتحقق بأخلاقهم وشيمهم ازكية،وأجل من بحث عن سننهم الدارسة ومآثرهم السنية ، الفقيه الصوفى ابن البنا السرقسطى فى « مباحثه الأصلية » ، فلله دره ، لقد حرر فيه المعنى ، وبين فيه المبنى ، فبلغ فيه غاية القصد والمنى ، بلفظ مختصر بديع ، ونظم سلس رائق رفيع ، بين فيه أصول الطريق ، وأظهر فيه معالم التحقيق ، فأردت بعون الله أن

أضع عليه شرحاً متوسطاً ، ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل . يبين المعنى ، ويحقق المبنى ، حملني عليه أمر شيخنا العارف الواصل المحقق الكامل سيدى محمد بن أحمد البوزيدى الحسينى ، فأجبت رغبته ، وأسعفت طلبته ، عسى أن ينتفع به الخاص والعام ، فيكون معراجاً وسلماً لارتقاء درجة المعرفة على التمام ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، وحسبى الله ونعم الوكيل ، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم ، وسميته والفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية ، نسأل الله تعالى أن يفتح على من كتبه أو طالعه أو حصله أو سمعه أو اعتقده أو انطق بما فيه ، فتحاً مبيناً ، ظاهراً وباطناً ، بمنه وكرمه وبجاه سيد الخلق سيدنا ومولانا محمد نبيه وحبه آمين .

وهذا أوان الشروع فى المقصود ، مستمداً من بحر الكرم والجود ، صاحب المقام المحمود . والحوض المورود . واللواء المعقود . سيدنا ومولانا محمد المرسل إلى كل موجود . منبع العلوم والأنوار ، ومفتاح خزائن المواهب والأسرار .

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

فما فتح على العارفين من المواهب والأسرار ، إلا رشحات من رشحات النبي المختار ؛ إذ منه انشقت الأسرار ، وانفلقت الأنوار ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الأبرار .

وبعد هذا ، فصاحب الكتاب هو : الشيخ الفقيه الصالح الولى الناصح أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف التجيبى ، المعروف بابن البنا ، السرقسطى ، بضم القاف : نسبة إلى سرقسط ، بلدة بتخوم الجزيرة ، كان أصل نسبه منها ، ثم تقرر بفاس ، وبها توفى ، قال الشيخ زروق رحمه الله : لم أقف على تاريخ وفاته ، غير أن الظن الغالب أنه قريب العهد ، قال : ولم يكن مشهوراً بالعلم ، مع ماله فيه من القدم الراسخ الذى دل عليه كتابه ، فعد من عجائب مدينة فاس ، إذ كان من عامتها وألف ، كابن أبى زرعة صاحب التاريخ .

كذا ذكر لى بعض عدول بلدنا عن صاحب له عدل اه .

قلت : وكم من عارف كبير بقى تحت أستار الخمول ، حتى لقى الله تعالى ، بل كلما عظم قدر العارف عند الله ، خفى أمره على الناس ، لأن الكنوز لا تكون إلا مدفونة ، فإن ظهرت نهبت وتشتت أمرها وذهب سرها ، وابن البنا هذا غير صاحب الحساب ، فإنه ابن البنا الصوفى ، توفى بمراكش سنة إحدى وعشرين من القرن الثامن ، كما ذكره صاحب «الجذوة»

ثم ابتدأ صاحب الكاتب كتابه ببسم الله تبركا وامتثالا ، فقال :

بسم الإله فى الأمور أبدا　　　إذ هو غاية لها ومبدا

قلت : مازالت أكابر الكتاب والمصنفين يبتدءون فى أول كتبهم ببسم الله ، اقتداء بالكتاب العزيز ، فإن الصحابة أجمعت على افتتاح المصحف ببسم الله الرحمن الرحيم ، على اختلاف بينهم فى كونها آية أو غير آية ، فذهب بعض الصحابة إلى أنها آية ، وبه أخذ الشافعى رضى الله عنه ومن تبعه ، حتى أفتى ببطلان صلاة من تركها ، وذهب آخرون إلى أنها غير آية ، وبه أخذ مالك ومن تبعه ، واحتج الشافعى بأن الصحابة من شدة تحفظهم وتحريهم لا يدخلون فى المصحف إلا ماهو منه ، واحتج مالك بقول كثير من الصحابة عن صلى مع النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : فكان يفتتح الصلاة بالحمد لله رب العالمين ، ولم يقل بسم الله الرحمن الرحيم ، والخلاف مذكور فى كتب الفقه .

وكان الإمام المازرى يقرؤها سراً ، خروجاً من الخلاف ، وفى الحديث :

« كل أمر ذى بال لايبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع » وفى رواية « فهو أبتر » وفى رواية « فهو أجذم »(1) وحاصلها أنه مقطوع البركة ممحوق من كل خير ، غير كامل حساً أو معنى ، وفى رواية « بذكر الله » فيعم البسملة وغيرها ، وبها جرى العمل ، وفى حديث آخر عنه صلى الله عليه وسلم قال : « من أراد أن يحيى سعيداً ويموت شهيداً فليقل عند ابتداء كل شىء بسم الله » ، وقوله « فى الأمور » يتعلق بقوله أبدا بمعنى أشرع و « أل » عوض من المضاف ، أى أشرع فى أمورى كلها مستعيناً بالله إذا قلنا الاسم عين المسمى أو مقحم ، أو أشرع فى الأمور التى أحاولها متبركا بسم الله ، ولا شك أن من استعان بالله كان معانا فى جميع أموره ، ومن لم يستعن به كان مخذولا فى كل أموره . ولله در القائل :

إذا لم يعنك الله فيما تريده　　　فليس لمخلوق إليـــه سبيل
وإن هو لم يرشدك فى كل مسلك　　　ضللت ، ولو أن السماك دليل

ومن تبرك باسم الله كانت البركة مصحوبة معه ، فلا يلحقه نقص ولاخلل ،

---

(1) رواه عبد القادر الرهاوى فى الأربعين .

وقوله «إذ هو غاية لها ومبدا» تعليل لافتتاحه باسم الله، أى إنما أبتدىء فى أمورى بالله لأنه مظهرها أولا، ومبطنها ثانيا، فظهورها منه، وانتهاؤها إليه، ومبدؤها منـــه وغايتها إليه، وإنما قدم الغاية مع تأخرها فى الفعل، للوزن، ولما اختلفت روايات الحديث المتقدم، فبعضها «لا يبدأ فيه ببسم الله» وفى بعضها «لا يبتدأ فيه بالحمد لله»، وفى بعضها زيادة، «ولا بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم»(١)، جمع الشيخ بينها فبدأ بالرواية الثانية فقال:

الحمـــد لله ولى الحمـــد   هدى إلى الحق ونهج الرشد

الحمد فى اللغة هو: الوصف بالجميل على قصد التعظيم والتبجيل، سواء تعلق بالفضائل، وهى الأوصاف اللازمة، أو بالفواضل، وهى الأوصاف المتعدية والأفعال السنية، ولا بد أن يكون الباعث عليه أمراً اختيارياً، وإلا كان مدحاً، فالحمد يكون على الأوصاف الاختيارية أو ماق معناها، كالعلم والكرم والشجاعة، سواء كان بالاختيار أوغيره، والمدح يكون على الأوصاف اللازمة، كحسن الخد ورشاقة القد، سواء كان باللازمة أوغيرها، والحاصل «أن السبب الحامل على الحمد لا يكون إلا اختيارياً، والسبب الحامل على المدح لا يكون إلا لازما.

وأما الحمد فى العرف، فهو: فعل يشعر بتعظيم المنعم، كان باللسان أو بالأركان، أو بالجنان، فورد الحمد فى اللغة خاص، وهو اللسان، لان الثناء لايكون إلا باللسان، ومتعلقه عام، وهو النعمة وغيرها، ومورد الحمد فى العرف عام، وهو اللسان وغيره، ومتعلقه خاص، وهو صدور النعمة من المحمود.

وأما الشكر فى اللغة فهو: فعل ينبىء بتعظيم المنعم، فهو مرادف للحمد العرفى لغة.

وأما الشكر فى العرف، فهو: صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من: السمع، والبصر، وغيرها إلى ماخلق لأجله، فهو أخص من الجميع.

---

(١) أخرجه الرهاوى فى الأربعين عن أبى هريرة، ونصه: «كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بحمد الله والصلاة علىّ، فهو أقطع أبتر ممحوق من كل بركة».

والكلام على الحمد والشكر يطول ، فلنقتصر على ماذكرنا ، إذ ليس للفقير[1] حاجة إلا في معرفة الشكر ، وأحسن ما قيل فيه قول إمام الطائفة « أن لايعصى الله بنعمه » وإذا لم يعص بنعمه فقد صرفها في طاعته ، وقوله « ولي الحمد » أي متوليه وفاعله ، فهو الذي تولى حمد نفسه بنفسه ، إذ هو الغنى بذاته عن أن يحتاج إلى من يحمده ، بل هو الحامد والمحمود ، إذ لا فاعل سواه ، وقيل « وليه » مستحقه ، وقوله « هدى إلى الحق » أي هوى خلقه إلى معرفة الحق من الباطل ، قال تعالى :

« فذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الحَقُّ ، فَمَاذا بَعْدَ الحَقِّ إلاّ الضَّلالُ »[2] .

فكما تولى حمد نفسه بنفسه ، تولى هداية عباده إلى معرفته

أو تقول : كما حمد نفسه بنفسه ، عرّف نفسه بنفسه ، ولذلك حذف مفعول « هدى » ليدل على العموم ، فيصدق بالشريعة والحقيقة ، أي هدى خلقه إلى الحق على صدقه بالشريعة ، أو هدى مظاهره وأنواره إلى الحق على صدقه بالحقيقة ، وهذا كقول الششتري :

أنتم دللتم عليكم منكم ولكم ديمومة عبّرت عن غامض الأزل

والنهج والمنهاج ، هو : الطريق الموصل إلى الحق ، والرشد هو : مصادفة الحق والصواب ، لأن الرشد بالضم ، والرشد بالفتح هو الصواب ، والصواب هو مصادفة عين الحق ، وكأنه قال : هدى خلقه إلى معرفته وإلى الطريق الموصلة إليه ، فقوم هداهم إلى معرفته من غير سلوك طريق ، وهم المجاذيب ، سواء رجعوا للسلوك أم لا ، وهم الذين أشار إليهم بقوله « هدى إلى الحق » أي هداهم إلى معرفة الحق ، وقوم هداهم إلى طريق معرفته ، ثم عرفهم به ، وهم أهل السلوك أو لا ، ثم الجذب ثانياً ، وهم المشار إليهم بقوله « ونهج الرشد » أي هداهم إلى طريق الصواب ، ثم فتح في وجوههم الباب ، فبلغوا منية الألباب ، والله أعلم بالحق والصواب .

ثم أشار إلى الرواية الثالثة في الحديث ، وهي : الأمر بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في الابتداء ، فقال :

---

(١) أي الصوفي السالك على طريق الله .

(٢) سورة يونس : الآية : ٣٢ .

ثم صـــلاة الله والسلام   على النبى ما انجلا الظلام

قلت : الصلاة من الله على حبيبه ، هى : محبته وعطفه عليه ، وتقريبه واجتباؤه إليه ، والسلام هو طيب تحية وإكرام ، وتمام إحسان وإنعام .

والناس فى الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثلاثة أقسام : قسم يصلون على صورته البشرية ، وهم أهل الدليل والبرهان ، فهم يشخصونها فى قلوبهم فى حال الصلاة عليه ، فإذا أكثروا من الصلاة بالحضور ثبتت الصورة الكريمة فى قلوبهم ، فيرونه فى المنام كثيراً ، وربما تتشكل روحه الكريمة على صورة جسده الطيب ، فيرونه يقظة

وقسم يصلون على روحه النورانية ، وهم أهل الشهود من السائرين ، فهم يصلون على نوره الفائض من الجبروت ، فيشاهدونه فى غالب أوقاتهم على قدر حضورهم وشهودهم .

وقسم يصلون على نوره الأصلى ، الذى هو نور الأنوار ، وهم أهل الرسوخ والتمكين من أهل الشهود والعيان ، وهؤلاء لا يغيب عنهم النبى صلى الله عليه وسلم طرفة عين ، ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : « لو غاب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفة عين ما أعددت نفسى من المسلمين » إشارة إلى رسوخه وتمكنه فى الحضرة ، ورجوعه إلى البقاء بشهود الواسطة ، وهؤلاء أفكارهم تجول فى الملكوت ، وأرواحهم متصلة بالجبروت ، فقد اجتمع فيهم ما افترق فى غيرهم ، كما قال عليه الصلاة والسلام « كل الصيد فى جوف الفرا »(١) و « الفرا » هو حمار الوحش ، وهو أسمن الصيد ، فمن ظفر به فكأنما ظفر بالصيد كله ، وكما قال الشاعر :

وليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم فى واحد

وقوله : « ما انجلا الظلام » « ما » ظرفية ، أى مدة انجلاء الظلام حساً ومعنى ، وانجلاؤه إما بظهور النور الحسى على الظلمة الحسية ، وهذا مستمر إلى يوم القيامة ، وإما بظهور نور الهداية على ظلمة الغواية ، أو نور اليقظة على ظلمة الغفلة ، أو نور شموس العرفان على

---

(١) قال فى المقاصد الحسنة : رواه الرامهرمزى فى الأمثال ، وعند العسكرى قال : فى « جوف » أو « جنب » ، وله قصة طويلة فارجع إليه ص ٣٢٣ .

ظلمة الأكوان ، أو نور الترقى فى المواهب والأسرار على ماقبله من المقامات والأنوار ، وهذا الأخير لا ينقطع أبداً ، وكلام الناظم محتمل ، والله تعالى أعلم .

ثم شرع فى المقصود فقال :

« يا سائلا عن سنن الفقير　　سألت ما عز عن التحرير »

قلت : السنن بالضم جمع سنة ، وهى الطريقة ، والسنن بالفتح مفرد ، بمعنى الطريق ، ويصحان هنا ، والفقير فى الاصطلاح هو المتوجه إلى الحق على بساط الصدق

وقال سهل رضى الله عنه : الفقير الذى لا يملك ولا يملك[1] ولا يرى غير الوقت الذى هو فيه ، وقال السهروردى : الفقر أساس التصوف ، وبه قوامه ، وقال غيره : الفقر صفة مهجورة تنفر منه الطباع وتفر منه النفوس ، وهو من الأسباب التى تجلس العبد بين يدى الله على بساط الصفا

واختلف : هل الفقير أبلغ من الصوفى ، لأن الفقير من لم تبق فيه بقية ، بخلاف الصوفى ، أو الصوفى أبلغ ، لأن الصوفى من صفت أحواله ولم يبق فيه كدر أصلا ، بخلاف الفقير .

والتحقيق أن الفقير هو : المتوجه إلى الله بأنوار التوجه ، والصوفى له أنوار المواجهة ، فالصوفى أبلغ من الفقير ، لأن الصوفى واصل ، والفقير راحل ، الصوفى صفت له النزول ، والفقير بين الطلوع والنزول ، الصوفى لايرى فى الدارين غير الله ، ولا يشهد مع الحق سواه ، قد سخر له كل شىء ، ولم يسخر هو لشىء ، يأخذ النصيب من كل شىء ، ولم يأخذ منه النصيب شيئاً ، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه من الأوصاف الكاملة ، بخلاف الفقير ، فهو فى طريق المجاهدة ، فنهاية الفقير بداية الصوفى ، والله تعالى أعلم .

وقيل : هما شىء واحد ، وهو ظاهر المصنف فى مواضع من هذا الكتاب ، وسنن الفقير هى : طرقه التى يسلكها ، وآدابه التى يتأدب بها ، وعلى نسخة فتح السين يكون المعنى : يا سائلا عن طريق الفقير التى يسلكها حتى يصل إلى ربه ، ونسخة الضم أحسن ، ويكون أشار بالسنن إلى شروط الفقير وآدابه ، لأنها من طرقه التى يسلكها ويمر عليها .

أما شروطه فثمانية : قصد صحيح : وصدق صريح ، وآداب مرضية ، وأحوال زكية ، وحفظ الحرمة ، وحسن الخدمة ، ورفع الهمة . ونفوذ العزيمة .

---

(١) أى هو الذى لا يملك شيئاً ولا يملكه شىء .

وآدابه خمسة : خلع العذار ، والذل والانكسار ، والبذل والإيثار ، وصحبه العارفين الأبرار ، وبذل المجهود فى الطاعة والأذكار .

أما القصد الصحيح فهو : أن يكون مراده بالدخول فى صحبة الشيخ : تحقيق العبودية ، والقيام بوظائف الربوبية دون كرامات ولا تحصيل مقامات ، ولا إدراك درجات ، ولا طالب حظوظ نفسانية .

وأما الصدق فالمراد به هنا التصديق بسر الخصوصية عند من يصحبه ، وهو أساس الطريق ، فمن لا صدق له لا سير له ، ولو بقى فى حوزالشيخ ألف عام ، فالصدق هو : معرفة السر ، فكل واحد يعرف من سر الشيخ على قدر صدقه فيه ، وهو أيضاً الثمن الذى ينفق به الفقير على روحه وقلبه وسره ، فمن لا صدق له فى الشيخ لا ينفق من سره شيئاً ، وإليه أشار الشيخ الشرقى رضى الله عنه بقوله :

من لا صدق ما عند باش ينفق　　　من لا حقق ما جلب أمارا يا بابا

وأما الآداب فهى مفتاح الباب ، فمن لا آداب له لا دخول له ، ومن أساء الآداب مع الأحباب طرد إلى الباب ، ثم إلى سياسة الدواب .

وقد كان بعض الأولياء يأمر من يريد الدخول معه بصحبة أهل المخزن حتى يتادب ، وسيأتى الكلام على الآداب فى محله إن شاء الله ، فمن لم يتأدب مع الشيوخ والإخوان لا تزيده صحبتهم إلا الحرمان

وأما الأحوال الزكية فهى أن تكون موافقة للشريعة ، بحيث لا يؤذى أحداً من الناس ، فالفقير الذى ليست له أحوال ، لا يبلغ مقامات الرجال أو السير إلى حضرة القدوس إلا بمخالفة النفوس . ولولا ميادين النفوس (أى محاربتها) ما تحقق سير السائرين ، فالمراد بالأحوال هنا هى خرق عوائد النفس ، وتخريب ظاهرها بتعاطى ما يسقط جاهها وعزها من الأمور المباحة ، وهذه هى الأحوال المرضية الصافية ، وأما الأحوال التى تخالف الشريعة ، وهى الأحوال الظلمانية ، فلا يتنور صاحبها ، بل لا تزيده إلا ظلمة ، فكما لا يصح دفن الزرع فى الأرض الرديئة ، كذلك لا يجوز الحلول بحالة غير مرضية ، فالأحوال الصافية هى التى لا ضرر فيها لأحد ، ولا تخالف أمر الشريعة .

وأما قصة لص الحمام ، فهى حال غالبة عليه ، لا يقاس عليها

وأما حفظ الحرمة فتصدق بحرمة الشيخ حاضراً ، أو غائباً ، حيا أو ميتاً ، فلا يجلس فى موضع يذكر فيه بسوء أو ينتقص منه ، ويصدق بحرمة الإخوان ، فيتحمل أذاهم ، ويصبر على جفاهم ، ويعظم كبيرهم ، ويرحم صغيرهم ، فمن كسره الإخوان لا يجبره الشيخ ، ومن كسره الشيخ قد يجبره الإخوان ، ويصدق بحرمة جميع المسلمين ، وخصوصا العلماء والصالحين ، فلحومهم سموم .

وقد قالوا : أركان التصوف مجموعة فى أربعة أشياء ، وهى : كف الأذى ، وحمل الجفا ، وشهود الصفا ، ورمى الدنيا بالقفا .

وأما حسن الخدمة ، فتصدق أيضاً بخدمة الشيخ ، وخدمة الإخوان ، وفى الحديث « سيد القوم خادمهم »(١) وتصدق بخدمة الحق ، وهى المقصود الأعظم .

وأما رفع الهمة فهو : أن لايكون قصده طلب الدنيا والآخرة ، بل يكون قصده معرفة مولاه ، كما تقدم فى القصد الصحيح ، وربما يغنى عنه

وأما نفوذ العزيمة فمعناه : أن تكون عزيمته دوام السير إلى تحقيق الوصول إلى معرفة مولاه ، لا قصد التبرك والحرمة ، وإذا عزم على شىء أنفذه

وأما خلع العـــذار ، فهو خلع الأوصاف المذمومة وإبدالها بالأوصاف المحمودة ، وقيل : هو خلع لباس العز والاشتهار ، وإبداله بلباس الذل والانكسار .

وقيل : هو خلع الرجل من نعل الكونين ، فيرجع إلى رفع الهمة

والعذار فى اللغة هو : ما يزين به وجه الفرس ، فى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :

---

(١) رواه أبو عبد الرحمن السلمى فى « آداب الصحبة » عن عقبة بن عامر مرفوعاً ، والخطيب ، وأبو نعيم فى الحلية فى ترجمة إبراهيم بن أدهم ، والديلمى فى مسنده ، وعده ابن دريد فى المجتبى أنه من الأقوال التى تفرد بها النبى صلى الله عليه وسلم .

« الفقر أزين بالعبد من العذار الجيد على خد الفرس » ذكره التجيبي(١) .

وأما الذل والانكسار فهو الخضوع لله ، ولا يتحقق إلا بالخضوع لعباد الله ، فلا يتحقق ذل الفقير حتى يظهر بين أبناء جنسه

والحاصل : أنه لابد من الذل : قلباً وقالباً ، كما قال ابن الفارض :

تذلل لمن تهوى فليس الهوى سهل إذا رضي المحبوب : صح لك الوصل

وقال آخر :

وما رمت الدخول عليه حتى حللت محلة العبـــد الذليل

وأغضيت الجفون على قذاها وصنت النفس عن قال وقيل

وأما البذل والإيثار فرجعه إلى سخاوة النفس ، وهو شرط فى الفقير ، فقد قالوا : « من أقبح القبيح ، صوفى شحيح » وعلامة خروج الدنيا من القلب : بذلها عند الوجد ، والصبر عنها عند الفقد

والزهد عند المحققين : إذا وجدوا آثروا ، وإذا فقدوا شكروا

وأما صحبة العارفين فهى من الأمور المؤكدة ، وذكرها مع الشروط أليق ، « فالمرء على دين خليله(٢) ، وفى الحكم : لا تصحب من لاينهضك حاله ، ولا يدلك على الله مقاله ، وليست طريق السلوك بطريق العزلة ، بل هى طريق الصحبة والاجتماع والاستماع والاتباع ، « فالجمع رحمة والفرقة عذاب »(٣) وفى الحديث:

---

(١) ورواه الطبرانى عن شداد بن أوس ، وابن عدى فى الكامل ، ومحمد بن عدى ، فى « شرف الفقر » . بلفظ « الفقر أزين بالمؤمن » بدل « بالعبد » .

(٢) هذا لفظ حديث شريف بقيته : «... فلينظر أحدكم من يخالل » رواه أبو داود ، والترمذي وحسنه ، والطيالسى ، والبيهقى ، والقضاعى ، والعسكرى .

(٣) « الجماعة رحمة ، والفرقة عذاب » هذا لفظ حديث شريف ، رواه عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند ، ولفظه : « من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، والتحدث بنعمة الله شكر ، وتركها كفر ، والجماعة رحمة والفرقة عذاب » .

« يد الله مع الجماعة(١) »

أى الدالين على الله ـ أوما يقرب إلى الله

وأما بذل المجهود فى تعمير الأوقات فى الطاعات والأذكار ، فهذا هو المقصود من الطريق ، والأهم عند أهل التحقيق ، فكل ساعة تأتى على الفقير لا يذكر الله فيها كانت عليه حسرة فى الدنيا والآخرة ، فأوقات الفقير دائرة بين ذكر ، أو مذاكرة ، أو فكرة : أو نظرة .

أو تقول: الفقير ليس له فكرة ولا هدرة(٢) إلا فى الحضرة ، أو ما يوصل للحضرة ، وما سوى هذا بطالة وفترة ، وبالله التوفيق . وقوله : « سألت ماعز » ، أى غلب وامتنع تحريره ، أى فتحه واستخراج المقصود منه ، وإنما امتنع تحريره لما دخله من التخليط الذى ألحقه به أهل التوسم فى هذه الأزمنة ، مع خفاء مراده ومداركه ، لأن هذا العلم ليس هو لقلقة اللسان . وإنما هو أذواق ووجدان ، فمن سأل تحريره بعبارة اللسان فقد سأل عن شيء عزيز الإتيان ، ممنوع البيان ، وسيأتى الكلام عليه عند قوله « إياك أن تطمع أن تحوزه من دفتر أو شعر أو أرجوزة ، ثم بين وجه عزته ، فقال :

إن الذى سألت عنه مات ‏ ‏ ‏ ‏ وصار بعد أعظما رفات

فطمست أعلامه تحقيقاً ‏ ‏ ‏ ‏ فلم تجد بعد لها طريقاً

يعنى أن الطريق الذى سأل عنه السائل مات بموت أهله ، واندرس خبره ، وصار كأنه شخص مات ورمم ، وصار عظاماً رفاتا ، وفى الحديث :

«إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رءوساً جهالا فسئلوا ، فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا(٣)».

---

(١) ورد هذا الحديث بألفاظ كثيرة منها مارواه الترمذى : يد الله على الجماعة ، اتبعوا السواد الأعظم ، فإنه من شذ شذ فى النار ، ومنها مافى الطبرانى : « يد الله على الجماعة، فإذا للشاذ منهم اختطفته الشياطين ، وهذا الحديث الذى ذكره الشيخ رواه الطبرانى أيضاً مرفوعا، وتمامه « ... فإن الشيطان مع من فارق الجماعة يركض » .

(٢) الهدرة : الصوت ، تقول : هدر الحمام : صوت .

(٣) رواه البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، ورواه ابن عبد البر فى « جامع بيان العلم وفضله » .

ولا فرق بين العلم الظاهر والباطن فى كونه يذهب بذهاب أهله

وقوله «فطمست أعلامه» أى مايدل عليه ويوصل إلى تحصيله . فأعلام الشيء مادل على وجوده ، ومنه سمى الكون عالما ، لدلالته على صانعه ، فكأن علم التصوف قد طمست طرقه الموصلة إلى تحقيقه ، فلم تبق له طريق توصل إليه ، وهذا معنى قوله « فلم تجد بعد » أى بعد طمس أعلامه « لها » أى لتلك الأعلام والآثار التى توصل إليه « طريقا » لتسلكها حتى تبلغك إلى تحقيق ما سألت عنه .

ومضمن كلامه : ان الصوفية المحققين السالكين على منهاج المتقدمين قد قلوا جداً ، حتى كأن علومهم ماتت وبليت ، وصارت رمما ، وطرقهم قد طمست ، وأذواقهم قد اندرست، ولم يبق على منهاجهم إلا القليل ، ومثل ماقاله الناظم قاله من قبله، فى كل عصر يقول أهله : قد ذهب التصوف، وذهب أهله ، لما يرون ما انكب عليه الجاهلون وما استجلبه المدعون.

قال الجنيد رضى الله عنه : علمنا هذا الذى نتكلم فيه قد طوى بساطه منذ عشرين سنة ، وإنما نتكلم فى حواشيه .

وكان أيضاً يقول : قد كنت أجالس قوماً سنين يتحاورون فى علوم لا أفهمها ولا أدرى ماهى ، وما بليت بالإنكار قط ، كنت أتقبلها وأحبها من غير أن أعرفها .

وكان أيضاً يقول : كنا نتجارى مع إخواننا قديما فى علوم كثيرة ما نعرفها فى وقتنا هذا ، ولا سألنى عنها أحد ، وهذا باب كأنه أغلق وردم اه

وقال فى « قوت القلوب » : قال بعض علمائنا : أنا أعرف المتقدمين سبعين علما كانوا يتحاورونها ويتعارفونها فى هذا العلم ، لم يبق منها اليوم علم واحد ، قال : وأعرف فى زماننا هذا علوماً كثيرة من : الأباطيل ، والغرور ، والدعاوى ، قد ظهرت وسميت علوماً ، ثم قال : وكان إمامنا سهل يقول : بعد سنة ثلاثمائة لا يحل أن يتكلم بعلمنا هذا . يعنى لقلة أهله ، لأنه يحدث قوم يستمعون الخلف ويتزينون بالكلام ، تكون مواجيدهم ، لباسهم ، ومعبودهم بطونهم ، وحليتهم كلامهم .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه فى صدر رسالته : « اعلموا رحمكم الله أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم . ولم يبق فى زماننا من هذه الطائفة إلا أثرهم ،

وفى معناه قيــــل :

لا والذى حجت قريش بيته   مستقبلين الركن من بطحائها
ما أبصرت عينى خيـام قبيلة   إلا بكيت أحبتى بفنائها
أما الخيـام فإنها كخيامهم   وترى نساء الحى غير نسائها

قال ابن العربى الحاتمى رضى الله عنه : « قال هذا فى زمانه حيث أدرك من تزيا بزى القوم وخالفهم فى باطنه ، وأما اليوم فلا خيام ولا نساء ، ثم قال الأستاذ رحمه الله : حصلت الفترة فى الطريقة ؟ لا ، بل قد اندرست الطريقة بالحقيقة ، مضت الشيوخ الذين كان لهم اهتداء ، وظل الشباب الذين لا لهم بسمتهم وسيرتهم اقتداء ، زال الورع وطوى بساطه ، وقوى الطمع واشتد رباطه ، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة . فعدوا قلة المبالاة أوثق ذريعة ، رفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، ودانوا بترك الاحترام ، وطرح الاحتشام ، واستخفوا بأداء العبادة ، واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا فى ميادين الغفلات ، وركنوا إلى اتباع الشهوات ، وقلة المبالاة » ، إلى آخر كلامه .

وكذلك قال أبو مدين فى رائيته رضى الله عنه :

واعلم بأن طريق القوم دارسة   وحال من يدعيها اليوم كيف ترى؟![1]

وكذلك قال شيخ شيوخنا سيدى على الجمل رضى الله عنه : من تونس إلى وادنون ، لا تجد من يتكلم فى هذا العلم : إلا رجلا أو رجلين ، كناية عن قلة وجود المحققين ، ولا يدل هذا على انقطاعهم ، ففى كل زمان رجال يرحم الله بهم عباده . فالعدد المعلوم لا ينقطع حتى ينقطع الدين .

قال فى لطائف المنن : « سئل بعض العارفين عن أولياء العدد : أينقصون فى زمن ؟ » فقال : لو نقص منهم واحد ما أرسلت السماء قطرها ، ولا أبرزت الأرض نباتها

وفساد الوقت : لا يكون بذهاب أعدادهم ، ولا بنقص أمدادهم ، ولكن إذا فسد الوقت كان مراد الله وقوع اختفائهم مع وجود بقائهم ، فإذا كان أهل الزمان معرضين عن الله عز وجل ، مؤثرين لما سوى الله ، لا تنجع « أى لا تنجح » فيهم الموعظة ، ولا تميلهم إلى الله التذكرة ، لم يكونوا أهلا لظهور أولياء الله فيهم .

---

(١) فكيف ، لو رأى أدعياء التصوف اليوم ... لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ؟

ولذلك قالوا: أولياء الله عرائس، ولا يرى العرائس المجرمون، ثم قال: وقد قال صلى الله عليه وسلم:

«إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذى رأى برأيه: فعليك بخويصة نفسك»(١):

فسمعوا وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فآثروا الخفاء، بل آثره الله لهم، مع أنه لابد أن يكون منهم فى الوقت أئمة ظاهرون قائمون بالحجة، سالكون المحجة؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، لا يضرهم من ناوأهم إلى قيام الساعة»(٢).

وقد قال على كرم الله وجهه فى مخاطبته لكميل بن زياد: «اللهم لا تخل الأرض من قائم لك بحجتك، أولئك الأقلون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً، قلوبهم معلقة بالمحل الأعلى؛ أولئك خلفاء الله فى عباده وبلاده. آه. آه. واشوقاه إلى رؤيتهم» اه

وروى الإمام الربانى محمد بن على الترمذى، يرفعه إلى ابن عمر رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«أمتى كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره»(٣)

---

(١) عن أبى أمية الشعبانى قال: سألت أبا ثعلبة الخشنى قال: قلت: يا أبا ثعلبة كيف تقول فى هذه الآية ـ عليكم أنفسكم ـ قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:

«ائتمروا بالمعروف، وانتهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بنفسك؛ ودع عنك أمر العوام؛ فإن من ورائكم أيام الصبر: الصبر فيهن مثل القبض على الجمر؛ للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله» رواه ابن ماجه، والترمذى وحسنه، وأبو داود، وزاد فيه: «قيل: يا رسول الله أجر خمسين رجلا منا أو منهم؟! قال: بل أجر خمسين منكم».

(٢) رواه مسلم، والترمذى، وابن ماجه، وأحمد، والبيهقى، وابن حبان، وأبو داود، والحاكم بألفاظ مختلفة، والمعنى واحد.

(٣) ورواه أيضا الإمام أحمد، والترمذى عن أنس بلفظ: «أمتى أمة مباركة، لا يدرى أولها خير أو آخرها» ورواه ابن عساكر.

وروى أيضاً يرفعه إلى أبي الدرداء ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير أمتي أولها وآخرها ، وفي وسطها الكدر(١) اهـ

قلت : وقد ظهرت هذه الطائفة ، أعني الصوفية المحققين ، في زماننا هذا وانتشرت معي والحمد لله انتشاراً كثيراً منذ قدم شيخ شيخنا مع شيخه إلى « بني زروال » ففاض بحرهما ، ثم انتشر في البلاد ، فلا تجد مدينة ولا قبيلة إلا وفيها عارفون وأولياء محققون ، إلا قليلا ممن بعد منهم ، فقد جددا الطريقة بعد دروسها وأشرقت على يديهما شموس الحقيقة بعد خمودها ، وكثر اللهج بذكر الله ، وانقلب كل العباد إلى الله ، فجزاهما الله عن المسلمين خيراً ، فقد صدق الله بهذه الطائفة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « خير أمتي أولها وآخرها »

وفي حديث آخر : « مثل أمتي مثل حديقة قد قام عليها صاحبها ، فاجتاب راكبها وهيأ مسالكها ، وحلق سعفها ، فأطعمته عاماً فوجاً ، ثم عاماً فوجاً ، فلعل آخرها طعماً يكون أجودها قنوانا ، وأطولها شمراخاً ، والذي بعثني بالحق ليجدن ابن مريم من أمتي ، خلفا من حوارييه ».

قلت : قال شيخ شيوخنا المجذوب : على ماتنا تقوم الساعة ، وذكر سيدي علي : في كتابه أن رجلا سأل سيدي العربي بن عبد الله فقال له : يا سيدي طريقكم هذه لا نعرفها ، فأي طريق هي؟ ! فقال له : يا ولدي طريقنا هذه هي التي كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه : الزهد في الدنيا ، والانقطاع إلى الله ، وعليها تقوم الساعة اهـ

فتحقق أنها هي التي يجد عيسى بن مريم منها خلفا من حوارييه ، والله أعلم .

ثم بين الشيخ ما بقي من طريق القوم بعد اندراسها فقال :

إلا رسوما ربما لم تعف	وذاك ما نتبعه ونقف
وهبك أن تظفر بالأوطان	ما السر والمعنى سوى القطان

---

(١) رواه الحكيم عن أبي الدرداء .

قلت : الرسوم والحدود هي أمارات وعلامات تدل على حقائق الأشياء ومعانيها ، وعفا المكان: اندرس وتعطل، وعفا الشيء: ذهب ، وقد يطلق على الزيادة والكثرة، كقوله تعالى « حَتَّىٰ عَفَوْا »(١) ومعنى «نقف» : تتبع وهب ، هنا بمعنى: اجعل وقدر، فهي للتعبير، والأوطان: محل السكنى، والقطان، بضم القاف جمع قاطن ، بمعنى ساكن ، والمعنى : إن علم التصوف ومعانيه وأذواقه قد ذهب بذهاب أهله ، واندرس وخفي ، وما بقي إلا رسوم وعلامات فى كتبهم تدل على سيرهم وأخلاقهم ، فربما لم تعف ولم تذهب ، وهذه الرسوم التي لم تعف هي ما كانوا عليه من المجاهدة والمكابدة والمشاهدة ، وما اتصفوا به من محاسن الأخلاق ومكارم الشيم ، وما شاهدوه من الكرامات والخوارق ، وما نطقوا به من جواهر الحكم ، وما استخرجته أفكارهم من يواقيت العلوم ومخازن الفهوم ، فهذه الأمور قد دونت فى الكتب ، فلما ماتوا بقيت فى أيدي الناس ، فهي التي يتبعها الناس ويسلكون على طريقها ، وليس السر فى مشاهدة سيرهم ومحاسنهم ، ولا فى سماع كلامهم وعلومهم ، وإنما السر ما كان فى بواطنهم ، وما اشتملت عليه قلوبهم وأسرارهم ، فلا يؤخذ إلا منهم فى حال حياتهم ، فلو كان التصوف يؤخذ من الكتب لاختص به أرباب الأموال والعلماء أهل الظاهر ، ولكن التصوف إنما هو أذواق، لا يؤخذ إلا من أهل الأذواق . وهبك ، أي صير نفسك وقدرها أنها ظفرت بالأوطان ؛ وهي محاسنهم ومآثرهم التي كانوا عليها وسكنوا فيها ، ثم رحلوا عنها وتركوها: ما السر والمعنى إلا فى صحبتهم والأخذ عنهم واقتباس النور الذى كان فى باطنهم ، وقد ذهب ذلك بذهابهم ، إلا من أسعده الله بلقاء من أخذ ذلك منهم فى حياتهم ، وهذا قد ظفر بالأوطان والسكان . ولا تخلو الأرض من هذا النوع كما تقدم. بخلاف من طمع أن يأخذ ذلك من كتبهم ، فإنه ظفر بالأوطان وفاته صحبة السكان. وما زالت العامة تقول : « السر فى السكان » ، أي دون المسكن ؛ وقال الشاعر :

أمر على الديار ديار ليلى ... أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ... ولكن حب من سكن الديارا

وقال آخر :

فما المنازل لولا أن تحل بها ؟ ! ... وما الديار؟ وما الأطلال والخيم؟!
لولاك ما شاقني ربع ولا طلل ... ولا سعت بي إلى نحو الحمى قدم

---

(١) سورة الأعراف الآية : ٩٥.

وقال آخر : وإنما يتنافس بالأوطان من لا عشق عنـــده فى السكان ، أو لم يظفر بصحبة القطان .

فلا يتأنس بكتب القوم ويقنع بذلك إلا من لم يذق شيئاً من أذواقهم ، ولا نهض للالتحاق بهم ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر استصعاب ما سئل عنه من سنن الفقير لغرابتها فى زمنه ، فقال :

وهـــذه مسئلة معتاصه   لم يجد الحبر لهـا خلاصه
لأنهـا مسئلة غريبـــه   حقيقة الجواب عنها ريبه
وقلّ ما تلق لهـا مساعدا   بل منكراً أو ناقداً أو جاحدا

قلت : الاعتياص من العصيان . واعتاص الشىء : إذا عصى ولم ينقد ، والحبر بكسر الحاء وفتحها هو : العالم النحرير ، وخلاصة الشىء تخليصه وتحريره ، والريبة والريب هو : الشك ، يعنى أن هذه المسئلة وهى طريق الصوفية الذوقية مسئلة معتاصة . أى عويصة التحرير يصعب تخليصها على العالم النحرير ، لأنه إن عبر عنها بعبارة اللسان فاته الذوق والوجدان وإن أشار إليها بالتلويح لا يفهمها أهل التصريح ، فصعب أمرها على كل حال ، إلا على من أسعده الله بصحبة الرجال أهل الهمة والتربية والحال ، فيعبرون عنها بالمقال ، ثم ينهضون إليها بالذوق والحال . وأما من لم يصحب الرجال ، فلا يطمع أن ينالها بالمقال ؛ لأنها مسئلة غريبة وأهلها غرباء ، فـــلا يأوى الغريب إلا إلى الغريب ولا يفهم حال الغريب إلا مثله . وإذا كانت مسئلة غريبة فتحقق الجواب عنها ريبة ، أى فيه شك وريبة لمن عبر عنها من غير ذوق ولا وجدان ، وأيضاً حقيقتها بعيدة عن مدارك العقـــول القياسية والنقول العلمية .

ولله در ابن الفارض حيث يقول :

ولا تك ممن طيشته طروسه   بحيث استقلت عقله واستقرت
فثم وراء النقل علم يدق عن   مدارك غايات العقول السليمة
تلقيته منى ؛ وعنى أخذته   ونفسى كانت من عطائى ممدتى

وفى الحديث عنــه صلى الله عليــه وسلم : « إن من العلم كهيئة المكنون ، لا يعلمه إلا

العلماء بالله ، فإذا نطقوا به ، لا ينكره إلا أهل الغرة بالله »(١) . قال بعضهم هى أسرار الله يبديها إلى أمناء أوليائه وسادات النبلاء من غير سماع ولا دراسة ، وهى من الأسرار التى لم يطلع عليها إلا الخواص . فإذا سمعها العوام أنكروها . ومن جهل شيئاً عاداه ، ومن يكن ذا فم مريض يجد مرارة الماء الزلال .

ويرحم الله البوصيرى حيث يقول :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

وقال مشايخ الطريقة : المنكر كالعنين : ينكر شهوة الجماع ، والمزكوم : ينكر رائحة المسك الأذفر ، والمحموم : ينكر حلاوة السكر .

وفى مثلهم قال الشاعر :

وكم عائب ليلى ولم يروجهها ... فقال له الحرمان : حسبك ما فاتا

وأيضا هذه المسئلة إذا نظرت إليها من حيث العلم والتحقيق احتاجت إلى وجوب البحث والتدقيق ، وإذا نظرت إليها من حيث الحال ، وجدتها مبنية على التسليم والتصديق، فإن أخذت بالأول ظهر لك من وجوه الإنكار ما لا خفاء فيه ، مع ابتنائه على أصل لا تعرفه ، وإن نظرت إلى الآخر ظهر لك من موجبات التسليم ما يقتضى لك عدم الكلام بالكلية ، فلا وجه لاستخلاص الخلاصة إلا بمعرفة مبدأ الأمور ومنتهاها ، وقد ذكر منه جملة فيما يأتى .

وأما كونها مسئلة غريبة فإنها غير مألوفة للنفوس ولامتداولة بين الناس ، ولا معروفة الحقيقة فى الجملة ، فلذلك اعتقدها المعتقد من غير معرفة أصل ، وأقبل المنتسب إليها على أى وجه كان ، وانتقدها المنتقد وشانها(٢) ولم يعرف ماانتقد وشان ، فادعاها من ليس من أهلها.

---

(١) ونص الحديث الذى بأيدينا : «إن من العلم كهيئة المكنون ، لايعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى ، فإذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الاغترار بالله تعالى ، فلا تحقروا عالماً آتاه الله تعالى علماً منه . فإن الله عز وجل لم يحقره إذ آتاه إياه » رواه أبو عبدالرحمن السلمى فى « الاربعين فى التصوف » عن أبى هريرة .

(٢) من الشين .

وأدخل عليها ما ليس من شأنها : كل ذلك بسبب الجهل بها والحرص على الانتساب إليها ، وعظمت في النفوس لما تقرر من جـــلالتها ، والله تعالى أعلم . (قاله الشيخ زروق رضى الله عنه) .

وإنما كان الجواب عنها ريبة لأن المقام قد يعبر عنه المستشرف عليه والواصل إليه ، ولا يفرق بينهما إلا ذو بصيرة . فهذه المسألة قد يعبر عنها من وصل إليها وذاقها ، وقد يعبر عنها من استشرف عليها بالعلم ، فلا يخلو الجواب من ريبة ، هل صدر من صاحب ذوق وصاحب حال ؟ لكن كلام العارف لا يخفى على أهل الفن أبداً ، ولا تخلو الأرض من قائم لله بحجته

فما قاله الناظم ليس على عمومه ، فقد يتحقق الجواب عنها من العارفين ، ولا ريبة فيه ، ولا شبهة ، والله تعالى أعلم

ولما كان من كتم العلم مذموماً وبلجام من النار ملجوماً(١) خاف الشيخ أن ينخرط في سلك من كتم علماً ، فأجاب السائل بما هو في ذوقه حاصل ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، ولذلك قال :

وإذ تهديت إلى الصواب ولم يكن بد من الجواب
فهو على الجملة والتفصيل منحصر في خمسة فصول

قلت : تهديت إلى كذا واهتديت إليه واحد ، ومعناه : سلكت الطريق إلى الوصول إليه،ومنه قوله تعالى:« أمَّنْ لاَ يَهْـدِي »(٢) على قراءة ورش،«والصواب»: الحق البين. والبد : الفرار والهروب ، ويقال : لابد أن تفعل : أى لا فرار لك ولا هروب من الفعل ، أو لا محالة منه (قاله في القاموس) بمعناه ، و « الجملة »: ما كان مجموعاً ، و « التفصيل »: ما كان مفرقاً ، و « الفصول » : جمع فصل . وهو القطعة من الكلام ، وهو في كلام الناظم بدل من خمسة بالتنوين ، لا مضاف ، لإخلاله بالوزن

---

(١) لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من كتم علماً عن أهله ألجم يوم القيامة لجاما من نار » رواه ابن عدى عن ابن مسعود .

(٢) سورة يونس : ٣٥

يقول رحمه الله : وأنت أيها السائل حين اهتديت إلى الصواب بتوجهك إلى طلب الوصول إلى رب الأرباب فسألت عن تبيين الطريق والوصول إلى عين التحقيق ، لزمني أن أجيبك ، ولم يكن لي بد ولا مهرب من الجواب ، لأن الله تعالى أخذ على العلماء أن لا يكتموا العلم ، فقال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا »(١) - الآية ، وقال تعالى : « لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ »(٢) ولقوله عليه الصلاة والسلام :

« من سئل عن علم نافع فكتمه ألجمه الله بلجام من النار(٣) ، وهذا لمن كتمه مع توفر الشروط ، وهو استحقاق ذلك وأهليته ، فإن لم تتوفر الشروط فلا يجب إظهاره ، لاسيما علم السر ، وقد اختلف المشايخ : هل لا يبذل علمهم إلا لأهله ، وهو مذهب أبي الحسن النوري ، أو يبذل لأهله ولغير أهله ، والعلم أحمى جانباً من أن يصل إلى غير أهله ، وهذا مذهب إمام الطائفة أبي القاسم الجنيد رضي الله عنه ، إذ قيل له : كم تنادي على الله بين يدي العامة ؟ فقال له : لكنني أنادي على العامة بين يدي الله تعالى اهـ

قلت : وفي كلامه رضي الله عنه إلغاز وتستر ، ومعناه : لكنني أنادي على عامة من حضرني من مظاهر الحق بين يدي الله .

قلت : وممن سلك مذهب الجنيد : شيخ أشياخنا سيدي علي العمراني رضي الله عنه ، حتى كان يسمى في زمانه : المبذر. ولذلك تجد أهل فاس - كثيراً منهم - يخوض في علم الحقيقة من غير عمل ولا ذوق ، وأخذ الجمهور بمذهب أبي الحسن النوري ، فكانوا لا يتكلمون في الحقيقة وعلم السر إلا مع أهله ، في موضع خال ، وربما سدوا الأبواب : غيرة منهم على سر الربوبية أن يبتذل وينادي عليه بلسان الاشتهار ، وفي الحكم « عبارتهم إما لفيضان وجد أو قصد هداية مريد ، فالأول معذور لغلبة وجده ، والثاني مأمور لهدايته من هو أهله ، والله تعالى أعلم

---

(١) سورة البقرة . الآية : ١٥٩

(٢) سورة آل عمران . الآية : ١٨٧

(٣) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة بلفظ « من كتم علماً نافعاً » إلى آخره ، وروى الإمام أحمد والحاكم عن أبي هريرة : « من سئل عن علم نافع فكتمه ألجم بلجام من النار يوم القيامة » .

ثم ذكر برنامج الكتاب ، وأنه محصور فى خمسة فصول ، فبينها بقوله :

أولها فى أصله ، والثانى ... فى فضله على مدى الأزمان
وثالث الفصول فى أحكامه ... وحين يستوى على أقدامه
والرابع الرد على من رده ... وليس يدرى شأنه وقصده
وخامس يعلم كيف صيرا ... حتى غدا بين الأنام منكرا

قلت : أصل الشىء : قاعدته وأساسه التى يبنى عليها ، ومدى الشىء : غايته ونهايته .

يقول رحمه الله : قد ذكرت فى هذا الكتاب من مبادىء علم التصوف أربعة أمور ، وهى موضوعه ، وواضعه ، وفضيلته ، وفائدته

أما الموضوع والواضع فيؤخذان من ذكر أصله

وأما فضيلته وثمرته فتؤخذ من ذكر فضله ، فإن فضيلة الشىء لا تكمل إلا بحصول ثمرته،وبقى من المبادىء ستة بجموعها عشرة ، وهى جارية فى كل فن من فنون العلم ، فالحذاق من أهل العلم يقدمون ذكرها قبل الشروع فى ذلك الفن ، وقد نظمها بعضهم ، فقال :

الحد والموضوع ، ثم الواضع ... والاسم الاستمداد حكم الشارع
تصور المسائل ، الفضيله ... ونسبة ، فائدة جليله
حق على طالب علم أن يحيط ... بفهم ذى العشرة ، ميزها ينيط
يعلمها قبل الشروع فى الطلب ... لكى يكون مبصراً بما طلب

وقد ذكرتها بتمامها فى أول شرحنا على الحكم فلينظره من أرادها ، والمراد بالأحكام ما يلزم المريد من الآداب فى معاملته وتصرفاته ، وقد حصرها فى تسعة على ما يأتى إن شاء الله .

وقوله : « وحين يستوى على أقدامه » معناه : أنه ذكر فى ذلك الفصل أحكام التصوف ، وآدابه من أوله إلى نهايته ، فإذا عرف ذلك فقصد علم التصوف ، « ونهض على أقدامه » كناية عن معرفته .

وقوله : « وخامس إلى آخره » يعنى أنه ذكر فى الفصل الخامس : كيف تغير التصوف حتى صار منكراً بين الناس بعد أن كان معروفاً مشهوراً .

وباقى الكلام واضح ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر تسمية الكتاب ، لأنها من مقدماته ، ومن الأمور المهمة ، فقال :

وبعد ما فصلته فصولا ... وعاد بتّ حبلها موصولا
سميتها المباحث الأصلية ... عن جملة الطريقة الصوفية

قلت : « والبت » بالمثناة : القطع وفى الحديث « المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى(١) أى المنقطع ، وهو هنا استعارة لتفرق المسائل قبل جمعها فى هذا الكتاب ، ويؤخذ منه أن تسمية الكتاب مؤخرة عن كمال التأليف ، أو يكون جمعها فى ذهنه وعزم على تأليفها ، « والمباحث » جمع مبحث ، وهو : ما يبحث عنه او فيه ، فهو اسم مكان ، لأن كاتبه جعله علا للبحث والتفتيش عن أحوال الصوفية وسيرهم .

يقول رحمه الله : وبعد ما فصلت هذا الكتاب فصولا خمسة ، وصار حبل تلك الفصول بعد قطعه موصولا ، بحيث نظمت جواهره فى سلك عقده ، فصارت جواهر فصوله ، ويواقيت تراجمه موصولة فى سلك واحد ، سميته حينئذ « المباحث الأصلية » لأنها تبحث عن أصول الطريقة وتحقق مبناها ، وهــــذه الطريقة هى : طريقة الصوفية ، وهى : الموضوعة لكيفية تهذيب القلوب وتصفيتها من الرذائل وتحليتها بالفضائل ، لتتهيأ بذلك لمعرفة الحق تعالى المعرفة الحقيقية ، التى هى معرفة العيان بطريق الذوق والوجدان .

واختلف فى اشتقاق التصوف على أقوال كثيرة أحسنها : أنه من الصفا ، لأن مداره على التصفية ، وإليه أشار بعضهم بقوله :

تخالف الناس فى الصوفى واختلفوا　　وكلهم قال قولا غير معروف
ولست أمنح هــذا الإسم غــير فتى　　صــافى فصوفى ، حتى سمى الصوفى

قال أبو حمزة البغدادى : علامة الصوفى الصادق أن يفتقر بعد الغنى ، ويذل بعد العز ، ويخفى بعد الشهرة ، وعلامة الصوفى الكذاب : أن يستغنى بعد الفقر ، ويعز بعد الذل ، ويشتهر بعد الخفاء .

وقال بعضهم: لابد للصوفى أن يتحقق بمعانى حروفه ، فالصاد صفاؤه ، والواو وفاؤه ، والفاء فناؤه ، والياء يقينه ، وكذلك الفقير يتحقق بمعانى حروفه ، فالفاء فناؤه ، والقاف قربه ، والياء يقينه ، والراء رحمته ورأفته ، وبالله التوفيق .

ثم دعا لمن قرأ كتابه أو طالعه ، أو شرحه ، أو اعتقد كله ، فقال :

فحى يا رب امرءًا حياها　　وزكه يوماً متى زكاها

---

(١) بهذا اللفظ رواه البزار ،والحاكم،والبيهقى فى السنن ، وفى لفظ : « إن هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » وله ألفاظ أخرى ، انظر المقاصد الحسنة للسخاوى .

قلت «التحية» في الأصل دعاء بطول الحياة ، كانت العرب إذا لقوا كبيراً قالوا : أطال الله حياتك وأبقاك الله ، أو أطال عمرك ، ثم انتقل إلى السلام ، وهو تحية أهل الإسلام ، وهو أيضا تحية أهل الجنة ، والتزكية : التطهير ، أو التنمية والترفيع

يقول رحمه الله : «اللهم حي» أي سلم امرءاً حيا كتابنا بالقبول والتعظيم والترفيع ، وطهره من دنس الذنوب ودرن العيوب وغبش الحس وغين الاغيار وظلمة الاكوان ، يتجدد ذلك التطهير متى مازكى كتابنا بقوله أو العمل بما فيه أو الثناء عليه ، أو البحث عن معانيه

وقد كان الشيخ التباع يربي أصحابه بهذا الكتاب

وكان الغزواني يربي أصحابه بالشريشية ، يعني «الرائية» .

ولكن المباحث أفيد لأهل القلوب ، والله تعالى أعلم

ثم شرع في المقصود فقال رحمه الله :

الفصل الأول فى أصله

قلت : ذكر أصله من جهتين : من جهة الذوق والوجدان ، ومن جهة دليل الشرع والبرهان ، حتى لا يجد المنكر له مقالا ، ولا الطاعن فيه مساغا ، وقدم الأول فقال :

واعلم بأن هـــذه الطريقه   بحث عن التحقيق للحقيقه

قلت : «البحث» هو : التفتيش، يقال : بحث عن كذا : فحص عنه ، وبحث فى الأرض أخرج ترابها ، والتحقيق : إدراك الشيء من أصله ، والحقيقة : ذات الشيء وأصله ، وحقيقة الإنسان : ماهيته ومادته

وأما فى اصطلاح الصوفية فهى : كشف رداء الصون عن مظهر الكون ، فيفنى من لم يكن، ويبقى من لم يزل ، وهى عندهم نتيجة التصفية التى هى الطريقة ، والطريقة : نتيجة الشريعة ، فالشريعة هى : إصلاح الجوارح الظاهرة ، وهى تدفع إلى الطريقة التى هى إصلاح السرائر الباطنة ، وهى أيضا تدفع إلى الحقيقة التى هى كشف الحجاب ومشاهدة الأحباب من داخل الحجاب ، فالشريعة أن تعبده ، والطريقة أن تقصده ، والحقيقة أن تشهده

يقول رضى الله عنــه : واعلم بأن هـــذه الطريقة التى سألت عنها : وهى : طريقــة الصوفية هى بحث وتفتيش عن تحقيق الحقيقة وإدراكها : ذوقا وحالا ، واللام فى «الحقيقة» لام التعدية ، كقوله هـذا تحقيق لهذا ، أى تحقيقه فى الحقيقة ، وها أنا أقـدم لك مقدمة يسهل بها فهم ما يذكره الناظم فى هـذا الأصـل ، فنقول وبالله التوفيق ، ومن الله الإمداد والتسـديد :

اعلم أن الحق جل جلاله واحد فى ملكه ، لا شريك معه ولا ضد له ولا ندله ، كان ولا شيء معه ، وهو الآن على ما كان عليه ، كان فى أزل أزليته لطيفاً خفيا ، حكيما قـديراً لطيفا لا يدرك ، خفياً لا يعرف ، قائما بذاته ، متصفا بمعانى أسمائه وصفاته ، فأراد سبحانه أن يعرف بذاته ، وأن يظهر أثر أسمائه وصفاته ، فأظهر قبضة من نوره اللطيف ، فتكثفت بقدرته ليتهيأ بها التعريف ، ثم تنوعت على عدد أسمائه وصفاته ، فلما ظهرت تلك القبضة النورية تجلى فيها باسمه الباطن ، فبطنت فى ظهورها ، وكنت فى مظاهرها ، فالأشياء كلها مظاهر الحق ، لكن لابد للحسناء من نقاب ، وللشمس من سحاب ، فنسجت تلك الخزة

اللطيفة الأزلية بقدرتها رداء، وأكتست بحكمتها إزاراً، فقالت: «العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما قصمته»[1] ثم اختلفت تلك الحكمة في نسجها وغزلها، فمنها ما رق غزله ولطف نسجه، فكان فيه النور قريباً من الظهور، ومنها ما غلظ غزله وكثف نسجه، فخفي النور لأجل غلظ الستور، ثم إن الذي رق غزله ولطف نسجه منه ما هو نور محض، وهم الملائكة، ومنه ما هو نور وظلمة، وغلب عليه النور، وهم بنو آدم. ومنه ما هو نور وظلمة وغلب عليه ظهور الظلمة، وهي الجمادات وما لا يعقل من الحيوانات، ونعني بالنور المعنى، وبالظلمة، الحس، فالكون كله باطنه نور وظاهره ظلمة، باطنه قدرة وظاهره حكمة، باطنه لطيف، وظاهره كثيف، وإليه أشار صاحب العينية بقوله:

وما الكون في التمثال إلا كثلجة ... وأنت لها الماء الذي هو نابع

ثم إن الحق سبحانه خص مظهر هذا الآدمي بخصائص لم تكن لغيره

منها: أن جعل روحه اللطيفة النورانية في قالب كثيف، ليتأتى له منه غاية التصريف

ومنها: أن جعل ذلك القالب في أحسن تقويم، وأبدع فيه من بدائع حكمته وعجائب صنعته ما يليق بقدرة السميع العليم

ومنها: أنه جعله حاكماً على المظاهر كلها، مالكاً لها بأسرها، خليفة عن الله فيها، ثم فتح له من فنون العلوم ومخازن الفهوم ما لم يفتحه على غيره مما هو معلوم، وقال تعالى ـ إني جاعل في الأرض خليفة ـ وقال في تلك الخليفة ـ وعلم آدم الأسماء كلها ـ

ومنها أن أعطاه سبحانه وتعالى سبعاً من الصفات تشبه صفات المعاني الأزلية، إلا أنها ضعفت بإحاطة القهرية، وهي: القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام، فحصل له بهذا أنموذج وشبه بالصمدانية الربانية.

ومنها: أنه سبحانه جعله نسخة الوجود، يحاكي بصورته كل موجود، فإن عرف الحق كان الوجود نسخة منه، وإلى بعض هذه المعاني أشار بقوله:

وهذه حقيقة الإنسان ... حيث لها أنموذج رباني

---

(١) وفي رواية: «الكبرياء ردائي فمن نازعني ردائي قصمته» رواه الحاكم عن أبي هريرة، وفي رواية: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار» رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه)

قلت : حقيقة الإنسان هي روحانية ، وهي لطيفة نورانيـة لاهوتية جبروتية ، ثم احتجبت ببشرية كثيفة ناسوتية ، فسبحان من ستر سر الخصوصية بظهور وصف البشرية، وظهر بإظهار الربوبية فى مظاهر العبودية

والأنموذج ، قال فى القاموس : والنموذج بالفتح : الشبه ، وبالهمز : لحن، وفى نسخ الناظم كلها بالهمز ، فانظره مع ما قال فى القاموس ، وفى بعض النسخ « إذ كان فى المندرج الربانى » وسيأتى معناه ، فالنموذج هو الشبه ، وهذا الشبه الذى حازه الإنسان دون غيره هو اتصافه بشبه أوصاف الحق سبحانه ، حيث جعل الله فيه : قدرة ، وإرادة ، وعلماً ، وحياة ، وسمعاً ، وبصراً ، وكلاما ، وجعله نسخة من الوجود بأسره ، وخليفة عن الله حكمه : يتصرف فى الأشياء باختياره فى ظاهر أمره ، ولذلك ورد فى الحديث :

« إن الله خلق آدم على صورته »(١)

وفى رواية على « صورة الرحمن » ومعناه خلق آدم وأعطاه من الصفات ما يشبه صفات الرحمن ، وهى صفات المعانى والمعنوية ، وخصه أيضاً بجعله خزانة لسائر أسمائه ، فنى الآدمى تسعة وتسعون اسماء كلها كامنة فى سره ، ثم يظهر على ظاهره ما سبق له فى علم الغيب ، فالبعض يظهر عليه اسمه الكريم ، والبعض اسمه الرحيم والبعض اسمه الحليم والبعض اسمه المنتقم ، والبعض اسمه المتكبر ، والبعض اسمه : القهار ، والبعض اسمه . القابض ، والبعض اسمه : الباسط ، وقد يتعاقب عليه أسماء كثيرة فى وقت واحد ، وإذا فنى عن حسه وغاب عن نفسه ظهرت عليه أنوار الألوهية ، فينطق بالأنانية غلبة ووجداً ، وبهذا قتل الحلاج .

وقد ورد الترغيب فى التخلق بأخلاق الرحمن ، قال صلى الله عليه وسلم « تخلقوا بأخلاق الرحمن »(٢)

---

(١) متفق عليه ، ورواه الإمام أحمد ، والحديث طويل وفى تفسيره كلام كثير ، وكلام الصوفية فيه كلام إشارات .

(٢) وفى حديث آخر : « إن لله تعالى ثلاثمائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة » رواه الطبرانى فى الأوسط عن أنس .

ورغب فى الصيام لما فيه من شبه الصمدانية ، وقد رغب أيضاً فى التقرب إليه سبحانه حتى يكون سمعه وبصره ويده ورجله ، ومعناه تغيبه عن صفة الحدوث بشهود أنوار القدم وفى ذلك يتحقق له هذا الأنموذج الصمدانى

وفى الحكم : «وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به ، وإلا جل ربنا أن يتصل بشىء أو يتصل به شىء ، وسيأتى الكلام إن شاء الله على هذا المعنى عند قول الشيخ :

متى ارتقيت عن قبيل الحس   أدركت فى نفسك معنى النفس
يامن على القشر غدا يحوم   حتى عن اللب : متى تصوم ؟

إلى آخر الأبيات ، وعلى النسخة الثانية «فالمندرج الربانى» هو : السر المكنون الذى برزت منه الروح ، ونفخت فى هذا الجسم ، وهى الخمرة الصافية ، أى هذه حقيقة الإنسان حين كان فى جملة السر الربانى المندرج فى الخمرة الأزلية ، وفى بعض أدعية الشاذلى : «وادرج أسمائى تحت أسمائك ، وصفاتى تحت صفاتك، وأفعالى تحت أفعالك» : درج السلامة وإسقاط الملامة ، والله تعالى أعلم .

ثم بين أن حقيقة الإنسان وسره سر من أسرار الله ، لا يجوز أن يوضع فى الكتب على وجه التصريح ، وإنما يذكر على وجه الإشارة والتلويح ، وعلمنا كله إشارة ، فقال :

ووضعه فى الكتب لا يجوز   بل هو كنز فى النهى مكنوز
إياك أن تطمع أن تحوزه   من دفتر أو شعر او أرجوزه

قلت : النهى جمع نهية ، وهو اسم العقل ، والدفتر : اسم الكتاب ، وقال فى القاموس : الدفتر ، وقد تكسر الدال : جماعة الصحف المضمومة ، والجمع . دفاتر ، والشعر : كلام موزون ، والأرجوزة بمعنى القصيدة . وهى ذات أبيات

يقول رضى الله . وضع هذا السر وهو النموذج الربانى الذى اختص به الإنسان فى الكتب لا يجوز إذا كان ذلك على وجه التصريح ، وإنما منع وضعه فى الكتب لأمرين . أحدهما أن العبارة لا تقوم به ، لأن علم الإشارة مهما صار عبارة خفى ، وقد يؤدى التعبير عنه لتكفير القائل وتبديعه وتفسيقه ، وربما أدى لتلفه ، كما قال بعضهم :

فمن فهم الإشارة فليصنها   وإلا سوف يقتل بالسنان
كحلاج المحبة إذ تبدت   له شمس الحقيقة بالتدانى

وقال زين العابدين رضى الله عنه :

يا رب جوهر علم لو أبوح به ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ لقيل لى أنت ممن يعبد الوثنا
ولا ستحل رجال مسلمون دمى ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ يرون أقبح ما يأتونه حسنا

وقال الشيخ أبو مدين رضى الله عنه :

وفى السر أسرار دقاق لطيفة ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ تراق دمانا جهرة لو بها بحنا

الأمر الثانى : أن وضع ذلك فى الكتب يؤدى لابتذاله وإظهاره ، مع عدم استيفاء المراد منه ، فيكون قطعاً للمريد عن التحقق به ، وموجباً لوجود الحيرة فيه ، ولا يفهمه فى الحقيقة إلا من اطلع عليه وعرف معناه ، كحال الطرب فى السماع ، لا يتأثر به إلا من عنده ذوق وخبرة ، ثم ذكر أن هذا السر كنز مدفون فى صدف مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون . بقوله « بل هو كنز مكنوز ، أى مدفون « فى النهى » : أى العقول الكاملة والقلوب الصافية ، ومن كمالها وحريتها كتمها للأسرار ، كما قال بعضهم : « قلوب الأحرار قبور الأسرار » ، وقال آخر :

لا يكتم السر إلا من به ثقة ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ فالسر عند خيار الناس مكتوم

وقال شيخ شيوخنا المجذوب رضى الله عنه :

ادفن سرك ودكوا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ فى الأرض سبعين قاما
وخل الخلايق يشكوا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ إلى يوم القيامه ما

ثم حذرك من أن تطمع أن تحوز هذا السر من كتب القوم ، أو من أشعارهم أو من قصائدهم ، لأنه أذواق ، لايؤخذ من الأوراق ، وإنما يؤخذ من صحبة أهل الأذواق ، بل لا تزيده مطالعة الأوراق إلا تفتيراً وتعطيلا .

علم الأذواق لايؤخذ من الاوراق ، قالوا : وحقائق المعارف منطبعة فى الأرواح من يوم الميثاق ، فلذلك قامت بها الحجة فيما لا يزال ، فوصول العبد إلى ما عنده منها بواسطة أمداد التجلى ، لا لأمر زائد على ذلك .

قال بعض المشايخ : إياك وطلب الدليل من خارج ، فتفتقر إلى المدارج ، واطلب الحق من ذاتك لذاتك ، تجد الحق أقرب إليك من ذاتك

وقال فى الحكم : « نور مستودع فى القلوب ، مدده النور الوارد من خزائن الغيوب » .

وقال فى موضع آخر : « أشهدك من قبل أن استشهدك ، فنطقت بإلهيته الظواهر ، وتحققت بأحديته القلوب والسرائر ، وما هو إلا كما قال الحق سبحانه فى شأن الإخلاص « هو سر من أسرارى أودعته قلب من أحببت من عبادى، لا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده »(١) ، وكذلك سر الربوبية الذى أودعه الله فى الإنسان ، لايعلم حقيقته على الكمال إلا هو سبحانه ، وإذا كان كذلك فالتعليم والتعلم لايفيده ، وإنما يفيده التعرض لنفحات الحق بشواهد الصدق : قولا وعملا وحالا ، « من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم »(٢) وكان علمه من ربه لقلبه ، وهو أتم العلوم وأجلها ، فافهم واطلب الشىء منك إليك (منى علىّ دارت كئوسى) .

قال بعضهم : علمنا لا يؤخذ بالقياس ، ولا بالفهم وقوة الذكاء والاقتباس ، بل هو نكتة من الحق ، يكشف عن القلب قناعه ، ونور منه ينبسط فى عوالم الحقيقة شعاعه ، حتى يصير الغيب فى معد العيان ، ولا يفتقر المشكل لشىء من البيان ، بل لو كشف الغطاء ما ازداد صاحبه يقيناً ، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام « لم يفتكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ، ولكن بشىء وقر فى صدره »(٣) . ومع هذا فالشىء الموقور فى صدره معلوم الأصل ، الذى هو التحقيق فى اليقين ، والإيمان إلى حد المواجهة والعيان ، قاله الشيخ زروق رضى الله عنه .

ثم بين قدر مايعرفه الإنسان من السر بالوصف ، فقال :

وإنما تعرف منه وصفا لست تراه ، وهو ليس يخفى

قلت : لما نفى معرفة النموذج الربانى الذى خص به الإنسان من الكتب ، ذكر هنا مقدار ما تعرفه بالنعت من الكتب ، فقال : وإنما تعرف من ذلك النموذج ، وهو سر الربوبية المندرج فى الخمرة الأزلية ، وصفاً ظاهراً ، يقال باللسان ولايرى بالعيان ، لأنه إنما يدرك بالبصيرة ، فإن كنت من أهل البصيرة أدركته بالذوق والوجدان ، وإن لم تكن

---

(١) رواه العراقى فى جزء من مسلسلات القزوينى عن حذيفة، ورواه القشيرى فى رسالته
(٢) هذا لفظ حديث شريف رواه أبو نعيم فى الحلية من حديث أنس .
(٣) ذكره بمعناه فى الرياض النضرة فى مناقب العشرة .

من أهل البصيرة ، فحظ رأسك لأهل البصيرة حتى تذوق ماذاقوا أو تموت ، فالمعرفة التى تكتسبها من الدفاتر أو الأشعار أو الأراجيز لذلك الوصف لست تراها بعينك ، فإذا قال لك الشاعر مثلا :

• ألا كل شىء ماخلا الله باطل .

• أو ما فى الكون غيركم .

لا تعرف ذلك ولا تدركه بعقلك ، مع كونه ظاهر لا يخفى ، لكن لا يدركه إلا أهل الأذواق ، أهل البصائر النافذة ، لا أهل العقول المقيدة بالخيالات الوهمية ، فإن هذا أمر خارج عن مدارك العقول ، ولا يحيط بكنهه العلم المنقول .

قوله : « لست تراه وهو ليس يخفى » ، أى لست تراه ببصرك الحسى ، لما كساه من رداء العزة وحجاب الحكمة ، وهو : ليس يخفى على أهل البصيرة النافذة ، فلست تراه لأنه باطن ، وهو ليس يخفى لأنه ظاهر . فاسمه الباطن يقتضى أن لا تدركه الأبصار ، واسمه الظاهر يقتضى انطواء ما سواه من الأغيار ، وانفراده بالوجود وظهور الأنوار ، وفى ذلك قال بعض العارفين :

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد　　إلا على أكمه لا يبصر القمرا
لكن بطنت بما أظهرت محتجباً　　وكيف يعرف من بالعزة استترا

وفى الحكم : «أظهر كل شىء بأنه الباطن، وطوى وجود كل شىء بأنه الظاهر» فاسمه الباطن يقتضى ظهور الأشياء ليكون باطنا بالنسبة إلى ظهورها .

واسمه الظاهر : يقتضى بطون الأشياء وانطواءها ، إذلا ظاهر سواه لما يقتضيه الحصر الذى فى الآية الكريمة . وهــذا من عجائب الربوبية التى بهرت العقول ، وحيرت الأذهان، بحيث صار ظاهراً فى حال بطونه ، باطناً فى حال ظهوره ، ظاهراً باعتبار قدرته باطنا باعتبار حكمته . والله تعالى أعلم .

ثم ذكر المصنف أنه شرح لك من ذلك الوصف البعض بقدر مايفهمه عقلك، فقال :

وها أنا أشرح منه البعض　　بقدر ما تفهمه فلترض

أى تنبه لما أقول لك بعد . فأنا أشرح لك بعض ذلك السر بقدر ماتفهمه ويدركه عقلك فلتقنع بذلك ولترض به ، إذ لا يمكن شرح الكل ، لأنه من السر المكنون الذى لا يحيط به إلا علام الغيوب ، وأيضا إذا عبرت لك عن كنه السر تعرضت للهلاك ، وقد قال تعالى ـ « وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً »(١) ـ ثم ذكر ذلك البعض الذى وعد به ، فقال :

فهذه الحقيقة النفسيه	موصولة بالحضرة القدسيه
وإنما يعوقها الموضوع	ومن هنا يبتدأ الطلوع

قلت : المراد بالحقيقة النفسية هو: الروح اللطيفة السارية فى الأشباح الكثيفة القائمة بها ، والحضرة القدسية هى العظمة الأزلية القديمة اللطيفة الخفية المعبر عنها بعالم الجبروت، وهى التى فسرها ابن الفارض فى خمريته حيث قال رضى الله عنه وأرضاه :

يقولون لى صفها فأنت بوصفها	خبير : أجل عندى بأوصافها علم
صفاء ولا ماء ، ولطف ولا هوى	ونور ولا نار ، وروح ولا جسم
تقـــدم كل الكائنات حديثها	قديما ، ولا شكل هناك ولا رسم ،
وقامت بها الأشياء ثم لحكمة	بها احتجبت عن كل من لا له فهم

فالأشياء التى قامت بالخمرة الأزلية هى: الموضوعات التى تكثفت وظهرت، فقد وضعها الله أوانى حاملة للمعانى ؛ ومنها أشباح بنى آدم ، فإنها موضوعات للسر الربانى، الذى هو الروح ، والروح متصلة بتلك الخمرة الأزلية ، وإنما يعوقها ويمنعها من اللحوق بأصلها، هذا الموضوع الذى وضعه الله لها وأسكنها فيه ، فهو كثيف، وهى لطيفة ، فمن غلبت كثافته على لطافته ؛ أو تقول : بشريته على روحانيته ، بقى دائما مسجونا بمحيطاته . محصورا فى هيكل ذاته ، ومن غلبت لطافته على كثافته ، أو تقول : روحانيته على بشريته اتصلت روحه بالحضرة القدسية ، ورجعت إلى أصلها ، فلم يحجبها عن أصلها أرض ولا سماء ، ولا عرش ولا كرسى حتى قال بعضهم: «العرش والكرسى مندقان فى ترسى» ، وقال آخر: « لو أن العرش فى زاوية من زوايا قلب العارف ماأحس به» . وفى الحكم العطائية : «الكائن فى الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب ، مسجون بمحيطاته ، محصور فى هيكل ذاته ، مفهومه إذا فتحت له ميادين الغيوب لم يحصره هيكل ولا كون ، بل يترق إلى فضاء الشهود ، وتتصل روحه بالملك المعبود ،

(١) الآية ٢٩ من سورة النساء .

اتصالا يعرفه أهل الأذواق ، وينكره أهل الأوراق ؛ وقد ضرب عز الدين ابن عبد السلام مثلا ربما يزيل ذلك الإشكال ؛ ويوضح لك المثال إن لم تذق ماذاقت الرجال .

قال فى « حل رموزه وفتح كنوزه » فاعلم أن القلب غيب ، والرب غيب ، فاطلع الغيب على الغيب ؛ فكان اطلاعه نزولا لا حلولا ؛ واعلم أن لطيفة ذلك : أن القلب خلق كامل الوصف ، فله وجهان : ظاهر وباطن ؛ فظاهره ترابى أرضى ؛ مظلم طبيعى جثمانى ، وباطنه سماوى علوى ، نورانى روحانى ، فكثافة ظاهره لمباشرة القوى الطبيعية البشرية ، ولطافة باطنه لمواجهة الملكوتيات العلية الربانية الروحانية ، فعلى قدر مواجهته لها ومقابلته إياها انعكست عليه أشعة أنوارها ، وتجلت لأسراره بأسرارها ، فشاهدها بالأنوار التى فاضت عليه ، وأدركها بالأسرار التى أبدتها إليه ، وهذا معنى العكس والمقابلة ؛ فهو يشهد جمالية محبوبه فى مرآة قلبه من غير حصر ولا تحيز ، ولا حلول ، ولا انفصال ولا اتصال ؛ فهو فى المثال كمرآة لها وجهان : ظاهرها كثيف مظلم ، وباطنها لطيف مضىء ، فلو قابلها من الكائنات ماقابلها من صغير أو كبير أرته مثلا فيها مع صغر جرمها وكبر المرئى فيها ، ولو كان جملا أو جبلا أرته بكل أجزائه فيها من غير حلول فيها ، ولا اتصال بها ، ولا تحيز فى شىء منها ، فكذلك الحق سبحانه وتعالى : إذا تجلى على قلب عبده المؤمن يشاهده بعين قلبه ، ويجتليه ببصر بصيرته من غير حلول ولا تحيز ، ولا اتصال ولا انفصال .

وأوضح من هذا المثال ما أشرحه فى هذه الأبيات :

ولما تجلى من أحب تكرما ... وأشهدنى ذاك الجناب المعظما
تعرف لى حتى تيقنت أننى ... أراه بعينى جهرة ، لا توهما
وفى كل حال أجتليه ولم يزل ... على طور قلبى حيث كنت مكلما
وما هو فى وصلى بمتصل ولا ... بمنفصل عنى ، وحاشاه منهما :
وما قدر مثلى أن يحيط بمثله ... وأين الثرى من طلعة البدر ، إنما
أشاهده فى صفو سرى فأجتلى ... كلا : تعالى عزه أن يقسما
كما أن بدر التم يظهر وجهه ... بصفو غدير ، وهو فى أفق السما

واعلم أن هذه الخصوصية إنما هى لابن آدم دون الملك ، وإنما كان كذلك لما ذكرنا أن الآدمى مخلوق من العالمين : اللطيف والكثيف ، فينزل القلب فيه بمنزلة المرآة فى لطفها

وكثافتها ، ولذلك انطبع فيها مايقابلها من المرئيات ، ولا كذلك الملك ، فإنه مخلوق من لطيف فقط ، وهو كله نور يشف ظاهره وباطنه ، فهو كالزجاجة الشفافة ، نورها خارق ، فلا يتمثل فيها ما يقابلها لعدم التكثيف الذى يعكس مايقابلها إليها ، فهذا سر العكس والمقابلة ، انتهى كلامه رضى الله عنه .

ومن هنا يبتدأ الطلوع ، وحاصله : أن الآدمى كالمرآة التى من خلفها الطلاء وهو الدهن الذى يجعل فيه ، والملائكة كالمرآة التى لا طلاء خلفها ، لكن الملائكة فيهم الخواص والعوام وفيهم العارفون وغيرهم ، والله تعالى أعلم .

وقوله : « ومن هنا يبتدأ الطلوع » : الإشارة تعود إلى الموضوع الذى جعله الله محلا للروح ومستقرا لها فى هذا العالم السفلى ، أى ومن هذا المحل السفلى الذى تقررت فيه الروح يبتدأ طلوعها وعروجها إلى محلها الأصلى ، الذى هو عالم الملكوت أو الجبروت ، وطلوعها بقدر تخليها عن هذا الوطن وغيبتها عنه ، فبقدر ما تغيب عن موضوعها تفارقه ، وتعرج عنه إلى أصلها ، وبقدر ماتتعلق به وترتهن معه تستقر فيه وتسجن فى هيكله .

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : « أيها الشائق إلى سبيل نجاته ، التائق إلى حضرة حياته ، أقلل النظر إلى ظاهرك إن أردت فتح باطنك لأسرار ملكوت ربك » .

وفى بعض الكتب المنزلة يقول الله تعالى : « عبدى إنما منحتك صفاتى لتعرفنى بها ، فإن ادعيتها سلبتك الولاية ، ولم أسلبك صفاتى ، ياعبدى أنت صفتى ، فارجع إلى أرجع إليك ، ياعبدى فيك العلوم باب مفتاحه أنا ، وفيك للجهل باب مفتاحه أنت ، فاقصد أى البابين شئت ، ياعبدى قربى منك بقدر بعدك عن نفسك ، وبعدى عنك بقدر قربك من نفسك ، فقد عرفتك الطريق ، فاترك نفسك تصل إلى فى خطوة واحدة ، ياعبدى كل ماجمعك على فهو منى ، وكل ما فرقك عنى فهو منك ، فجاهد نفسك تصل إلى ، وإنى لغنى عن العالمين ، ثم قال: « ياعبدى إن منحتنى نفسك رددتها إليك راضية مرضية ، وإن تركتها عندك فهو أعظم بلية فهى أعدى الأعادى إليك ، فجاهدها تمد بالفوائد إليك » .

وكان شيخنا رضى الله عنه يقول : إن شئتم أن أقسم لكم : أنه لا يدخل عالم الملكوت من فى قلبه علاقة .

وقال الششترى رضى الله عنه : ليس يدرك وصالى كل من فيه بقيا .

وقد أوضح الناظم هذا ، يعني فيما يأتي حيث قال :

لم يتصل بالعالم الروحاني ... من عمره على الفضول عاني
ليس يرى من المعاني دان ... من قلبه في عالم الأبدان

والبيت الآخر : تفسير لما ذكره هنا بقوله ، ومن هنا يبتدأ الطلوع ، ويأتي زيادة بيان وتوضيح عند شرحها إن شاء الله ، والله تعالى أعلم .

ثم بين كيف كان اتصال الروح بالحضرة فقال :

لم تزل كل نفوس الأحيا ... علاّمة درّاكة للأشيا
وإنما تعوقها الأبدان ... والأنفس النزغ والشيطان
فكل من أذاقهم جهاده ... أظهر للقاعد خرق العاده

النزغ هو : النخس والتحريك ، نزغه الشيطان : أي نخسه وحركه ، والأنفس النزغ هي: التي تحرك صاحبها للمعاصي والشهوات . والنفس، والعقل ، والقلب ، والروح ، والسر: شيء واحد عند محقق الصوفية ، وما ثم إلا اللطيفة الربانية حين اشتبكت بهذا البدن وسجنت في هذا الهيكل : اختلفت تسميتها باعتبار تطورها وترقيها ، فادامت مظلمة بالشهوات والمعاصي سميت نفساً ، فإذا انزجرت وانعقلت عن المعاصي سميت عقلا ، فإذا سكنت إلى الطاعة لكنها تتقلب في التدبير والاختيار والاهتمام بأمر البدن سميت قلباً ، فإذا اطمأنت بالله وسكنت إليه ، وفتحت بصيرتها بشهود نور أصلها سميت روحاً ، فإذا تصفت من الحس وصارت معنى محضاً سميت سرا ، وهذا كان أصلها سراً من أسرار الله ، قال تعالى : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي »(١) أي سر من أسراره،فكانت في الأصل علامة لما كان ومايكون،دراكة دقائق الأشياء على ماهي عليه ، ولما أدخلها الحق في هذا الهيكل الكثيف إظهاراً لحكمته، وإعلاما بعظمة قدرته ، وإشعاراً بقهريته انحجبت عن أصلها وغاب عنها ذلك العلم والإدراك ونسيت معاهدها ومعالمها اشتغالا بتدبير هذا الهيكل الطيني ، فهو يميل بها إلى أصله ، ويخلدها إلى أرض الشهوات التي نشأ بالحكمة منها ، وهي تتعشق إلى أصلها وتحن إلى وكرها ، فإذا

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٨٥

طارت ورفرفت إلى وكرها وجدت قفص البدن محيطا بها . فربما شطحت ورقصت من وراء أردية العز والكبرياء .

وفى ذلك يقول الشيخ أبو مدين رضى الله عنه :

يحركنا ذكر الأحاديث عنكم ولولا هواكم فى الحشا ماتحركنا
فقل للذى ينهى عن الوجد أهله إذا لم تذق معنا شراب الهوى دعنا
إذا اهتزت الأرواح شوقا إلى اللقا نعم ترقص الأشباح ياجاهل المعنى
أما تنظر الطير المقفص يافتى إذا ذكر الأوطان حن إلى المغنى
يفرج بالتغــريد ما بفؤاده فيطرب أرباب العقول إذا غنى
ويرقص فى الأقفاص شوقاً إلى اللقا فتضطرب الأعضا فى الحس والمعنى
كذلك أرواح المحبين يافتى تهزها الأشواق للعالم الأسنى
أتلزمها بالصبر وهى مشوقة وهل يستطيع الصبر من شاهد المعنى

إلى آخر كلامه

ثم أعلم أن تطورات الروح من : النفس ، والعقل ، والقلب ، والروح ، والسر : كل طور له حد ينتهى إليه فى العلم والإدراك ، أما النفس لحد علمها وإدراكها زينة ظاهر الكون اغترارا بنعمة ظاهره ، وغفلة عن عبرة باطنه ، واشتغالا بحظوظها وهواها ، وأما العقل لحد علمه وإدراكه افتقار الصنعة إلى صانعها ، فهو يقرر الصنعة ويردها إلى صانعها ، معقولا عن غير ذلك ، وأما القلب فى علمه وإدراكه التوجه إلى خالقه بترك الأغيار وطلب الأنوار فقد انطلق من العقال وشد فى طلب مولاه الرحال .

وأما الروح ، لحد علمها وإدراكها مواجهة أنوار الملكوت ، طالبة أسرار الجبروت ، قد استراحت من تعب السير ، لكنها لم تتمكن من السر ، وأما السر لحد إدراكه أسرار الجبروت ، قد نفذت البصيرة من الوقوف مع أنوار الملكوت ، وهذا منتهى السير ، قال تعالى : « وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ »(١) .

---

(١) سورة النجم : الآية : ٤٢

وفى هذا المقام قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه :

ولو عاينت عيناك يوم تزلزلت أرض النفوس ودكت الأجبال
لرأيت شمس الحق يسطع نورها يوم التزلزل ، والرجال رجال

قال : « والأرض » : أرض النفوس ، « والجبال » جبال العقل اهـ

أى لو غبت عن نفسك ولم تقف مع عقلك لرأيت أنوار ربك .

قوله: «وإنما تعوقها الأبدان أى يمنعها من الرجوع إلى أصلها فتكون علامة دراكة للأشيا كما كانت فى أصلها ، الأبدان التى هى كالأقفاص لها حصرا ، وكالقمص والأردية لها سترا وإنما منعها البدن من الرجوع إلى أصلها ، لأنه ظلمانى طينى صلصالى ، لا يميل بطبعه إلا لاصا من الشهوات الجسمانية ، مأكلا ومشربا وملبسا ، وكلما تعمق فى ذلك تكثفت بشريته وقويت دائرة حسه ، فعظم حجاب الروح ، وتوغلت فى هذا القفص ، وكذلك النفس النزاعة المحركة إلى الحظوظ الذميمة ، كحب العلو والجاه والمدح والثناء ، وحب الدنيا والنساء وغير ذلك مما يستتبع هذا من : الكبر ، والحسد ، والبغض ، والغضب ، والقلق ، والحقد ، وخوف الفقر ، وهم الرزق ، وحب الأغنياء : طمعا وحرصا ، واحتقار الفقراء ، وغير ذلك من عيوبها ، فهى التى حجبت الروح ومنعتها من العروج إلى وطنها ، ولدواء هذه الأمراض وضع علم التصوف ، وكذلك الشيطان بوسوسته ونزغه وتزيينه ، لأنه حو فيزين لها الكفر ، ثم المعاصى ، ثم التثبط عن الطاعات ثم إدخال الرياء فيها ، ثم العجب إذا تخلصت من هذه العوائق رجعت إلى أصلها من علم الحقائق ، وإلى ذلك أشار بقوله

فكل من أذاقهم جهاده أظهر للقاعد خرق العادة

لجهاد البدن بقطع مواده ، من : تقليل الطعام ، والشراب ، واللباس ، والمنام ، فلا يأكل ولا يشرب ، إلا ليتقوى على طاعة الله ، ولا يلبس إلا ما يحفظ به البدن ، لأنه معرفة سرا ولا ينام إلا ما يرد به العقل والنشاط لطاعة الله ، وكذلك لا ينقل قدميه إلا حيث يرجو ثواب الله ولا يجلس إلا حيث يأمن غالبا من معصية الله ، ولا يصحب إلا من يستعين على طاعة الله ، ولا يتبع إلا من يتحقق وصلته بالله ، فيكون فى كل حال عاملا لله ، بالله وجهاد النفس بقطع مألوفاتها . ويخرق عوائدها بتحميلها ما تكره ، وإبعادها عما تحب وأعظمها ثلاث : حب الجاه ، وحب الدنيا ، وحب النساء ، وجهاد الشيطان بالاشتغال با

والغيبة عنه ، فعداوة العدو حقاً هي اشتغالك بمحبة الحبيب حقا قال تعالى « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا »،(١) ـ يعني ، وأنا لكم حبيب فاتخذوني حبيباً أكفكم عداوة عدوكم .

وبقي من العوائق : الناس ، فإنهم أكبر العوائق وأقبح القواطع لمن وقف معهم واشتغل بمقابلتهم ، وأما من غاب عن حسهم وغرق فيهم ، فقد صاروا له عوناً على الترقي إلى معرفة خالقهم ، وإلى هذا المعنى أشار شيخ شيوخنا المجذوب رضي الله عنه بقوله :

الخلق نوار وأنا رعيت فيهم   هم الحجب الأكبر والمدخل فيهم

وقال في الحكم : إنما أجرى الأذى عليهم كي لا تكون ساكناً إليهم ، أراد أن يزعجك عن كل شيء ، حتى لا تكون ساكناً إلى شيء ، وقال في شأن الشيطان والنفس « إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك ، فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده ، إنما جعله لك عدواً ليحوشك به إليه ، وحرك عليك النفس ليديم إقبالك عليه » .

فتحصل أن هذه العوائق الأربعة ، إنما هي عوائق لمن وقف معها وحجب بها ، وأما من لم يقف معها، فإنما هي في حقه معونات وموصلات ، حركتهم إلى الله ، ودفعتهم إلى حضرته وبها ثبتت خصوصيتهم وتحقق سيرهم ، لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين ، فسبحان من جمع بين الضدين ، شيء واحد حبيب من وجه عدو من وجه ، وفي الحقيقة ماثم إلا الحبيب أوقف على بابه حراسا ليظهر الصادق في محبته من الكاذب فيها ، والله عليم حكيم .

وقوله : « أظهر للقاعد خرق العادة » يعني أن من نهض إلى مجاهدة هذه الثلاث أو الأربع قد يكرمه الله بظهور الكرامات وخرق العادات ، إما حسية أو معنوية ، فيظهر عليه بحسب كل مقام خارق يليق به على قدر حاله ، فمن مجاهدة البدن تظهر الكرامات الحسية ، أما من جهة العبادة الحسية كحلاوة الطاعات ولذيذ المناجاة لقوله صلى الله عليه وسلم « من غض بصره فرزقه عباده يجد لذتها(٢) » وإما من جهة خرق العادة الحسية كالمشي على الماء، والطيران في الهواء ، وطي الأرض ، وتسخير السباع ، وجلب الطعام والماء من الغيب، وغير ذلك .

---

(١) سورة فاطر : الآية : ٦

(٢) ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس لعنه الله فمن تركها خوفاً من الله آتاه الله عز وجل إيمانا يجد حلاوته في قلبه ».

رواه الحاكم وصحح إسناده من حديث حذيفة .

ومن مجاهدة النفس : تظهر الكرامات المعنوية ، من : فهم العلوم ، واتساع الفهوم . وتحقيق اليقين ، وشهود رب العالمين ، وتسخير النفوس ، وقهرها ، وظهور الجلالة والمهابة إلى الخلق ، لحديث : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء[١] » .

وقوله عليه الصلاة والسلام « من خاف من الله خافه كل شيء[٢] » الحديث ، ونحو ذلك .

ومن مجاهدة النفس والشيطان تظهر الكرامات الحقيقية بالكفاية ، والهداية ، والحفظ من الضلال والغواية ، لقوله تعالى .

« إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ[٣] » وقوله .

« لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ »[٤] .

ثم بين أهل هذه الخوارق ، فقال .

وهي من النفوس في كمون كما يكون الحب في الغصون

قلت : الكمون هو : الخفاء والتستر ، والضمير في « وهي » يعود على ما تضمنه قوله « خرق العادة » من العلوم والإدراكات والخوارق والكرامات ، يعني : أن العلوم والإدراكات والاقتدار على خرق العادات ، هي كامنة خفية في النفوس ، أي الأرواح ، لأن الأرواح أصلها قبضة من نور الجبروت ، فهي : عالمة ، قادرة ، مريدة ، سميعة ، بصيرة ، متكلمة ، فحيث سجنت في هذه الهياكل الكثيفة كمن فيها ذلك السر وخفي ، ولم يظهر منه إلا نموذج ضعيف ، فسمع العبد وبصره وكلامه وعلمه وقدرته وإرادته وحياته ، بقية من تلك الصفات ظهرت على العبد واستتر أصلها في النفوس ، كاستتار الحب والثمار في الغصون ، حين تكون

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط عن جرير ، وفي حديث آخر : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » رواه الإمام أحمد ، والترمذي ، والحاكم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

(٢) ولفظ الحديث الشريف : « من خاف الله خافه كل شيء ، ومن خاف غير الله خوفه الله من كل شيء » رواه أبو الشيخ في كتاب « الثواب » من حديث أبي أمامة ، وابن أبي الدنيا في كتاب « الخائفين » .

(٣) سورة الإسراء ، الآية : ٦٥

(٤) الآية : ٩٩ من سورة النحل .

عالية من الثمار ، فإذا نزل المطر وأرعد الرعد أخرجت أوراقها وأزهارها وثمارها ، وإلى هذا أشار بقوله :

حتى إذا أرعدت الرعود — وانسكب الغيث ولان العود
وجال فى أغصانها الرياح — فعندها يرتقب اللقاح

قلت : السكب هو : الصب ، يقال : انسكبت الدموع والمطر : انصب ، والإلقاح هو حمل الأشجار بالثمار ، وألقحت النخل ثمارها إذا حملت به ، واللقاح بالفتح كسحاب مايعلق على النخل من طلع الذكر ، والمناسب فى البيت أن يكون الإلقاح بالهمز مصدراً وهو الحمل بالثمر ، وما ذكره هنا كله استعارة ، فالمراد بالرعود مجاهدة الجوارح الظاهرة فى خدمة الشريعة ، ككثرة الذكر ، والصلاة ، والصيام ، والسهر ، والجوع ، وغير ذلك من مجاهدة الحس ، وأوكدها : الذكر والصمت ، والعزلة .

ولقد سمعت شيخ شيخنا مولاى العربى رضى الله عنه يقول : بقيت أربع سنين فانياً فى الاسم لا أفتر عنه ، لا ليلا ولا نهاراً ، حتى كان البدن كله يهتز به وحده ، فإذا قبضت على إحدى رجلى اهتزت الأخرى ، فهكذا ينبغى ذكر الله ، والفناء فيه ، والمراد بانسكاب الغيث : نزول الأحوال والواردات على القلوب من شوق مقلق أو خوف مزعج ، ووصول أثرها إلى الباطن من : الشفقة ، والرحمة ، والحلم ، والصبر ، والزهد ، والورع ، والتوكل ، والرضى والتسليم ، والمحبة ، والطمأنينة ، والمراقبة والكرم ، والسخاء ، وغير ذلك من الأخلاق المحمودة التى تلين الطباع وتحسن الأخلاق ، وهو المراد بقوله « ولان العود » فكما أن العود يلين بسريان الماء فيه ، كذلك القلب يلين بسريان الحال الناشىء عن العلم .

والمراد بجولان الرياح : النفحات التى تهب على القلوب من حضرة علام الغيوب ، بصحبة العارفين ، والحك معهم[1] ، وفى حكمة لقمان عليه السلام كان يقول لولده : « ياولدى جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ، فإن الله ينبت الحكمة فى القلوب بصحبتهم كما تنبت الحبة فى الأرض الطيبة » والمراد بالعلماء : العلماء بالله ، فإن صحبتهم تلقح العلوم والمعارف والأسرار فى القلوب كما تلقح الرياح الثمار فى الأشجار ، قال تعالى : « وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ »[2] قيل تلقح الأشجار وقيل تلقح الأمطار فى السحاب ، ثم تصبه حيث أراد الكريم الوهاب ، وهذا معنى قوله « هنالك ينتظر الإلقاح » أى إلقاح العلوم والمعارف فى القلوب ، ولأجل هذا المعنى قال بعض العارفين : والله ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح .

---

(١) الحك هنا : الاحتكاك .

(٢) الآية ٢٢ من سورة الحجر .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه : المراد بالرعود المواعظ المذكرات ، ونزول غيث الواردات ، الملينة لأفنان شجرة القلب ، وجولان رياح الأحوال المتوجهة منها فى نواحى القلب ، حتى يسرى ذلك للجوارح فتتأثر به ، قال الله تعالى : « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ »(1) .

وما شرحت به أنسب لطريق التربية ، والله تعالى أعلم .

وقد ضرب فى القوت مثلا لهذا السر الكامن فى النفوس بالزبد الكامن فى اللبن ، فإذا ضرب بالمخض خرج زبده ، ثم إذا ذوب صار سمنا صافياً ثم بين الناظم مايكون بعد الإلقاح من بدايته إلى نهايته فقال :

فعندما أزهرت الأغصان ... واعتدل الربيع والزمان
يكون إذ ذاك أوان العقد ... وانتظم الأغصان نظم عقد
حتى إذا أينع للعيان ... وأمنت جوائح الزمان
باكرها زارعها والغارس ... يقطفها ، والغير منها آيس

قلت : العقد الأول بفتح العين ، وهو عقد الثمار من الأزهار ، والعقد الثانى بكسر العين وهو : سلك الجوهر المنظوم .

يقول رضى عنه : فإذا جالت رياح الهداية ، وهب نسيم الولاية ، وجال فى أغصان الأبدان ، ثم سرى إلى سويداء الجنان ، ألقحت فيه أزهار الحكم ، وفنونا من نوار العلوم ، وفتقت أكمام الفهوم مختلفة الألوان ـ صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ، فعندما أزهرت أغصان الجوارح الظاهرة بالأعمال والعوالم الباطنية بالأحوال ، واعتدل ربيع الشريعة باظهار زهر جماله فى رياض الملكوت ، مع زمان هيجان بحر الحقيقة فى حياض الجبروت ـ مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان ـ فعند ذلك يكمل عقد معرفة الشهود والعيان ، وتنتظم استقامة الجوارح فى مقام الإسلام والإيمان ، نزولا إلى بستان سماء الحقوق أو أرض الحظوظ بعد الإذن والتمكين ، وبالعناية لذلك العارف ملحوظ ، فحينئذ يتحقق بكمال العبودية ، ويقوم بوظائف الربوبية ، لا يحجبه فرقه عن جمعه ، ولا جمعه عن فرقه ، قد اعتدل فيه الميزان : يعطى كل ذى حق حقه ، ويوفى كل ذى قسط قسطه ، فإذا ظهرت عليه آثار العناية ،

---

(1) الآية ٢٣ من سورة الزمر .

ولاحت له أسرار الولاية تعجبت الناس من أحواله ، وما خصه الله به من عظيم نواله ، فمن معتقد وناقد ، ومن مسلم وحاسد ، يريد أن يشاركه فى مقامه بدعوى اللسان ، ومن ادعى بما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان ، كما أبان ذلك كله الناظم حيث قال :

فأى من مر بها مساء | وأبصر اظلال والأفياء
ونزه الأبصار والعيونا | حيث رأى الأنهار والعيونا
واشتم منها الروح والريحانا | وظل فى بهجتهـــا حيرانا
فقال : نحن إذاً سواء | فعندهـــا يجمعنا المساء

قلت: المساء هو آخر النهار: من الزوال إلى الغروب . والفىء : الظل إذا أخذ فى الزيادة فهو باعتبار ما قبله من عطف الخاص على العام ، والروح قال فى القاموس : الروح بالفتح الراحة والرحة ، ونسيم الريح اهـ ، والمناسب هنا هو الأخير ، وقال فى تفسير الريحان: نبت طيب الرائحة ، أو كل نبت كذلك ، أو أطرافه أو ورقه ، والولد ، والرزق اهـ والمناسب هو : النبت ، على حذف مضاف ، أى واشتم من تلك الاغصان نسيما طيباً ، ورائحة تلك الرياحين .

يقول رحمه الله ورضى عنه : فأى شخص من البطالين مر فى بساتين العارفين ورياض الواصلين فى وقت زوالهم واعتدالهم وعند زيادة ظلال أنوارهم وعلومهم ، فأبصر ظلال أنوارهم قد ظهرت على وجوههم من أثر خشوعهم أو بهجة سرورهم ، كما قال :

إن عرفان ذى الجلال لعز | وضياء وبهجة وسرور
وعلى العارفين أيضاً بهاء | وعليهـــم من المحبة نور
فهنيأ لمن عرفك إلهى | هو والله دهره مسرور

ونزه أبصاره فى أنهار علومهم الزاخرة ، وفى عيون حكمهم الفاخرة ، واشتم منها نسيم القرب والوصال ، حين قرب من جنة الجمال ، وريحان الكمال ، فبقى سائر نهاره فى بهجة زهرتها ونضرتها حيران ، فاستغرب ما اتحفهم به مولاهم المنان ، بعد ما كانوا مثله فى النقصان ، وغاية الجهالة والخذلان ، فلما علم بأحوالهم وتحقق بعظيم نوالهم ، ترامى بالدعوى على مقامهم ، فقال هانحن معكم سواء ، فنشترك معكم فى تلك البساتين عند المساء ، فما دام نهار البسط

والجمال استووا جميعاً بلسان المقال ، فإذا جن ليل القبض والجلال ، ظهرت الجبناء من الأبطال ، وتميزت الشبان من الرجال(١) :

سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار ؟

وفى الأمثال بلسان الحال : إن شجرة القرع تصاعدت مع النخلة ، وقالت : إنى شجرة مثلك ، فقالت النخلة : ستعلم الشجرة منا عند هبوب رياح الخريف .

وكذلك المدعون للخصوصية بالتشبه بأهل الطريق إذا اختبرهم الحق تعالى وعيرهم بمحك التحقيق ، فأرسل عليهم قاصفاً من رياح الفتن ، وضربهم بزلازل المحن ، إما فى المال أو فى البدن ، نكصوا على أعقابهم مدبرين ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كاذبين ، خسروا الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

قال فى التنوير : وإنما يفتضح المدعون بزوال الأحوال وعزولهم عن مراتب الإنزال ، هنالك يبدو العوار وتنتهك الأستار ، فكم من مدع الغنى بالله وإنما غناه بطاعته ، أو بنوره أو بفتحه ، وكم من مدع العز بالله ، وإنما عزه بنسبته وصولته على الخلق ، معتمداً على ما ثبت عندهم من معرفته ، فكن عبد الله لا عبد العلة ، فكما كان لك رباً ولا علة ، فكن عبدالله ولاعلة ، لتكون كما كان لك ، ثم تمم حال المدعين وما آل إليه أمرهم حين ظهر عوارهم وانكسفت أنوارهم ، واشتدت عليهم ظلمة أغيارهم ، فقال :

حتى إذا هجمه الظلام واحتوشته الوحش والهوام
ولم يجد للعوز من أسباب أقام حيران أمام الباب
فقيل من بالباب ؟ قال:طارق فقيل كلا ، لا ، ولكن سارق

قلت : هجم عليه هجوما : دخل بغتة ، قاله فى القاموس ، وضمنه الناظم معنى جن : أى جنه وغطاه ، ولذلك عداه بنفسه ، واحتوش القوم الصيد: نفروه ، ومعناه هنا خوفته وأفزعته والوحش حيوان البر ، والهوام ، بشد الميم : حشرات الأرض ، والطارق : الآتى بالليل ، وكلا : حرف زجر وردع .

يقول رضى الله عنه : إن ذلك المدعى الذى ترامى على مراتب الرجال ، بمجرد التشدق والمقال وادعى الوصول إلى مقام الراحة والجمال ، قبل أن يتأدب بصدمات الجلال لما هجم عليه ليل القبض والجلال ، وغربت عنه شمس نهار البسط والجمال افتضح ، وتبين أنه دجال

---

(١) مقصود العبارة : يظهر من البطل الحقيقى ، ومن الجبان ، أى يتميز هذا من ذاك إذ يعرف كل شيء من ضده ـ والله تعالى أعلم ـ .

فأفزعته وحوش الشكوك والخواطر ، وأحاطت به هوام جرائمه الصغائر والكبائر ، فهى تلدغه وتلسعه كلسع العقارب والزنابير ، فلما لم يجد منها مسلكا ولا مهرباً التجأ إلى باب الأكابر ، فأقام خلف الباب حيران ، يريد أن يضموه معهم إلى حصون ماشيدوه خلف بساتين العرفان ، من غير أن يحط رأسه إلى تقبيل أقدام الرجال ، ولا أن يسمح بنفسه فى عز ولا جاه ولا مال ، فنادوه بأفصح لسان الحال : أيها الطارق لباب الرجال ، ماذا تريد وأنت على هذا الحال ؟ فقال : هذا طارق يريد الدخول إلى حضرة المحبة والوصول ، فقالوا له : كلا ، ليس حالك حال الطارق ، ولكنك متطفل سارق فإذا انكسر وذل نفسه نال مطلبه وحصل أنسه وإن بقى على ماهو عليه كان عاقبته الحرمان .

أو يقول : حتى إذا هجم (على(١)) هذا المدعى المتكبر ظلام الجهل والغفلة واحتوشته وحوش المساوى والعيوب ، وأحاطت به هوام المعاصى والذنوب ، ولم يجد للفوز والخلاص منهما سبباً أقام خلف باب العارفين ، يستمطر الرحمة والعفو من رب العالمين ، فى حال الدهش والحيرة ، ينتظر من سعة كرمهم لحظة أو نظرة ، مع ماهو عليه من زى أهل الغفلة والفترة ، فقالوا له : من هذا الذى وقف بالباب يريد الدخول مع الأحباب من غير أن يعفر خده بالتراب ؟ فقال : طارق يريد الوصول ، فقالوا : لا سبيل للسارق إلى الدخول .

وإنما سمى المدعى : سارقاً لأنه يسرق كلام القوم وينسبه لنفسه . أو يدعيه حالا ومقاما وليس له فى ذلك إلا التطفل عليهم دون ذوق ولا وجدان ، فإذا أراد الله به خيراً ألقى فى قلبه الصدق والتصديق وذل وانكسر لأهل التحقيق . فوقف ببابهم منكسراً . وإلى ماعندهم من المعارف والأنوار مفتقراً . لأنهم باب الله الأعظم ، كما نبه على ذلك الناظم رحمه الله ، حيث قال :

فقال : مهلا صاحب الجنات ... لحائر قد ضل فى الفلاة
فقيل : هلا كنت ذا بستان ؟ ... فقال : كنت قاعداً ووان
فقال : يا قوم ألا تشرون ؟ ... قالوا : جهلت ثمن المثمون

قلت : المهل ، هو التأخر والتأنى ، وهو مصدر حذف عامله ، أى أمهلنى مهلا ، وضل تلف ، والفلاة هو : الموضع القفر الخالى من العمارة ، والوانى هو : المتأخر والمتمهل .

يقول رضى الله عنه : إن ذلك المدعى المتطفل لما عرف الحق وأهله ، وتحقق عيبه وجهله ، أقر بكمال أهل الكمال ، وعرف مقالات الرجال ، فحين طرق الباب ، وطرد من

---

(١) فى الأصل : ، هجم هذا ، فوضعنا (على) لإصلاح سياق الكلام .

ذلك الجناب تهمة له ، أنه لم يلق السلاح ، ولم ينزع عن فعاله القباح . قال لهم ، مهلا على يا أصحاب الجنات ، هنيئاً لكم بما أسلفتم فى الأيام الخاليات . ألا ترقوا لحائر قد ضل فى الفلاة واستوحشته هوام الذنوب والسيئات . ولسعته حيات الحظوظ والشهوات. ولدغته عقارب الشكوك والخطوات ، فقالوا : أين كنت وقت ريح السموم وبرد الليالى ؟ حين غرست الرجال أشجار المعارف لجنت ثمار المعانى ؟ قال : كنت عند كانون الكسل وغار البطالة قاعداً ووانى .

فقالوا له : لا تظن أن بساتين المعارف رخيصة . كل معشوق غال . ماجنيت ثمار المعارف إلا ببرد الليالى .

فقال : ياقوم أنتم أهل الكرم والجود . ألا تبيعوا لى شيئاً من ثماركم المنضود ، وتأوونى إلى سعة ظلكم الممدود ؟

قالوا له : جهلت ثمن ثمارنا المحمود . فلا تناله ولو بذلت فيه نفس المجهود . فليس ينال بالدراهم والفلوس ، وإنما ينال ببذل الأرواح والنفوس . كما نبه عليه الناظم بقوله :

فهـــذه فواكه المعارف ... لم تشر بالتالد او بالطارف
ما نالها ذو العين والفلوس ... وإنما تباع بالنفوس

قلت : التالد هو المال الذى نتج عندك وطال فى ملكك ، قال فى القاموس: التالد كصاحب والتلد بالفتح والضم والتحريك والتلاد والإتلاد والتلد : ماولد عندك من مالك. والطارف: الحادث من المال : أى الذى تجدد ملكه ، ضد التالد ، يقول رضى الله عنه: فواكه المعارف ، وأذواق الواجدين . وأنوار الراحلين والواصلين لا تنال ولا تشترى بالأموال القديمة ولا الحادثة ولا بالكسب والاكتساب . وإنما هى فضل من الكريم الوهاب يخص بها من يشاء بأسباب وبغير أسباب ، وفاعل السبب هو فاعل المسبب . من تمام نعمته عليك أن خلق فيك ونسب إليك ، فثبوت الخصوصية إنما هو منح إلاهية ومواهب اختصاصية ما نالها صاحب الدراهم والفلوس ، إنما تنال ببذل المهج والنفوس . يغيب أولا عن فلسه وجنسه ثم يفنى عن وجوده ونفسه ، ثم يغنى عن فنائه ويبقى ببقائه ، وما ثم فى ذلك كله إلا فضل ربه وعظيم عطائه ، وأنشدوا :

قد كنت أحسب أن وصلك يشترى ... بنفائس الأموال والأرباح

وظننت جهلا أن حبك هين | تفنى عليه كرائم الأرواح
حتى رأيتك تجتبي وتخص من | تختاره بلطائف الإمناح
فعلمت أنك لا تنال بحيلة | فلويت رأسي تحت طي جناحي
وجعلت في عش الغرام إقامتي | فيه غدوي دائما ورواحي

ومعنى بيع النفوس ، هو أن لا يبقى لها حظ ولا لحظ ، إذ المؤمن يشغله الثناء على الله ، عن أن يكون لنفسه شاكراً ، ويشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكراً ، وذلك لا يكون مع وجود القبض ، مع التأخر والتشمير ، وكل البقاء في عين الفناء المطلق ، وقد تضمن ذلك قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ »(١) الآية ، إذ المبيع لا يبقى لبائعه حق فيه ولا حظ ، ولا تدبير مع مشتريه ، ولا نسبة له في وجوده مع مالكه ، وإنما جاء سياق الآية بذلك إظهاراً للرحمة ، وتبيينا للكرامة وتتميما للنعمة ، إذ لا رحمة ولا نعمة أعظم من إكرام السيد عبده بإظهار النسبة له في وجوده بوجوده ، مع عزله عن وجوده وموجوده بطريق الرحمة والكرامة ، لا بطريق القهر والقوة ، والله تعالى أعلم . (قاله الشيخ زروق رضي الله عنه) .

ولما كانت جنة الزخارف مشتملة على بساتين وأنهار ، وعيون وقصور وحور ، شبهت الصوفية بما جنته المعارف ، فجعلوا فيها بساتين الأسرار والأنوار التي هي محل نزهة الأرواح ، وجعلوا فيها أنهار العلوم وعيون الحكم ، وقصور الحضرة ، وحور سكنى المعرفة وبحائر تفكه البسط والجمال ، واجتناء فواكه الأحوال ، وطرق مقامات الإنزال ، فقد ذكر الناظم ما يتعلق بالبساتين والأنهار والعيون ، وتكلم على ما بقي من القصور والبحار ، فقال :

وقيل : ليست هذه المقاصر | مأوى لكل قاعد وقاصر
وقيل : ليست هذه البحائر | لحائر ضل فظل حائر

قلت : المقاصر: جمع مقصورة، والمقصورة هي الدار الواسعة المحيطة ، قاله في القاموس، والبحائر جمع بحيرة وهي المقنات .

يقول رضي الله عنه : ليس للسكنى في قصور الحضرة والإقامة في دار المعرفة حاصل لكل قاعد بطال ، ولا لكل مقصر كسلان ، وليس التفكه من بحائر البسط والجمال لمن

---

(١) سورة التوبة . الاية : ١١١

كان فى حيرة وضلال وأقام فى تلفه راضيا بذلك الحال ، إنما نالها أهل الجد والاجتهاد ، وبصحبة الأفراد السالكين على منهاج الحق والسداد ، وفى ذلك قيل :

الأنس بالله لا يحويه بطال ولا يحوزه فى الحال محتال
والآنسون رجال كلهم نجب وكلهم صفوة الله عمال

ولا يمكن السكنى فى قصور المعارف ، والتفكه من ثمار الأذواق ، إلا بإفراد الوجهة للواحد الخلاق ، فيجعل الهموم هما واحداً ، والقصد قصداً واحداً ، والمحبة محبة واحدة ، والقلب مفرداً لله ، فبذلك ينال القرب من الله ، ويسكن فى حضرة الله . وفى الحديث « من جعل الهموم هما واحداً كفاه الله هم دنياه »(١)

قلت : وجعل جنة المعارف مأواه ، وفى حضرة القدس منقلبه ومثواه .

قيل للجنيد رضى الله عنه : كيف السبيل إلى الانقطاع إلى الله تعالى ، قال : بتوبة تزيل الإصرار ، وخوف يزيل التسويف ، ورجاء يبعث على مسالك العمل ، وإهانة النفس بقربها من الأجل وبعدها من الأمل .

قيل له : بم يصل العبد إلى هذا ؟ قال : بقلب مفرّد ، فيه توحيد مجرد .

قال الشيخ زروق : وهذا الأمر لا سبيل إليه سوى الضراعة لمن بيده القلوب وعنده مفاتح الأمور .

ثم نبه على أن ما قدم من العبارة ليس المقصود منها ظاهرها ، وإنما هو إشارة ، كما قال بعضهم : علمنا كله إشارة ، فقال :

فافهم فتحت هذه العبارة إشارة وإنما إشارة

قلت : فليس المقصود من ذكر الرعود ، والغيث وزهر الأغصان . واعتدال الزمان ، ولا من ذكر الظلال والأفياء ، والأنهار والعيون ، والروح ، والريحان ، والطارق والسارق ، والبستان ، مايفهم من ظاهر العبارة ، وإنما ذلك إلغاز وإشارة ، فتحت كل عبارة إشارة

---

(١) وفى رواية : « من جعل الهموم هما واحداً (هم المعاد وملاقاة الله) كفاه الله سائر همومه ، ومن تشعبت به الهموم من أحوال الدنيا ، لم يبال الله فى أى أوديتها هلك » رواه ابن ماجه عن عبدالله بن مسعود .

دقيقة ومعان رقيقة ، وقد تقدم التنبيه على ذلك كله في محله ، وبالله التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ثم ذكر أصل التصوف من جهة دليل الشرع ، فقال :

ولنرجع الآن لباقي الفصل إذ في تمامه ثبوت الأصل

قلت : الفصل معقود لثبوت أصل التصوف ، فذكر أصله من جهة الذوق والوجدان ، وبقي ثبوته من طريق الشرع ، وبه تمام ثبوت أصله على الكمال ، فأشار إليه بقوله :

فقادة الصوفي أهل الصفه في زمن الرسول فاعلم وصفه
وهم ضياف الله والإسلام وجلساء سيد الأنام

قلت : القادة ، والقدوة ، ما اقتديت به ، واتبعت طريقته .

يقول رضي الله عنه : فمتبوع الصوفية ، وقدوتهم في طريق التجريد وترك الأسباب والانقطاع إلى رب الأرباب ، هم أهل الصفة (موضع بناه عليه الصلاة والسلام في طرف مسجده لفقراء أصحابه) كانوا يجتمعون فيه : إذا كثروا بلغوا أربعمائة . وإذا قلوا كانوا ثمانين أو سبعين ، وبه سموا الصوفية (على قول) وكانوا يعرفون بضياف الله ، وبضياف الإسلام ، آثروا التجريد للعبادة ، ومجالسة سيد المرسلين ، وفيهم نزل قوله تعالى ـ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ـ (1) كما يأتي ، فأقرهم عليه الصلاة والسلام على التجريد وترك الأسباب ، حيث علم منهم عدم التشوف للأسباب ، والرضى بما قسم الله لهم ، وبما يواجههم به سبحانه من سعة أو ضيق ، ومن تشوف منهم أمره بالأسباب ، مثل حكيم بن حزام رضي الله عنه ، فإنه سأله فأعطاه ثم سأله فأعطاه ثم سأله فأعطاه ، ثم قال له يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، ثم قال له : لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب خير له من أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه »(2) الحديث ، فدله عليه الصلاة والسلام على التسبب لما تشوفت نفسه للأسباب ، بدلا عن المسألة ، إذ هي آخر كسب المؤمن

---

(1) سورة الأنعام ، الآية : ٥٢

(2) رواه أحمد ، والترمذي ، والنسائي بألفاظ متقاربة .

بخلاف غيره، إذ لم يتشوف، ولذلك قال الخواص رضي الله عنه: مادامت الأسباب في النفس قائمة، فالتسبب أولى، والأكل بكسب أحل له، لأن القعود عن المكاسب لا يصلح لمن لم يستغن عن التكليف.

ثم وصف حالهم ليقتدى بهم، فقال:

كانوا على التجريد عاملين   وعن سوى الرحمن معرضين

قلت: التجريد هو: التعرية عن الشيء، يقال: فلان جرد ثوبه: أزاله، وجردت الجلد: أزلت شعره، هذا باعتبار اللغة.

وأما عند الصوفية فهو على ثلاثة أقسام: تجريد الظاهر فقط، أو الباطن فقط، أو هما معاً، فتجريد الظاهر هو: ترك الأسباب الدنياوية وخرق العوائد النفسانية الجسمانية، والتجريد الباطني هو: ترك العلائق النفسانية والعوائق الوهمية، وتجريدهما معاً هو: ترك العلائق الباطنية والعوائد الجسمانية.

أو تقول: تجريد الظاهر هو: ترك كل ما يشغل الجوارح عن طاعة الله، وتجريد الباطن هو: ترك كل ما يشغل القلب عن الحضور مع الله، وتجريدهما هو: إفراد القالب والقلب لله، والتجريد الكامل في الظاهر هو: ترك الأسباب، وتعرية البدن من معتاد الثياب، وفي الباطن هو تجريد القلب من كل وصف ذميم، وتحليته بكل وصف كريم، فأشار الناظم إلى الأول وهو: تجريد الظاهر بقوله «كانوا» أي أهل الصفة «على التجريد» الظاهر «عاملين» ورفعوا همتهم إلى رب العالمين، فقنعوا بما تيسر من القوت، وما يستر العورة من الثياب، منها ما يبلغ الركبة، ومنها دون ذلك، كانوا يقولون للنساء في الصلاة: لاترفعن رءوسكن حتى يستوي الرجال قعوداً، خشية أن يرين عورة أهل الصفة من قصر الثياب، ومنهم من لبس إهاب كبش: أي جلده، وهو مصعب بن عمير، فلما رآه عليه الصلاة والسلام: بكى وقال: «انظروا إلى هذا الذي نور الله قلبه فقد رأيته بمكة بين أبويه يختال في حلة قد اشتريت له أو اشتراها بمائتي درهم فما زال به حب الله ورسوله حتى صيره إلى ما ترون» رواه البيهقي كما في المنذري، ورواه في كتاب الزهد عن الترمذي أيضاً، فهذه كانت أحوال أهل الصفة، خيار هذه الأمة، وهذه كانت سمة نبينا صلى الله عليه وسلم.

فقد دخل سيدنا عمر رضي الله عنه عليه صلى الله عليه وسلم فرأى الشريط قد أثر

فى جنبه صلى الله عليه وسلم ، فبكى عمر رضى الله عنه لما رأى - كما فى البخارى - ومات عليه الصلاة والسلام ودرعه مرهونة عند يهودى واليوم صار هذا بدعة عند الناس ، وصار التأنق فى اللباس وتكبير العمائم وجمع المال سنة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ويرحم الله القائل .

يا حسبى الله ما للناس أكثرهم ... قد أنكروا الزهد والتجريد والورعا
سموا طريق أولى التوفيق صعلكة ... وسنة لقبوا الأهواء والبدعا

و « سنة » مفعول مقدم للقبوا .

وقول الناظم « وعن سوى الرحمن معرضين » أى وكانوا عن سوى الرحمن معرضين ، لا يلتفتون إليه ، ولا يتعلقون به ، اكتفاء بالله واستغناء بعلمه رضى الله عنهم ونفعنا بهم ، ثم أشار إلى الثانى وهو التجريد الباطنى ، فقال :

تخلقوا بخلق النبى ... يدعون بالغداة والعشى

قلت : تخلق بكذا : تطبع به ، والخلق بضمتين : السجية والطبع .

يقول رضى الله عنه : إن أهل الصفة رضى الله عنهم ، تخلقوا بخلق النبى صلى الله عليه وسلم ، يعنى قاربوا من خلقه عليه الصلاة والسلام ، وإلا فلا يمكن التخلق بخلقه عليه الصلاة والسلام على الوفاء والتمام ، كيف والله تعالى يقول - وإنك لعلى خلق عظيم -(١) فقد حاز عليه الصلاة والسلام مراتب الكمال على الوفاء والتمام ، حتى قالت عائشة رضى الله عنها « كان خلقه القرآن » واحتشمت أن تقول : « كان خلق الرحمن » أدبا مع الحضرة ، ووقوفاً مع الحكمة ، فذكرت ما يليق بآداب العبودية ، واحتشمت من أخلاق الربوبية ، فقد أعطى عليه الصلاة والسلام الغاية من : الزهد ، والورع والخوف ، والرجاء ، والصبر والتوكل ، والتسليم ، والمحبة ، والرحمة ، والشفقة ، والحلم ، والكرم ، والشجاعة ، وكمال العقل ، وتمام المعرفة ، إلى مالا يحصى ؛ وكان أهل الصفة أشبه الناس به فى هذه الأخلاق .

وقوله - يدعون ربهم - أشار به إلى قوله تعالى فى حقهم لرسوله صلى الله عليه وسلم - واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم -(٢)

---

(١) سورة القلم ، الآية : ٤
(٢) سورة الكهف ، الآية : ٢٨

وسبب نزول الآية أن الكفار قالوا ، لا نرضى أن نجالسك مع هؤلاء . فأراد عليه الصلاة والسلام أن يجعل لهم مجلسا يخصهم به ، ثم يجالس الفقراء بعد ذلك ، فنزلت الآية .

قال بعضهم : هو أمر إرشاد وتزكية ، ونهى تنبيه وترقية ، ليكون محجة لقوم ؛ وحجة على قوم . وهذا كنهى البار عن العقوق ، وأمره بالبر ، ليكون أثبت وأوفى وأتم فى الحجة وإظهاراً لتشريف قدر هذه الجماعة ، وماهم عليه من محامد الخلال ، وإلا فهو عليه الصلاة والسلام ، لايعمل إلا ذلك قبل الأمر وبعده . ثم ماوصفهم به مولاهم من الدعاء بالغداة والعشى غير معلل بعلة سوى إرادة وجهه الكريم ، أى معرفة ذاته المقدسة . لايعرجون على ثواب ولا جزاء ولا قصور ، ولا حور ، وبهذا كله تحققت الصوفية رضى الله عنهم ، كما فهموا ذلك من أخلاق نبيهم صلى الله عليه وسلم . وما كان يدل عليه ، وإلى ذلك أشار بقوله :

قد فهموا مقتضيات الشرع فصيروا الفرق لعين الجمع

قلت : مقتضى الشيء ، مطلوبه ، واقتضى دينه : طلبه والشرع ، والشرعة ، بالكسر : ماشرعه الله لعباده من الأحكام . والفرق عند الصوفية ، هو : شهود حق بلا خلق ، وجمع الجمع هو : شهود خلق بحق .

الفرق شريعة ، والجمع حقيقة ، الفرق شهود الحكمة ، والجمع شهود القدرة ، وجمع الجمع : شهود حكمة وقدرة .

يقول رضى الله عنه فى وصف أهل الصفة: إنهم تركوا الدنيا لأهلها ، وانقطعوا إلى الله بالكلية ، وقد فهموا ذلك من مطلوبات الشرع ومقتضياته ، إذ قد سمعوا كلام ربهم وأحاديث نبيهم صلى الله عليه وسلم فى ذم الدنيا والاشتغال بها ، ومدح التفرغ للعبادة والاجتهاد فيها ، وما أعد الله فيها للزاهدين والقانتين ، فتركوا الأسباب التى هى شريعة الضعفاء ، وتمسكوا بالتجريد الذى هو شريعة الأقوياء . وحقيقة الأصفياء ، فصيروا الفرق الذى هو الاشتغال بالأسباب لعين الجمع ، الذى هو الاشتغال بمسبب الأسباب . فالنظر للأسباب فرق . والنظر لمسبب الأسباب جمع وهذا كقول الشيخ أبى العباس رضى الله عنه : للناس أسباب ، وسببنا الإيمان والتقوى . قال الله تعالى ـ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا ـ(١) فمقتضى الشرع للعبد

(١) سورة الأعراف . الآية : ٩٦

أن يكون جامعاً بين حقيقة وشريعة . أعنى شريعة الخواص التى هى لب الشريعة. لاشريعة العوام التى هى القشر ، وإذا كان جامعاً . فيكون فى ظاهره ممتثلا لأمره ، وفى باطنه مستسلما لقهره بدعوه لكونه لايرى الأمر إلا منه وله . ويقوم بواجبات وقته لكونه مطلوبا بوظائف حكمته . عاملا بقوله ـ إياك نعبد وإياك نستعين ـ فإياك نعبد فرق ـ وإياك نستعين ـ جمع ، وشهود الجمع فى عين الفرق ، هو جمع الجمع ، وهو الصراط المستقيم الذى طلب الهداية إليه . وبالله التوفيق ، فهو الهادى إلى سواء الطريق .

ولما ذكر أن أهل الصفة صيروا الفرق عين الجمع ، ذكر ما يترتب عليه من الخروج عن كل شىء ، والغنى بالله فى كل شىء . فقال :

قد خرجوا لله عما اكتسبوا   فكل صوفى إليهم ينسب

قلت : لا شك أن أهل الصفة رضى الله عنهم كانت لهم أموال وعبيد وإماء وديار وعقار وأهل وعيال ، فلما هاجروا إلى الله ورسوله ، خرجوا عن ذلك كله ، وتركوه لله . فانتقلوا إلى المدينة ليس معهم شىء ، فبنى لهم عليه الصلاة والسلام صفة فى طرف المسجد فنزلوا فيها : يصلون بالليل ويصومون بالنهار ، ويجاهدون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول الجيش ، فقتل أكثرهم فى الجهاد ، ومن بقى منهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءته الدنيا .

فنهم من لم يقبلها ولم يأخذ منها شيئاً ، كأبى ذر ، وأبى الدرداء ، وأبى عبيدة ، ومعاذ وغيرهم ممن لا يحصى .

ومنهم من أخذها بالله ، ودفعها لله ، فكان فيها كالأمين ينتظر العزل من مولاه ، يقوم فيها بواجب الحقوق دون تقصير ، ولا تعريج على مخلوق . وكذلك كانت الصوفية المحققون لا يملكون مع سيدهم شيئاً ولا يملكهم شىء .

وقد سأل بعض الفقهاء أبا بكر الشبلى رحمه الله اختباراً له فى العلم . فقال: يا أبا بكر : كم فى خمس من الإبل ، فقال : أما الواجب فشاة ، وأما عندنا فكلها لله ، قال : وما دليلك قال : أبو بكر حين خرج عن ماله كله لله ورسوله ، فمن خرج عن ماله كله فإمامه أبو بكر ومن خرج عن بعض وترك بعضاً فإمامه عمر رضى الله عنه ، ومن أعطى لله ومنع لله ، كان إمامه عثمان رضى الله عنه ، ومن ترك الدنيا لأهلها فإمامه على رضى الله عنه ، وكل علم

لا يدل على ترك الدنيا ، فليس بعلم اهـ .

وقوله « فكل صوفى إليهم ينسب » يعنى أن كل من اتصف بأوصافهم من الخروج عما كسب لله ، أو أخذه بالله وأعطاه لله فهو منسوب إليهم ، فيقال له صوفى ، إما نسبة إلى الصفة على غير قياس ، وإما لأنه صفت أحواله كما تقدم فى الاشتقاق .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه : كل من اتصف بأوصافهم فهو منسوب إليهم ، سواء كان غنيا أو فقيراً ، لأن الله عز وجل لم يمدحهم بالعدم ، وإنما مدحهم بكونهم يدعونه بالغدو والعشى يريدون وجهه ، فمن اتصف بهذا كان على طريقتهم : غنياً كان أو فقيرا ، ودليل ذلك أنه كان منهم بعد ذلك : الأمير ، والفقير ، والمتسبب ، والمتجرد ، ولم ينقل ذلك وصفهم عما كانوا موصوفين به ، ولانقصهم عما هم فيه من العمل بالحق والحقيقة ، بل شكروا على الدنيا حين وجدت ، كما صبروا عنها حين فقدت ، فكانوا لمولاهم فى الحالتين ، ومن كان بهذه الصفة فهو تابع لهم ، فاعرف ذلك .

وإذا كان أمر التصوف حال أهل الصفة . فهو أمر ثابت عن الشارع بتقريره ، ولم يبق البحث إلا فى التسمية ، وهو أمر اصطلاحى لا مدخل للإنكار فيه ، إذ هى من عوارض الألفاظ ، والله تعالى أعلم اهـ .

وقوله : « إن هو » يشير إلى أن القياس أن يقال فيه : الصفى « بالشد » ، لكن كثيراً ما يأتى النسب على غير قياس ، وهذا منه ، ثم بين أن طريق التصوف ليس محدثا ، بل هو مقرر من الشارع ، فقال :

إذن فشأن القوم ليس محدثا بل كان أحوى فوجدناه غثا

قلت : الأحوى : النبات الضارب للسواد من شدة الخضرة ، قاله فى القاموس ، والغثاء هو : لنبات اليابس الهشيم .

يقول رضى الله عنه: إذا تقرر ماتقدم من حال أهل الصفة ، وما كانوا عليه من التجريد وقد أقرهم النبى صلى الله عليه وسلم على ما كانوا عليه ، فليس شأن الصوفية محدثا ، بل هو أمر شرعى ، إذ لا يقرر عليه الصلاة والسلام إلا ما هو مباح أو مطلوب ، وكيف يكون محدثا ومدار الشريعة عليه ، إذ هو لبها وصفاؤها ، إذ مقصوده التصوف تصفية البواطن حتى يكون العبد على حالة رضاها الله ورسوله ظاهراً وباطنا ، وإذا كان أمره هكذا ، فكل علم يتوقف عليه إما من باب الشرط أو الكمال ، إذ مداره على صدق التوجه إلى الله

تعالى من حيث يرضى بما يرضى ، فكل علم لا يصحبه صدق التوجه إلى الله ، فليس بشيء إذ الإخلاص شرط فى الجميع ، وأيضاً مقام التصوف هو مقام الإحسان الذى فسره رسوله الله صلى الله عليه وسلم بقوله « أن تعبدالله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1] وذلك لا يصح بدون ماتقع به العبودية والتعبد من عقائد الإيمان وأعمال الإسلام ، فهما ظاهره وهو باطنهما ، فلا قيام لهما إلا به ، ولا صحة له بدونهما . فهو كالروح ، وهما كالجسد ، فالروح لا تقوم بغير جسد ، والجسد لا يقوم بغير روح ، ولذلك قال مالك رضى الله عنه : من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن تفقه وتصوف فقد تحقق ، فالفقه من غير تصوف جسد بلا روح ، والميت لا عبرة به ، والتصوف من غير فقه ما يلزم الإنسان فى نفسه لا يصح ، إذ لا يدخل للحقيقة إلا من باب الشريعة ، وإلا فهى زندقة ، فالمتكلم فى أحكام الإسلام يسمى فقيها ، والمتكلم فى أحكام الإيمان يسمى أصوليا ، والمتكلم فى أحكام الإحسان يسمى صوفيا ، ويسمى علمه تصوفا ، فغاية التصوف ومداره : تفسير مقام الإحسان ، لأنه دال بأوله على خشية الله ، وبأوسطه على معاملته ، وبآخره على معرفته .

أو تقول: مداره على مراقبة بعد مشاهدة ، أو مشاهدة بعد مراقبة ، وهو مقام الإحسان .

وأما إنكار بعض الناس هذا اللفظ ، بأنه لم يسمع فى صدر الصحابة والتابعين ، فهو مردود ، إذ كثير من الاصطلاحات أحدثت بعد زمان الصحابة ، واستعملت ولم ينكر ، كالنحو ، واللغة ، والمنطق .

وأيضاً قد ذكر التجيبى : أنه سمع فى صدر السلف ، فقد قال الحسن البصرى رضى الله عنه : لقيت صوفيا فى الطواف ، فأعطيته شيئا ولم يقبله . والحسن من كبار التابعين ، أدرك كثيراً من الصحابة ، فهو حجة على استعمال هذا الإسم فى زمانه ، والله تعالى أعلم .

وقوله « بل كان أحرى فوجدناه غثا » يعنى أن التصوف كان فى الصدر الأول غضا طريا جديداً ، لقربه من نور النبى صلى الله عليه وسلم ، فكان أقل شىء منه ينهض صاحبه ، ثم طال أمره وقل وجوده ، فوجدناه غثا : يابسا متهشما ، لكنه يصلح للرعى ، كالأول ،

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، وأغلب كتب السنة ، وهو حديث جبريل المشهور .

مع أفضلية الأول ، يعني أن حقائقه لم تتغير ، وإن تغيرت أعيانه ، فالعمل به لم ينقطع ، لكنه صار غريبا وأهله غرباء ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « طوبى للغرباء »[1] وإذا تقرر أن حقائقه لم تتغير وجب العمل به كما أبان ذلك بقوله :

فاسلك طريق القوم تلق يمنه ... إذ الكتاب قيده والسنه

قلت : « اليمن » هو البركة والخير ، يشير إلى أن طريق القوم ميمونة مباركة ، فكل من سلكها بالصدق والمحبة ، والجد والاجتهاد : وجد بركتها ويمنها ، وبركتها هي ثمرتها ، وثمرتها : ما ينتج منها من مكارم الأخلاق ومعرفة الخلاق ، وقيل : ثمرتها سخاوة النفوس وسلامة الصدور ، وحسن الخلق .

وقوله : « إذ الكتاب قيده والسنه » أشار به إلى قول الجنيد رضى الله عنه : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يسمع الحديث ويجالس الفقهاء ، ويأخذ أدبه عن المتأدبين أفسد من اتبعه .

وقال سهل بن عبد الله : بنيت أصولنا على ستة أشياء : كتاب الله ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء الحقوق .

وقال أبو عثمان الحيرى رضى الله عنه : من أمر السنة على نفسه قولا وفعلا : نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة اهـ .

وقال أبو القاسم النصراباذى رضى الله عنه : أصل التصوف : ملازمة الكتاب والسنة ، وترك الأهواء والبدع ، وتعظيم حرمات المشايخ ، ورؤية أعذار الخلائق ، والمداومة على الأوراد ، وترك الرخص والتأويلات .

قلت: حرر أبو إسحاق الشاطبي هذه المسئلة ـ حسبما نقله فى « العدة » ـ فرأينا نقله بطوله ، لما فيه من الفوائد . . فقال رضى الله عنه :

« كل ما عمل به المتصوفة المعتبرون فى هذا الشأن ، يعنى كالجنيد وأمثاله لا يخلو : إما أن

---

(١) ومن ألفاظه : « طوبى للغرباء : أناس صالحون قليل فى أناس سوء كثير : من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم » رواه الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو بن العاص .

يكون مما ثبت له أصل فى الشريعة ، فهم خلفاؤه ، كما أن من الصحابة والتابعين خلفاء بذلك ، وإن لم يكن له أصل فى الشريعة فلا عمل عليه ، لأن السنة حجة على جميع الأمة ، وليس عمل أحد حجة على السنة ، لأن السنة معصومة من الخطأ ، وصاحبها معصوم ، وسائر الأمة لم تثبت لهم عصمة أصلا ، إلا مع اجتماعهم خاصة ، وإذا اجتمعوا : تضمن إجماعهم دليلا شرعياً ، فالصوفية كغيرهم ممن لم تثبت لهم العصمة ، ويجوز عليهم : الخطاء ، والنسيان ، والمعصية ، كبيرها ، وصغيرها ، والبدعة : محرمها ومكروهها ، وكذلك قال العلماء : كل كلام منه مقبول ومردود ، إلا ما كان من النبي عليه الصلاة والسلام .

قال : وقد قرر القشيرى رحمه الله ذلك أحسن تقرير ، قال : «هل يكون الولى معصوما ؟ قال : أما وجوبا كما يكون فى الأنبياء فلا ، وأما أن يكون محفوظا حتى لا يصر على الذنوب وإن حصلت منه هفوات أو زلات أو آفات فلا يمتنع ذلك فى وصفهم » .

قال : وقد قيل للجنيد : العارف يزنى ، فأطرق رأسه ملياً ، ثم رفع رأسه ، وقال ـ وكان أمر الله قدرا مقدورا (١) .

قال : فهذا كلام المصنف ، فكما يجوز على غيرهم المعاصى والابتداع وغيره ، كذلك يجوز عليهم البدع ، فالواجب علينا أن نقف مع الاقتداء بمن يمتنع عليه الخطأ ، ونقف عن الاقتداء بمن يجوز عليه إذا ظهر فى الاقتداء به إشكال ، بل يعرض ما جاء عن الأمة على الكتاب والسنة فما قبلاه قبلناه ، وما لم يقبلاه تركناه ، وما علينا إذا قام لنا الدليل على اتباع أقوال الصوفية وأعمالهم إلا بعــد عرضها على الكتاب والسنة ، وبذلك وصى شيوخهم ، وأن ما جاء به صاحب الوجد والذوق من العلوم والأحوال والفهوم يعرض على الكتاب والسنة ، فإن قبلاه ، وإلا لم يصح .

ثم قال : إذا نظرت فى رسومهم التى حدوها ، وأعمالهم التى امتازوا بها عن غيرهم بحسب تحسين الظن والتماس أحسن المخارج ، ولم تعرف له مخرجا ، فالواجب التوقف عن الاقتداء والعمل ، وإن كانوا من جنس من يقتدى بهم ، لا رداً له ولا اعتراضاً عليه ، بل لأنا لم نفهم وجه رجوعه إلى القواعد الشرعية كما فهمنا غيره .

ثم قال ـ بعد كلام ـ فوجب بحسب الجريان على رأيهم فى السلوك أن لا نعمل بما رسموه

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٣٨ .

وبما فيه معارضة لأدلة الشرع ، ونكون فى ذلك متبعين لآثارهم ، ومهتدين بأنوارهم خلافا لمن يعرض عن الأدلة ويصمم على تقليدهم فيما لا يصح تقليدهم فيه على مذهبهم ، فالأ الشرعية ، والأنظار الفقهية : ورسوم الصوفية تذمه وترده ، وتحمد من تحرى واحتاط وتوقف عن الاشتباه ، واستبرأ لدينه وعرضه ، انتهى كلامه .

هذا آخر فصل أصله عقلا ونقلا .

وموضوع هذا العلم : الذات العلية ، لأنه يبحث عنها باعتبار معرفتها : ذاتاً وصفة وأسماء : تعلقاً وتخلقا وتحققاً .

وواضعه الرسول صلى الله عليه وسلم وحياً وإلهاماً .

وحده : صدق التوجه إلى الله تعالى من حيث يرضى ، بما يرضى .

واستمداده من الكتاب والسنة ، وإلهامات الصالحين ، وفتوحات العارفين .

واسمه : التصوف ، وتقدم اشتقاقه واستمالة .

وثمرته : تصفية البواطن بالتخلية والتحلية : تتهيأ لواردات الأنوار الإلهية والفتوحات الربانية .

وقد وقع فى بعض نسخ الناظم هنا زيادة أبيات تضمنت هذه المعانى ، لكن لم توجد فى جل النسخ ، وليس عليها رونق ولا طلاوة مثل ما للناظم . ولا أظنها إلا زيادة من بعض الكتاب . والله تعالى أعلم .

وأما فضيلته فأشار إليها فى هذا الفصل بقوله :

الفصل الثانى فى فضله

اعلم أن شرف الشيء وفضيلته ، إما أن تثبت بالعقل أو بالنقل أو بظهور ثمرته فى الخارج ، وقد اجتمعت هذه الأمور فى علم التصوف على الكمال :

أما ثبوت شرفه بالعقل ، فلا شك أن الشيء يشرف بشرف موضوعه وواضعه ، وقد تقدم: أن موضوع هذا العلم ، الذات العلية ، وهى أشرف وأفضل على الإطلاق، وواضعه الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو أفضل الخلق بالإجماع ، وأيضاً العقل السليم : يستحسن الكمالات ، ولا شك أن التصوف ماوضع إلا لتحقق الكمالات : علما ، وعملا ، وحالا ، فهو موضوع لتكميل العقائد وتطهير النفوس وتحسين الأخلاق .

وأما ثبوت شرفه بالنقل ، فلا شك أن الكتاب والسنة وإجماع الأمة وردت بمدح جزئياته ومسائله ، كالتوبة ، والتقوى ، والاستقامة . والصدق، والإخلاص ، والطمأنينة ، والزهد ، والورع ، والتوكل ، والرضى ، والتسليم ، والمحبة ، والمراقبة ، والمشاهدة ، وغير ذلك من مسائله .

وقال الجنيد رضى الله عنه : لو نعلم أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذى نتكلم فيه مع أصحابنا لسعيت إليه ما تبلغ إليه المطى ، وفى رواية « ولو حبوا » .

وقال الشيخ الصقلى رضى الله عنه فى كتابه المسمى « بأنوار القلوب فى العلم الموهوب » : كل من صدق بهذا العلم فهو من الخاصة ، وكل من فهمه ، فهو من خاصة الخاصة ، وكل من عبر عنه وتكلم فيه فهو النجم الذى لا يدرك والبحر الذى لا يرتقى اه .

وما من علم إلا وقد يستغنى عنه فى وقت ما ، إلا علم التصوف ، فلا يستغنى عنه أحد فى وقت من الأوقات .

وأما شرفه باعتبار ظهور ثمراته ، فهو الذى تكلم عليه الناظم فى هذا الفصل ، وحصره فى ستة أمور :

الأول : ماظهر على أهله من شدة الاقتداء وقوة الاتباع .

الثانى : ماظهر عليهم من وفاق مذهبهم ، وحسم الخلاف والنزاع بينهم .

الثالث : ما ظهر عليهم من الكرامات الحسية والمعنوية .

الرابع : ماظهر عليهم من تطهير جوارحهم من الذنوب ، ونفوسهم من العيوب فى الغالب

الخامس : ماظهر عليهم من تحقيق عقائد الإيمان ، وترقيهم فيها إلى مقام الإحسان، مع صحة اليقين والثقة برب العالمين .

السادس: ماكوشفوا به من العالم الروحانى ، وما ترقوا إليه من عالم الملكوت ، وحضرة الجبروت ، وهذا مضمن هذا الفصل ، فأشار إلى الأول بقوله :

حجة من يرجح الصوفيه على سواهم حجة قويه

قلت : وإنما كانت حجة من يرجح الصوفية على غيرهم حجة قوية ، لأنهم أحرزوا الكمالات : عقداً وعملا، وحالا ، أما اعتقادهم فترقوا فيه إلى الشهود والعيان ، وأما عملهم فهم يأخذون بالأحسن والأحوط ، فهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

وأما حالهم فهى : ربانية ذوقية ، فهم على بينة من ربهم .

ثم ذكر ترجيحهم وشرفهم باعتبار ماظهر عليهم من ثمرات علمهم ، وهى ستة كما تقدم ـ فأشار إلى الأول ، وهى شدة الاقتداء والمتابعة فقال :

هم أتبع الناس لخير الناس من سائر الأنام والأناس

قلت : الأنام ، والأناس : شىء واحد ، وهم الناس ؛ سموا الأنام ، لغلبة النوم لهم ؛ وسموا الناس ، لأنس بعضهم ببعض .

يقول رضى الله عنه : هم أى الصوفية أتبع الناس ، وأكثرهم اقتداء بسيد الناس ﷺ فدل ذلك على أنهم أحب الخلق إلى الله .

قال تعالى ـ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم(١) الله ـ وقال رسول الله ﷺ : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ، وماله، وولده ، والناس أجمعين(٢) ، وعلامة المحبة الاتباع .

وقال بعضهم : التصوف ذكر مع اجتماع ، ووجد مع استماع ؛ وعمل مع اتباع .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٣١

(٢) رواه أحمد ، والبيهقى ، والنسائى ، وابن ماجه : عن أنس .

ثم ذكر وجه كونهم أشد الناس اتباعا ، فقال :

تبعه العالم فى الأقوال   والعابد الناسك فى الأفعال
وفيهما الصوفى فى السياق   لكنه قد زاد بالأخلاق

قلت : الناس ثلاثة : عالم ، وعابد ، وعارف صوفى ، وكلهم قد أخذوا حظا من الوراثة النبوية ، فالعالم ورث أقواله عليه الصلاة والسلام تعلما وتعليما ، بشرط إخلاصه ، وإلا خرج من الوراثة بالكلية ، إذ الأعمال بلا إخلاص ، أشباح بلا أرواح ؛ ومن ورث من أبيه جارية ميتة ، فليس بوارث ، والعابد ورث أفعاله عليه الصلاة والسلام ، من : صيام وقيام ، ومجاهدة ظاهرة ، فقد قام عليه الصلاة والسلام حتى تورمت قدماه ، وكان يصوم كثيراً ، ويفطر كذلك ، والصوفى العارف ورث الجميع ، فأخذ فى بدايته مايحتاج إليه من العلم ، وقد يتبحر فيه ، ثم ينتقل إلى العمل على أكمل حال ، ثم زاد عليهما بوراثة الأخلاق التى كان عليها باطنه صلى الله عليه وسلم من : زهد ، وورع ، وخوف ، ورجاء ، وصبر ، وحلم ، وكرم ، وشجاعة ، وقناعة ، وتواضع ، وتوكل ، ومحبة ، ومعرفة ، وغير ذلك عما يطول ذكره . ولذلك قال سهل رضى الله عنه : الصوفى : من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر ، وانقطع إلى الله دون البشر ، واستوى عنده المال والمدر .

وقد خص الله رسول الله صلى الله عليه وسلم بخصائص لم يشاركه أحد فيها ، فكان له القوة فى الجهتين ، فمن نظر فى عبادته وجده لا يطاق ، ومن نظر فى أخلاقه الباطنة وجده لا يدرك ، ومن نظر فى معرفته وجده لا يلحق ولا يقرب أحد حول حماه ، فكان عليه الصلاة والسلام على مقام : لا يدرك ، ولا يلحق ، ولا يعرف .

وانظر قول الشيخ القطب ابن مشيش رضى الله عنه : « وفيه ارتقت الحقائق وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق ، وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق » وان ينال أحد من العلماء والعباد والصوفية من علمه عليه الصلاة والسلام أو عمله أو خلقه إلا رشفة أو رشه ، ولله در البوصيرى فى بردة المديح ، حيث يقول :

وكلهم من رسول الله ملتمس   غرفا من البحر أو رشفا من الديم
وواقفون لديه عند حدهم   من نقطة العلم أو من شكلة الحكم

ثم ذكر الأمر الثانى ، وهو : اتفاق مذهبهم ، واتحاد غاية طريقهم .

ثم بشيئين تقوم الحجه وأنهم قطعا على المحجه
مذاهب الناس على اختلاف ومذهب القوم على ائتلاف
وما أتوا فيه بخرق العاده إذ لم تكن لمن سواهم عاده

قلت : الحجة هى الدليل والبرهان ، والمحجة هى الطريق المستقيم ، والائتلاف هو الاتفاق

يقول رضى الله عنه : ثم تقوم الحجة الدالة على أنهم على المحجة والطريق المستقيم بشيئين : أحدهما أن مذاهب الناس على اختلاف كثير ، فقد كانت مذاهب الفقهاء فى الفروع اثنى عشر مذهبا ، ثم تقررت فى أربعة .

كانت مذاهب القراء خمسة وعشرين رواية ، ثم تقررت فى عشرة ، وكانت مذاهب النحاة على مذهبين ، بصرى ، وكوفى ، بخلاف مذهب الصوفية ، فهى متفقة فى المقصد والعمل وإن اختلفت المسالك ، فهى راجعة إلى صدق التوجه إلى الله تعالى من حيث يرضى بما يرضى وعبارة كل واحد على قدر ما نال منه ، إذ كل عبارة فيه إنما هى مخبرة عن صدق توجه صاحبها ، وكل من له نصيب من صدق التوجه : له نصيب من التصوف ، إذا كان توجهه رضاه الحق ، ومن حيث يرضاه ، وإلا فهو زنديق ، واسم التصوف عليه لا حقيقة له ، فلذلك قيل ، من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن جمع بينهما فقد تحق ، وإنما تزندق الأول لرفضه الحكمة والأحكام ، وتفسق الثانى لخلوه من صدق التوجه فيما هو فيه ، وتحقق الثالث لقيامه بكل فى محله ، فرجع كلام الصوفية فى كل باب لأحوالهم ، وإلا فلا تنافى بين أقوالهم لمن تأملها ، وذلك خلاف مذهب غيرهم ، والوجه فيه أن الحق واحد وطريقه واحدة ، وإن اختلفت مسالكها ، فالنهاية واحدة ، والذوق واحد ، وفى معنى ذلك قال قائلهم :

الطرق شتى وطريق الحق مفردة والسالكون طريق الحق أفراد
لا يعرفون ولا تسلك مقاصدهم فهم على مهل يمشون قصاد
والناس فى غفلة عما يراد بهم فجلهم عن طريق الحق حياد

فإن قلت : قد ورد مدح الاختلاف وذم الائتلاف فقد ورد فى بعض الآثار

« اختلاف أمتي رحمة[1] » وقال بعضهم : مادامت الصوفية بخير ماتنافروا ، فإذا اتفقوا فلا خير فيهم .

قلت : أما مدح الاختلاف فهو محمول على الاختلاف في الفروع ، كاختلاف الأئمة في المذاهب، فإن في ذلك توسعة على الأمة ، إذ كل من تمسك بمذهب فهو ناج ، مالم يتبع الرخص، وكذلك اختلاف الروايات في القراءة ، فهي توسعة أيضاً على القارىء ، بخلاف الاختلاف في الأصول ، فهو مذموم ، كاختلاف القدرية والجبرية والحشوية وغير ذلك من الاختلاف في التوحيد ، ومذهب الصوفية هو الاتفاق في الأصول والفروع .

أما الأصول فنهايتهم الشهود والعيان ، وهم متفقون فيه ، لأنه أمر ذوقي لا يختلف .

وأما الفروع فهم يأخذون بالأحوط ، والأكابر منهم يخرجون عن التقليد ، ويتمسكون بالكتاب والسنة في نفسه ، وإن كان جلهم قلدوا في الفروع ، فكان الجنيد على مذهب أبي ثور ، والشبلي : مالكيا ، والجيلاني ، حنبلياً ، إلى غير ذلك .

وأما قول من قال : « مادامت الصوفية بخير ما اختلفوا » فمراده اختلاف تنبيه وإرشاد فكل واحد يرشد صاحبه وينبهه إذا رأى فيه نقصاً وعيباً ، فإذا اتفقوا وسكتوا على عيوبهم فلا خير فيهم ، وقد يحمل ذلك على حال مذاكراتهم في العلوم ، فقد قالوا فيهم : « ألسنتهم حادة ، وقلوبهم سالمة » ، ولا شك أن حال المذاكرة لاينبغي فيها التسليم في كل شىء ، إذ لاتخرج العلوم إلا بالحك والبحث والتفتيش .

قال بعضهم ، نحن في حال المذاكرة بحال من قال : « حك لي نزبل لك » لا بحال من قال : « سفج لي : نعسل لك » هكذا سمعتها من شيخ شيخنا مولاي العربي رضي الله عنه ، وكان يقول لي : لا تسلم لنا في حال المذاكرة ، وكان أيضاً يقول : المستحي ، والمتكبر ، والخواف ، لا يأخذ من طريقتنا شيئاً ، والله تعالى أعلم .

وأما الأمر الثاني الذي تقوم به الحجة فهو خرق العادة التي ظهرت على أيديهم ، وتسمى : الكرامة ، وقد تقدم تنويعها إلى حسية ومعنوية ، وأن المعتبر هي الكرامة المعنوية ، وهي الاستقامة ، وأما الكرامة الحسية فإن صحبتها الإستقامة فهي كرامة شاهدة على صدق صاحبها مع الله ، وإن لم تصحبها استقامة ، فهي : استدراج ومكر .

---

(1) رواه نصر المقدسي في كتابه « الحجة » ، والبيهقي في الرسالة الأشعرية

قال بعضهم : خرق العادة كرامة للمبتدع ، والمبتدع هو المغروق فى الدنيا وأشغالها إلى عنقه ، ولو كثرت صلاته وصيامه .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان : كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان ، وكرامة العمل على السنة والمتابعة وترك الدعاوى والمخادعة ، فمن أعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهـــو مفتر كذاب ، أو ذو خطأ فى العلم والعمل بالصواب ، كمن أكرم بشهود الملك على الرضى ، ثم جعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع المرضى .

وكرامة الأولياء قد بلغت مبلغ التواتر ، فلا تحتاج إلى دليل ، والله تعالى أعلم .

ثم أشار إلى الأمر الرابع ، وهو تطهير جوارحهم من الذنوب ، وقلوبهم من العيوب فقال :

قد رفضوا الآثام والعيوب وطهروا الأبدان والقلوب

قلت: لاشك أن الصوفية رضى الله عنهم قد رفضوا الذنوب ، أى نبذوها وراء ظهورهم ورفضوا العيوب ، أى : طهروا قلوبهم منها ، وسبب تطهيرهم من الذنوب والعيوب تطهيرهم من أصلها ورأسها .

أما أصلها ، فالخلطة مع الغافلين الجاهلين ، فمن خالط العوام وظن أنه ينجو من الآثام فقد رام المحال ، كمن خلط الحطب مع النار ، وظن أنه ينجو من الاحتراق .

وأما رأسها لحب الدنيا الساكن فى القلوب .

ففى الحديث «حب الدنيا رأس كل خطيئة» رواه البيهقى فى الشعب من مراسيل الحسن[1].

وقيل هو : من كلام مالك بن دينار[2] .

وقيل : من كلام سيدنا عيسى عليه السلام[3] .

وقيل : من كلام على كرم الله وجهه[4] .

وعده بعضهم فى الموضوعات ، ورده ابن حجر . فالله تعالى أعلم .

وعلى كل حال فهو كلام صحيح فى المعنى مجرب مذوق فمن طهر قلبه من حب الدنيا ورياستها ومالها واعتزل عن الحسد فالغالب سلامة قلبه من العيوب ، وطهارة جوارحه من الذنوب ، وما تشعبت عيوب القلوب إلا منها ، إذ عليها يقع الحسد والبغض والغل والخصام والفجور ، وبها يقع الكبر ، وحب الرياسة ، والنفاق ، والتصنع للخلق ، وبها أيضاً يقع :

---

(١) وإسناده حسن، ورواه البيهقى أيضا فى الزهد. (٢) ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان .
(٣) أبو نعيم فى الحلية فى ترجمة الثورى . (٤) الديلمى فى مسنده بلا إسناد .

البخل ، والشح ، والجبن ، وغير ذلك من العيوب ، وكذلك الذنوب ، كالكذب والأيمان الفاجرة ، وسوء الخلق وغير ذلك(١) . ورحم الله الإمام الشافعي رضي الله عنه حيث قال :

ومن يذق الدنيا فإني طعمتها وسيق إلى عذبها وعذابها
فلم أرها إلا غرورا وباطلا كما لاح في ظهر الفلاة سرابها
وما هي إلا جيفة مستحيلة عليها كلاب همهن اجتذابها
فإن تجتنبها عشت سلما لأهلها وإن تجتذبها ناهشتك كلابها
فطوبى لنفس أوطنت قعر بيتها مغلقة الأبواب مرخى حجابها

وقوله « وطهروا الأبدان والقلوب » تفسير لما قبله على طريق اللغط . والمعنى وطهروا الأبدان من الآثام والذنوب ، وطهروا القلوب من المساوىء ، والعيوب ، فلما حصل لهم هذا التطهير الجيد لاح لهم فجر التوحيد . فأسلموا الأمر إلى مولاهم ورجعوا إلى من قد تولاهم عملا بقوله تعالى : « وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ »(٢) . فلما تحققوا بذلك وقفوا في رياض الإحسان ، وأشرقت عليهم شموس العرفان ، وأضاءت لهم أنوار المواجهة والعيان .

هذه المنازل الثلاث هي التي ينزلها المريد ويرتحل عنها .

منزل الإسلام ، وهو محل تطهير الجوارح الظاهرة من الذنوب وتحليتها بطاعة علام الغيوب .

ومنزل الإيمان ، وهو محل تطهير القلوب من المساوىء والعيوب ، وتحليتها بمقامات اليقين ، لتتهيأ لحمل معرفة رب العالمين .

ومنزل الإحسان ، وهو محل الشهود والعيان .

قال بعض العارفين رضي الله عنه : من بلغ إلى حقيقة الإسلام لم يقدر أن يفتر عن العمل ، ومن بلغ إلى حقيقة الإيمان لم يقدر أن يلتفت إلى العمل ، ومن بلغ إلى حقيقة الإحسان لم يقدر أن يلتفت إلى أحد سوى الله تعالى ، وإلى هذه المراتب أشار بقوله :

وبلغوا حقيقة الإيمان وانتهجوا مناهج الإحسان

---

(١) ومما يؤيد الحديث السابق ما رواه الديلمي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعظم آفات أمتي : حبهم الدنيا ، وجمعهم الدنانير والدراهم ، لا خير في كثير ممن جمعها ، إلا من سلطه الله على هلكتها في الحق » .

(٢) سورة لقمان : الآية : ٢٢

قلت : وهذا هو الأمر الخامس الذى ظهر به شرف أهل التصوف وفضيلتهم ، وأنهم بلغوا إلى حقيقة الإيمان وصريحه ، بتحقيق دعائمه وأركانه ، التى من جملتها الإيمان بالقدر: خيره وشره ، حلوه ومره ، فقد استوى عندهم وقت الخير ووقت الشر ، ووقت الحلو مع وقت المر . قد استوى عندهم الذل والعز ، والذم والمدح ، والمنع والعطاء ، والقبض والبسط وغير ذلك من اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار ، وذلك لأجل ماحصل لهم من مقام الرضى والتسليم ، وكمال المعرفة وخلوص اليقين .

وقوله « وانتهجوا مناهج الإحسان » أى سلكوا طريق الإحسان الموصلة إلى الشهود والعيان ، ولذلك افتقروا إلى دليل يكون عارفا بالمنازل والمناهل ، قد سلك الطريق وعرفها حتى يوصلهم إلى مطلوبهم ، ويقول لهم ها أنتم وربكم ، وسيأتى الكلام عليه إن شاء الله .

ثم أشار إلى الأمر السادس ، وهو ترقيهم من عالم الملك إلى عالم الملكوت . أو تقول من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح ، فقال :

وعلوا مراتب الوجود كالأم والوالد والمولود

واستشعروا شيئاً سوى الأبدان يدعونه بالعالم الروحانى

قلت مراتب الوجود هى : العوالم الثلاثة : الملك ، والملكوت ، والجبروت ، وذلك أن الوجود له ثلاثة اعتبارات .

وجود أصلى أزلى ، وهو الذى لم يدخل عالم التكوين ، ويسمى عالم الأمر ، وعالم الغيب ، وهو المسمى بعالم الجبروت .

ووجود فرعى ، وهو النور المتدفق من بحر الجبروت ، وهو كل مادخل عالم التكوين : لطيفاً كان أو كثيفاً ، ويسمى عالم الشهادة وعالم الخلق ، وهو المسمى : بعالم الملكوت لمن غرق فيه وجمعه بأصله .

ووجود وهمى ، وهو محل ظهور التصرفات الإلهية ، ومقتضى الأسماء الجلالية والجمالية ويسمى عالم الحكمة ، وهو عالم الملك .

وقال بعضهم : العوالم أربعة : عالم الشهادة ، وعالم الغيب ، وعالم الملكوت ، وعالم الجبروت

فالأول كالكثائف المحسوسة ، والثانى كاللطائف الغيبية ، كالجن والملائكة والأرواح ، وهذا كله داخل فى عالم الملك ، والثالث وهو عالم الملكوت ، هو جمع لهذه الأشياء ، وضمها

إلى أصلها ، وتحقيق الشهود فيها ، والرابع الذى هو الجبروت ، هو العظمة الأصلية اللطيفة الأزلية قبل ظهورها ، وفى هذه المراتب يقع الترقى للسائرين ، فيترقون من عالم الملك الذى هو وهمى ظلمانى حسى ، إلى عالم الملكوت الذى هو نورانى ملكوتى ، ثم يترقون إلى عالم الجبروت الذى هو أصل أزلى ، فإذا ضموا الأصول إلى الفروع صار الجميع جبروتا ، وهذا هو العالم الروحانى الذى أشار إليه بقوله « واستشعروا شيئاً سوى الأبدان » .

وقوله « كالأم » الخ يعنى أنهم عرفوا مراتب الوجود الثلاث ، وفرقوا بين : الملك والملكوت ، والجبروت ، تفريقاً ضروريا كما يفرق الرجل بين ولده ، وأمه ، وأبيه ، ويحتمل أن يكون التشبيه من حيث الإيجاد والظهور ، فإن عالم الجبروت سبب فى ظهور عالم الملكوت ، فهو أشبه شىء بالولد ، وعالم الملكوت هو محل استقرار الصفات ، كالقدرة والإرادة ، والعلم ، والحياة ، التى هى سبب فى إظهار آثارها لعالم الملك ، فهو أشبه بالأم فى تربية الولد قبل الظهور وبعده ، وعالم الملك هو محل ظهور التصرفات الإلهية وآثار القدرة الأزلية ، فهو أشبه شىء بالولد لظهوره بينهما ، وربما يلوح حديث ـ الخلق عيال الله وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله ـ رواه أبو يعلى ، والبزار ، عن أنس ولفظه « الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إلى الله أحبهم وأنفعهم لعياله(١) » والله تعالى أعلم بالصواب .

وقوله « واستشعروا شيئاً سوى الأبدان » الخ .

أعلم أن عالم الأشباح هو عالم الملك ، وعالم الأرواح هو عالم الملكوت ، ومحلهما واحد ، إذ ليس لنا إلا وجود واحد ، لكن النظرة تختلف باختلاف الترقى فى المعرفة ، فادام العبد مسجونا بمحيطات حسه ، محصوراً فى هيكل نفسه ، فهو مقيم فى عالم الأشباح ، محصور فى عالم الملك ، لم تفتح له ميادين الغيوب ، لم يفرق بين روحانية وبشرية ، ولا بين حسه ومعناه فاذا فتح الله بصيرته وغاب عن حسه ونفسه ، وقلبه وجنسه ، رأى نور الملكوت قد فاض من بحر الجبروت ، لحجب شهود ذلك النور عن ظلمة الحس ، وعن رؤية الكون ، بشهود المكون ، فالكون أصله كله نور ، وإنما حجبه ظهور الحكمة فيه ، فمن رأى الكون ولم يشهد النور فيه أو قبله أو معه ، فقد أعوزه وجود الأنوار وحجبت عنه شموس المعارف بحسب الآثار ، فإذا ضم النور إلى أصله صار الجميع نوراً واحداً ، وهو نور الجبروت . أو سر اللاهوت ، فقد علمت أن الملك ، والملكوت ، والجبروت ، محلها واحد ، وكذلك عالم الأشباح وعالم الأرواح ، محلهما واحد ، فأهل الحجاب لا يرون إلا عالم الأشباح ،

(١) ورواه الطبرانى عن ابن مسعود .

وأهل العرفان ، وهم أهل مقام الإحسان لا يرون إلا عالم الأرواح ، مع أن المحل واحد لكن لما رق حجابهم ، وتلطفت بشريتهم ، استشعروا شيئاً زائداً على عالم الأشباح ، وهو عالم الأرواح ، ويسمى عالم المعانى ـ والعالم الروحانى ، وسيأتى الكلام عليه إن شاء الله عند قوله :

لم يتصل بالعالم الروحانى   من عمره على الفضول عانى

وعند قوله :

مهما تعديت عن الأجسام   أبصرت نور الحق ذا ابتسام

والله تعالى أعلم .

ثم أشار إلى أن هذه المعانى لا تدرك بالعقول ، وإنما هى أذواق يلغز إليها بإشارات المقول ، فقال :

ثم أمام العالم المعقول   معارف تلغز فى المنقول

قلت : أعلم إن النفس ، والعقل ، والروح ، والسر ، كل واحد منها له حد ينتهى إليه فى العلم والإدراك ، على ما يأتى بيانه إن شاء الله عند قوله :

ياجاهلا أقصى الكمال وقفا   على عقول وهمها لا يخفى

فشهود أنوار الملكوت وأسرار الجبروت ، وهى علوم المعارف ، أمر خارج عن مدارك العقول ، فهو أمام العالم المعقول ، أى وراءه وقدامه : لا مطمع له فى إدراكه ، وقد تقدم قول ابن الفارض .

فثم وراء النقل علم يدق عن   مدارك غايات العقول السليمة

وقال أبو العباس رضى الله عنه :

فلو عاينت عيناك يوم تزلزلت   أرض النفوس ودكت الأجبال

لرأيت شمس الحق يسطع نورها   يوم التزلزل ، والرجال رجال

قال : والأرض : أرض النفوس ، والجبال : جبال العقل .

وقال بعضهم فى تفسير قوله تعالى ـ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ـ أى تجلى لجبل العقل جعله دكا أى مضمحلا ـ وخر موسى[1] صعقاً ـ أى زال وجوده بوجود خالقه، والمتجلى فيه.

والحاصل : أن شموس العرفان لا تدرك بعقل ولا حدس ولا برهان ، وإنما تدرك ببيع النفوس وبذل الأرواح ، وبالخروج عما تعهده النفوس وتحيط به العقول ، فإذا صح منك هذا الخروج ، أدركت أنوار الملكوت متصلة ببحر الجبروت وصرت لا يحجبك عن الله أرض ولا سماء ، ولا عرش ولا كرسى ، ولا أفلاك ولا أملاك ، وصرت أنت قطب الوجود تدوره بيدك كيف شئت ، خليفة الله فى أرضه ، ونقطة دائرة كونه ، والله ذو الفضل العظيم

وإلى هذه المعارف أشار بقوله :

ثم أمام العالم المعقول　　　معارف تلغز فى المنقول

وأشار بقوله « تلغز » الخ إلى أن هذه المعانى ليست صريحة فى كلام الله ، وإنما هى من باب الإشارة واللغز ، وكذلك قيل فى قوله تعالى ـ إذا زلزلت الأرض زلزالها ـ أى أرض النفوس، وأخرجت الأرض أثقالها ـ أى مافيها من العلوم والحكم والأسرار ـ وقال الإنسان ـ متعجباً من حال تلك النفس ـ مالها . يومئذ تحدث أخبارها[2] ـ تظهر أسرارها ومواهبها ، وهذه كلها إشارات وألغاز، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم فى تفسير الإحسان « أن تعبد كأنك تراه فإن لم تكن » وقف بعضهم هنا وجعل « تراه » جوابا[3] ، أى فإن تحقق زوالك ، ولم تكن شيأ تراه ، وهذه الأمور كلها إلغازات وإشارات لا يسلمها أهل الظاهر ، وإنما يذوقها أهل الباطن ، ويلغزون بينهم بها ، وقد قالوا : علمنا كله إشارة ، فإذا صار عبارة خفى ، ثم إن هذه الأمور إنما هى كشوفات تشرق على الأرواح والأسرار ، تكون لوائح ثم لوامع ، ثم يتصل الشروق ، ويدوم النور ، حتى يقع الرسوخ والتمكين ؛ وإلى ذلك أشار بقوله :

وعلموا أن لهم تمكينا　　　يرقى بهم مرقى المكاشفينا

قلت قد علموا أن دوام السير قطعاً يؤدى إلى الوصول ، وحال التلوين لابد يوصل إلى التمكين ، فإذا ترقوا إلى مقام التمكين فقد وصلوا إلى مقام لو كشف الغطاء ماازدادوا يقينا

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٤٣　　　(٢) سورة الزلزلة ، الآيات : ١ – ٤

(٣) فيه خروج على قواعد اللغة وأساليب النحو ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الناس بالعربية . وهذا التأويل فيه تكلف وتعسير على أفهام الناس ، وقوله عليه الصلاة والسلام فصل لا التواء فيه إذ لم يأت عليه الصلاة والسلام ليخاطب الناس بالألغاز والمعميات ، وإنما جاء بها بيضاء نقية .

بل قد انكشف الغطاء ، لكن مراتب الكشف لا نهاية لها ، ـ وقل رب زدنى علما(1) ـ و علموا بمقام التمكن ، علموا أن لهم موانع تمنعهم من الوصول إليه ، كما أشار إلى ذلك بقوله

ثم رأوا أن دون ذلك مانع   كدفتر نيط عليه طابع

فالقوم حين علموا بذاكا   وميزوا القطاع والأشراكا

سلوا من العزم لهم قواضب   فأنبت كل قاطع وحاجب

فاحتزموا للطعن والنزال   وابتـــدروا ميادين القتال

قلت الدفتر: الكتاب ، وأراد به هنا الحرز والتميمة ، ونيط : أى ألف ، وغشى الطا بفتح الباء كالقالب والكاغد والخاتم ، والعالم والنابل والطـــابق . وألفاظ أخر نيا خمسة وعشرين كلمة ، كلها بفتح عين الكلمة ، نظمها ابن مالك ، والأشراك جمع شرك وه الشبكة ، والقواضب ، جمع قاضب، وهو السيف الصارم ، والنزال هو: شدة الحرب ، وذ أن العرب إذا اشتد بينهم الحرب نزلوا عن خيولهم ليقاتلوا بالسيوف ، والميادين مجال الخ استعير هنا لمجاهدة النفوس ومحاربتها .

يقول رضى الله عنه : إن القوم لما شعروا بالحقيقة كامنة فى نفوسهم ، وكوشفوا بها علموا أنهم إن تمكنوا من الوصول إليها والرسوخ فيها حصل لهم كشف الغطاء ، وارتفع الحجب عن قلوبهم ، فكانوا على بينة من ربهم ، ثم رأوا أن مقام التمكين دونه موا وقواطع ، تمنعهم من الوصول إلى ذلك المقام ، وهذه الموانع هى التى غطت القلوب وغلا وحجبت الأرواح عن الكشف عن أصلها ، فصار القلب والروح كحرز مكتوب : لف غشاء وطبع عليه طابع ، فلا يظهر ما فى باطنه حتى يخرق ذلك الطابع والغشاء الذى غ عليه ، وهذا الطابع الذى جعله الله بحكمته وعدله حاجباً للقلوب عن أسرار الغيوب ، هو الطبيعة ، وهى شهوات النفوس وعوائدها التى امتزجت معها ، وعجنت بطينتها فى أصل ال وهى التى ذكرها الله تعالى بقوله ـ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين(2) ـ ا فاشتغلت الروح بتدبير هذا البدن لجهلها ، فصرفت همتها لمأكله ومشربه وملبسه وم ومنكحه ، وما يتبع ذلك من الشواغل والشواغب ، فعيقت عن أصلها ، ومنعت من شه أنوار ربها ، إلا من أسعده الله بولايته ، وسبقت له سابقة عنايته ، فلما علم القوم :

(1) سورة طـــه ، الآية : ١٤

(2) آل عمران ، الآية : ١٤

القواطع التى قطعتهم عن الوصول إلى ربهم ، وميزوا هذه القطاع والشباكات التى حبستهم فى قيودها ، وهى علائق الدنيا وعوائقها ، سلو من هممهم العالية سيوفا ، وعزموا على قطع تلك العلائق ، ورفضوا تلك الشهوات ، فلما علقوا هممهم بالله ، وانقطعوا بكليتهم إليه ، انقطعت تلك العلائق ، وارتفعت تلك الحجب ، فاحتزموا وشمروا للطعن فى تلك العلائق ، ونزلوا لمحاربة النفوس وردها إلى حضرة الملك القدوس ، حتى ألقت السلاح ، وأذعنت لطاعة الكريم الفتاح :

قال بعضهم : انتهى سير الطالبين إلى الظفر بنفوسهم ، فإن ظفروا بها وصلوا ، وهذه مسايرة كلام الناظم ، وفيه تقديم وتأخير ، فإن قطع العلائق ورفع الحجب مؤخران عن محاربة النفوس ، فقول الناظم « فأنبت كل قاطع وحاجب » مرتب على ما بعده من الطعن والنزال ، وابتدار ميادين القتال ، والأمر قريب .

ولو قال لكل قاطع وحاجب بلام التعليل كان أحسن ، والله تعالى أعلم .

ثم بين بعض تلك القواطع ، فقال :

وعلموا أن ليس شيء قاطع　　كبدن كاس وبطن شابع

قلت : يعنى أنهم تحققوا أن أعظم القواطع هو الاشتغال بهم الظهر والبطن ، فمن أراد الله تعالى أن يتركه محجوبا بنفسه يشغل قلبه بتزيين الملابس وتحسين المآكل ، وهذا هو الذى حجب جل الناس ، فمن قنع من اللباس بما يستر العورة من خشين اللباس ، وقنع من الطعام بما يسد الجوع من مطلق الطعام ، كان قلبه مجموعا مع الله ، إن توجه بهمته إلى الله ، ومن كان همه ما يدخل بطنه ، كان قيمته ما يخرج منها ، وفى الحديث .

« من ترك ثوب جمال وهو قادر عليه ألبسه الله حلة الكرامة يوم القيمة[1]» وقال أيضا صلى الله عليه وسلم .

« إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مسالكه[2] بالجوع » .

(١) ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ترك زينة لله ووضع ثيابا حسنة تواضعا لله وابتغاء لمرضاته كان حقا على الله أن يدخر له عبقرى الجنة » رواه أبو سعيد الماليني فى مسند الصوفية ، وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عباس .

(٢) رواه أحمد ، والبيهقى ، وأبو داود ، وابن ماجه .

والمقصود من ذلك كله صرف الشواغل التى تحجب عن الله ، سواء كانت من قبل اللبا
أو الطعام أو غيرهما ، ولذلك عم الناظم فى البيت الذى بعد هذا ، حيث قال :

ونظروا الحجاب فى البواطن فوجدوه فى النفوس كامن
فعملوا على جهاد النفس حتى أزالوا ما بها من لبس

قلت : هذا الحجاب الذى هو كامن فى النفوس ، هو حب الهوى ، ومرجعه إ
حب الهوى .

فمنه : مايكون متعلقاً بالظواهر، كحب المال وتزيين الملابس والمآكل والمراكب والمنا

ومنه ما يكون متعلقا بالبواطن ، كحب الخصوصية ، وطلب الكرامة ، وحب المد
والثناء ، وحب الرياسة والظهور ، وما ينشأ عن ذلك من الحسد ، والكبر ، والغل ، والغ
والغضب ، والقلق ، والحرص ، والطمع ، وغير ذلك من العيوب الباطنية ، فكل من جاه
نفسه فى التخلية من هذه المساوىء ، والتحلية بأضدادها ، من : التواضع ، والخمول ، وسلا
الصدر ، وسخاوة النفس والحلم ، والتأنى ، والصبر والرضى ، والتسليم ، وغير ذلك من الأخلا
الحميدة زال عن نفسه حجاب النفس والتخليط ، واكتسى لباس الصفا والوفا ، فكان م
المقربين الذين يشربون من عين التسنيم المختوم ، ويمزج لغيره من أهل اللبس والتخليط
فمن صفا صفى له ومن خلط كدر عليه ، فمن شرب اليوم كأس محبة المولى صافياً من الهوى : شرب
عين التسنيم صافيا ، ومن مزج اليوم بمحبة الهوى ، شرب مع العوام من السلسبيل ، ولاحظ
له عند الملك الجليل .

قال أبو طالب المكى رضى الله عنه : واضر ما ابتلى به العبد فى دينه ، وأشد ما عجب
ضعف يقينه ، لما وعد بالغيب أو توعد عليه .

قال(١) : وقوة اليقين أصل كل عمل صالح .

وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مجاهدة النفوس وتصفيتها بقو
عليه الصلاة والسلام : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أم
الناس على دمائهم وأموالهم ، والمهاجر من هاجر ما نهى الله عنه ، والمجاهد من جاه

(١) أى أبو طالب المكى .

نفسه وهواه »(١) وقال أيضا عليه الصلاة والسلام « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب(٢) » وفى معناه قيل :

ليس الشجاع الذى يحمى فريسته — يوم الزحام وثار الحرب تشتعل
لـكن من غض طرفاً أو ثنى قدما — عن المحارم ذاك الفارس البطل

وفى الخبر « جئتم من الجهاد الاصغر إلى الجهاد الاكبر(٣) » يعنى جهاد النفس .

قال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه ، فى شأن النفس : هى التى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وفى الحـكم :

« لو كنت لاتصل إليه إلا بعد محو مساويك وترك دعاويك، لاتصل إليه أبداً ، ولـكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطى وصفك بوصفه ، ونعتك بنعته ، فوصلك بما منه إليك لا بما منك إليه » .

ثم أشار لاختلاف الفرق فى المجاهدة ، فقال :

والقوم فى هذا على فرقين — وحكمهم فيه على ضربين
ففرقة طريقهم مبنيه — على العقائد وحسن النيه
قالوا : فالنفس كالمرآة — ينطبع الماضى بها والآت
وإنما يعوقها أشياء — ترك المحاذاة أو الصداء
قالوا : وإن العين قد تغور — وإنما يخرجها الحفير

قلت أشار إلى أن الناس فى الوصول إلى الله تعالى على فرقتين : الفرقة الاولى : نظروا

(١) « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» رواه مسلم عن جابر و « المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » رواه أحمد والترمذى والحاكم ، والنسائى ، وابن حبان والطبرانى ، و « المهاجر من هجر مانهى الله عنه » رواه البخارى وأبو داود والنسائى . « والمجاهد من جاهد نفسه فى الله » رواه الترمذى وابن حبان ، واللفظ الذى ذكره الشيخ رحمه الله روته أغلب كتب السنة .

(٢) رواه أحمد ، والبيهقى عن أبى هريرة .

(٣) رواه البيهقى فى الزهد من حديث جابر .

إلى أصل الروح وماكانت عليه من الصفاء والجلاء،كالمرآة الصقيلة ، ينطبع فيها كل ما يقابلها من الماضي والآتي .

لكن لما اتصلت بهذا البدن انطبع فيها : صور الأكوان ، وغبش الحس ، فحجبت عن أصلها .

أمران أحدهما : ترك المحاذاة (أي القرب والاتصال بالحضرة) باشتغالها بالغفلة .

يعني : أن الروح لما تركت القرب إلى الله ، ولم تصرف وجهها بالكلية إليه تدنست وحجبت عن أصلها .

فلو اشتغلت بذكر الله على الدوام ، وغنيت عن غيره على التمام ، لانصقلت مرآتها ، وتجلت فيها حقائق الأشياء : ماضية وآتية .

وفي الحديث : « إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد ، وإن الإيمان ليخلق (أي يبلى) كما يخلق الثوب الجديد(١) » .

وفي حديث آخر « لكل شيء مصقلة ، ومصقلة القلوب ذكر الله(٢) » .

وهذا الذكر الذي يصقل القلوب ، لا بد أن يكون ذكراً واحداً ، بقلب واحد ، وهم واحد ، وإلا فلا يجدي شيئاً .

الأمر الثاني الذي يعوق الروح عن أصلها : الصدأ الذي ينطبع فيها ، وهي صور الأكوان التي تنطبع في القلب حين يتعلق بها : اعتقاداً ، أو استناداً ، أو اهتماماً .

وفي الحكم : « كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته ؟ أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته ؟ أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله ، وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ؟ أم كيف يرجوا أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته » .

---

(١) ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب ، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم » (رواه الطبراني ، والحاكم عن عبد الله ابن عمرو بن العاص) .

(٢) وقال صلى الله عليه وسلم : « إن لكل شيء صقالة ، وإن صقالة القلوب ذكر الله ، وما من شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله ، قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد في سبيل الله ، إلا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع » (رواه ابن أبي الدنيا ، والبيهقي) .

وقال بعض الحكماء : لا تطمع أن تصفو وبك عيب ، ولا تطمع أن تنجو وعليك ذنب

وقالوا أيضاً : إن السر الذى منا كان فى النفوس ، هو كماء العيون ، إذا غفل عن تخيلها وتحريتها : غار ، وتغطى بالتراب ، فلا يخرجه إلا الحفير عليه بالفئوس، كذلك سر الحقيقة كان ظاهراً فى الأرواح حين كانت طاهرة من دنس الحس ، أرأيت يوم الميثاق : كلها عرفت الحق وأقرت به ، فلما اتصلت بهذا القالب الحسى الكثيف ، وتراكمت عليها ظلمة الغفلات والشهوات والعوائد وألفت هذا العالم الحسى ، وركنت إليه : حجبت عن ذلك السر ، فلا يخرجه إلا الحفير عليه بفئوس المجاهدة والرياضة ، واجماع القلب بالله ، والمؤانسة به ، ذكراً أو فكرة أو نظرة ، وإلا غار السر وغاب وذهب كالسراب .

قيل للجنيد : كيف الطريق إلى الحقيقة ؟ قال : بتوبة تزيل الإصرار ، وخوف يقطع التسويف ، ورجاء يبعث على مسالك العمل ، وإهانة للنفس بقربها من الأجل وبعدها من الأمل ، فقيل له : بماذا يصل إلى هذا ؟ فقال : بقلب مفرد ، فيه توحيد مجرد .

ثم بين كيفية العلاج فى ردها إلى أصلها فقال :

وأجمعوا أن علاج الأصل	أقرب للبرء معاً والنيل
فما إليـــه أبداً نشير	هو علاج النفس والتطهير

قلت : العلاج : محاولة إبراء(١) الداء بالدواء لتذهب العلة ، ولا ينجح فى الغالب إلا بعد معرفة العلة وسببها ، والمراد بالأصل : هو علاج الروح ، والنيل هو : التحصيل .

يقول رضى الله عنه : أجمع الصوفية أن علاج الروح ونيل شفائها من مرضها : أقرب من علاج البدن وشفائه إذا تمكن منه الداء .

قلت : وهو كذلك بلا شك ، فقد رأيت كثيراً من المرضى : أعنى مرض البشرية ، يدفع أموالا عريضة ، ويحتمى أزمنة طويلة ، ولا تنقطع علته ، ولقد رأيت كثيراً ممن كان مريض الروح بالمعاصى والذنوب والشكوك ، والخواطر ، حين ألقاه الله إلى الطبيب شفاه الله فى أقرب مدة وأقل حمية .

قال الشيخ زروق رضى الله عنـه : وأصل كل داء جسمانى إنما هو فساد المزاج إلى أن يصير فعله وانفعاله على غير المجرى الطبيعى ، وأصل كل داء قلبى : إنما هو فساد القصد الذى

(١) وضعناها لإصلاح الكلام فإنها ليست بالأصل الذى راجعنا عليه ، والله أعلم .

عنوانه : الرضى عن النفس ، حتى يصير فعلها وانفعالها على غير المجرى الشرعى والتحقيق ، بل على وفق الهوى والأوهام الباطلة التى شأنها : ضعف اليقين ، ورقة الديانة ، وتفصيل ذلك يطول ، وسيأتى منه إن شاء الله تعالى فى باب التربية .

وقوله : « فما إليه أبداً نشير » هو : تصريح بعلاج الأصل المتقدم ، يعنى : أن هذا العلاج الذى تشير إليه هو علاج النفس من : غفلاتها ، وشكوكها ، وخواطرها ، واهتمامها بالرزق ، وأمر الخلق ، وتدبيرها ، واختيارها ، وإنكارها ، وجهلها ، وسوء أدبها ، فإذا برئت من هذه الأمراض ، وتطهرت من هذه الأخلاق صلحت للحضرة ، ومتعت بالنظرة فى سرور ونضرة .

ثم ذكر استمرار هذه الطريقة إلى انقراض الدنيا فقال :

وهذه طريقة الإشراق كانت وتبقى ما الوجود باقى

قلت : ذكر أن هذه الطريقة التى ذكرها فى هذه الأبيات تسمى : طريق الإشراق ، وتسمى أيضاً طريق الجلاء والتصفية ، لأنها مبنية على تصفية القلوب والسرائر ، بتخليتها من الرذائل ، وتحليتها بالفضائل ، فإذا تخلت من الأغيار والأكدار ، أشرقت عليها شموس المعارف والأسرار ، فرغ قلبك من الأغيار ، تملأه بالمعارف والأسرار ، ثم ذكر أن هذه الطريقة لا تنقطع مادام الوجود باقيا ، لقوله عليه الصلاة والسلام :

« لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون(١) » .

والتحقيق أن هذه الطائفة هى مؤلفة من العارفين بالله ، والعلماء العاملين الناصحين والمجاهدين فى سبيل رب العالمين ، فلا تخلو الأرض من قائم بحجة الله ظاهرة وباطنة .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه فى «قوله كانت وتبقى» يعنى أنها لا ترتفع أبداً ، لكنها تارة تجرى بإصطلاح الخلوات والتربيات ونحوها ، وتارة بحفظ الأصول فقط ، وتارة بحفظ الحرمة ، وتارة بعلو الهمة وقوة الحزم والعزم ، وتارة بمجرد التلقى والإلقاء ، وهذه الأمور لا تزول أبد الآبدين ، غير أن الاصطلاح قد انقرض فى هذه الأزمنة ، وارتفع إنتاجه حسبما دلت عليه العلامات ، ويشهد به الاستقراء .

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، والإمام أحمد عن معاوية ، وابن ماجه عن أبى هريرة ؛ ومسلم والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة ، وللحديث ألفاظ أخرى ورواة آخرون كلها تدور على هذا المعنى .

قال بعض مشايخنا رضي الله عنه : ارتفعت التربية بالإصطلاح في سنة ٨٢٤ هـ أربع وعشرين وثمانمائة ولم تبق إلا الإفادة بالهمة والحال فعليكم بالكتاب والسنة من غير زيادة ولا نقصان ، يعني الجادة مع التزام الصدق ، والله ولي التوفيق .

قلت : وبعض مشايخه الذي ذكر هو : الحضرمي .

وفيما قاله نظر من وجهين : أحدهما أن الاستقراء الذي ذكره متعذر في جميع أقطار الأرض ، وشيوخ التربية الغالب عليهم الخفاء ، لأنهم كنوز لايظفر بهم إلا من أسعده الله.

والثاني : أن دائرة الأولياء لا تنقطع أبدا ، من : أقطاب ، وأبدال ، وأوتاد ، حسبما ذكره غير واحد ، وبلوغه إلى مقام القطبانية لا يكون من غير تربية أبداً .

فإن قلت : يكفي فيه الهمة والحال ، قلنا : لا نسلم ذلك ، لأن تربية الهمة والحال دون اصطلاح المقال ، لا يترق صاحبها من مقام إلى مقام ، ولا من حال إلى حال ، فلا يخرج من السلوك إلى الفناء ، ولا من الفناء إلى البقاء ، إلا بتربية المقال ، وهي الاصطلاح ، وإن أراد بالاصطلاح : الخلوة ، وترتيب الأوراد ، فلا نسلم أيضا أنه انقطع ، إذ من بلغ إلى درجة التربية يربي كيف شاء ، فمن تصلح به الخلوة رباه بها ؛ ومن تصلح به الخلطة رباه بها ، فشيخ التربية لاينقطع أبداً عن تربية الهمة والحال والمقال والاصطلاح ، وإذا كان الحضرمي تكلم على ما ظهر له في زمانه ، فلا يلزم عمومه فيما بعده . قال الله تعالى ـ ويخلق مالا تعلمون ـ (١) .

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي عنه ، في قوله تعالى ـ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ـ (٢) قال : ما نذهب بولي نأت بخير منه أو مثله ، وكلامه عام في كل زمان وعصر ، وقال عليه الصلاة والسلام « أمتي كالمطر لا يدري أوله خير أم آخره »(٣)

---

(١) سورة النحل الآية : ٨

(٢) سورة البقرة الآية : ١٠٦ ، وما قاله الشيخ من باب الإشارة والاستئناس وليس تفسيراً لها . والله تعالى أعلم بأسرار كتابه .

(٣) وفي لفظ آخر رواه ابن عساكر مرسلا : « أمتي أمة مباركة لا يدري خير أولها أو آخرها » .

وقال: «خير أمتي أولها وآخرها وفيما بينهما الكدر»(١) وفي حديث آخر قال عليه الصلاة والسلام لأصحابه الكرام: «إذا لقيتم إخواني فأقرءوهم مني السلام؟ قيل من إخوانك يا رسول الله؟ نحن إخوانك، فقال: أنتم أنصاري وأصحابي، إخواني قوم يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني، للعامل منهم أجر سبعين، قالوا: يارسول الله أجر سبعين منا أو منهم؟ قال: بل أجر سبعين منكم، قيل: لماذا يارسول الله؟ قال: إنكم وجدتم على الخير أعواناً وهم لا يجدون عليه أعواناً(٢):

والحاصل أن نور النبوة في الزيادة لا في النقصان، وقد وجد بعد الحضرمي، وفي زمانه رجال اتفق الناس على تربيتهم، كالغزواني، والتليدي، والهبطي، والمجذوب، والشرقي وسيدي يوسف الفاسي، وسيدي عبد الرحمن الفاسي، وسيدي محمد بن عبد الله، وغيرهم ممن لا يحصى، فإنكار كمال هؤلاء وتربيتهم: مكابرة وخذلان والعياذ بالله من الطعن في أولياء الله.

وقد أدركنا ـ والحمد لله ـ في زماننا هذا رجالا قد توفر فيهم شروط التربية على الكمال ذوو همة وحال ومقال: عارفين، راسخين كاملين، تخرج على أيديهم خلق كثير، وانتفع بهم جم غفير، ولكن من كان خفاشاً لا يستطيع أن يبصر شعاع النور؛ ويرحم الله البوصيري حيث قال:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

وقال آخر:

وكم عائب ليلى ولم ير وجهها ... فقال له الحرمان: حسبك ما فات

ثم ذكر الطريق الثانية فقال:

وفرقة قالت بأن العلما ... من خارج بالاكتساب اسما

---

(١) ورواه الحكيم عن أبي الدرداء بلفظ «خير أمتي أولها وآخرها، وفي وسطها الكدر».

(٢) هذا من ناحية الأجر فقط، أما شرف الصحبة وملازمة النبي صلى الله عليه وسلم فذلك هو الفضل الذي لا ولن يصل إليه أحد، اقرأ قوله تعالى: «محمد رسول الله والذين معه» إلى آخر سورة الفتح، وقف أيها المسلم عند حد الأدب، ولا تخترق أسوار اختيار الله لهم لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم على أن الصحابة رضى الله عنهم لهم أجورهم وأجر كل مسلم عمل بعدهم بعملهم إلى يوم القيامة، والحديث صحيح وله معنى دقيق، فتنبه.

وشرطوا العلوم فى اصطلاحه | إذ لا غنى للباب عن مفتاحه
فليس للطامع فيـــه مطمع | مالم تـكن فيه علوم أربع
وهى علوم : الذات،والصفات | والفقه ، والحديث،والحالات
وهذه طريقة البرهان | وهى لـكل حازم يقظان

قلت : حاصل هذه الطريقة أنها شرطت اصلاح الظاهر أولا وعلاجه ، وعلاجه قبل علاج الباطن ، فقلت : إن اكتساب العلم من خارج أسمى ، أى أرفع وأعظم ، لأنه دواء وشفاء العلل الظاهرة ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « العلم إمام والعمل تابعة » وأول الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « تعلموا العلم ، فإن تعلمه خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث فيه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبل أهل الجنة ، وهو الأنيس فى الوحشة ، والصاحب فى الغربة ، والمحدث فى الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الأعداء ، والزين عند الأخلاء ، يرفع الله به أقواما فيجعلهم فى الخير قادة وأئمة ، تقتص آثارهم ، ويقتدى بأفعالهم ، وينتهى إلى رأيهم ، ترغب الملائـكة فى خلتهم ، وبأجنحتهم تمسحهم ، يستغفر لهم كل رطب ويابس ، وحيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ، لأن العلم حياة القلوب من الجهل ، ومصابيح الابصار من الظلم ، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلى فى الدنيا والآخرة ، والتفكر فيه يعدل الصيام ، ومدارسته تعدل القيام ، به توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال والحرام ، وهو إمام العمل ، والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ، ويحرمه الأشقياء » اه ذكر المنذرى .

فشرطت هذه الفرقة الثانية تحصيل العلم الظاهر لأنه مفتاح العلم الباطن ، لأن الشريعة باب والحقيقة بيت ، ولا مدخل للبيت إلا من بابه ، قال تعالى ـ وأتوا البيوت من أبوابها ـ (١) فعلم الشريعة مفتاح لعلم الحقيقة ، ومن أتى الباب بلا مفتاح لا يطمع فى دخوله فلا يطمع أحد فى علم الحقيقة والاطلاع على السر إلا بعد تحصيل أربعة علوم :

علم الذات العالية ، ويكفيه أن يعتقد فيها أنها موجودة قديمة ، باقية ، منزهة ، عن النقائص ، متصفة بصفات الكمالات .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٨٩

وعلم الصفات ، ويكفيه أن يعتقد أن الذات العالية متصفة بالقدرة ، والإرادة ، والعلم ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام .

وإن زاد براهينها من الكتاب والسنة ، فهو كمل ، وإن أسعده الله بلقاء شيخ كامل رقاه إلى علم الأذواق ، وصار توحيده فى معد الشهود والعيان .

العلم الثالث : علم الفقه ، ويكفيه ما يتقن به طاعته ، وصلاته ، وصيامه ، وإن كان له مال تعلم ما يجب عليه فيه ، ولا يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه .

العلم الرابع : علم الأحوال ، والمقامات ، والمنازلات ، ومخادع النفوس ، ومكايدها ، وما يجرى مجرى ذلك من آداب ومعاملات ، وهذا الذى يختص به أهل هذا الفن .

وللناس فيه طريقان :

طريق رؤية الحق من أول قدم ، والعمل على ذلك بالانحياش إليه ، وهو طريق الشاذلية ومن نحا نحوهم .

وطريق رؤية النفس واطلاع الحق عليها والعمل على ذلك ، وهى طريق الغزالى ومن جرى مجراه ، وكل منهما مستنده لحديث : « أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فإنه يراك »[1] فتمسكت الشاذلية بصدر الحديث والغزالية بآخره .

وقوله : « فهذه طريقة البرهان » يعنى أن هذه الطريقة تسمى طريقة البرهان ، لأنه طريقة الترقية ، لأنها أولا تستدل بالأثر على المؤثر ، ثم ترتقى إلى معرفة العيان ، بخلاف الطريقة الأولى ، إنما اشتغلت بتصفية الروح ، فإذا تصفت وتطهرت زال عنها الحجاب

قلت : وطريق الشاذلية الحقيقية من تأملها وجدها جمعت بين الطريقين : طريق الإشراق وطريق البرهان ، لأن أشياخها الكمل يدلون أولا على إتقان الشريعة ، والفناء فى العمل بها ، ثم على إتقان علم الطريقة ، ثم على الحقيقة .

قلت : وأنا « عبد الله » كنت إذا لقنت أحداً الورد : علمته ما يلزمه من إتقان طهارته

---

(١) هذا الحديث ذكرته كل كتب السنة تقريباً ، وهو الحديث الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ... هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » وقد سبق الاشارة إليه ص٥٣

الصغرى والكبرى ، وعلمته التيمم وإتقان الصلاة وإذا كان أميا علمته ما يلزمه من عقائد التوحيد إجمالا ، فأصحابنا كلهم والحمد لله على بصيرة فى دينهم ، مع ما زادهم الله تعالى من التنوير والأذواق ، وهى طريق الإرشاد ، فأصغرهم يناظر نجباء طلبة العلم الظاهر ، حسبما استقريناه من أحوالهم ، وما اطلعنا عليه من أسرارهم ، والحمد لله رب العالمين .

قوله : « وهى لكل حازم يقظان » يعنى أن هــــذه الطريقة التى جمعت بين العلم الظاهر والباطن ، لكل حازم مشمر فى تحصيل دينه « يقظان » أى منتبه من غفلاته ، قد أتى البيت من بابه ، وحصل الأمر بشروطه وأسبابه ، فليس لأحد فيه مطعن ، ولا لإخلاله فيه مدخل ، لكن لا يدرك هذه الطريقة على الكمال إلا فحول الرجال ، وبالله التوفيق .

ثم وصف الصوفى وحاله وشأنه فقال :

ونسبوا الصوفى للكمال	وضربوا معناه فى المثال
فهو كالهـــواء فى العلو	ثم كمثل الأرض فى الدنو
ثم كمثل النار فى الضياء	ثم كمثل الماء فى الإرواء
فهو إذاً للكائنات حاصر	إذ صار فى معناه كالعناصر

قلت : لا شك أن الصوفى المحقق قد حاز مرتبة الكمال على التمام ، فما من مرتبة إلا حاز أكملها وأشرفها :

فأخذ من مقام الإسلام كمال التقوى والاستقامة على التمام .

وأخذ من مقام الإيمان تمام الطمأنينة وكمال الإيقان .

وأخذ من مقام الإحسان : أعلى المراتب ، وهى الشهود والعيان .

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان .

وأخذ أهل الظاهر من الأعمال ـ أعمال الجوارح الظاهرة .

وأخذ الصوفى أعمال القلوب الباطنة ، والذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح ، كما قاله الشيخ ابن عباد وغيره .

وفى الحديث « تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة »(١) .

وعبادة القلوب هى : الفكرة والنظرة ، والرضى عما يبرز من عنصر القدرة ، فعباد العارفين كلها مضعفة إما بسبعين أو بألف أو بأكثر ، ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسى

---

(١) وفى مسند الفردوس بلفظ « ثمانين سنة » .

رضى الله عنه : أوقاتنا كلها ليلة القدر : يعنى كلها خير من ألف شهر من عبادة العامة ، وفى ذلك قال الشاعر :

كل وقت من حبيبى قدره كألف حجة

أى سنة .

وفى الحكم (ماقل عمل برز من قلب زاهد ، ولا كثر عمل برز من قلب راغب)

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : ركعتان من عالم زاهد ، خير وأحب إلى الله من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبداً سرمداً .

وهذه المراتب موجودة فى الصوفى الكامل على التمام .

وقد ضربوا له المثال بالعناصر الأربعة التى قامت بها الموجودات الحسية باعتبار العادة ، وهى : الهواء ، والثرى (أى التراب) والماء ، والنار ، وتسمى الطبائع الأربعة ، وقد نظمها ابن سينا الحكيم ، فقال :

وقول بقراط بها صحيح نار وماء وثرى وريح

وأراد بالريح الهواء .

فالصوفى قد اجتمعت فيه العناصر الأربعة ، فهو كالهواء فى رفع الهمة وعلو القدر ، وأيضاً الهواء حار رطب ، فهو معتدل محيط بالأبدان ، به يقع كالها ونقصها ، والصوفى : معتدل فى حركاته من غير إفراط ولا تفريط ، بل متوسط فى كل شىء ، وخير الأمور أوسطها ، وبحسب هذا جميع الوجود ، يأنس به ويرجع إليه ، ويقع له منه الفعل والانفعال بإذن الله سبحانه ، مع ارتفاعه عن أبناء جنسه فى عين مجالسته لهم ، كما ارتفع الهواء عن التراب والماء مع مخالطته لهما ، وهو أيضاً كالأرض فى الدنو والتواضع ، والسهولة ، يناله البر والفاجر ، والصغير والكبير ، كما أن الأرض يطأها البر والفاجر ، والصغير والكبير .

وقال بعض أشياخنا : نحن كالرقاق ، أى الطرق ، يمر علينا البر والفاجر ، والطائع والعاصى ولا نفرق بينهم ، وأيضاً طبع الأرض بارد يابس ، فببرودتها يقع لها الملابسة ، إذ لو كانت حارة والهواء حاراً لاحترق ما عليها ، وبسبب يبوستها يقع لها المماسة ، والصوفى كذلك ، لبرودة حركاته وليونتها يلابسه الخلق وينتفعون به ، ولوقوفه مع الحق وصلابته فيه صح له

الصدق ، فيكون له قلب مثل الأرض يطرح عليه كل قبيح ، ولا يخرج منه إلا كل مليح ، وكلما زيد فى زبلها زيد فى خيرها .

وكذلك الصوفى كلما زدت فى البحث معه زادك فائدة وحكمة .

وقد قال سيدنا عيسى عليه السلام لأصحابه أين تنبت الحبة ؟ قالوا : فى الأرض قال ؟ فكذلك الحكمة ، لا تنبت إلا فى قلب كالأرض ، وقال سهل رضى الله عنه : طريقتنا هذه لاتصلح إلا لأقوام كنست بأرواحهم المزابل ، وهو أيضا كالنار فى إحراق الأوصاف الخبيثة الذميمة ، وفى اقتباس الأنوار واشتعال مصابيح القلوب ، وأيضا طبع النار حار يابس ، مضىء محرق، كذلك الصوفى لاتفارقه الحرارة الباطنية ، وهى قوته وسخانته الناشئة عن شهود حريته الباطنية ، ويحرق كل ما والاه من أوصاف نفسه ، ويرى ما وراءه من المعارف وحقائق الوجود ، وهو أيضا كالماء فى الإرواء وإزالة عطش الجهل ، وحرارة التعب الناشئة عن وجود الحجاب ، وأيضا طبع الماء بارد رطب ، والصوفى كذلك ، فمن برودته لاينتصر لنفسه ، ومن رطوبته لايتكبر على غيره ، مع إروائه من احتاج إليه ، وهذه العناصر الأربع هى التى اجتمع منها وجود العالم باعتبار الحكمة ، وهى أركانه فالصوفى كلية العالم بمعانيه ومبانيه ، ولذلك قال فيه بعضهم : « الصوفى من لايعرف فى الدارين أحداً غير الله ، ولا يشهد مع الله سواه ، قد سخر له كل شىء ، ولم يسخر هو لشىء ، وسلط على كل شىء ، ولم يسلط عليه شىء ، فأخذ النصيب من كل شىء ولم يأخذ النصيب منه شيئاً ، يصفو به كدر كل شىء ، ولايكدر صفوه شىء ، قد شغله واحد عن كل شىء ، وكفاه واحد من كل شىء ، ثم كمل مابقى من فضله إجمالا فقال :

وفضله أشهر من أن يجهلا ... وقد ذكرنا منه نزراً مجملا
وفى بيان أصله دليل ... يعلم منه الشان والتفضيل

قلت : أشار رحمه الله إلى أن فضل التصوف مشهور ، وشهرته أعظم من أن يجهله أحد وقد ذكر من فضله نزراً : أى شيئاً قليلا مجملا غير مفصل ، إذ تفصيله يؤدى إلى التطويل الممل ، وفى بيان أصله الذى ذكره فى الفصل الأول دليل على تعظيم شأنه وتفضيله على سائر العلوم .

قلت . ولم نسمع أحداً قط طعن فى علم التصوف أو عابه أو نقصه ، بل القلوب كلها مجبولة على حبه ومدحه ، وإنما وقع الإنكار على أهله والمنتسبين إليه : إما غيرة عليه أن

يدخل فيه من ليس منه ، وهذا معذور وإما حسدا لأهله ، وهذا هالك مثبور ، والأول على خطر ، فإن المنكر على المنتسبين كمن يدخل يده فى النيران فيدخل يده فى الغار الأول والثانى ، فيقول : لا شىء ثم يدخل يده فى غار آخر فيصادف حية تلسعه ، فيهلك من ساعته ، وإذا فاتته بركة الاعتقاد ، فأقل أحواله ترك الانتقاد ، ولذلك قال الشاذلى : تسليم طريقتنا ولاية ، واعتقادها عناية .

وقالوا أيضاً : التسليم ولاية ، والاعتقاد عناية ، والانتقاد جناية .

وقد يكون الإنكار من عدم الفهم وقلة الإدراك ، ورحم الله القائل :

وكم من عائب قولا صحيحاً ... وآفته من الفهم السقيم

وسيأتى بقية الكلام فى الفصل الرابع إن شاء الله ، فى الرد على من أنكره .

ثم ذكر الناظم هنا أحكامه فقال :

الفصل الثالث فى أحكامه، وهى تسعة

نلت : المراد بأحكامه : ما يحكم به على المريد ، وما يلزمه من الآداب ، وما يكون عليه ه من أعمال وأحوال ، وحصرها فى تسعة .

الأول : فى حكم الشيخ وما يترتب عليه .

الثانى : فى حكم الاجتماع .

الثالث : فى حكم اللباس

الرابع : فى حكم الأكل .

الخامس : فى آداب الاجتماع .

السادس : فى حكم السماع .

السابع : فى حكم السفر وآدابه .

الثامن : فى حكم السؤال وأسبابه .

التاسع : فى حكم التربية وتدريج المريد إلى أوان ترشيده .

واعلم أن مذهب الصوفية : الأخذ بالأحسن فى كل شىء ، عملا بقوله تعالى ـ فبشر اد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ـ

وأحسن المذاهب فى الاعتقاد مذهب السلف ، من اعتقاد التنزيه ، ونفى التشبيه ، وبض المتشابه ، والوقوف مع ما ورد كما ورد ، مالم يحتج إلى تقييد ، فيقيد بما ينفى ته ، من غير زائد ، وبهذا تمسكت الصوفية فى بدايتهم .

وقد يطلعهم الله تعالى على أسرار من مكنون علمه ، فتتسع لهم دائرة العلوم وتنحل قيود المتشابه ، فيطلعون على أسرار تنكشف بها غوامض المتشابه ، ولذلك قال ابن ك رحمه الله : المتشابه ما استأثر الله بعلمه ، وقد يطلع عليه بعض أصفيائه ، وهم خون فى العلم يقولون أولا ـ آمنا به كل من عند ربنا ـ ثم يطلعهم الله على أسرار غيبه ن عليه . ولهذا توسعوا فى العبارة حتى أنكرت عليهم ، فوجب التحفظ ، فلا يتكلم م إلا مع أهله ، شفقة على الضعفاء ، وحماية من سوء الظن بأهله ، ولما فى بعضه من

سقوط الحرمة، فوجب تجنبه أبداً وإن فهم على الصواب، مع حسن الظن بقائله، إ
أصل المذهب حسن الظن حتى يأتى المناقض، وحرمة الشريعة واجبة الحفظ فى الأثر
كوجوبها فى المعانى والأفعال.

وأحسن المذاهب فى الأحكام مذهب الفقهاء المرجوع إليهم، كالأئمة الأربعة، فالتز
بمذهب واحد أجمع للحقيقة، وأقرب للتبصر وأدعى للتحقيق وأسهل تناولا، وعلى م
درج سلفنا وأشياخنا، فكان الجنيد: ثوريا(١) والشبلى: مالكيا، والمحاسبى شافع
والجريرى: حنفيا، والجيلانى. حنبلياً، والشاذلى وشيخه: مالكيين، لكن لابد
لمن تجرع فى العلم من الصوفية أن يرضى بربقة التقليد، ويتجمد على قول إمامه من غير
يعرف أصله، بل ينبغى له أن يأخذ الأحكام من أصولها، ويعلم مأخذها وعللها.

وقد قال بعضهم: قف حيث وقفوا، ثم سر.

وقال آخر: من أخذ علمه من خصوص كان نوره وفتحه منهم، ومن أخذه
نصوص الكتاب والسنة كان نوره وفتحه منهما، وعلى قدرهما.

وقال فى القواعد: التقليد أخذ القول من غير استناد لعلامة فى القائل، ولا وجه
المقول، وهو مذموم مطلقا لاستهزاء صاحبه بدينه(٢).

والاقتداء: الاستناد فى أخذ القول لديانة صاحبه وعلمه، وهذه رتبة أهل المذهب
أئمتها، وإطلاق التقليد عليها مجاز.

والتبصر: أخذ القول بدليله الخاص من غير استبداد بالنظر والإعمال للقول،
ولا اختراع لقول من نفسك، وهى رتبة مشايخ المذهب وأجاويد طلبة العلم.

والاجتهاد: اقتراح الأحكام من أدلتها دون مبالاة بقائل، ثم إن لم يعتبر أصل الم
فطلق، وإلا فقيد.

وأحسن المذاهب فى فضائل الأعمال: مذهب المحدثين، إذ لا يأخذون إلا بما

---

(١) متبعا للإمام الثورى رضى الله عنه.

(٢) هذا ليس على إطلاقه، وإنما هو خاص بأهل الدراية من العلماء، وأما ا
فيكفيهم التقليد فى المذهب، وذلك فى الطريق والفقه وغيره، والله تعالى أعلم.

أو قارب الصحيح ، فلا يأخذون بموضوع ولا بما قوى ضعفه ، وقد حذروا من تتبع الفضائل وتتبع الرغائب ، كصلاة الأيام والليالى ، ونحو ذلك .

قلت : وحسب المريد الصادق من النوافل ما يحفظ فرضه من الخلل ، فإن قوى جمع قلبه حتى أمن من الخواطر كفته الصلوات الخمس ، مع عمارة وقته بذكر مفرد ، أو فكرة أو نظرة ، أو مذاكرة ، أو مايلزمه من ضروريته ، فهذه عبارة العارفين والصديقين من المريدين ، مع الزهد التام ، والتفرغ التام ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر ما بدأ به من التسعة الأحكام فقال :

الأول : فى حكم الشيخ والمشيخة ، ومعنى الشيخ .

قلت : جمل هذه الثلاثة فى حكم واحد لقرب بعضها من بعض .

فالأول فى حكم الشيخ : يعنى هل هو شرط صحة ، أو شرط كمال .

والثانى : فى حكم المشيخة ، أى حكمة الشيخوخة ، وما يراد بها ،

والثالث : فى معنى الشيخ ، يعنى المعنى الذى يكون بها شيخا ، ويصح الاقتداء به ، وهو أن يكون جامعا بين حقيقة وشريعة ، بين جذب وسلوك ، ماهراً بعلل النفوس ومخادعها ، والله تعالى أعلم .

ثم شرع فى شرح الأمر الأول ، وهو : حكم الشيخ فقال :

وإنما القوم مسافرون لحضرة الحق وظاعنون
فافتقروا فيه إلى دليل ذى بصر بالسير والمقيل
قد سلك الطريق ثم عاد ليخبر القوم بما استفاد

قلت : السفر إلى الله مجاز ، عبارة عن قطع العلائق ، وعن الخروج عن الشهوات ، والعوائد ، ليتصل بالأنوار والحقائق ، وهى المعبر عنها بحضرة الحق .

وإن شئت قلت : السفر هنا عبارة عن الانتقال عن المقامات ، والإنزال فى أخرى ، كالانتقال من مقام الإسلام إلى الإيمان ، ثم من مقام الإيمان إلى الإحسان .

أو عبارة عن الانتقال من شهود عالم الملك إلى عالم الملكوت ، ومن الملكوت إلى الجبروت ، أو من عالم الحس إلى عالم المعنى ، أو من شهود الكون إلى شهود المكون ،

أو من عالم الشهادة إلى عالم الغيب ، أو من السلوك إلى الجذب ، ثم من الجذب إلى السلوك أو من توحيد الأفعال إلى توحيد الصفات ، ثم إلى توحيد الذات ، ولا يتحقق السفر و يظهر السير إلا بمحاربة النفوس ومخالفتها فى عوائدها وقبيح مألوفاتها وشهواتها ، فلو ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين ، إذ لا سير ولا سلوك إلا فيها ، ولا جذب ولا إلا عنها ، ولذلك قال بعض المحققين ، لا يصح أن يقال فى الأنبياء عليهم الصلاة : سالكون ولا مجذوبون ، لأن الجذب لا يكون إلا عن نفس ، والسلوك لا يكون إلا فى قطع عقباتها وهم عليهم الصلاة والسلام مطهرون من آثار النفوس بأول قدم ، فهم مقيمون فى بساط الحضرة قديماً وحديثاً ، وقوله « لحضرة الحق » يعنى دائرة ولايته ، وهى عكوف القلب فى شهود الرب ، بحيث يفنى من لم يكن ، ويبقى من لم يزل .

أو تقول : الحضرة عبارة عن كشف رداء الصون عن أصل نور الكون ، فتلوح أنوار القدم على صفحات العـــدم ؛ فيتلاشى الحادث ويبقى القديم ، و « الظاعن هو المرتحل وهو المسافر .

وقد ضرب الساحلى مثلا للسفر المعنوى ، الذى يوصل إلى الحضرة ، وحاصله باختصار أن مثل الحضرة كملك كبير ظهر بالمشرق مثلا ، وأرسل رسلا يعرفون به ويشوقون الناس إلى حضرته ، بذكر محاسنه ومكارمه ، فمن الناس من أعرض عن طاعته وهم الكفار مثلا ومن الناس من أذعن وأطاع وعجز عن السير إليه : إما لثقله أو لضعف عبته ، وهم عوام المسلمين الذين يؤمنون بالغيب ، ومن الناس من تشوق إلى السير إليه وبذل مهجته وروحه فى الوصول إليه ، فقالت له الرسل أو من ناب عنهم : ها نحن نسير بك ونعرفك الطريق ثم إن الملك بنى دياراً فى الطريق ينزلونها ، وجعل فيها : مياهاً ، ورياضا ، وأزهاراً ، وكل منزل ما بعده أعظم منه ، فإذا سارت الرسل أو نوابهم بالناس ، ونزلوا فى بعض تلك المنازل ، أراد بعضهم أن يسكن فيها ويقيم ثم ، فيقول له الرسول : المطلوب أمامك ، فما زالوا يرحلون بهم من مرحل إلى مرحل ، ومن مقام الى مقام ، حتى يشرفوا بهم على الملك ، فإذا شاهدوا الملك على نعت الرضى والتكريم ، كان ذلك مقامهم ومسكنهم ، انتهى

ذكرته بالمعنى لطول العهد به .

وقال ابن عطاء الله فى الحكم فى هذا المعنى ، فالعاقل من كان بما هو أبقى أفرح منه

هو يفنى ، قد أشرق نوره وظهرت تباشيره ، فصدف عن هـذه الدار منضيا ، وأعرض عنها موليا ، فلم يتخذها وطنا ، ولا جعلها مسكنا ، بل أنهض الهمة عنها إلى الله ، وصار به مستعيناً فى القدوم عليه ، فما زالت مطية عزمه لايقر قرارها دائما بتسيارها ، إلى أن أناخت بحضرة القدس وبساط الأنس ، فى محل المفاتحة والمواجهة ، والمجالسة والمحادثة ، والمشاهدة والمطالعة ، فصارت الحضرة معشش قلوبهم ، إليها يأوون ، وفيها يسكنون الخ .

وقوله « فانقروا فيه إلى دليل » يعنى أن من تشوف إلى الحضرة لا بد له من دليل يدله عليها ، ويسلك به طريقها .

قال فى « شرح الشريشية » : اعلم أن سلوك الطريق ، وخصوصاً لمريد الكشف والتحقيق ، لا يكون من غير التزام الطاعة والانقياد لشيخ محقق مرشد ، لأن الطريق عويص ، وأدنى زوال يقع عن المحجة يؤدى إلى مواضع فى غاية البعد عن المقصود .

قال الشيخ أبو الحسن الششترى رضى الله عنه : ولا بد أن يتحكم لمن يأمره وينهاه ، ويبصره فإن الطريق عويص : قليل خطاره ، كثير قطاعه ، وقد يظن السالك أنه على جادته وهو قد ولى ظهره لموضع توجهه منـه ، فإنه إذا خرج منه أنملة فقد خرج وانقطع ، وانصرف سيره على أشعة تلك الأنملة ، فإنه طريق دقيق ، ونفس متصرفة فى البدن ، وهى الراحلة عنه ، وعادة مألوفة ، وشيطان هذا الطريق فقيه بمقاماته ونوازله .

قال أبو عمرو الزجاجى رضى الله عنه : لو أن رجلا كشف له عن الغيب ، ولا يكون له أستاذ لا يجىء منه شىء .

وقال إبراهيم بن شيبان رضى الله عنه : لو أن رجلا جمع العلوم كلها ، وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة ، من شيخ ، أو إمام ، أو مؤدب ناصح ، ومن لم يأخذ أدبه عن آمر له يريه عيوب أعماله ورعونات نفسه ، لا يجوز الاقتـداء به فى تصحيح المعاملات .

وقال الشيخ أبو مدين رضى الله عنه : من لم يأخذ أدبه من المتأدبين : أفسد من يتبعه .

وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : كل من لا يكون له فى هذا الطريق شيخ لا يفرح به ، ولو كان وافر العقل منقاد النفس ، واقتصر على مايلقى إليه شيخ التعليم فقط ، لا يكمل كمال من تقيـد بالشيخ المربى ، لأن النفس أبداً كثيفة الحجاب ، عظيمة

الأشراك[1] ، فلا بد من بقاء شيء من الرعونات فيها ، ولا يزول عنها ذلك بالكلية إلا بالانقياد للغير ، والدخول تحت الحكم والقهر ، حسبما ذكر الشيخ أبو عبد الله بن عباد رضي الله عنه .

وكذلك لو كان سبقت له من الله عليه ، وأخذه الحق إليه ، وجذبه إلى حضرته ، لايؤهل للشيخة ، ولو بلغ ما بلغ .

وقال في لطائف المنن : من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الاتباع ، ويكشف له عن قلبه القناع ، فهو في هـــذا الشأن لقيط : لا أب له ، دعي : لا نسب له ، فإن يكن له نور ، فالغالب غلبة الحال عليه ، والغالب عليه وقوفه مع ما يرد من الله إليـه ، لم ترضه سياسة التأديب والتهذيب ، ولم يقده زمام التربية والتدريب .

وقال الشيخ أبوعثمان الفرغاني رحمه الله : « المجذوب : المتدارك الراجع من عالم الحق إلى عالم الخلق ، لا يكمل ولا يصلح للاقتداء ، إذا لم يكن له مرشد يهديه إلى دقائق المقامات ، وإن كان على بينة من ربه وبصيرة في سلوكه ، فإن في المقامات الإسلامية الإيمانية دقائق لا تدرك إلا من حيث الخلقية ، والاطلاع عليها متوقف على اطلاع من اطلع عليها بنظر خليقته ، فلا يكتفي بالبينة الحقيقة التي للمجذوب ، فكان محتاجا إلى المرشد .

وكلام الشيوخ في الحض على اتخاذ الشيخ الرباني ، والتحذير من ضده كثير .

وروى عن أبي يزيد أنه قال : من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان .

وقال الشيخ أبو علي الدقاق : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس ، فإنها تورق ولا تثمر .

قال القشيري : وهو كما قال ، ويجوز أن تثمر كالأشجار التي في الأودية والجبال ، ولكن لا يكون لفاكهتها طعم ، فاكهة البساتين والغرس إذا نقل من موضع لآخر ، يكون أحسن وأكثر ثمرة ، لدخول التصرف فيه ، ثم قال: وسمعت كثيرا من المشايخ يقول : من لم ير مفلحا لا يفلح .

وقد وقعت مشاجرة ومناظرة في آخر المائة الثامنة بين فقراء الأندلس ، حتى تضاربوا

---

(١) الأشراك : جمع شرك (بفتح الشين والراء) وهو ما ينصب للصيد .

بالنمال ، وذلك : هل يكتنى بمشاهدة الرسوم ، ومطالعة الكتب فى طريق الصوفية ، أهل التوحيد الذوق والمعرفة الحقيقية الوجدانية ، أم لابد من الشيخ ؟! فكتبوا البلاد ، فأجاب فيها كل أحد على قدر نظره : كالشيخ أبى عبد الله ابن عباد رضى الله عنه ، وكالشيخ أبى عبد الله ابن خلدون رحمه الله ، وأفرد لهذه المسئلة تاليفا ، وقد ذكر حاصل ذلك الشيخ زروق فى «عدته»[1] ، فقال بعد كلام : وقد تشاجر فقراء الأندلس من المتأخرين فى الاكتفاء بالكتب عن المشايخ ، فكتبوا البلاد ، فكل أجاب على حسب فتحه .

وجملة الأجوبة دائرة على ثلاثة :

أولها : النظر للمشايخ ، فشيخ التعليم تكفى عنه الكتب للبيب حاذق . يعرف مواردالعلم . وشيخ التربية تكفى عنه الصحبة لدين عاقل ناصح .

قال شارح «بداية السلوك» : وقل أن يوجد لغلبة الهوى .

وشيخ الترقية : يكفى عنه اللقاء والتبرك ، وأخذ كل ذلك من وجه واحد ، يعنى أن أخذ ذلك عن الشيخ فى الأوجه الثلاثة أتم للنجح وأبلغ للمراد .

الثانى : النظر لحال الطالب ، فالبليد لا بد من شيخ يربيه ، واللبيب تكفى الكتب فى ترقيه ، لكنه لا يسلم من رعونة نفسه ، وإن وصل لابتلاء العبد برؤية نفسه .

الثالث : النظر للمجاهدات ، فمجاهدة التقوى لا تحتاج إلى شيخ لبيانها وعمومها ، والاستقامة تحتاج لشيخ فى بيان الأصلح منها ، وقد يكتفى عنه اللبيب بالكتب ، ومجاهدة الكشف ، والترقية لابد فيها من شيخ يرجع إليه فى فتوحها ، كرجوعه عليه الصلاة والسلام فى عرضه على ورقة بن نوفل لعلمه بأخبار النبوة ، ومبادىء ظهورها حين فاجأه الحق ، وهذه الطريقة قريبة من الأولى والسنة معها ، والله تعالى أعلم . انتهى

قلت : وهذا الجواب الأخير أقرب للصواب ، والله تعالى أعلم .

وقوله : «ذو بصر بالسير والمقيل ، إشار به إلى شروط الشيخ ، وأنه لابد أن يكون بصيراً بأحوال السير ، فيسير كل واحد على قدر طاقته وجهده ، فليس القوى كالضعيف ، وليس الراكب كالراجل ، وليس سير الصديق كالصادق ، وليس الصادق كالمتردد ، وليس المتردد كالمنكر ، فيحمل الصديق من المجاهدة والخراب والأذكار مالا يحمل الصادق ،

(١) «عدة المريد الصادق» .

ويحمل الصادق من ذلك مالا يحمل المتردد ، ويحتال على المنكر بالسياسة حتى يربى له الصدق وهكذا يسير مع كل واحد من القاصدين .

قال بعض المحققين : المريد على قسمين : مراد حقيق ، ومجازى .

فالمريد الحقيق ، هو من كملت فيه أهلية الإرادة ، فصمم عزمه من أول مرة على الالتزا بصحبة الشيخ ، والتحكيم فى نفسه ، وعمل على على معانقة الأهوال ، وتحمل الأثقال ومفارقة الأشكال ، ومعالجة الأخلاق ، وممارسة المشاق ، وتحمل المصاعب وركوب المتاعب .

والمريد المجازى ، هو : الذى ليس قصده إلا الدخول مع القوم ، والتزيى بزيهم والانتظا فى سلك عقدهم ، والتكثير لسوادهم ، وهذا لا يلزم بشروط الصحبة . وإنما يؤمر بلزو حدود الشرع ومخالطة الطائفة حتى تشمله بركتهم ، وينظر إلى أحوالهم وسيرهم . فيسلك مسالكهم . ويؤهل لما أهلوا له .

وقوله : « قد سلك الطريق ، ثم عاد » أشار به إلى أن الشيخ لا بد أن يكون سلك طريق السلوك ، ثم خاض بحار الجذب ، ثم رجع إلى السلوك ، فلا يصلح للتربية سالك محض ، ولا مجذوب محض ، وإنما يصلح من تقدمه سلوك ثم تداركه الجذب ، أو تقدمه جذب ، ثم رجع للسلوك ، والأول أكمل . وقيـــل : الثانى أكمل ، وكلاهما يصلحان للتربية دون ما قبلهما .

أما السالك المحض ، وهو الظاهرى ، فلأنه لا يخلو من بقية فيه من هذا العالم : أعنى عا الأشباح ، والمكاتب عبد ما بقى عليه درهم ،(1) والعبد المملوك لا يمكنه التصرف فى نفس فكيف يتصرف فى غيره .

وأما المجذوب قبل أن يرجع إلى البقاء ، أعنى قبل أن يرجع من عالم الحق الذى هو عا القدرة ، وارتفاع الوسائط وخرق حجاب الأسباب إلى عالم الخلق ، الذى هو عالم الحكمة ، وتحقيق الوسائط والأسباب ، وإلى الاشتغال بالسلوك والتحقق بالمقامات ، فهو أيضاً غير

---

(1) هذا لفظ حديث شريف صحيح رواه أبو داود ، والبيهق عن عبدالله بن عمرو ابن العاص ، ذكره الشيخ استطراداً .

مؤهل للشيخة والاقتداء به ، لاشتغاله بحاله عن حال غيره ، وعدم تحققه بالمقامات ، إلا أنه ربى من هو دونه إلى بلوغ مقامه ، وقد يتمكنان معاً : إن كان الأول مقتديا بشيخ يسيره ، والله تعالى أعلم .

وقوله : « ليخبر القوم بما استفاد » المراد بالقوم : المريدون ، يخبرهم بما استفاده من علوم الأذواق وأنوار الشهود ، ولذلك قالوا : لابد للشيخ أن يكون له علم صحيح ، وذوق صريح ، وهمة عالية ، وحالة مرضية ، وسيأتي الكلام على بقية شروطه إن شاء الله .

ثم تمم أحوال الشيخ ومعارفه فقال :

وجاب منها الوهد والآكاما وراض منها الرمل والرغاما

قلت : أصل « جاب » في اللغة بمعنى : نقب وقطع . قال تعالى ـ الذين جابوا الصخر بالواد(١) ـ أى نقبوها واتخـــذوا فيها بيوتاً ، وأطلقه الناظم هنا على الدخول والسلوك ، و« الوهد » المكان المنخفض ، « والآكام » : المكان المرتفع ، جمع أكمة ، وهو التل ، والتل هو جبل صغير ، « وراض » المكان : اختبره وعرف مافيه ، والرمل بالراء : معلوم ، والمراد هنا : الرقيق الذى يمنع من سرعة الســـير ، « والرغام » : التراب ، والمراد هنا الصلب اليابس .

يقول رضى الله عنـه : إن شيخ التربية يكون قد سلك من طريق القوم ما كان منها منخفضاً ، كالخمول ، والذل ، والعزلة ، والفاقة ، وذاق حلاوة ذلك ، ومرارته ، وعرف منافعه ودسائسه ، فيسير غيره فيها كما سارهو ، وعرف أيضاً ما كان منها مرتفعاً كالظهور والعز ، والخلطة ، والغنى ، فيكون قد سلك ذلك وعرف ضرره ونفعه ، وذاق حلاوته ومرارته ، فيسير فيه كما سار هو ، لكن الناس مختلفون ، فكم من واحد تأنس بالخمول والعزلة ، فتركن نفسه لذلك ويشق عليه ظهوره وخلطته ، فالواجب على الشيخ إخراجه من ذلك ، فيأمره بالخلطة والظهور ، إذ لا تموت النفس إلا بما يثقل عليها ، وكم من واحد كان مبتلى بالظهور ، والعز ، والغنى ، والخلطة ، فالواجب إخراجـــه من ذلك كله الأمر بضده .

قال في شرح « الرائية الشريشية » : وإذا أردت الخروج من العلائق ، فأولها : الخروج من المـال ، فإن ذلك الذى يميل به عن الحق ، فلم يوجد مريد دخل في هـذا الأمر ومعه

(١) سورة الفجر ، الآية : ١١

علاقة من الدنيا ، إلا جرته تلك العلاقة عن قريب إلى مامنه خرج ، فإذا خرج من المال ، فالواجب عليه الخروج من الجاه ، فإن ملاحظة الجاه مقطعة عظيمة ، وما لم يستوعند المريد قبول الخلق وردهم ، لا يجيء منه شيء ، بل أضر الأشياء له ملاحظة الناس له بعين التعظيم والتبرك به لإفلاس الناس من هذا الحديث ، وهو بعد لم يصحح عقده بينه وبين الله تعالى ، فخروجه من الجاه واجب عليه ، لأن ذلك سم قاتل له ، فإذا خرج به من ماله وجاهه ، فيجب أن يصحح عقده بينه وبين الله تعالى ، لايخالف شيخه فى كل ما يشير به عليه ، فإن الخلاف للمريد فى ابتداء أمره عظيم الضرر ، لأن ابتداء حاله دليل على جميع عمره انتهى .

قوله : « وواض منها الرمل والرغاما » يعنى : أن الشيخ يكون قد اختبر الطريق : صعبها وسهلها فينظر فى حال المريدين ، فمن كان قوياً حمله على الصعبة ، ليطوى عنه مسافة البعد ، ومن كان ضعيفاً حمله على السهلة ، لئلا ينفره[1] فيرجع من حيث جاء ، فالرمل الرقيق يصعب السير فيه ، بخلاف الرغام الصلب ، فإنه يسهل فيه السير ، فكنى به الناظم عن مشاق النفس ، وما يخف عليها ، ولا شك أن الطريق إذا كانت قريبة مختصرة لا تجدها إلا صعبة معقبة ، وإذا كانت طويلة مسلوكة : لا تجدها إلا طويلة بعيدة ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

وجال فيها رائحا وغاديا وسار كل فدفد وواديا

قلت : الفدفد : المكان الغليظ ، ذو حصباء ، قاله ابن الأنبارى ، وقال أبو زيد : الفدفد : الموضع الذى فيه غلظ وارتفاع ، والوادى معلوم ، وجمعه ، أودية ، وهو مواضع المياه .

يقول رضى الله عنه : يشترط فى الشيخ أن يكون ماهراً بالطريق ، قد جال فيها مراراً ، قد راح فيها آخر النهار وغدا فيها أول النهار ، وكنى بها عن علم البدايات والنهايات ، فيكون عالما بها ، يربى به المريد فى بدايته وفى نهايته ، فلكل واحد حكم يخصه ، فعمل البدايات عمل الجوارح ، وعمل النهايات عمل القلوب ، ويكون أيضاً قد سالك مسالك الجمال والجلال ، فالجمال محل العلو والظهور ، كالفدفد ، والجلال محل الانخفاض والحنو ، كالأودية ، وفيه إشارة إلى أن شرب المريد من منهل الجلال أكثر من شربه من محل الجمال ، لأن الأودية الغالب فيها وجود الماء ، بخلاف الفدفد ، والله تعالى أعلم .

---

(١) نغر الجرح : امتلأ قيحا وصديدا .

ثم قال :

وعلم المخوف والمأمونا   وعرف الأنهار والعيونا

قلت : يعنى أن الشيخ يكون عالمـــا بالمكان المخوف والمأمون ، والمكان الجدب الذى لا ماء فيه ، والمكان الذى فيه الماء ، فيكون علاما بالأمور التى يخاف على المريد فيها فيأمره بالبعد عنها كالركون إلى العز والتعظيم ، أو إلى الدنيا والميل إلى شىء منها ومن أسبابها ومخالطة أهلها وسماع حديثها ، وكان سيدنا عيسى عليه السلام يقول « لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم » وكصحبة علماء الفروع المتجمدين على ظاهر الشريعة ، لأنهم يزعمون أن السنة محصورة فيما علموا منها ، وكمخالطة القراء المداهنين ، والمتفقرة الجاهلين ، فهؤلاء كلهم قطاع ، يخاف على المريد فى صحبتهم .

والموضع المأمون هو : الزهد فى الدنيا والبعد منها ، ومن أهلها .

وفى الحديث : « ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما أيدى الناس يحبك الناس(1) » .

وفى حديث آخر « الزاهد يريح بدنه وقلبه فى الدنيا والآخرة(2) » .

وقيل لأبى الحسن : مالى أرى الناس يعظمونك ، وليس لك كبير عمل ، قال بسنة واحدة افترضها الله على عباده ، تمسكت بها .

قيل : وما هى ؟ قال . الإعراض عنكم وعن دنياكم .

ومن المواضع المأمونة : صحبة الصوفية من المريدين والعارفين ، والميل إلى الفاقة ، والقناعة من الدنيا ، والعزلة ، والصمت ، والموضع الذى لا ماء فيه ، وهو محل الجدب ، وهو الموطن الذى تكثر فيه الشهوات والعوائد ، ويجد فيه المريد راحته وجماله ، ويظهر فيه عزه وجاهه ، فهذا الموطن إن طال فيه إقامته قحط قلبه ، ومنع من مدد الزيادة .

قال فى الحكم : « إن أردت بسط المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك » ربما تجد من المزيد فى الفاقة مالا تجده فى الصوم والصلاة ، ولذلك كانت الفاقة أعياد المريدين ، لأنها سلم ومعراج الرسوخ والتمكين فى مقامات اليقين .

---

(1) رواه ابن ماجه ، والطبرانى ، والحاكم ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن سهل بن سعد .

(2) ويقرب منه قول النبى صلى الله عليه وسلم :

« من زهد فى الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه وأنطلق بها لسانه ، وعرفه داء الدنيا ودواءها ، وأخرجه منها سالما إلى دار السلام » رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب « ذم الدنيا » .

وقد قال بعضهم : « بقدر الامتحان يكون الامتكان ، واختبار الباق يقطع التباق ، وكل محنة تزيد مكنة » ، والموضع الذى فيه المياه من عيون وأنهار هو ما قلته آنفاً من مواطن الشدة كالفاقة وكل ما ينغص على النفس ويؤلمها ، فالأنهار ، هى : علوم الطريقة ، والعيون هى : أسرار الحقيقة .

أو تقول : الأنهار ، هى : العلوم ، والعيون هى : الأذواق ، فلا بد للشيخ أن يكون عارفا بالعلوم التى يحتاج إليها ، ويذوق أسرار الأحوال والمقامات ، والله تعالى أعلم ، ثم قال :

قد قطع البيداء والمفاوز وارتاد كل حابس وحاجز

قلت . « البيداء » هى الصحراء ، « والمفاوز » جمع مفازة ، وهى : المسافة البعيدة ، وارتاد ، أى اختبر البلد ، وعرف ما يصلح وما لا يصلح .

فالرائد هو . الذى يتقدم أمام القوم ليختبر لهم البلد الذى يصلح للنزول ، والحابس هو الذى يحبسك عن بلوغ المراد ، والحاجز هو الذى يحجز بينك وبين مرادك .

يقول رضى الله عنه : إن الشيخ لا بد أن يكون قطع مهامه النفوس ، وجال فى ميدان محاربتها فى قطع شهواتها وعوائدها ، وما تجنح إليه من رعوتها ومألوفاتها ، وقطع أيضاً مفاوز البعد الذى بينها وبين خالقها الناشىء عن وهمها وجهلها ، وذلك بقطع ركونها إلى الكرامات وخوارق العادات ، أو طلب الخصوصية أو غير ذلك من الحروف القاطعة عن مقام الإخلاص ، واللحوق بخواص الخواص ، ويكون أيضاً اختبر وعرف كل ما يحبس عن السير من الوقوف مع المقامات والقناعة بظهور الكرامات .

وفى الحكم : « ما أرادت همة عارف أن تقف مع ما كشف لها إلا ونادته هواتف الحقيقة : الذى تطلب أمامك ، ولا تبرجت ظواهر المكونات إلا ونادته حقائقها : إنما نحن فتنة فلا تكفر » ، وعرف أيضاً ما يحجز ويمنع من الوصول إلى صريح العرفان ، على وفق المشاهدة والعيان ، وهو أمران . إما الملل من المجاهدة والسير والركون إلى الراحة والكسل ، وإما الاستغناء عن الشيخ والخروج عنه قبل الترشيد ، فإن ذلك يحجز بينه وبين التحقيق ، ويخرجه عن سواء الطريق ، ويرجع إلى مقام العموم ، نسئل الله السلامة من السلب بعد العطاء . آمين .

ثم قال :

وحل فى منازل المناهل ... وكل شرب كان فيه ناهل

المناهل : جمع منهل ، وهو : الموضع الذى ينزله الركب ، بشرط أن يكون فيه الماء والأخاذ ، والناهل هو الشارب .

يقول رضى الله عنه : يشترط فى الشيخ أن يكون حل فى منازل السائرين ، وهى مقامات اليقين ، بحيث سلكها وعرفها : ذوقاً وحالا ومقاماً ، كتصحيح التوبة بشروطها وأركانها ، وتحقيق الورع والزهد ، والخوف والرجاء ، والتوكل والصبر ، والرضى والتسليم ، والمحبة والمراقبة ، والمشاهدة ، وحصل له الفرق بين الروحانية والبشرية ، والسلوك والجذب والفناء والبقاء ، وأحكم أحكام التخلية والتحلية و وكل شرب ، من مشارب القوم ، وأذواقها ، كان فيه ناهلا وشاربا ، فإذا حصل هذه المراتب ، وذاق هذه الأذواق : استحق أن يكون شيخاً مربياً ، كما أشار إليه بقوله :

فعند ما قام بهـــذا الخطب ... قالوا جميعاً : أنت شيخ الركب

قلت : و الخطب ، هو الشأن ، يعنى فعند ما قام بهذا الخطب الجسيم ، وتحقق فيه هذا السر العظيم ، استحق التقديم للتربية والترقية ، وقالوا له : أنت شيخ الركب ، حيث سلكت المنازل وعرفت المناهل ، وحققت الطريق ، ووصلت إلى معالم التحقيق وعلمت المخوف والمأمون والمجذوب منها ، وما اشتمل على أنهار وعيون ، فقد شهدت لك الأرواح بالتقديم ، والأسرار بالتعظيم ، وقد أشار الشريشى إلى شروط الشيخ ، فقال :

والشيخ آيات إذا لم تكن له ... فما هو إلا فى ليالى الهوى يسرى

إذا لم يكن علم لديه بظاهر ... ولا باطن ، فاضرب به لجج البحر

فالعلم الظاهر هو : علم الشريعة ، والعلم الباطن هو : علم الطريقة والحقيقة ، فإذا لم يحصل شيئاً من هذين العلمين ، ثم ادعى مرتبة الشيخوخة ، فأخرجه من سفينة دائرة الشيخوخة وألقه فى لجج بحر النفاق .

قال صاحب العوارف : ومن شرائط أهل الولاية أن يكون عالماً بالأوامر الشرعية ، عاملا بها ، واقفاً على آداب الطريقة ، وسالكا فيها ، وكاملا فى عرفان الحقيقة وواصلا إليها ، ومخلصاً بجميع ذلك ، حتى يتم له السلوك ويشرف بعالم الوصال ، فالله الله أيها الطالب ، الحذر من صحبة الأشرار ، فإنهم قطاع الطريق واعتصموا بحبل القرآن والأحاديث النبوية .

وقال أبو الحسن الششترى رضى الله عنه : لا يقتدى فى طريقنا هذه بظاهر ولا بباطن ،

وإنما يقتدى بمن جمع بينهما مع الزهد الظاهر والإيثار والورع والعلم بالمنازلات والأحوال والمقامات والخواطر .

وقال الجنيد رضي الله عنه : « من لا يكتب الحديث ، ويحفظ القرآن لايقتدى به في هذا الأمر » فيجب على المريد ألا يقتدى إلا بالعالم المتجرد عن الدنيا العامل بما يعلم . ثم قال . ولا يتخيل لطالب هذا الأمر أنه يبلغه بذكائه أو ينظر في كتب الصوفية أو الحكماء ويعمل ويجتهد ويصلى . لا والله ما الأمر هين .

واعلم أن ما شرطه الشيخ الشريشى في شيخ التربية من العلم الظاهر والباطن صحيح .

أما العلم الظاهر ، فالمطلوب منه تحصيل ما يحتاج إليه في نفسه فقط ، ويحتاج إليه المريد في حال سيره ، وهو القدر الذى لا بد منه من أحكام : الطهارة ، والصلاة ، ونحو ذلك ، إذ كثير من العلوم الظاهرة لا مدخل لها في السير والسلوك إلى ملك الملوك ، كالدماء ، والحدود ، والطلاق ، والعتاق ، وإلا لزم الحط من رتبة كثير من فحول الطريق وأعلام الوجود ، والتحقيق ، فقد كان كثير منهم متضلعين بعلوم الشريعة ، وكثير منهم ليس عنده إلا ما يخصه من الذى لا بد منه .

قلت إذا عرفت هذا عرفت بطلان قول من قال : إن شيخ التربية لا بد أن يكون جامعا للعلوم كلها ، بحيث لو انقطعت العلوم كلها لأحياها ، كيف وقد وجد كثير ممن اتفق الناس على تربيته وهو أمى :

قال في العوارف : لما قال أبو يزيد البسطامى رضى الله عنه . صحبت أبا على المسندى (بالسين) ، فكنت ألقنه ما يقيم به فرضه ، وهو يعلمنى التوحيد والحقائق صرفا .

ومن المعلوم أن الشيخ ابن عباد رضى الله عنه لم يفتح له إلا على يد رجل أمى ، وكذلك الغزالى .

ومن المعلوم أن الغزوانى لم تكن له يد في العلم الظاهر ، فكان إذا جاءته فتيا في علوم القوم أرسل بها لتلميذه الهبطى .

وكذلك شيخ شيوخنا . سيدنا عبد الرحمن المجذوب ، لم يكن له معرفة بالعلم الظاهر ، وكثير من الأولياء الأكابر كانوا أميين ، وفى أسرار الولاية راسخين .

وأما العلم الباطن فالمطلوب فيه التبحر التام ، إذ المقصود بالذات فى الشيخ المصطلح عليه عند القوم هو هذا العلم ، لأن المريد إنما يطلب الشيخ يسلكه ويعلمه علم الطريقة والحقيقة، فيكون عنـــده علم تام بالله ، وصفاته ، وأسمائه ، ومتعلقاتها ، وأحكامها ، وتفاصيلها ، وفوائدها وحكمها ، وأسرارها ، وعلم تام بآفات الطريق ومكايد النفس والشيطان ، وطرق المواجيد ، وتحقيق المقامات ، قد حصل له ذلك على سبيل الذوق والوجدان ، بحيث إذا استخبر عن آفات الطريق وعلاماته ، وعن حقيقة المقصد يخبر بحقيقة الأمر على ما هو عليه وحصلت له مع ذلك قوة وتمكن من رفع الموانع ، وقطع العلائق الظاهرة والباطنـــة ، وبصيرة نافذة ينظر بها فى قابلية المريدين والمسترشدين ، واستعداداتهم يحمل كل أحد على ما كانة قابليته ، ويعين له طريقاً قريبا يفضى منها إلى ربه (قاله الفاسى) .

وقال الساحلى : من الشروط التى لابد منها فى الشيخ أن يكون عنده من الكتاب والسنة مايقيم به مالا بد منه فى الرسوم الشرعية ، وما يبنى عليه وظائف سلوكه ، وإذا انضاف إلى ما يفتح الله به عليه من الحكمة فى باطنه ، فإنه يكون له فى ذلك نور يمشى به فى النـاس ، ويهديه إلى فهم خطابات الكتاب والسنة ، إلى آخر كلامه .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنـه كل شيخ لم تصل إليك الفوائد منـه من وراء حجاب ، فليس بشيخ .

قلت : ولعله يشير إلى أن الشيخ الكامل يمد تلميذه ولو كان بعيداً عنه فى الحس .

وقال أيضاً : والله إنى لأوصل الرجل إلى الله من نفس واحد .

وقال : الشيخ أبو العباس رضى الله عنـه : والله ما بينى وبين الرجل إلا أن أنظر إليـه وقد أغنيته .

قلت : وقد لقينا والحمد لله فى زماننا هذا من يغنى بالنظر ، صحبناهم وعرفناهم على قدم الشاذلى ، والمرسى رضى الله عن جميعهم ، وخرطنا فى سلكهم آمين .

ثم إذا توفرت فيـــه شروط الشيخوخة لزم اتباعه فى طريق الخصوص ، وإلى ذلك أشار بقوله :

وأحدقوا من حوله يمشون ۝ وكلهم إليــه يوزعون

قلت : أحـــدق القوم بالشيء : داروا به ، ويوزعون ، أى يضمون ويحشرون

يقول رضي الله عنه : لما تحقق الناس بوجود شرط الشيخوخة في هذا الولي ، واطلعوا على وجود السر عنده أحدقوا به وداروا من خلفه ، يقتدون به ويهتدون بهديه ، ويمشون على سننه ، وكلهم يضمون إليه ويقربون من حضرته ، لعل نفحات تهب من ناحيته فان لله رجالا من نظروا إليه سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وهم العارفون بالله .

وقال في العوارف : إن نظر العلماء الراسخين والرجال البالغين ترياق نافع، ينظر أحدهم إلى الرجل الصادق فيستنشق بنفوذ بصيرته ، حسن استعداد الصادق واستئهاله مواهب الله تعالى الخاصة ، فيقع في قلبه محبة الصادق المريد ، وينظر إليه نظرة محبة عن بصيرة ، وهم من جنود الله تعالى ، فيكسبون بنظرهم أحوالا سنية ، ويهبون آثاراً مرضية ، وماذا ينكر المنكر من قدرة الله سبحانه وتعالى ، وكما جعل في بعض الأفاعي من الخاصية إذ نظر إلى الإنسان يهلكه بنظره ، هو قادر بأن يجعل في بعض خواص عباده أنه إذا نظر إلى طالب صادق يكسبه حالا وحياة . اهـ .

وقال في لطائف المنن : إنما يكون الاقتداء بولي دلك الله عليه ، وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه ، فطوى عنك شهود بشريته في وجود خصوصيته ، فألقيت إليه القياد فسلك بك سبيل الرشاد ، يعرفك برعونات نفسك وكمائنها ودفائنها ، ويدلك على الجمع على الله والفرار عما سوى الله ، ويسايرك في طريقك حتى تصل إلى الله : يوقفك على إساءة نفسك ، ويعرفك بإحسان الله إليك ، فيفيدك معرفة إساءة نفسك : الهرب منها ، وعدم الركون إليها ، ويفيدك العلم بإحسان الله إليك الإقبال عليه والقيام بالشكر إليه ، والدوام على مر الساعات بين يديه .

وقال الشيخ أبو مدين رضي الله عنه .

الشيخ : من شهدت له ذاتك بالتقديم ، وسرك بالتعظيم .

الشيخ من هذبك بأخلاقه وأدبك بإطراقه ، وأنار باطنك بإشراقه .

الشيخ : من جمعك في حضوره و حفظك في مغيبه .

وقال أيضاً (في لطائف المنن) : ليس شيخك من أخذت عنه .

وليس شيخك من واجهتك عبارته إنما شيخك الذي سرت فيك إشارته .

وليس شيخك من دعاك إلى الباب ، إنما شيخك من رفع بينك وبينه الحجاب .

وليس شيخك من واجهك مقاله ، إنما شيخك من نهض بك حاله .

شيخك هو : الذى أخرجك من سجن الهوى ، ودخل بك على المولى .

شيخك هو : الذى مازال يجلو مرآة قلبك ، حتى تجلت فيه أنوار ربك ، نهض بك إلى الله ، فنهضت إليه ، وسار بك حتى وصلت إليـه ، ولا زال محاذيا لك حتى ألقاك بين يديه ، فزج بك فى نور الحضرة ، وقال : ها أنت وربك .

هنالك على الولاية من الله ، ومواطن الأمداد من الله ، و بساط التلقى من الله .

ثم ذكر كيفية تسييره للمريدين . فقال :

فرتب القوم على مراتب ما بين ماش : راجل وراكب

قلت : ينبغى للشيخ أن يكون ماهراً بالسير ، عارفا بأحوال السائرين ، فيرتب القوم على مراتب ، فمن كان ضعيفاً فى السير خاليا من الحال الحاملة له : جعله فى وسط الركب يمشى خلف من سبقه ، ويسيره من خلفه ، ومن كان قويا فى سيره محمولا على نجيب حاله ، قدمه مع المتقدمين ، ليسير خلفه المتوسطون والمتأخرون .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه : الماشى عبارة عن صاحب الأعمال والحركات الجسمانية ، والراكب : إشارة إلى المحمول بحال أو عمل أو ذكر أو فكر ، توجه له على بساط معرفة ، وإنما يفعل بهم ذلك ، لأن قوة النفس معينة لصاحبها على مراده ، والله تعالى ينفع العبد بنيته على قدر همته ، فلذلك تجد المسالك واحداً ، والفتح مختلفا ـ تسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ـ هـذا فى شأن الأشجار النابتـة ، فكيف بالحقائق العرفانية ، وما صحب أحد قط وليا إلا نال منه ما تقضى همته فإن وافقت نيته همته حصل الانتظام ، وإلا وقع الاختلاف .

قلت : يعنى أن نية المريد : إن وافقت همة شيخه ، وقع الانتظام فى سلك الشيخ ولحق به ؛ وإن كانت نية المريد مخالفة لهمة الشيخ بأن تكون نية المريد التبرك فقط ، أو دخل معه على حرف من الحروف ، وهمة الشيخ فيه الوصول ، فانه يقع الاختلاف ، ولا ينال

منه الا مانوى ، إلا إن سبقت له من الله سابقة ، فلا بد أن تنهضه همة الشيخ إلى ما سبق له ، والله تعالى أعلم .

ثم إن دوام السير يوجب الملل ، فلا بد لاستعمال ما يوجب الراحة ، ليحصل النشاط ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « أروحوا القلوب : ساعة بساعة(١) » . وقال ابن مسعود رضي الله عنه « إن هذه القلوب تمل كما تمل الأبدان ، فابتغوا إليها طرائف الحكمة » .

وإلى ذلك أشار الناظم بقوله :

وحيث كلت نجب الأبدان	قال :احدها يا حادى الأظعان
فمن هنا يلقب القوالا	حادٍ لأجل حدوه الرجالا

قلت : الكلل هو العيا ، وعبد كل : أى ثقيل ، وكلت الأبدان : عييت ، والنجب جمع نجيب ، وهي الناقة الجيدة ، وحدا يحدو حدواً بمعنى : غنى بالإبل ليسيرها ، فهو حاد ، أي مغن ، والأظعان : جمع ظعينة ، وهي الناقة المرحلة ، وتطلق على المرأة الراكبة عليها مجازاً ، والتلقيب هو : إحداث اسم يشعر بالمدح أو الذم ، وقد نهى الله تعالى عن اللقب المشعر بالذم ، فقال ـ ولا تنابزوا بالألقاب (٢) ـ وأطلقه الناظم هنا على مجرد التسمية ، أى : وسموا القوال الذى يغنى حادياً لأجل حدوه بالرجال السائرين ، وحقه أن يقول حادياً لأنه منصوب ، لكنه جرى على لغة من يقدر الإعراب كله فى المنقوص .

يقول رضى الله عنه : وحيث دام السير ، وحصل الملل ، وكلت الأبدان فى الخدمة أو القلوب فى الفكرة ، أو الأرواح فى النظرة ، أو الأسرار فى العكوف فى الحضرة وخيف عليها حصول الفترة ، قال الشيخ ، أو نائبه ، لمن يحسن الغناء : أحد بهذه القلوب أيها الحادى ، وذكرها معاهدها الأصلية ، ومواطنها القدسية ، فيغنى بما يليق بكل واحد فى محله ، ولهذا المعنى اتخذوا قوالا فى حلقة الذكر ، لأنه يهيج وينشط ، ويحسن أيضا بعد تمام الذكر خشية أن يكون حصل شىء من الملل ، فيروح بذلك .

والحاصل أن من سياسة الشيوخ إعانة النفوس بما يقتضيه حالها على ما هو المراد منها

---

(١) رواه أبو داود فى مراسيله ــ وأبو بكر بن المقرى فى فوائده والقضاعى عن أنس بلفظ : « روحوا القلوب ساعة فساعة » .

(٢) سورة الحجرات الآية : ١١

ثم إن الطباع مختلفة وأحوال السالكين مفترقة ، فمنهم من تنتعش قواه بالمعارف والعلوم ، فيذكر له منها ما يقوى حاله بوجه يشوق ولا يشوش .

ومنهم من ينتعش حاله بالتذكير والوعظ ، فيكون تذكيره عوناً له على سلوكه ، ورضاً لهمته .

ومنهم من ينتعش قواه بالمذاكرة في العلوم واستخراج دقائق الفهوم ، فيكون ذلك منهضا له فى حاله ، فيرقى كل أحد بما ينعشه ، وإليه تشير الآية الكريمة ، وهى قوله تعالى ـ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن(١) ـ فأهل الصدق يكفى فيهم الدعاء إلى الله بالحكمة ، وهى الهمة القوية .

وأهل الاعتقاد والتسليم يكفى فيهم الدعاء بالموعظة الحسنة .

وأهل الانتقاد يجادلهم بالتى هى أحسن ، فإن سبقت لهم سابقة نفعهم التذكير ، وإلا فإنما أنت نذير .

ومن الناس أيضا من ينتفع بالحكايات وذكر الكرامات .

ومنهم من يتأثر بالشعر والسماع .

ومنهم من يتأثر بنغم الأوتار وآلات الطرب .

ومنهم من يتأثر بسماع الزمارة والكبر ، ومنهم من يتأثر بسماع الطنبور والبندير وغير ذلك من آلات اللهو .

وفى ذلك يقول الشاذلى رضى الله عنه فيما نسب له :

ومنا من يهيم على سماع   ببندير وعود ونقر طار
ومنا من يهيم على علوم   وقرآن وذكر وافتكار

قال بعض الحكماء : من سار الى الله بطبعه كان وصوله أقرب إليه من طبعه ، ومن سار الى الله بالبعد من طبعه كان وصوله على قدر بعده من طبعه ، وذلك يقتضى له الاستهلاك قبل الوصول ، فلا يتنعم برؤية الحق إلا فى آخر نفس من وجوده ، إن وجد ، وإلا فهو بعيد فى دعواه ، ومحجوب برؤية نفسه .

قلت : وطريق الشاذلية ممن سار إلى الله بطبعه ، فكان وصولها أقرب إليهم من طبعهم ، لأنهم بنوا أصولهم وطريقهم على رؤية الحق والفناء فيه بأول قدم ، حسبما استقرى من

(١) سورة النحل ، الآية : ١٢٥

أحوالهم ، فهم يتنعمون برؤية الحق فى أول قدم . ولذلك قال القطب ابن مشيش رضى الله عنه : « من دلك على الدنيا فقد غشك ، ومن دلك على العمل فقد أتعبك ، ومن دلك على الله فقد نصحك » فالدلالة على الله هى الفناء فيه والانحياش، والغيبة عما سواه ، وعلى هذا بنى الشاذلية طريقهم ، حققنا الله بمعرفتهم . آمين .

ثم بين حقيقة هذا السفر فقال :

والسفر المذكور بالقلوب والشيخ فى منزلة الطبيب

قلت: السفر هنا هو سفر القلوب إلى حضرة علام الغيوب ، وهو من أربعة مواطن إلى أربعة مواطن :

يسافر أولا من موطن الذنوب والغفلة إلى موطن التوبة واليقظة .

ويسافر ثانيا من موطن الحرص على الدنيا والانكباب عليها إلى موطن الزهد فيها والغيبة عنها .

ويسافر ثالثاً من موطن مساوىء النفوس وعيوب القلوب إلى موطن التخلية منها والتحلية بأضدادها .

كما قال فى الحكم : اخرج من أوصاف بشريتك من كل وصف مناقض لعبوديتك ، لتكون لنداء الحق مجيباً ، ومن حضرته قريبا .

ويسافر رابعاً من عالم الملك إلى شهود عالم الملكوت ، ثم إلى شهود الجبروت ، أو من عالم الحس إلى عالم المعنى ، أو من عالم الأشباح الى شهود عالم الأرواح ، أو من شهود الكون الى شهود المكوّن .

وهذا السفر إنما هو معنوى ، كناية عن مجاهدة النفوس ومحاربتها فى ردها عن عوائدها ومألوفاتها ، وفى تخليتها من الرذائل ، وتحليتها بالفضائل .

وفى الحكم : لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين ، لا مسافة بينك وبينه ، حتى تطويها رحلتك ، ولا قطعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك .

وقال أيضا : كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته ؟ أم كيف يرحل الى الله وهو مكبل بشهواته ، إلى آخره .

وكما أن الشيخ بمنزلة شيخ الركب فى معرفة الطريق ، هو أيضا بمثابة الطبيب للذوات ،

فهو طبيب القلوب بما علم وعرف من أحوالها ، وعالج من أمراضها ، ربما شاهد وذاق من أنوارها وأسرارها .

وقد أشار الفضيل رضى الله عنه إلى هذا حيث قال : العالم طبيب الدين ، والدنيا داء الدين ، فإذا كان الطبيب يجر الداء إلى نفسه فتى يبرىء غيره ، وأنشدوا :

وغير تقى يأمر النـاس بالتقى طبيب يداوى الناس وهو عليل

وقال آخر :

يا أيها الرجل المعلم غيره هـلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنا ومن الضنى وجواه أنت سقيم
وأراك تلقح بالرشاد عقولنا نصحاً وأنت من الرشاد عديم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا انتهت عنه ، فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وعظت ويقتدى بالقول منك وينفـع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتى مثـله عار عليـك إذا فعلت عظيم

ولما كان علم الطب مركباً من علم وعمل ، هو صنعة العقاقير ، أشار الناظم إلى بعض ذلك بقوله :

يعـلم منها الغث والسمينا ويدرك الصلب معاً واللينا

قلت : الغث اللحم الهزال ، وهو ضد السمين ، والصلب هو الشديد اليبوسة ، وهو ضد اللين .

يقول رضى الله عنه : إذا كان الشيخ بمنزلة الطبيب ، فلا بد أن يكون له اطلاع على القلوب ، واستشراف على النفوس يعلم ما كان منها غثا ضعيفاً من العلم والعمل والحال ، خاليا من اليقين ، خرابا من النور ، فيعامله معاملة الجائع المزال ، فيعطيه من الأذكار ما يقويه على حاله ، ومن الأعمال ما يغنيه عن أشكاله ، ويمد باطنه من مدد الهمة ما يسد به فقره ويجبر به كسره .

ويعلم أيضاً ما كان منها سمينا بعلم أو عمل حال ، أو بنور يقين أو معرفة أو غير ذلك ، فيعامله بالترقية والتربية اللائقة به ، وإذا كان سمنه مفرطا رده إلى الوسط ، فخير الأمور أوسطهـا .

وقد رد رسول الله ﷺ عبد الله بن عمرو بن العاصي عن صيام الدهر وقيام الليل : لكنه غلبت عليه القوة فتمسك بذلك ، ثم ندم .

ويكون أيضاً حال هذا الشيخ الطبيب يدرك القلب الصلب ، وهو القاسي من كثرة الذنوب والغفلة ، فيحمله على التوبة ، ويوقظه من الغفلة ، ويأمره بما يلين قلبه ، كالصيام وصحبة الفقراء وقيام آخر الليل ، وغير ذلك مما يزيل علته وقساوته .

ويدرك القلب اللين بالخشوع والخضوع ، فيأمره بالترقى إلى مقام الإحسان ، ويطوى عنه مسافة أعمال الجوارح ، من أعمال أهل الإسلام والإيمان ، وهكذا يعامل كل قلب بما يناسبه .

قال فى العوارف : ينبغى للشيخ أن يتفرس فى المريد ويعامله على حسب صلاحيته واستعداده ، ثم قال : ينبغى لشيخ أن يعتبر حال المريد ، ويتفرس فيه بنور الإيمان وقوة العلم والمعرفة ، فمن المريدين من يصلح للتعبد المحض ، وأعمال القوالب وطريق الابرار ، ومن المريدين من يكون مستعداً صالحاً للقرب وسلوك طريق المقربين المرادين بمعاملة القلوب والمعاملات السنية ، ولكل من الابرار والمقربين نهايات وبدايات ، فيكون الشيخ صاحب الإشراف على البواطن ، يعرف كل شخص وما يصلح له ، ومن العجب أن الصحراوى يعرف الأرضين والغرس ، ويعلم كل غرس وأرضه ، وكل صاحب صنعة يعلم منافع صنعته ومضارها ، حتى المرأة تعرف قطنها وما يتأتى منه من الغزل : دقته وغلظه ، ولا يعلم الشيخ حال المريد وما يصلح له .

وكان رسول الله ﷺ يكلم الناس على قدر عقولهم ، ويأمر كل شخص بما يصلح .

فنهم من أمره بالإنفاق .

ومنهم من أمره بالإمساك .

ومنهم من أمره بالكسب .

ومنهم من أقره على ترك الكسب ، كأصحاب الصفة ، فكان رسول الله ﷺ يعرف أوضاع الناس وما يصلح لكل أحد .

فأما فى رتبة الدعوة فكان يعمم الدعوة ، لأنه مبعوث لإثبات الحجة وإيضاح المحجة ، يدعوا على الإطلاق ولا يخصص بالدعوة من يتفرس فيه الهداية دون غيره .

ثم تمم أوصاف الشيخ الطبيب ، وهو العلم والعمل ؛ فقال:

ويعلم البسيط والمركبا … وما بدا منها عليه واختبا
والطبع والمزاج والتركيبا … والكون والتحليل والترطيبا

قلت : البسيط هو المفرد الذى لم يتركب من جواهر ، والمركب ضده ، وبدا الشىء ظهر ، واختبا (بالباء) : بمعنى استتر ، ومنه الخبء فى قوله تعالى — يخرج الخبء فى السموات(١) — أى المستتر والمخفى فيها ، والطبع ما جبل عليه الإنسان من خوف أو شجاعة أو بخل أو كرم ، أو غير ذلك .

والمزاج : ما ركب منه بدنه كالحرارة ، والبرودة ، واليبوسة ، والرطوبة ، وغير ذلك .

والتركيب : إضافة الشىء إلى غيره كتركيب العقاقير والأدوية .

والكون : ماكان عليه الجسم من صحة أو مرض .

والتحليل : هو تذويب ما تجمد ، كتحليل ما انعقد فى جوف الإنسان من الطلل بدواء ونحوه .

والترطيب : تليين ما صلب ويبس .

يقول رضى الله عنه : لا بد الشيخ أن يكون ماهراً بأحوال القلوب ، عارفاً بعللها ، عالماً بعلاجها ، يعلم ما كان منها بسيطاً : أى مفرداً من حب الأشياء ، ليس فيه إلا قصد واحد ،وهم واحد ، ومحبة واحدة ، وهو الذى أشار إليه الجنيد رضى الله عنه حين قالوا له : كيف يصل العبد إلى التحقيق ؟ فقال : بقلب مفرّد ، فيه توحيد مجرد ، بعد تحصيل أمور ذكرها قبل ، فهذا القلب سهل العلاج قريب الصحة ، لأن المرض إذا كان مفرداً قرب علاجه ، وهذا القلب حين سلم من تشغيب الهموم ، ولم يبق له إلا هم واحد ، لم يبق فيه إلا مرض واحد ، وهو حجاب الوهم ، فعلاجه فى ترقيته ورفع حجابه ، بخلاف القلب الذى تشعبت فيه الهموم ، فهو أصعب فى العلاج لتركيب أمراضه وتراكم علاجه ، وهو المراد بالمركب .

---

(١) سورة النمل الآية : ٢٥

وقد قال بعضهم : القلب كالمعدة ، والمعدة بيت الداء ، فإذا كثرت عليها الأخلاط مرضت وفسدت ، وعلاجها الحمية من الأخلاط ، وكذلك القلب إذا كثرت عليه الهموم والخواطر ، فسدت فكرته ، وانطمست مرآة بصيرته ، وإذا قلت منه الهموم والخواطر ، سلمت فكرته ، والصقلت مرآته .

وفى الحديث عنه ﷺ « من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله هم دنياه ، ومن تشعبت به الهموم لم يبال به الله فى أى أودية الدنيا هلك »(١) .

وعلاج هذا بالعزلة والصمت ، وإخراج الدنيا من يده ، إلا قدر ضرورته .

ويحتمل أن يريد بالبسيط والمركب: نفس العيوب التى هى مرض القلب ، فيعلم القلب الذى مرضه بسيط ، وهو الذى فيه مرض واحد ، والقلب الذى مرضه مركب ، وهو الذى كثرت علله وأمراضه ، فيعالج كل واحد على قدر علله وأمراضه ، ويدل على هذا الاحتمال قوله : « وما بدا منها عليه واختبا » ، فإن المراد به المرض الظاهر ، كمعاصى الجوارح الظاهرة ، والمرض الخفى كمعاصى القلوب الباطنة ، وهى أصعب فى العلاج كالرياء ، والعجب ، والكبر ، وحب الجاه ، والرياسة ، والمدح ، وغير ذلك من الأمراض .

وفى الحكم : حظ النفس فى المعصية ظاهر جلى ، وحظها فى الطاعة باطن خفى ، ومداواة ما يخفى صعب علاجه .

وقال أيضاً : تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال .

وقال أيضاً : لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق ؛ فدواء الأمراض الظاهرة التزام التوبة والتقوى والاستقامة ، فإن صعبت عليه فيلزم صحبة الشيخ ومداومة الجلوس بين يديه ، أو تكرار المجىء إليه ، فإن نظر الشيخ ترياق ، فإن صحبه ولم يشف من مرضه فليعلم أن صدقه ضعيف ، أو شيخه ضعيف ، فإن الشيخ إذا كان له نو

---

(١) رواه ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود . ولفظه — كما فى الفتح الكبير — « من جعل الهموم هماً واحداً : هم المعاد : كفاه الله سائر همومه ، ومن تشعبت به الهموم »

يمشي به في الناس جامعاً بين جذب وسلوك ، لا يمكن أن يصحبه العليل بالصدق ولم يشف من ساعته .

وقد قالوا : سيدى ابن سيدى هو : الذى يحل عنى قيودى .

وقال شيخ شيوخنا سيدى العربي بن عبد الله : طريقتنا كالسكين الماضية ، يأتينا الرجل مكبلا بشهواته فتقطع يده من ساعة ، فكل من صحب شيخاً بالصدق ولم ينفك عنه كبل المعاصى ، فلينظر شيخاً آخر ، والله تعالى أعلم .

والفرق بين الاحتمالين : أن الأول جعل البسيط والمركب من صفة القلب ، والثانى جعله من صفة المرض ، وهو أليق بما بعده ، ويعلم أيضاً هذا الشيخ الطبيب : طبع المريد ، وما جبل عليه من قبض أو بسط ، أو شح أو كرم ، أو سخاء أو خوف ، أو شجاعة ، أو غير ذلك من الطبائع ، فيعالجه بما يصلح لطبيعته ، فإن كان منقبضاً أمره بشىء من البسط ، وإن كان بخيلا أمره بالبذل والإيثار ، وهكذا يقابل الأشياء بأضدادها ، ويعلم أيضاً مزاج المريد ، هل هو بارد الهمة ، قليل الطلب أو هو حار متعطش ، السخانة غالبة عليه ، أو هو معتدل ، فإن رآه بارداً أمره بصحبة الفقراء والحك معهم ، أو دوام صحبته وإن رآه حاراً متعطشاً أمره بالقصد والتوسط فى الخدمة ، لقوله عليه الصلاة والسلام :

« اكلفوا من العمل ما تطيقون ، فإن الله لا يمل حتى تملوا(١) » وقال أيضاً ﷺ : « لا يكن أحدكم كالمنبت » أى المنقطع « لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى »(٢) .

وإن رآه معتدلا سيره كذلك ، ويعلم أيضاً كيفية تركيب العقاقير والأغذية ، فمن رآه يليق به ذكروا حد : لقنه له بسيطا ، ومن رآه يليق به ذكران أو ثلاثة ، لقنه كذلك ، ومن رآه يصلح للفكرة ، أمره بها ، ومن رآه يصلح الفكرة والنظرة ركبها له ، وكذلك

---

(١) ولفظ الحديث كاملا : « اكلفوا من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا ، وإن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل » رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائى عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها .

(٢) هذا معنى حديث شريف لفظه : « إن هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى » رواه البزار عن جابر .

الذكر مع الفكرة يركبهما لمن يقدر عليهما ، وهكذا ، ويعلم أيضاً كون القلب : هل هو سليم أو سقيم ، وهل هو أهل الخدمة أو للمحبة ، فإن القلب الذى لا يطيق أنوار المعرفة لا يصلح لصاحبه إلا اشتغاله بالخدمة ، ويعلم أيضاً تحليل العلل الجامدة ، وتذويبها ، كمن تمكنت فيه الرياسة والجاه ، فلا يحللها إلا الخراب الكبير والذل الكبير ، وكل ما يسقط من أعين الناس ، وكذلك من تمكن فيه حب الدنيا وجمعها ، لا يحلله إلا الزهد الكبير ، وكذلك من تمكن فيه الشح والبخل ، لا يحلله إلا العطاء والبذل ، وهكذا .

ويعلم أيضاً ترطيب العلل اليابسة كقسوة ، وغفلة ، وجمود العين ، وقبض النفس ، فيأمره بما يعالج كل داء على حدته ، فالقسوة تذهب بالذكر والتلاوة والتدبر والصيام والتضرع آخر الليل ، وقس على هذا ، والغفلة تذهب بملازمة الذكر ، ومراقبة الوقت ، وجمود العين تنفع فيه المواعظ والزواجر ، وقبض النفس تنفع فيه مذاكرة ما يقوى الرجاء ويوجب الفرح ، وهكذا .

وهذا الذى قلته ليس هو عين الدواء وحده ، إنما نبهنا على الأصل المهم ، وليقس ما لم يقل ، ثم كمل أحوال الشيخ الماهر ، فقال :

قد أحكم التشريح والمفاصل   وصار علم الطب فيه حاصل

قلت : علم التشريح هو : علم الطب ، وسمى علم التشريح لأنه يشرح بواطن الحيوانات ويعلم دواخلها وأسباب عللها وصحتها ، وفسادها ، ويعرف طبائعها وأمزجتها ، فهو يشرح ذلك شرحا بالتجربة والاطلاع ، حتى إن أطبة العجم يشقون على جوف الميت وينظرون علته ، التى أعضلتهم فيعالجونها بالأمور المحللة ، حتى تنحل ، ليعرفوا كيفية علاجها فى غيره .

وعلم المفاصل هو : ما يتعلق بعلاج الجوارح الظاهرة ، كالوجع الذى يكون فى مفاصل اليدين ، والرجلين وسائر الجوارح .

وقد قيل : إن فى الإنسان ثلاثمائة وستة وستين مفصلا ، على عدد أيام السنة ، كل مفصل قائم بحكمة الله وقدرته ، نصفها متحرك ونصفها ساكن ، فإذا سكن المتحرك أو تحرك

وعلم الطب هو : العلم بالطبيعات السبعة ، والضروريات الستة ، والأمور الخارجة عنها وهى ثلاثة ، والعلم بخواص العشب وتركيب الأغذية والعقاقير .

يقول رضى الله عنه : يشترط فى الشيخ أن يكون قد أحكم علم تشريح القلوب ، واطلع على أسباب فسادها وصلاحها وصحتها وسقمها ، عارفاً بعلاج أمراضها وعللها ، علم ذلك ببصيرة نافذة ومكاشفة غيبية قد عالج نفسه وطهرها ، وطهر قلبه من صدإ الحس وصفا مرآته من صور الأكوان ، فإذا كان فعل ذلك ، فإن قلبه يصير كالزجاجة الصافية ، فينطبع فيه بواطن المريدين ، فيعالجهم بما يتجلى فيه من أمورهم ، بإذن الله .

يقع الشفاء بمجرد المواجهة والمقابلة ، وهذا الذى شهدناه من أشياخنا ، ولذلك قال بعضهم : إن تربية الشاذلية إنما هى بالهمة والحال ، يعنى أن الغالب فيها نهوض الهمة والحال أكثر من نهوض الاصطلاح والمقال ، وإلا فالجميع موجود والحمد لله .

هذا معنى كلامه ، والله تعالى أعلم .

ويشترط فيه أيضاً أن يكون أحكم علم المفاصل ، ويعنى به ما يتعلق بإصلاح الجوارح الظاهرة ، فيكون جامعاً بين علم الشريعة وعلم الحقيقة ، وقد تقدم أنه إنما يحتاج منها لما يلزمه فى خاصة نفسه ، أو مايتوقف السير عليه من إتقان ما كلف به الإنسان ، (راجع ما تقدم).

ويشترط فيه أيضاً أن يكون علم الطب (أى طب القلوب) صار حالا فيه راسخاً فى معرفته ؛ قد شفا الله على يديه خلقا كثيراً ، وجما غفيراً .

وأما من لم يعرف بالتداوى والشفاء ، ففيه غرر ، وفى صحبته خطر .

قال الإمام أبو حامد رضى الله عنه : وكما أن معيار الدواء مأخوذ من معيار العلة ، حتى إن الطبيب لا يعالج العليل ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة ، فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها ، هل هى ضعيفة أو قوية ، فإذا عرف التفت إلى أحوال البدن ، وأحوال الزمن ، وصناعة المريض ، وسنه وسائر أحواله ، فيعالج بحسبها ، فكذلك الشيخ المتبوع الذى يطب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين ، ينبغى ألا يهجم بالرياضة والتكاليف فى فن مخصوص وطريق مخصوص ، ما لم يعرف أقهم خلاوأمراضهم .

وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد ، اقتل أكثرهم ، فكذلك الشيخ ، لو أشار ...

قلت : فينبغى للشيخ أن يتفرس ببصيرته فى حال المريدين ، فمن رآه يصلح للتجريد لقوة يقينه أو خفة مؤونته ، جرده ومن رآه لا يصلح له تركه فى الأسباب ، ومن كان أهلا للخرقة ألبسه إياها ، ومن كان غير أهل لها : تركه فى لباسه ؟ ومن كان أهلا للعزلة أمره بها ، ومن كان قد استأنس بها أمره بالخلطة لقوة حاله ، ومن كان ذا جاه ورياسة أمره بالخراب والسؤال(١) ونحوه ، ومن كان خاملا أمره بما يليق به ، وهكذا ، والله تعالى أعلم .

ثم تمم أحوال الشيخ فقال :

وكان عشاباً وصيدلانى قدحا وكحّالا ومارستانى

قلت : العشاب هو الذى يعرف أعيان العشب ومنافعها وخواصها ، وهو من شأن الأطباء ، والصيدلانى هو : الذى يعرف أنواع العطرية التى تتركب منها العقاقير : منسوب إلى صيدلة وهو : العطر ، قاله فى القاموس .

والقدح وهو : إخراج الماء الفاسد من العين ، ويقال الفاعل : قداح ، والكحال هو الذى يعرف أدوية العين ويعالجها بأنواع الكحل ، والمارستانى هو الذى جمع أنواع الطب فيعالج أنواع المرض فى أشخاص مختلفة ، والمارستان : دار كبيرة معدة للمرضى ؛ والقائم عليها يسمى المارستانى ، ولا يكون إلا ماهراً بالطب ، عالماً بأنواعه ، وقد أخبرنى من أثق به أن الروم عندهم مارستان كبير ، وعليه طبيب ماهر ، يداوى كل من يأتيه ، ولهذا المارستان عندهم أحباس عظيمة ، يقوم بها على المرضى ، والمراد هنا هو طب القلوب .

يقول رضى الله عنه : يشترط فى طبيب القلوب ما يشترط فى طبيب الأبدان ، فيشترط فيه أن يكون عارفا بتركيب أدوية القلوب وأشربتها ، وأغذية الارواح وأسقيتها ، عالما بمنافع الأذكار وأذواقها ، ونتائج الأفكار ومعارفها ، فالأذكار كالأغذية للقلوب ، والعلوم كالأشربة لها ، والمذاكرة كالأغذية الأرواح ، والفكرة والنظرة كالأشربة لها . وصحبة العارفين والجلوس بين أيديهم فيه مدد كبير للقلوب والأرواح والأسرار ، هو غذاؤهم وشرابهم ، وفيه دواؤهم وشفاؤهم ، كل على قدر صدقه ومحبته ، وعلى قدر مقامه ومرتبته — قد علم كل أناس مشربهم — قال محى الدين بن عربى رضى الله عنه : ومتى لم يكن الطبيب يميز أعيان الأعشاب والعقاقير ، عارفا بتركيب الأدوية فإنه مهلك للمريض وإن العلم من غير العين لا يفيد ، فلا بد من عين اليقين ، ألا ترى لو كان للعشاب غرض فى إهلاك المريض ،

فإذا وصف الطبيب الدواء من جهة كونه عالماً به ، وهو لا يعرف شخص الدواء ، وقلد العشاب في ذلك فأعطاه العشاب ما فيه هلاك العليل ، وهو يقول : هذا مطلوبك ليسقيه الطبيب للمريض فيهلك ، فانه لا يداوى إلا بما يعرف شخصه وعينه ، فكذلك الشيخ إذا لم يكن صاحب ذوق ، وأخذ الطريق من الكتب لا من أفواه الرجال ، وتصدر في المريدين طالباً الرياسة ، فانه يهلك من تبعه ، لأنه لا يعرف مورد الطالب ولا مصدره ، فلا بد أن يكون عند الشيخ دين الأنبياء ، وتدبير الأطباء ، وسياسة الملوك ، وحينئذ يقال له : أستاذ ، وقوله « قدحا » على حذف مضاف ، أي ذا قدح أو يكون مصدراً بمعنى اسم الفاعل ، حالا ، أي قادحا ، كقولك جاء زيد ركضا أي راكضاً ، والمراد أن الشيخ لا بد أن يكون عارفا بأدوية مرض البصيرة ، فان كانت فاسدة بشك ، أو كفر ، أو نفق قدح عليها وأخرج ما فيها من فساد الإيمان(١) وأبدلها بالطمأنينة وصريح الإيقان ، وهذا الدواء يكون لأهل النور الكبير ، والعناية الكبيرة ، الذين يعنون بانظرة ، وإن كانت صحيحة الناظر ، إلا أنها مسدودة بمرض الحس والوهم ، أو مطموسة بالحرص والجزع والهلع ، وعلامة ذلك اجتهاد صاحبها فيما ضمن له ، وتقصيره فيما طلب منه ، عالجها له بكحل توحيد الأفعال ، حتى يتيقن أن الذى انفرد بالخلق والتصوير ، هو الذى انفرد بالحكم والتدبير ، وأن الذى غرس الشجرة هو ساقيها ، والقائم عليها فيذهب عنه الهم والجزع ، والخوف ، والهلع ، والحرص ، والطمع ، ويصير قلبه واثقاً بمولاه ، غنياً به عما سواه وإذا فتحت البصيرة وظهر لهــا شعاع النور حتى أبصرت قرب الحق منها إلا أنها لضعفها لا تستطيع مقاومة شهود النور ، كحلها بكحل توحيد الصفات ، فاذا فتحت عينها وقويت على شهود النور المحيط بها ، لكنها لم يقو نورها حتى تتصل بالنور المحيط بها ، كحلها بكحل توحيد الذات ، فيصل نورها بنور الجبروت ، فلا تشهد إلا النور ، فحينئذ يكمل شفاؤها وينجح دواؤها ، وهذا شرح قول ابن عطاء الله « شعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك ، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده ، وحق البصيرة يشهدك وجوده ، لا عدمك ولا وجودك ، كان الله ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان »(٢) .

وقوله : وما رسنانى : أراد أن الشيخ لا بد أن يكون جامعاً لعلوم المعاملة ، عارفاً بأدوية

الأمراض على اختلاف أنواعها وأصنافها قد قدمه أهل وقته ، وشهد له بذلك أهل فنه ، وهذا قد لا يشترط لغلبة الخفاء على أهل هذا الفن ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر ما بقى من أحوال الشيخ فقال :

أمهر فى الأعراض والأخلاط من أسقلا جالينوس أو بقراط

قلت : التمهر فى الشىء هو : التوسع فى علمه ، والماهر هو : الواسع العلم ، وفى الحديث « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة(١) » أى الواسع فى حفظه أو علمه ، والأعراض جمع عرض ، وهو ما يعرض للبدن من : أسقام ، وأوجاع ، وحرارة ، وبرودة ، وما يدل على وجود المرض ، هذا فى علم الطب ، وهو عند المتكلمين أعم من هذا ، والأخلاط ما اجتمع فى المعدة من العلل المتضادة الناشئة عن اختلاط الأغذية المختلفة ، « وأسقلاجالينوس » (بفتح الهمزة وسكون السين وفتح القاف ولام مفتوحة ممدودة وجيم مفتوحة ممدودة ولام مفتوحة وياء ساكنة ثم نون مضمومة ممدودة ثم شين ساكنة) اسم حكيم من اليونان ، وكذلك بقراط (بضم الباء وسكون القاف) فيلسوف حكيم ، وكانا ماهرين بعلم الطب ، و « أمهر » اسم تفضيل معطوف على خبر كان منصوباً ، وأو بمعنى الواو .

يقول رضى الله عنه : يكون هذا الشيخ أمهر فى علم القلوب من هذين الطبيبين الحكيمين وأراد بالأعراض كل ما يعرض للمريد فى حال سلوكه من القواطع والشواغل ، كميله للرياسة والجاه ، وتقدمه للمراتب قبل كماله ، وكميله للدنيا واشتغاله بالأسباب قبل ترشيده ، وكمال بقائه ، وغير ذلك مما يقطع عن السير .

وأراد بالأخلاط : الخواطر الرديئة والمقاصد الدنيئة ، فيكون الشيخ عارفاً بالخواطر النفسانية والشيطانية ، والملكية ، والربانية ، ويكون أيضاً عارفاً بالمقاصد السنية والدنية ، والهمم العالية والسفلية ، فيعالجه من الأخلاط بجمع قلبه على الله ، والغيبة عما سواه ، وبالفناء التام وتفرغ القلب على الدوام ، ويعالجه من المقاصد الدنية كحب الحظوظ وطلب الحروف ، بالدلالة على تحقيق العبودية ، والقيام بوظائف الربوبية الذى هو مطلب العارفين ، والله تعالى أعلم .

---

(١) ولفظه كاملا : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرؤه ويتتعتع فيه
[illegible]

وإذا تكاملت فى الشيخ هذه الخصال : صح أن يقصده الرجال لشفاء ما فيهم من العلل ، كما أبان ذلك بقوله :

فعند ما صح له التحصيل   يممه السقيم والعليل
فكان يبريهم من الأمراض   والساخط القلب يعود راض

قلت : يريد فعند ما صح له تحصيل هذه الخصال على التمام والكمال، قصده السقيم ، وهو الذى خف مرضه ، والعليل وهو الذى : تناهت علته ، وقيل هما سواء ، فيكون من عطف التفسير ، فكان يبريهم من أمراض القلوب ، وأعظمها هم الرزق وخوف الخلق ، ثم التدبير والاختيار ، ثم الغضب والقنط عند نزول الأقدار ، فيعالجه بهمته ونور بصيرته ، ويلاحظه بنظرته حتى يمتلىء قلبه بنور اليقين ، فيستغنى بالله عن كل ما سواه ، وتشرق عليه أنوار التوحيد ، فيستريح من كد التدبير والاختيار ، فحينئذ يذوق حلاوة الإيمان ، فيرضى عن الله فى كل حال وأوان .

وقد قال عليه الصلاة والسلام « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً وبمحمداً رسولا(١) » .

قال فى التنوير : فمن رضى بالله ربا استسلم له ، ومن رضى بمحمد ﷺ رسولا اتبعه ، ومن رضى بالإسلام ديناً عمل به .

قلت : ولا شك أن القلب إذا كان عليلا لا يذوق حلاوة الإيمان ، ولا يجد الطاعة ولا للمناجاة لذة ، فهم السقيم لا يجد للطعام ولا الشراب لذة ، فإذا صح القلب ذاق حلاوة الإيمان ، ومن أركانه الإيمان بالقدر : خيره وشره ، حلوه ومره ، فيستحلى ما يبرز من عنصر القدرة كيفما كان ، إذ كل ذلك من عند الحبيب ، ولله در القائل حيث قال :

إذا كانت الأقدار من مالك الملك   فسيان عندى ما يسر وما يبكى
رضيت بما يقضى الإله فأمره   يقابل بالإقبال عند ذوى النسك
ولن صلى الإنسان نار مشقة   فما الذهب الإبريز إلا أخو السبك

(١) رواه الإمام مسلم ، وأحمد، والترمذى عن العباس بن عبد المطلب .

أخو الصبر لا يخشى أموراً وإنما يهنأ فى الحالين من غير ما شك

قوله: «والساخط القلب يعود راض» هذا علامة الشفاء ، فما دام العبد ينقبض عند الجلال والشدة ، وينبسط عند الجمال والرخاء ففيه بقية من مرض القلب ، فإذا استوت عنده الأحوال ، فذلك علامة للصحة على الكمال ، ويتصل بمقامات الرجال .

سئل ذو النون المصرى رضى الله عنه عن وصف الأبدال ، فقال : « سألت عن دياجى الظلام ، لأكشف لك عنها ، هم قوم ذكروا الله بقلوبهم تعظيما لربهم ، لمعرفتهم بجلاله ، فهم حجج الله تعالى على خلقه ، ألبسهم الله تعالى النور الساطع من محبته ، ورفع لهم أعلام الهداية إلى مواصلته ، وأقامهم مقام الأبطال بإرادته . وأفرغ عليهم من مخافته ، وطهر أبدانهم بمراقبته ، وطيبهم بطيب أهل معاملته ، وكساهم حللا من نسج مودته ، ووضع على رؤوسهم تيجان مبرته ، ثم أودع القلوب من ذخائر الغيوب ، فهى متعلقة بمواصلته ، فهممهم إليه ثائرة ، وأعينهم إليه بالغيب ناظرة ، قد أقامهم على باب النظر من رؤيته ، وأجلسهم على كراسى أطباء أهل معرفته ، ثم قال لهم : إن أتاكم عليل من فقدى فداووه ، أو مريض من فراق فعالجوه ، أو خائف منى فانصروه ، أو آمن منى فحذروه ، أو راغب فى مواصلتى فمنوه ، أو راحل نحوى فزودوه ، أو جبان فى متاجرتى ، فشجعوه أو آيس من فضلى فرجوه ، أو راج لإحسانى فبشروه ، أو حسن الظن بى فباسطوه ، أو محب لى فواصلوه ، أو معظم لقدرى فعظموه ، أو مسىء بعد إحسانى فعاتبوه ، أو مسترشد فأرشدوه » انتهى كلامه رضى الله عنه .

ثم نبه على المقصود بهذا العلم ، فقال :

وليس هذا طب جالينوس وإنما يختص بالنفوس

قلت : نبه رحمه الله على أن هذا الطب الذى ذكر ليس هو طب الأبدان الذى كان يعرفه جالينوس الحكيم ، وإنما هو طب النفوس لتصلح لحضرة القدوس ، وطب القلوب لتصح من الأمراض والعيوب ، وتتهيأ لدخول حضرة علام الغيوب ، فتنخرط فى سلك — من أتى الله بقلب سليم — ويكون — فى مقعد صدق عند مليك مقتدر — فى جوار الكريم ، منحنا الله بالسكنى فى حضرته فى الدنيا والآخرة

ثم ذكر قلة هذا الطب فى زمانه ، فقال :

فهكذا الشيوخ قدماً كانوا　　يا حسرتى إذ سلفوا وبانوا

قلت: الإشارة تعود على ما ذكر فى الفصل فى أحكام الشيوخ، من معرفتهم بالطرق ومسالكها: سهلها ووعرها، ومعرفتهم بطب القلوب وأنواع الأدوية والعقاقير، وعلمهم بعلل النفوس وأمراضها، ثم تأسف وتحسر على ذهابهم، أى فراقهم دار الدنيا، وسكناهم دار البقاء، ولكن لا تخلو الأرض من قائم لله بحجته، كما قال سيدنا على كرم الله وجهه.

وقد وردت أخبار فى مدح مقام الشيوخ والتنويه بقدرهم عند الله.

قال فى العوارف: ورد فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«والذى نفس محمد بيده لئن شئتم لأقسمن لكم: إن أحب عباد الله إلى الله الذين يحببون الله إلى عباده، ويحببون عباد الله إلى الله، ويمشون فى الأرض بالنصيحة(١)».

وهذا الذى ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم هو رتبة المشيخة والدعوة إلى الله، لأن الشيخ يحبب الله إلى عباده حقيقة، ويحبب عباد الله إلى الله، ورتبة المشيخة والدعوة من أعلى الرتب فى طريق الصوفية ونيابة النبوة فى الدعاء إلى الله.

فأما وجه كون الشيخ يحبب عباد الله إلى الله لأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن صح اقتداؤه واتباعه أحبه الله، قال الله تعالى - قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله(٢).

ووجه كونه يحبب الله تعالى إلى عبـــاده، لأنه يسلك بالمريد طريق التزكية، وإذا زكت النفس: انجلت مرآة القلب، وانعكس فيها نور العظمة الإلهيـة، ولاح فيهـا جمال التوحيد، وذلك ميراث التزكية، قال الله تعالى - قد أفلح من زكاها(٣) - وفلاحها بالظفر

---

(١) وورد فى الحديث: «إن أحب عباد الله إلى الله أنصحهم لعباده» رواه عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن الحسن مرسلا. وقال عليه الصلاة والسلام: «حببوا الله إلى عباده يحبكم الله» رواه الطبرانى والضياء المقدسى.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣١

(٣) سورة الشمس، الآية: ٩

بمعرفة الله ، وأيضاً مرآة القلب إذا انجلت لاحت فيها الدنيا بقبحها وحقيقتها وماهيتها ، ولاحت الآخرة بنفاستها بكنهها وغايتها ، فينكشف للبصيرة حقيقة الدارين، وحاصل المنزلين، فيحب العبد الباقي ويزهد فى الفانى ، فتظهر فائدة التزكية وجدوى المشيخة والتربية ، فالشيخ من جنود الله تعالى ، يرشد به المريدين ، ويهدى به الطالبين .

ثم قال : فعلى المشايخ وقار الله ، وبهم يتأدب المريد ظاهراً وباطنا ، قال الله تعالى — أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده[1] — فالمشايخ لما اهتدوا أهلوا للاقتداء بهم ، وجعلوا أئمة المتقين .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه عز وجل : إذا كان الغالب على عبدى الاشتغال بى ، جعلت همته ولذته فى ذكرى ، فاذا جعلت همته ولذته فى ذكرى ، عشقنى وعشقته ، ورفعت الحجاب فيما بينى وبينه ، لا يسهو إذا سهى الناس ، أولئك كلامهم كلام الأنبياء ، أولئك الابطال حقا ، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عذابا ذكرتهم فصرفته بهم عنهم » . انتهى .

ثم أشار إلى الحكم الثانى من أحكام التصوف فقال : (الحكم الثانى فى حكم الاجتماع) .

أعلم أن الاجتماع عند القوم هو أعظم الأركان وأهمها ، حتى قال بعضهم : التصوف مبنى على ثلاثة أركان : الاجتماع ، والاستماع ، والاتباع ، فكل من انفرد عن الإخوان واشتغل بنفسه لا يجيء منه شيء ، والمؤمنون كالشياه ، فاذا انفردت شاة عن الغنم ، كانت من سهم الذئاب ، وقد رغب الله فى الاجتماع ، قال تعالى — وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان — وقال صلى الله عليه وسلم « يد الله مع الجماعة[2] » .

وعن معاوية رضى الله عنه قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على حلقة من أصحابه فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومن به علينا ، قال : والله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذلك ، قال : أما إنى لم

---

(١) سورة الأنعام : الآية : ٩٠

(٢) رواه الترمذى عن عبد الله بن عباس .

استحلفكم تهمة لكم ، ولكنه جاءنى جبريل فأخبرنى أن الله يباهى بكم الملائكة » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله عز وجل ، لا يريدون بذلك إلا وجهه ، إلا ناداهم مناد من السماء : أن قوموا مغفوراً لكم ، قد بدلت سيآتكم حسنات » .

وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس : إن لله سرايا من الملائكة تحول وتقف على مجالس الذكر فى الأرض ، فارتعوا فى رياض الجنة ، قالوا : وأين رياض الجنة؟ قال : مجالس الذكر ، فاغدوا وروحوا فى ذكر الله ، وذكروا أنفسكم : من كان يريد أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده ، فان الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه »(١).

وقوله عليه الصلاة والسلام « وذكروا أنفسكم » أى ليذكر بعضكم بعضا ، فالمذاكرة هى أعظم الذكر ، لأن فيها علماً وذكراً لله ، ومجالس الذكر تصدق بمجالس العلم ، والذكر والمذاكرة ، وما زال الأشياخ رضى الله عنهم يوصون أصحابهم بالاجتماع ، ويحضون عليه.

وكان شيخنا رضى الله عنه يقول : إذا رأيتم أحداً انقطع عنكم فتداركوه قبل أن يموت ، وموته بردته ورجوعه عن الطريق .

وكان للشاذلى رضى الله عنه تلميذ يحضر مجلسه ، ثم انقطع عنه ، فلقيه ذات يوم، فقال: مالك انقطعت عنا ؟ فقال له : قد استغنيت بك عنك ، فقال له رضى الله عنه : لو استغنى أحد بأحد ، لاستغنى الصديق عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يفارقه حتى مات، فانقطاع الفقير عن الاجتماع ، أو عن الشيخ من أعظم القواطع ، والله تعالى أعلم .

وذكر الشيخ فى هذا الفصل سبب الاجتماع ، وآدابه ، ووقته ، وأهله ، وثمرته ، فأشار إلى الأول بقوله :

فكان إذ ذاك اجتماع القوم ‏ ‏ ‏ ‏ له بعلم عمل عن علم

قلت : لما كان الاجتماع على الشيخ مرتباً على معرفته والتحقق به ، استفتح الفصل بفاء

---

(١) ويؤيده قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لله عز وجل ملائكة سياحين فى الأرض فضلا عن كتاب الناس » إلى آخر الحديث ، وهو طويل رواه الترمذى ، والبخارى ومسلم ، والإمام أحمد .

السببية ، والإشارة تعود على شروط الشيخ المتقدمة ، أى فكان حين حصل ذلك الأمر المتقدم فى الشيخ ، وتحقق العلم به ، بعلامة شواهد اجتماع القوم له ، وحضورهم بمجلسه لتعلم علم العمل ، أى لتعلم إتقان العمل بالعلم الذى كان عندهم واستفادوه منه .

والحاصل : أن فائدة الشيخ هى تحقيق الإخلاص ، وإتقان العمل ، إذ العلم عند الناس كثير ، والعمل به قليل ، وعلى تقدير وجود العمل : لا يخلو من طلب الحظوظ وقصد الحروف ، وذلك مناف للإخلاص ، والأعمال صور قائمة ، وروحها وجود سر الإخلاص فيها ، وأيضاً الإنسان لا يخلو من رعونات نفسه ، فتوقعه فى إفراط أو تفريط ، أو تخرج به لخلاف المقصود ، فإذا رجع فرأى من هو أعلم منه وأنصح له ، لم تبق فيه بقية تفرقه عن الوصول إلى الحق .

وقوله « عن علم » راجع للاجتماع ، أى فكان اجتماعهم عليه بسبب إتقان العمل بالعلم الذى حصلوه على علم ويقين منهم أنه على بينة من ربه ، وأنه أهل للتربية ، بحيث شهدت له أرواحهم بالتقديم ، وسرهم بالتعظيم ، ولم يكن اجتماعهم عليه على جهل به وتقليد وشك وترديد .

ثم الأليق بالشيخ إذا اختلط الفقراء : وأهل بدايات ونهايات ، أن يفرقهم فى المذاكرة على ما قاله الناظم وأشار إليه بقوله :

ولم يكن ذلك عن رويّه   بل يحضر القوم على السويه

قلت الروية والتروى هى : المشاورة فى الأمر والاتفاق عليه ، يعنى أن القوم لم يكن اجتماعهم عن اتفاق وروية على أن يحضروا فى مجلس واحد ووقت واحد ، ويكون أهل البدايات وأهل النهايات على السوية فى مجلس واحد ، كما يفعل أهل التدريس للعلم الظاهر ، بل كانت الشيوخ تذكر كل فرقة على حدتها ، وتخاطب كل واحد على قدر فهمه ، فينبغى للشيخ أن يكون له مجلسان : مجلس يخص به أهل النهايات ، ومجلس يعم به أهل البدايات والنهايات ، وينبغى له أيضاً ألا يلتزم مجلساً واحداً لا يتعداه ، بل مهما اتفق اجتماعهم ذكرهم فى أى وقت كان ، ومهما قدم عليه قوم ذكرهم ، فقد يكون منهم من يحب الاستعجال فى سفره ، ومنهم من يريد المقام ، ولا ينبغى للشيخ أن يحتجب عن الفقراء حتى يتضرروا بانتظاره ، فقد كان عليه الصلاة والسلام لا يحتجب عن أصحابه ، ولم يكن له

وما ذكره الناظم من تفريق المذاكرة إنما يتأتى مع قلة الفقراء ، وأما مع كثرتهم فيجعل لهم مجلساً واحداً ، ويذكر فيه فى البدايات ، والوسط والنهايات ، وكل واحد يشرب من منهله — قد علم كل أناس مشربهم — هذا ما أدركنا أشياخنا عليه حين كثرة الاتباع .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : ويجعل مجلساً يتضرع فيه إلى الله فى إصلاح شأنه وشأن من تعلق به ، ليكون ناصحاً لهم فى الباطن كما نصح لهم فى الظاهر .

ولما ذكر سبب الاجتماع وآدابه أشار إلى وقته ، فقال :

ولم يكن أيضاً لدى العشاء   إذ فيه نهى وهو للإغفاء

قلت الإغفاء هو : النوم ، يعنى أن اجتماع القوم لم يكن عند وقت العشاء ، لأن ذلك الوقت جعله الله للنوم والراحة ، قال تعالى — وهو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا[1] فيه — وقال تعالى — وهو الذى جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً[2] — وذلك ليقوم للصلاة ناشطا ، ولا سيما عند قصر الليل .

وقد نهى سيدنا عمر رضى الله عنه عن النوم قبلها والحديث بعدها ، يعنى العشاء ، وكذلك أيضاً لا ينبغى أن يكون عند أوقات الصلاة ، لأن ذلك يؤدى إلى خروج وقتها ، ولا ينبغى تطويل المجلس ، فقد قال الزهرى : إذا طال المجلس كان فيه حظ الشيطان .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : وحق المريد أن يدخل على الشيخ بالهمة ، ويقعد عنده بالحرمة ، ويخرج من عنده بالخدمة والعزيمة ، ثم أشار إلى حكمة الاجتماع ، فقال :

وافتقروا فيه للائتلاف   ليعلم المستوفى حال الوافى

قلت : الائتلاف هو : الاجتماع ، وتألف القوم اجتمعوا ، قاله فى القاموس .

يقول رضى الله عنه : وافتقروا أيضاً للاجتماع لأمور ، منها : معرفة حال الإنسان فى العلم ، والحال ، والمقام ، فإن النفس قد تغلط فى نفسها ، فتظن أنها أدركت مقام الاكابر ،

---

(١) سورة يونس صلى الله عليه وسلم ، الآية : ٦٧
(٢) سورة الفرقان ، الآية : ٤٧

وهي مقيمة مع الأصاغر ، فإذا اجتمع مع من هو أنهض منه حالا وأكثر منه علما ، علم حاله وعرف مقامه ، فيجد في سيره ، ويتحقق بقدره .

وفي بعض الأخبار : « عاش من عرف قدره » وكذلك الفقير الكامل إذا رأى من هو دونه في الحال أو المقام حمد الله وشكره وطلب الزيادة من مولاه ، وهذا معنى قوله « ليعلم المستوفى حال الوافي » ، فالمستوفى الذي هو : الناقص ، تمنحه رؤية الكامل الذي هو الوافي في العلم والحال ، لاستشعاره نقصه وقصوره عن رتبة صاحبه الوافي ، فينهض في العمل ، وينافسه في الحال قال تعالى — وفي ذلك فليتنافس المتنافسون(١) والوافي يعرف قدر منة الله عليه فيما أدركه فيشكره ، فيزيده الله تعالى على ما أعطاه ، ويتشوف إلى مقام أعلى فيوصله الله إليه ، إذ السير لا نهاية له .

قال الشيخ أبو هادي رضي الله عنه لأصحابه يوما : بم يرتفع المريد إلى رتبة هي أعلى من رتبته؟فقالوا : بفضل الله ورحمته ، فقال: إنما سألتكم عن السبب الخاص بهذا الأمر ، قالوا : من عند الشيخ ، قال : يخلق الله له همة هي أعلى من همته ، فيرتفع بها إلى رتبة أعلى.

ومنها ، أي ومن الأمور الداعية للاجتماع : حصول النشاط والقوة ، فإن دوام الوحدة تبرد صاحبها ، وتقوى عليه الحس والكسل إن كان في محل البدايات .

وقد تحصل له فترة أو وقفة ، فإذا اجتمع مع الإخوان قوى حاله وزال كسله، ولذلك قال تعالى — وتعاونوا على البر والتقوى(٢) — .

ورغب عليه الصلاة والسلام في حضور مجالس الذكر كما تقدم .

قال بعض المتقدمين : كنا إذا فترنا نظرنا إلى محمد بن واسع ، فعملنا عليه أسبوعا اه أي بقي نشاطنا فنعمل عليه أسبوعا ، فشاهدة الأخيار ترفع الهمة وتقوى العزيمة ، والمؤمن مرآة أخيه ، فما في المحاذي ينطبع في المحاذي ، وقد قال أنس رضي الله عنه : « ما نفضنا أيدينا من التراب من دفنه عليه الصلاة والسلام حتى فقدنا قلوبنا » .

ومنها استفادة العلم والمعرفة ، وأما العلم فمن المذاكرة ، وأما المعرفة فمن المشاهدة .

---

(١) الآية : ٢٦ من سورة المطففين . (٢) سورة المائدة ، الآية : ٢

قال بعض الحكماء : « فهم سطرين ، أفضل من حفظ وقرين ، فضل ومذاكرة اثنين أفضل من هاتين ، أى أفضل من فهم سطرين وحفظ وقرين ، والنظر إلى العلماء ومجالسة الحكماء عبادة كبيرة ، وبالله التوفيق .

ثم استدل على فضل الاجتماع بالحديث ، ورواه بالمعنى ، فقال :

لا خير فيمن لم يكن ألوفا ولم يكن لغـيره مألوفا

قلت لفظ الحديث : « المؤمن إلف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف(١) » .

وقال أيضا عليه الصلاة والسلام « إن من خياركم أحسنكم أخلاقا الموطئين أكنافا الذين يألفون ويؤلفون » .

فقوله عليه الصلاة والسلام « الموطئين أكنافا » معناه المأمون جانبهم بحيث لا يخاف منهم خيانة ولا جناية الذين يألفون الناس ويألفهم الناس ، وهو معنى قول الناظم « لا خير فيمن لم يكن ألوفا » بغيره ولم يكن مألوفا لغيره ، أى يألفه غيره .

فى رواية أخرى : « ألا أنبئكم بأحبكم إلى وأقربكم منى مجالس يوم القيمة : أحاسنكم اخلاقا الموطئون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون »(٢) .

قلت وينبغي التفصيل فى أحوال الناس : أما العارفون الراسخون ؛ فلا يليق بهم إلا التآلف بالناس والتصبر لهم ، لأنهم يأخذون نصيبهم من كل شيء ، وقد وجههم الله تعالى لنفع عباده ، فينبغى لهم أن يألفوا الناس ويألفهم الناس ؛ وكذلك الصالحون المتوجهون لإصلاح الناس بالتبرك والدعاء ؛ والعلماء المتوجهون لتعليم العباد ، فلا بد من صبرهم على جفوة المتعلمين والسائلين ، ومن تعلق بهم من المسلمين .

وأما المريدون السائرون ، فلا ينبغى لهم أن يألفوا الناس كلهم ، فإن ذلك يقطعهم عن

---

(١) وفى لفظ آخر : « المؤمن يألف ويؤلف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف ، وخير الناس أنفعهم للناس » رواه الدارقطنى فى الأفراد .

(٢) رواه الطبرانى فى الأصغر والأوسط عن أبى هريرة والطبرانى فى مكارم الأخلاق بلفظ « إن أقربكم منى مجلساً . . . » عن جابر .

دهم ، وكل فقير مال للرياسة والسياسة ، وتوجه للناس قبل كماله ، فلا يجيء منه شيء ؛ وإنما يألف الفقير من ينهضه حاله ، ويدل على الله مقاله .

وفى الحديث : قالوا : « من نجالس يارسول الله ؟ قال: من ذكركم بالله رؤيته ، وزاد فى علمكم منطقه ، ورغبكم فى الآخرة عمله » .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه ، أوصانى حبيبى ، فقال : لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله ، ولا تجلس إلا حيث تأمن غالباً من معصية الله ، ولا تصحب إلا من تستعين به على طاعة الله ، ولا تصطف لنفسك إلا من تزداد به يقينا ، وقليل ما هم ، وبالله التوفيق ، وإلى هذا المعنى أشار بقوله :

ومن يكن يصحب غير جنسه   لجاهل والله قدر نفسه

قلت : وإنما كان من يصحب غير جنسه جاهلا بقدر نفسه ، لأن النفس ؛ وهى الروح : ياقوتة رفيعة ، جعلها الله فى صدف بشريتك ، فإذا صحبت بها من هو أحسن فقد صنتها ورفعتها واعتنيت بشأنها ، لأن صحبة الأبرار تصيرك من الأخيار ، وإذا صحبت بها من هو أسوأ منك وأخسر منك فقد بخستها وحططت قدرها ورميت بها فى المزابل ، لأن الطباع تسرق الطباع ، والمرء على دين خليله ، وصاحب المرء رقعة من ثوبه ، فلا يصح أن يكون من غير نوعه ، ورحم الله القائل حيث قال :

عليك بأرباب الصدور فمن غدا   مضافا لأرباب الصدور تصدرا
وإياك أن ترضى بصحبة ساقط   فتنحط قدراً من علاك وتحقرا

• • •

وقال غيره :

لا تصحب أخا الجهل   فإياك وإياه   فكم من جاهل أردى   حليما حين واخاه
قياس النعل بالنعل   إذا ماهو حاذاه   يقاس المرء بالمرء   إذا ماهو ماشاه
وللشيء من الشيء   مقاييس وأشباه   وللقلب على القلب   دليل حين يلقاه

وقال سهل بن عبدالله : أحذر صحبة ثلاثة من أصناف الناس: الجبابرة الغافلين ، والقراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين .

وقال يوسف بن الحسين الرازي رحمه الله : قلت لذي النون المصري رضي الله عنه : من أصحب ؟ فقال : من لا تكتمه شيئاً يعلمه منك .

وقال حمدون القصار رضي الله عنه : اصحب الصوفية ، فإن للقبيح عندهم وجوها من المعاذير ، وليس للحسن عندهم كبيرهمّ ، إشارة إلى أن العجب بالعمل عندهم منتف في صحبتهم .

وقال الجنيد رضي الله عنه : إذا أراد الله بالمريد خيراً أوقعه إلى الصوفية ومنعه صحبة القراء .

وقال سيدنا علي رضي الله عنه : شر الأصدقاء من أحوجك إلى المداراة ، وألجأك إلى الاعتذار .

وقال أيضاً : شر الأصدقاء من تتكلف له ، وأنشدوا :

أحب من الإخوان كل مواتِ ... وفي غضيض الطرف عن عثراتي
يوافقني في كل أمر أحبه ... ويحفظني حيا وبعد وفاتي
فمن لي بهذا : ليتني قد وجدته ... فقاسمته مالي من الحسنات

وأوحى الله إلى موسى عليه السلام : يا ابن عمران كن يقظانا ، وارتد لنفسك إخواناً وكل أخ لا يوافقك على مسرتي فهو لك عدو يقسي قلبك ويباعدك مني .

قال الشيخ أبو عبدالله بن عباد رضي الله عنه : والحاصل من هذا أن صحبة الصوفية هي التي يحصل بها كمال الانتفاع للصاحب دون من عداهم من المنسوبين للدين والعلم ، لأنهم خصوا من حقائق التوحيد والمعرفة بخصائص لم يساهمهم فيها أحد ، وسريان ذلك إلى الصاحب من المصحوب هو غاية الأمل والمطلوب ، فقد قيل : من تحقق بحالة لم يخل حاضروه منها ، فمن جلس على دكان العطار لم يفقد الرائحة الطيبة ، هذا في الحضور والمجالسة ، فما بالك بالصحبة والمؤانسة ، ثم قال : وبصحبة هؤلاء يحصل للمريدين من المزيد ما لا يحصل لهم بغيرها من فنون المجاهدات وأنواع المكابدات ، حتى يبلغوا بذلك إلى أمر لا يسعه عقل عاقل ، ولا يحيط به علم ناقل .

ولذا قال سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه : ماذا أصنع بالكيميا ، والله لقد

صحبت أقواما يمر أحدهم على الشجرة اليابسة فتثمر رطبا للوقت ، فمن صحب هؤلاء الرجال ما يصنع بالكيمياء .

وقال أيضاً رضي الله عنه : والله ما سار الأولياء من قاف إلى قاف إلا حتى يلقوا واحداً مثلنا ، فإذا لقوه كان بغيتهم .

وقال أيضاً : الولي إذا أراد أغنى .

وقال أيضاً رضي الله عنه : والله ما بيني وبين الرجل إلا أن أنظر إليه نظرة وقد أغنيته .

وقال فيه شيخه سيدي أبو الحسن رضي الله عنه : أبو العباس هو الرجل الكامل ، والله إنه ليأتيه البدوي يبول على ساقيه ، فلا يمسي عليه المساء إلا وقد وصله إلى الله . ثم أشار لحديث ورد في الجليس فقال :

أفضل للمرء جلوس وحده ولا يكن جليس سوء عنده

قلت : أشار إلى قوله عليه الصلاة والسلام : « الجليس الصالح خير من الوحدة ، والوحدة خير من الجليس السوء ، والجليس الصالح مثل العطار : إن لم تنل من طيبه أصبت من ريحه ، والجليس السوء مثل الحداد إن لم تصب من شرره أصابك من نتنه »(١) ، وفي معنى ذلك قيل :

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى
عن المرء لا تسل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

وقال شيخ شيوخنا سيدي على رضي الله عنه : الجلوس مع العارفين أفضل من العزلة ، والعزلة أفضل من الجلوس مع العوام ، ولا شيء أضر على المريد من الجلوس مع المتفقرة الجاهلين .

وقال الشيخ زروق رضي الله عنه : الجليس السوء هو الذي جمع ثلاث خصال :

---

(١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مثل الجليس الصالح والجليس السوء كبائع المسك ونافخ الكير .... » إلى آخر الحديث ، رواه البخاري عن أبي موسى .

الأولى : الرضى عن نفسه ، بحيث يرى له حقاً على الناس ، ويرى الناس كلهم دونه ، وهذه صفة الجبابرة الغافلين :

الثانية : الاسترسال فى الغيبة ، وتزكية النفس وتعظيم ذنب الغير، واحتقار ذنب نفسه ، فلا يقيل عثرة ، ولا يغفر زلة ، وهذه صفة القراء المداهنين .

الثالثة:وجود الدعاوى ، والطمع،وحب الرياسة، والبدع ، وهذه صفة المتصوفة الجاهلين.

وقيل : الإخوان ثلاثة .

أخ لآخرتك ، فلا تراع فيه إلا الإيمان .

وأخ لدنياك ، فلا تراع فيه إلا حسن الخلق .

وأخ للناس ، فلا تراع فيه إلا السلامة من شره .

وهو كلام جامع مفيد . انتهى ، وبالله التوفيق .

ثم أشار إلى الاجتماع ونتيجته فقال :

قد يرتجى الشفاء للسقيم مهما يكن ملازم الحكيم

قلت : لا أعظم شفاء لأمراض القلوب وعللها من صحبة العارفين ، والدخول تحت جناح تربيتهم ، وملازمة حضانتهم بالصدق والمحبة ، والله ما أفلح من أفلح الا بصحبة من أفلح ، وكان شيخنا رضى الله عنه يقول : من لم يصحب الفحول يبقى فى الوهم موحول ، وانما اشترطت الملازمة ودوام الصحبة ، لأن بذلك يعرف صدقه فى طلب دوائه ويظهر حاله فى وجه الشفا من دائه لمعرفة وجه العلة وسببها الذى لا يعرف غالباً إلا بالملازمة ، وأيضاً بذلك يقع العطف عليه ، فينهضه بهمته ودعائه .

وفى ذلك يقول الشيخ أبو مدين رضى الله عنه :

وراقب الشيخ فى أحواله فعسى يرى عليك من استحسانه أثراً
فنى رضاه رضى البارى وطاعته يرضى عليك ، فكن من تركها حذراً

هكذا فى بعض النسخ ، وفى بعضها ترك هذا البيت ، والمراد بالحكيم فى كلام الناظم : شيخ التربية ، لأنه طبيب حكيم كما تقدم ، ثم رد على من أنكر على الفقراء الاجتماع فقال :

ومن ينازع فاطرح نزاعه فالدين مبنى على الجماعة

قلت : يريد من نازع الفقراء وأنكر عليهم اجتماعهم فلا تسمع لقوله ، بل انبذه وراء ظهرك ، فالدين مبنى على الجماعة ، قال صلى الله عليه وسلم .

« الجماعة رحمة والفرقة عذاب(١) » .

وقال عليه السلام :

« يد الله مع الجماعة(٢) » وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم :

« من فارق الجماعة قيد شبر مات ميتة(٣) جاهلية » .

إلى غير ذلك من الأحاديث المرغبة فى الاجتماع ، وقد تقدمت فى أول الفصل نبذة صالحة منها

وقد حرر ابن عرضون فى « مقنعه » الخلاف فى المسألة ، ورجح القول بالاستحباب ، واستدل بأحاديث ووقائع ، فطالعه إن شئت ، وهذا أمر قد تواتر عند الصوفية ، فلا يحتاج إلى دليل ، وبالله التوفيق ، وهو الهادى إلى سواء الطريق .

ثم أشار إلى الحكم الثالث ، وهو اللباس ، فقال :

الحكم الثالث فى حكم اللباس .

أى ما يختاره القوم من اللبـــاس ، وما يتركونه ، ولا يكون ذلك قدحا فى طريقهم أصلا ولا فعلا .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليـــه وسلم : « كل مبتذل لا يبالى ما لبس(٤) » ، وهو كلام تام ، أى كل من يحب الخمول لا يبالى ما لبس .

---

(١) رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل فى زوائد المسند ، والقضاعى عن النعمان بن بشير .

(٢) رواه الترمذى بلفظ « يد الله على الجماعة » عن ابن عباس .

(٣) وفى لفظ آخر : « من فارق الجماعة شبراً فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه » رواه أحمد ، وأبو داود ، والحاكم عن أبى ذر .

(٤) لفظ الحديث كما ورد فى الإحياء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى يحب المتبذل : الذى لا يبالى ما لبس » . رواه البيهقى .

وكان عمر رضى الله عنه يقطع من كمه ما جاوز الأصابع .

وقال بعض المشايخ : الفقير الصادق ، أى شىء لبس يحسن عليه ، ويكون عليه فيه الملاحة والمهابة ، والثوب الخلق (أى البالى) أحب إليهم من الجديد ، لأنه أكثر بركة ، ويجتهدون فى النظافة والظرافة .

قال صلى الله عليه وسلم : « النظافة من الإيمان » ورأى على بعض الوفود ثوبا وسخا ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أما كان يجد هذا ماء يغسل به ثوبه » وقال : « حب أن الفقر من الله ، فما بال الوسخ » وقال : « إن الله يبغض الوسخ » ويكرهون لبس الشهرة من الثياب ، ويتبركون بثياب المشايخ ، وقد كانت الصحابة يتبركون بثيابه صلى الله عليه وسلم، وبشعره وريقه ، وعرقه ، وفضل وضوئه ، ففيه جواز التبرك بآثار الصالحين .

ثم ذكر الشيخ بعض أحكام اللباس ، فقال :

وقد أباحوا سائر الأثواب   وتركها أقرب للصـــواب

قلت : إنما أباحوا سائر الأثواب لقوله تعالى ـ يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم[١] .

فأطلق فيه ، وقال تعالى ـ يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد[٢] .

وقد لبس صلى الله عليه وسلم جميع الألوان : الأحمر ، والأصفر ، والأخضر ، والحبر ، والأسود ، والأبيض ، والقباء ، والجبة ، والكساء ، والقميص ، والعمامة ، والرداء والبردة ، وغير ذلك واشترى السراويل ، وذكر العرنى : ولم يرد عنه لباس الأزرق ، ولا يكره ، لجميع الألوان مباحة اللباس ، وفضلها الأخضر ، لأنه لباس أهل الجنة ، والأبيض ، لقوله

= قلت : ومما يؤيد صحة الحديث ما ورد : أنه كان له ملحفة مصبوغة بالزعفران ، وربما صلى بالناس فيها ، رواه أبو داود . والترمذى من حديث قيلة بنت مخرمة ، قالت : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم وعليه أسمال ملاءتين كانتا بزعفران . قال العراقى : ورواته موثقون .

(١) الآية : ٢٦ من سورة الأعراف .

(٢) الآية : ٣١ من سورة الأعراف .

عليه الصلاة والسلام : إن من خير ثيابكم البياض ، ليلبسها أحياؤكم وكفنوا فيها أمواتكم(١) » .

واستحب الصوفية لبس الصوف : لما فى الصوف من رقة القلب ، وخفة المؤنة ، ولأن سيدنا موسى عليه السلام يوم ناجى ربه كانت ثيابه كلها صوفا ، وهـــذا ليس على سبيل التحجير ، بل على سبيل الزهد فقط ، ومخالفة النفس ، واقتداء بأهل الصفة .

وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من ترك لبس ثوب جمال وهو يقدر عليه تواضعاً لله ، كساه الله حلة الكرامة »(٢) .

وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم :

ألا تسمعون : « إن البذاذة من الإيمان » كررها ثلاث مرات .

قال المنذرى : والبذاذة بفتح الباء الموحدة وذالين معجمتين ، هو : التواضع فى اللباس برثاثة الهيئة .

وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب المتبذل : الذى لا يبالى ما لبس » رواه البيهقى .

وقوله : « وتركها أقرب الصواب » يعنى ترك التكثر منها والتأنق فيها، لا تركها بالكلية ، لأن التعرى حرام ، ثم علل ذلك الترك فقال :

إذ فى لباس حلها الحساب ‏ ‏ ‏ ‏ أيضاً ، وفى حرامها العقاب

---

(١) ورواية الدارقطنى فى الأفراد : « خير ثيابكم البياض ، فكفنوا فيها موتاكم ، وألبسوها أحياءكم » ورواه ابن ماجه ، والطبرانى والحاكم بلفظ : « خير ثيابكم البياض ، فكفنوا فيها موتاكم وألبسوها أحياءكم ، وخـــير أكحالكم الإثمد : ينبت الشعر ويجلو البصر » .

(٢) وأيضاً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ترك اللباس تواضعاً لله وهو يقدر عليه : دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره من أى حلل الإيمان شاء يلبسها . رواه الترمذى والحاكم عن معاذ بن أنس » .

قلت : فى بعض الأخبار : اتقوا الدنيا فإن حلالها حساب ، وحرامها عقاب »[1] لكنى لم أقف على من ذكره ، غير أن الزهد فى الدنيا مرغب فيه بالاتفاق ، والذى ثبت فى الحديث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة حتى يسئل عن خمس : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وماذا عمل فيما علم » رواه الترمذى وقال حديث غريب.

وقوله : « فى لباس حلها الحساب » يعنى عن أصلها وقصدها ، وبحث بعضهم فيه بأن ما أبيح لا يكون سببا للحساب ، ويجاب بأن الحساب يقع على قصده بالزيادة على الحاجة ، هل قصد التجمل أو التفاخر أو إظهار نعمة الله ؟

ويسئل أيضاً عن القيام بشكرها ، فانه من النعيم الذى يسئل عنه ، قال تعالى — ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم[2] .

وأما العقاب على الحرام فظاهر ، لأنه عصى الله بتناوله ما حرم الله ، فهو من جملة المعاصى التى يستحق عليها العقاب ، إلا أن يتفضل الله بعفوه .

قال أبو عبد الله السلمى رضى الله عنه : وآدابهم فى ذلك « أى فى اللباس » أن يكون مع الوقت ، يلبسون ما يجدون من غير تكلف ولا اختيار ، ويقتصرون على ما يؤدون به الفرض ، من ستر العورة وما يدفع به الحر والقر ، فهى مما استثنى النبى صلى الله عليه وسلم من الدنيا[3]، وقيل : إنها ليست من الدنيا ، ويتبرءون من كثرة اللباس ، ويواسون بالفضل.

قال صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب : رجل غسل ثوبه فلم يكن له خلق » أى ثوب بال « يبتدل به » ورجل لم ينصب له على مستوقد قدران ، ورجل

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن الإمام على موقوفاً ، وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام أيضاً : الدنيا خضرة حلوة ، من اكتسب فيها مالا من حله وأنفقه فى حقه أثابه الله عليه وأورده جنته ، ومن اكتسب فيها مالا من غير حله ، وأنفقه فى غير حقه أحله الله دار الهوان ، ورب متخوض فى مال الله ورسوله له النار يوم القيامة ، رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر .

(٢) آخر سورة التكاثر .

(٣) من قوله صلى الله عليه وسلم : الدنيا ملعونة ملعون ما فيها ، إلا ما ابتغى به وجه الله عز وجل .

دعا بشرابه فلم يقل أيهما تريد(١) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : ما أعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من شيء زوجين.

ثم ذكر فوائد المرقعة فقال :

والقوم ما اختاروا المرقعات … إلا لأوصاف وسوف تأت
أولها فيها اطراح الكبر … ومنها للبرد ثم الحر
وخفة التكليف ، ثم فيها … قلة طمع الطامعين فيها
وذلة النفس وتطويل العمر … والصبر ثم الاقتدا بعمر
ألا ترى لابسها كالخاشع … فهي إذن أقرب للتواضع

المرقعات : جمع مرقعة ، وهي الثوب الملفق من رقاع كثيرة ملونة أو غير ملونة ، كانت من صوف أو شعر أو جلد ، وإنما اختارها القوم على ما سواها من الثياب لوجوه عشرة :

أولها طرح الكبر ونفيه والتخلق بضده ، وهو التواضع ، إلا إذا قصد بذلك من حيث أنها شعار الصالحين ، فيحرم لباسها حينئذ ، أو يقصد بذلك التظاهر على من لم يلبسها من الفقراء ، أو يرى له مزية بها على غيره ، فينقلب الأمر حينئذ .

ثانيها : أنها تدفع الحر من حيث تناسبها وبرودتها ، لاجتماع أجزائها دون تخليله وتدفع القر : أي البرد بمكثافتها .

وثالثها : خفة مؤنتها في تحصيلها ، فإنها من الخرق الملقاة على المزابل ، التي لا يضر إعطاؤها من طلبت منه ، نعم : إن كان يختار لها الرقاع الرفيعة ، قد خرجت عن حقيقتها ، وزالت ثمرتها لأنها صارت حينئذ من رفيع الثياب ، فهي وسائر اللباس سواء .

ورابعها : قلة الطمع فيها للصوص السلابة وغيرهم ، من حيث ذاتها ، لا من حيث ما يحتوي عليها من الحرمة ، فإذا جذبها الفقير إليه واختبروه لم يكن لهم إلمام : أي توصل

(١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ترك زينة لله ، ووضع ثياباً حسنة تواضعاً لله ، وابتغاء لمرضاته كان حقاً على الله أن يدخله عبقري الجنة » رواه أبو سعيد الماليني في مسند الصوفية . وأبو نعيم في الحلية .

بها ، بل ردوها عليه واستغفروا من حقه ، كما هو مشاهد معلوم ، ولبسها للاحترام جائز قاله الشيخ زروق رضى الله عنه .

وخامسها : ما فى لبسها من دفع الشرور ، باعتبار الاحترام لشبه لابسها بأهل الخير ، وذلك جائز فى الدفع ، لا فى الجلب لقوله تعالى — يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين — وهذا داخل فى قوله : « وقلة الطامعين فيها » .

وسادسها : مافيها من ذلة النفس بين أبناء الجنس ، وفى ذلك موتها ، وفى موتها حياتها ، وفى ذلك قال الششترى متكلما على لسان الحق :

إن ترد وصلنـــا فموتك شرط لا ينال الوصال من فيه فضله

وفى ذل النفس أيضاً : إسقاط المنزلة والجاه ، وهو شرط فى تحقيق مقام الإخلاص،وفيه أيضاً حصول الخمول الذى هو راحة لأن صاحبه لا يعرف بالتقية ، ولا يدرى بالأمور البالية ، بل إذا غاب لا ينتظر ، وإذا حضر لا يستشار .

وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : « رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه » (أى لا يعبأ) به لو أقسم به على الله لأبره »(١) .

وسابعها : ما فيها من رفع الهمة وقلة المبالاة بالخلق ، فان المعتقد لا يزيده اعتقاد الناس إلا شراً ، والغالب على صاحبها عدم المبالاة بالخلق ، قد استوى عنده المعتقد والمنتقد .

قال بعض المشايخ لبعض الشباب : إياكم وهذه المرقعات ، فانكم تكرمون لأجلهـا ، فقال الشاب : إنما نكرم بها من أجل الله ، قال : نعم ، قال : حبذا من نكرم من أجله ، أى ما أحبه إلينا ، له : بارك الله فيك ، وهذا السابع داخل فى ذل النفس .

وثامنها : ما قيل فيها من طول العمر ، ومحمل ذلك على البركة فيه ، بحيث يدرك فى يسيره منه مالا يدرك غيره فى سنين متطاولة كما قال ابن عطاء رضى الله عنه : « من بورك له فى عمره أدرك فى يسير من الزمان مالا يدخـــل تحت دوائر العبارة ، ولا تلحقه الإشارة » وعبادة العارفين كلها متضاعفة بأضعاف كثيرة .

---

(١) وللحديث ألفاظ أخر منها : « رب أشعث أغبر ذى طمرين ، تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبره » رواه الحاكم ، وأبو نعيم فى الحلية عن أبى هريرة .

وقال أيضاً فى حكمه : «ما قل عمل برز من قلب زاهد ، ولا كثر عمـــل برز من قلب راغب» .

وقيل : إن ذلك يكون حقيقة ، وهو من باب الخاصية ، وإن من لبسها دل على طول عمره ، والله تعالى أعلم .

وتاسعها : مقاساة الصبر وتجرع مخالفة النفس ، وفى ذلك من الفضل مالا يجهل ، قال تعالى ـ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ـ وقال تعالى ـ وبشر الصابرين(١) ـ و ـ إن الله مع الصابرين(٢) .

وقال : بعض الصحابة رضوان الله عليهم : الصبر من الدين كالرأس من الجسد ، والصبر مطية الإمامة والاقتداء .

قال تعالى ـ وجعلناهم أئمة يهدون بامرنا لما صبروا ـ .

وفيها أيضاً الوقاية من ارتكاب الكبائر المشهورة ، إذ يعاب على صاحبها ، ولا يمكن منها بحال ، فهى عصمة من عظام الكبائر ، والصبر عليها كأنه صبر عن القبائح كلها .

وعاشرها : الاقتداء بأمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وقد قال عليه الصلاة والسلام «اقتدوا بالذين من بعدى أبى بكر وعمر(٣)» .

فالاقتداء بهما امتثال لأمره عليه الصلاة والسلام ، وفيها جمع الخاطر الذى لبسها لأجله عمر رضى الله عنه ، فانه كانت له مرقعة : بين كتفيه ثلاث عشرة رقعة ، إحداها من جلد ، فلما طرحها يوم فتح بيت المقدس باشارة المسلمين ولبس غيرها ، قال : أنكرت نفسى ، وعاد إليها ، ولبس عمر رضى الله عنه المرقعة كان اختياراً منـــه وتواضعاً ، وليس ذلك ضرورة ، فقد كانت له أموال خاصة به ، قبل الخلافة وبعدها ، وبالله التوفيق .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : «فائدة» ينبغى لمن وسع الله عليه فى الدنيا أن يظهر عليه أثر نعمة الله باستعمالها على وجه مباح ، لا يخل بالحق ولا بالحقيقة ، بأن يلبس أحسن لباس جنسه أو وسطه ، ويتخذ مرقعة يجعلها عدته وأصل لباسه ، فما دام غنيا عنها استغنى

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٥٥
(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٥٣
(٣) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه عن حذيفة.

وإلا فهى المرجع عنده ، كذا أشار علينا شيخنا أبو العباس أحمد بن عبد الله الجزيرى ، ثم الزواوى رضى الله عنه .

الحكم الرابع فى الأكل .

ذكر فى هذه الترجمة : حكم الأكل ، ومقداره ، وصفته ، وادابه ، وآداب تحصيل المأكول ، والعمل فيه بعد حصوله ، وكيفية العمل فى صرف ما يتصرف منه ، ومن أولى بصرف ذلك إليه ، والتنبيه على أمور مهمة تتعلق بالأكل .

ثم بدأ بحكمه عند القوم فقال :

الأكل فيه تركه مشروط   إلا اضطراراً قدر ما يخوط

وإن يكن لحسن وإلا   فتركه عند الجميع أولى

قلت : الضمير من « فيه » يعود على طريق القوم ، والطريق يذكر ويؤنث ، يعنى أن الأكل فى طريق القوم تركه عندهم شرط أيضاً ، لأن من كانت همته فى بطنه ، كانت قيمته ما يخرج منها ، فلذلك لا يأكلون إلا اضطراراً ، بقدر ما يسد الخلة ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان ولا بد ، فثلث للطعام ، وثلث للشراب ، وثلث للنفس(١) » .

وحد الاحتياج للطعام أن يشتهى الإنسان خبزه المعتاد ، وحد الاضطرار : أن يشتهى كل خبز ، بل يأكل أى نوع كان .

والجوع الكذاب : أن يشتهى مع الخبز شهوة ما ، قال المشايخ : وعلامة أخذ الحاجة من الطعام تغيير طعم الطعام فى الفم ، والاحتياج فى تسويغه لشرب الماء بوجه لا يمكن دونه ، والإحساس بالثقل ، والله تعالى أعلم قاله الشيخ زروق رضى الله عنه .

وقوله « قدر ما يحوط » يعنى قدر ما يحفظ القوة ويمسك البدن ، إذ لا يجوز لأحد أن يجيع نفسه حتى تختل قوته وتفسد فكرته ، بل خير الأمور أوسطها ، كما أشار إليه البوصيرى رحمه الله بقوله :

واخش الدسائس من جوع ومن شبع   فرب مخمصة شر من التخم

وقوله: وإن يكن ، أى الاضطرار ، أى وإن حصل الاضطرار فأكله حسن ، وإلا فتركه أولى عند كافة أهل الطريق .

قال أبو عبد الله السلمى رضى الله عنه : سئل بعض المشايخ عن الأكل الذى لا يضر ، فقال : أن يأكل بتنفيذ القدرة ، لا بشاهد الشهوة ، أى أن تأكل بسبب تنفيذ القدرة مرادها من بقاء هذا البدن . فيكون أكله لحفظ صحة هذا الجسم ، كما أمرك ربك ، لا بسبب شهوة بطنك .

وروى أن رجلا تجشأ عند رسول الله ﷺ ، فقال : « كف عنا جشاءك ، فأكثركم شبعاً فى الدنيا أكثركم جوعاً يوم القيامة(١) » .

وقال الحسن . كان بلية آدم فى أكلة أكلها ، وهى بليتكم إلى يوم القيامة .

وقال سهل رضى الله عنه : لأن أترك من عشائى لقمة أحب إلى من قيام ليلة .

وقال يحيى بن معاذ : لو كان الجوع يباع فى الأسواق لما أمكن أن يشتروا غيره .

وقال : لو تشفعت لنفسك بالملائكة المقربين ، والأنبياء والمرسلين فى ترك شهوة لردتهم واجمين ، ولو تشفعت إليها بالجوع لانقادت إليك وطاوعتك : يعنى لو خوفتها به ، لتركت تلك الشهوة .

وقال : مالك بن دينار : لا تجعلوا بطونكم جرباً(٢) للشيطان يودع فيها ما أحب .

وقال صلى الله عليه وسلم « من أحس من نفسه نشاطاً فليؤدبها بالجوع والعطش(٣) » يعنى نشاطاً للمعصية أو اللهو .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وهو يصلى

---

(١) ولفظ الحديث : « كف عنا جشاءك فان أكثرهم شبعاً فى الدنيا » بضمير الغائب « أطولهم جوعاً يوم القيامة » . رواه الترمذى وابن ماجه عن ابن عمر .

(٢) الجرب : جمع جراب ، وهو وعاء من جلد .

(٣) وقال عليه الصلاة والسلام من حديث أبى هريرة : « لكل شىء زكاة ، وزكاة الجسد الصوم » رواه ابن ماجه .

جالسا ، فقلت : ما أصابك ؟ قال : الجوع ، فبكيت فقال لى : لا تبك ، إن شـــدة القيامة لا تصيب الجائع إذا احتسب ذلك(١) .

ثم نبه على بعض آدابه فقال :

وأدب القوم لدى الطعام جم فنـــه ترك الاهتمام
وقلة الذكر له إن غاب لـكونه عندهم حجاب
بل أنزلوه منزل الدواء عند العليل بغية الشفاء

قلت : أشار إلى أن آداب القوم « يعنى الصوفية ، عند تناول الطعـــام أو قبله « جم » أى كثير .

فنها : عدم اهتمامهم به قبل الحاجة إليه ، لأن الاهتمام به قبل الحاجة دليل الشره والحرص عليه ، وذلك من قوة الأوصاف البهيمية عليها ، وقد تقدم قول من قال : من كان همه بطنه كانت قيمته ما يخرج منها .

وحكى عن رويم رضى الله عنه أنه قال : « لم يخطر ذكر الطعام ببالى عشرين سنة » . حتى احتضر رحمه الله .

ومنها قلة : ذكره قبل حضوره ، لأن ذكره دليل تعلق النفس به ، وتشوفها إليه ، و« من أحب شيئاً أكثر من ذكره(٢) » ، ولأن ذكره يهيج الشهوة ويسلط النفس على الطلب ، فيؤدى للاهتمام ، أو يكون علامة عليه .

قلت : وينبغى للعارف ألا يأكل إلا بإذن من الله ، بحيث يمهل حتى يتيسر ذلك من

---

(١) وقال النبى صلى الله عليه وسلم « إن أقرب الناس من الله عزل وجل يوم القيامة من طال جوعه وعطشه وحزنه فى الدنيا ... » الخ الحديث وهو طويل جداً ، رواه الخطيب فى الزهد ، ورواه الحارث بن أبى أسامة. وراجعه فى الإحياء بطوله فى باب « فضيلة الجوع وذم الشبع » .

(٢) هذا لفظ حديث شريف رواه الديلمى فى مسند الفردوس عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وأرضاها .

غير سؤال ، فاذا دخل داره مثلا فلا يطلب غذاء ، حتى يعرض عليه إلا لضرورة فادحة؟ وإنما أهملوا ذكره قبل حصوله اهتماما وسؤالا، لأن ذكره حجاب عن الحقائق باشتغال النفس له ، لولوعها به طلبا وذكرا ، ولو كانت فانية فى الحق لأشغلها ذلك عن الحظوظ .

وقوله: « بل أنزلوه منزل الدواء » : يعنى أن القوم رضى الله عنهم أنزلوا الطعام والشراب منزلة الدواء ، لقيام هـذا البدن ، فلا يتناولون منه إلا قدر شفائه ، وهو ما به قوامه ؛ ولا يذكرونه ولا يهتمون به أصلا اشتغالا عنه بما هو أهم ، من : ذكر أو فكر أو شهود أو معاملة ظاهرة ، وإذا تناولوه قصدوا به التقوى على الطاعة والقيام بحق البشرية التى هى معرفة السر ، وإليه أشار بقوله « بغية الشفاء » أى بقصد الشفاء لا بقصد المتعة والشهوة .

قال السلمى رحمه الله : قيل لبعض المشايخ : كيف يتناول للطعام ؟ قال : كتناول العليل الدواء يرتجى الشفاء ، والله تعالى أعلم ، ثم ذكر ما يتعلق به قبل حصوله ، فقال :

ولم يكن همهم بجمعه . وكسبه وفضـله ومنعه

قلت : يعنى أن القوم لم يكن همهم بالاشتغال بجمع الطعام واكتسابه ، ولا اشتغال باعطاء « فضله » أى ما فضل عن الحاجة « ومنعه » بل أنزلوه منزلة المهمل الذى لاقدوم له عليه إلا عند الضرورة ، أو ما يقرب منها ، فلا يهتمون بجمعه ولا باعطاء فضـله ومنعه ، لاشتغالهم بما هو أهم .

قال : السلمى رضى الله عنه : فمن آدابهم ترك الاهتمام بالرزق ، وقلة الاشتغال بطلبه ، وجمعه ومنعه ، قال الله تعالى — وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم[1] — أى لا تدخره .

وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان لا يدخر شيئاً لغد ، ومن اشتغل منهم بشىء من الأسباب فانما ذلك قياما برسم العبودية ، وإن حصل منها شىء كانوا فيه أمناء على وجه أنهم خزان الملك ، يترصدون سد الخلل ، فيمسكون ما أمروا بامساكه ، ويرسلون ما أمروا بارساله .

وقد سئل الشبلى رضى الله عنه : كم فى خمس من الإبل؟ فقال أما الواجب فشاة ، وأما عندنا فكلها لله ، فقيل له ما دليلك على ذلك ؟ فقال : أبو بكر رضى الله عنه ، حيث خرج عن ماله كله لله ولرسوله ، فمن خرج عن كل شىء فامامه أبو بكر ، ومن أعطى بعضا

وترك بعضاً فامامه عمر ، ومن أعطى لله ومنع لله ، فامامه عثمان ، ومن ترك الدنيا لأهلها فامامه على ، وكل علم لا يدل على ترك الدنيا فليس بعلم .

وكان أبو العباس الحضرمى رضى الله عنه يقول : ليس الرجل الذى يعرف كيفية تفريق الدنيا فيفرقها ، وإنما الرجل الذى يعرف كيفية إمساكها فيمسكها ، يعنى أنه يعرف كيف يمسكها ولا يشتغل قلبه بها ، بحيث يكون يأخذها بالله ومن الله ويدفعها لله وإلى الله ، ولذلك قيل : الدنيا كالحية ، وليس الشأن فى قتل الحية ، وإنما الشأن فى إمساكها حية ، وإمساكها حية هو إمساكها بالله ، فانياً عنها وعن طلبها

وقال الشيخ أبو محمد عبد القادر الجيلانى نفعنا الله به لما سئل عن الدنيا: فقال: أخرجها من قلبك واجعلها فى يدك ، فانها لا تضرك .

وقال الشيخ أبو مدين رضى الله عنه : الدنيا جرادة ، إذا قطع رأسها حلت : ورأسها حبها .

وقال بعض أهل المعانى فى تفسير قوله تعالى ـ وما تلك بيمينك يا موسى(١) ـ يقال للفقير: وما تلك بيمينك أيها الفقير ، قال : هى دنياى اعتمد عليها فى قيام بنيتى ، وأنفق منها على عيالى ، ولى فيها مآرب أخرى : أتصدق منها ، وأفعل بها وجوه الخير ، فيقال له : ألقها من يدك أيها الفقير ، فألقاها فاذا هى حية تسعى ، كانت تلدغه فى قلبه ، وتشغله عن شهود ربه ، فلما فر منها وأيس من نفعها قيل : له خذها ولا تخف ، لأنك غنى بالله عنها ، فتأخذها بالله لا بنفسك ، وتدفعها كذلك ، وبالله التوفيق .

ثم ذكر آدابه بعد حصوله ، فقال :

ولا استقلوه ولا عابوه ولا يكن قصداً فيطلبوه

قلت : من آداب القوم عند حصول الطعام ألا يستقلوه أى يصغرونه ولا يحتقرونه ، بل يعظمونه ويكبرونه ، ولو كان قليلا فى الحس . أو خشينا أو رديء الصنعة ، فمن آدابهم أن يتلقوا القليل من صاحبه الذى أتى على يديه بالبسط والفرح والتعظيم والتكثير والتبريك ، ويبتدءون بأكله قبل غيره ، تطييباً لخاطره ورفعاً لقلبه ، وكذلك يفعلون فى الطعام الخشين أو الردىء أو ما أشبه ذلك ، ويتلقون الكثير أو الرفيع من يأتى به بالغنى ، ورفع الهمة عنه شفقة على صاحبه من دخول العجب أو الرياء ، وأظهار الزهد والقناعة ليقتدى بهم غيرهم .

---

(١) سورة طه صلى الله عليه وسلم ، الآية : ١٧

ومن آدابهم أيضاً ألا يعيبوا طعاماً ولا يقبحوه . لأن ذلك يدل على الشره له والحرص عليه ، وقد تقدم أنهم غافلون عنه غائبون عن شأنه حتى يأتيهم الله بما قسم لهم ، وهذا منهم اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « ما عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاماً قط ، كان إذا اشتهاه أكله وإلا تركه »(١) .

وقوله : « ولم يكن قصداً فيطلبوه » يعنى : إن الطعام عند القوم لم يكن مقصوداً عندهم، فلا يهتمون بشأنه قبل حصوله حتى يطلبوه ، بل كانوا غائبين عنه مشغولين بذكر مولاهم ، لا يلتفتون إليه إلا عند الاضطرار ، فيطلبون ما يتقوون به على عبادة ربهم دون حرص ولا استكثار ولا شهوة ولا اختيار .

روى أن الله تعالى أوحى إلى داوود عليه الصلاة والسلام : ما بال الأقوياء ومنازلة الشهوات، إنما جعلت الشهوات لضعفاء خلقى: إن القلوب المعلقة بالشهوات عقولها محجوبة عنى .

وحكى أن بشراً الحافى رؤى فى السوق ، فسئل عن ذلك ، فقال : نفسى تطالبنى بجبارة منذ سنين ، فمنعتها ورضيت الآن بالنظر إليها ، فأعطيتها .

وقال : بعضهم إنما هى فورة جوع لا أبالى بما سددتها .

وقال آخر : ليس لها علينا إلا كفايتها ، فلا نبالى فيه بطيب ولا ردىء .

وهذا ما لم يكن حراما ، وسيأتى التنبيه عليه ، وما لم يكن أيضاً مضراً بالبدن، وإلا حرام تناوله ، وليس تركه قادحا فى التوكل ، وإنما هو من مقتضيات الحكمة وجرى مع سنة الله فى خواص مخلوقاته ، وما وقع من الحكايات ، فذلك أمر خارق للعادة ، وصاحبه محمول على بساط الحال ، محفوظ فى ذلك الوقت ، فلا يقتدى به ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر آدابهم فى الادخار ، فقال :

والقوم لم يدخروا طعاما	بل تركوا الحلال والحراما
إلا يسيراً قدر ما تيسرا	إذ الحلال المحض قد تعذرا

قلت : أخبر رحمه الله أن القوم لم يكونوا يدخرون شيئاً لوقت آخر ، وإنما كانوا يأخذون قدر حاجتهم فى الوقت ، ويتصدقون بالفضلة ، وهكذا كانت سيرته صلى الله عليه وسلم فى جل أوقاته

---

(١) راجع الإحياء ، كتاب وآداب المعيشة وأخلاق النبوة ، تجد فيه ما يغنى .

قال : ابن ليون التجيبي في « الإنالة » : وأما ترك الادخار فقد صح عنه في الأحاديث أنه عليه الصلاة والسلام لم يدخر .

وقال أنس : كان النبي صلى الله عليه وسلم لايدخر شيئاً لغد .

وعن عائشة رضي الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام قال لبلال : أطعمنا يابلال .

وقال : يارسول الله ماعندي إلا صبر من تمر ، خبأته لك ، قال :

« أما تخشى أن يخسف الله به في نار جهنم ، أنفق يا بلال ولا تخف من ذي العرش إقلالا (١) » .

والصبر جمع صبره ، وهو ما كدس من التمر وغيره من غير وزن ولا كيل ، وقد نظم الشريشي هذا المعنى في رائيته فقال :

ولاتك ممن لايفارق خبزه   فديمة جود الحق دائمة القطر

قال : سيدي أحمد بن يوسف الفاسي رضي الله عنه في شرحها : يقول - والله أعلم - فلا تكن أيها المريد من الذين همهم بطنهم ، الملازمين لخبزهم وغيره من المطبوخات ، في كل وقت وأوان ، بل اقتد بنبيك صلى الله عليه وسلم في كونه : كان لايدخر لغد ، وينهى عنه ، كما اقتدى بذلك فيه أقوياء أمته الذين أردت سلوك طريقهم والاهتداء بهديهم، ولا تنحط إلى مانهى عنه فتنحط من العزيمة إلى الرخصة ، ومن الورع إلى الإباحه ، ولا يجيء منك شيء ، ولا يدخلك أيها المريد حين العمل بهذا كونك ترى أنك لاتجد ما تتقوت به إذا أعطيت مايفضل عن غذائك في الحـــال لمن يستحقه ، فإن قطر عطاء الله وجوده وفضله دائم الانصباب والانسكاب ، قد عمت جميع الخلائق نعمه ومننه .

قال في العوارف : ومن أخلاق الصوفية الإنفاق من غير إقتار ، وترك الادخار ، وذلك أن الصوفي يرى خزائن فضل الحق ، فهو بمثابة من هو مقيم على شاطيء بحر ، والمقيم على شاطيء البحر لايدخر الماء في قربته وراويته(٢) .

---

(١) « أنفق بلال » إلخ رواه البزار عن بلال، وعن أبي هريرة والطبراني عن ابن مسعود.

(٢) هذا المعنى مأخوذ من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : كنز المؤمن ربه ، وخزانته ، بطنه ، ومشجبه ظهره ، رواه الديلمي في مسند الفردوس .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه قال : « ما من يوم إلا وملكان يناديان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفاً »(١) .

وروى أنه أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم طيور ، فأطعم خادمه طيراً ، فلما كان الغد أتاه به ، فقال له رسول الله : « ألم أنهك أن تخبأ شيئاً لغد ، فإن الله يأتى برزق كل غد »(٢) .

وروى عن عيسى عليه السلام أنه كان يأكل الشجر ، ويبيت حيث أمسى ، ولم يكن له ولد يموت ، ولا بيت يخرب ، ولا يخبأ شيئاً لغد .

فالصوفى كل خباياه فى خزائن الله ، لصدق توكله وثقته بربه ، فالدنيا للصوفى كدار الغربة ، ليس له فيها ادخار ، ولا له منها استكثار .

قال عليه الصلاة والسلام : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير ، تغدو خماصا وتروح بطاناً »(٣) ، أنتهى .

ثم قال : وورد أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم ، أنه نهى أم أيمن عن أن تدخر لغد شيئاً(٤) ، ونهى بلالا عن الادخار فى كسرة خبز ادخرها ليفطر عليها ، فقال : أنفق يابلال ولا تخف من ذى العرش(٥) إقلال » .

وقال له : إذا سئلت فلا تمنع ، وإذا أعطيت فلا تخبأ .

وأما ادخاره صلى الله عليه وسلم ، فلعياله ، وتشريعاً وتبييناً للضعفاء من أمته ، كما أن ترك ادخاره يعد تعليما للأقوياء منهم حسبما ذكره الإمام أبو حامد رضى الله عنه ، وقال بعضهم :

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٢) وورد الحديث بلفظ « ألم أنهك » بكسر الكاف « أن ترفعى شيئاً لغد ، فإن الله يأتى برزق كل غد » رواه الإمام أحمد والبيهقى فى شعب الإيمان عن أنس .

(٣) رواه الترمذى والحاكم ، وصححاه .

(٤) ويعضده الحديث الذى مر « ألم أنهك » بكسر الكاف .

(٥) حديث « أنفق بلال » سبق تخريجه .

فعله صلى الله عليه وسلم دائر بين الإباحة والورع ، فادخاره قوت سنة بيان للإباحة ، وعدم إدخاره ورع ، وشأن أهل الطريق الأخذ بالعزائم دون الرخص التى لم يندب العمل بها ، أما ما ندب الأخذ به منها كالقصر فى السفر ، ونحوه فإنهم يسارعون إليه ويحافظون على تحصيله ، على أن العارفين علما يصرفونه بحسب الأحوال والعوارض، قد يخفى على من ليس من أهله . فقد كان بعضهم لا يقصر فى سفره قائلا للناس : فى ترك قصر الصلاة للفقراء نية حسنة يحبون اغتنام الصلاة خلفهم ، فلا نحرمهم من نيتهم ، ثم إن الشبهة تختلف باختلاف المقامات ، فمن كان من أهل الحقيقة مثلا ، وأتى إليه بشىء حلال، ثم شاهد الخلق قبل الحق فأهل الظاهر لايفتون إلا بحليته ، وأهل الباطن يحكمون بشبهته ، فيقع التورع عنه ، كما وقع الشيخ أبى مدين رضى الله عنه ، وكذلك الادخار من أصله ، وإن كان حلالا من طريق الأحكام ، لكنه شبهة عن أهل الباطن ذوى النهى ، والأحكام فى حق من لم يكمل حاله ، ويستقيم يقينه ويستو عنده الوجد والفقد .

وقال الشيخ عبد العزيز المهدوى رضى الله عنه : الورع ألا يخطر الرزق ببال ، ولايكون بينك وبينه نسبة ، لا فى التحصيل ولا عند المباشرة ، لأنه لا يدرى أيأكله أم لا .

وقال الشيخ أبو طالب رضى الله عنه : ويقال من اهتم برزق غد فهى خطيئة تكتب عليه سيئة .

وقال سفيان الثورى رضى الله عنه : الصائم إذا اهتم فى أول النهار بعشائه ، كتبت عليه خطيئة .

وكان سهل يقول : إن ذلك ينقص من صومه ، وقال : أعرف بالبصرة مقبرة عظيمة يغدى على موتاهم برزقهم من الجنة بكرة وعشية يرون منازلهم من الجنان، وعليهم من الغموم والكروب ما لو قسم على أهل البصرة لماتوا أجمعين ، قيل : لم ، قال كانوا إذا تغدو قالوا بأى شىء نتعشى وإذا تعشوا قالوا : بأى شىء نتغذى .

وقد وقع النهى منه صلى الله عليه وسلم ، ومن الذين من بعده عن الادخار فى زمانهم ، الذى كان الحلال فيه كثيراً ، فكيف بزمانك الذى غلب فيه الحرام ، فالأولى أن تلزم الضرورة ، فلا تأخذ إلا فاقة وضرورة ، ولا تأكل إلا كذلك .

وقد كان شقيق البلخى رضى الله عنه يقول : فى سنة تسعين ومائة : إن للمكاسب اليوم

قد فسدت ، وإن التجارات والصنائع شبهات كلها ، ولا يحل الاستكثار منها لوجود الغش وعدم النصح ، قال : وإنما ينبغى للمسلم أن يدخل فيها ضرورة .

وقوله « بل تركوا الحلال والحرام » يعنى أن القوم تركوا الإكثار من الحلال خوفا من الوقوع فى الحرام ، وتركوا ، الحرام تقوى ، وتركوا المتشابه ورعا(١) .

وقيل : الورع هو ترك الحرام والمتشابه ، وهم يطالبون أنفسهم بحقائق ذلك .

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله نجى موسى بمائة ألف وأربعين ألف كلمة فى ثلاثة أيام، فلما سمع موسى كلام الآدميين مقتهم ، لما وقع فى مسامعه من كلام الرب عز وجل، فكان مما ناجاه ربه أن قال: ياموسى إنه لم يتصنع لى المتصنعون بمثل الزهد فى الدنيا، ولم يتقرب إلى المتقربون بمثل الورع عما حرمت عليهم ، ولم يتعبد لى المتعبدون بمثل البكاء من خشيتى ، قال موسى : يارب البرية كلها ، ويا مالك يوم الدين، وياذا الجلال والإكرام : فما أعددت لهم ؟ وماذا جزيتهم ؟ قال : أما الزهاد فى الدنيا ، فإنى أبحتهم جنتى ، يتبوءون فيها حيث شاءوا وأما الورعون عما حرمت عليهم ، فإنه إذا كان يوم القيامة لم يبق عبد إلا ناقشته الحساب ، وفتشته إلا الورعون ، فإنى أستحييهم وأجلهم وأكرمهم ، وأدخلهم الجنة بغير حساب ، وأما البكاءون من خشيتى ، فأولئك لهم الرفيق الأعلى ، لا يشاركون فيه » رواه الطبرانى وغيره .

وقوله « إلا يسيراً » إلخ يعنى أنهم يأخذون اليسير على وجه للفاقة وللضرورة، ويتركون الزائد ، وسواء كان أخذهم لذلك بتكسب أو غيره ، لأن أخذ ذلك لا بد لهم منه ، لوجود الضرورة شرعا ، ودخول التكلف ليس من شأن الفقير ، بل أموره كلها على التيسير ، فلا يكلف ولا يتكلف ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « أنا وأتقياء أمتى برآء من التكلف(٢) » .

ولأن التكلف ينافى التوكل ، وترك الأسباب من غير إذن ينافى الأدب ، ولكن كما قال

---

(١) كان سيدنا عمر رضى الله عنه يقول : كنا نترك تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع فى الحرام .

(٢) رواه الدار قطنى فى الأفراد ، وليس فيه لفظ « وأتقياء » . وروى من حديث الزبير بن العوام « إنى برىء من التكلف ، وصالحوا أمتى » .

صلى الله عليه وسلم « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً »[1] ، فلما توكلوا على الله كفاهم كل مؤنة ، لقوله تعالى « ومن يتوكل على الله فهو حسبه »[2] أى كافية .

وقوله « إذ الحلال المحض قد تعذر » الحلال المحض هو الخالص الذى لا شوب فيه ولا اختلاف ، وقد تقدم قول شقيق : إن المكاسب اليوم قد فسدت . إلخ كلامه .

قال الشيخ زروق رضي الله عنه : فأما ما يجرى على اختلاف العلماء ، والراجح والمرجوح فهو موجود .

وقال العلماء : إذ فقد رأسا أقيم من عشرة أشياء تجارة بصدق ، وإجارة بنصح ، وأعشاب الأرض غير مملوكة ، ومدية من أخ صالح ، وصيد البحر ، ومهر النساء بطيب نفس ، وقسمة المغنم على وجه شرعي ، والميراث على أصل مجهول ، والسؤال عند الحاجة ، وكثيراً ما يجرى على السنة المتدينين : أن الحلال ضالة مفقودة أى معدومة ، وهو أمر يجعلونه عكازاً للاسترسال وأخذ كل ما والاهم ، بل الحلال موجود ، ولو لم يكن موجوداً فى كل زمان ما كلفنا بطلبه ، ولا تقطع أولياء الله سبحانه ، إذ هو قوتهم ، وذلك باطل ، وأيضاً إذا حرمت الكل حلت الكل ، وكل من بيده شيء يستأنف فيه حكم الله من الآن .

وقد كان شيخنا البوزيدى يقول : من بيده شيء لا يعرف فيه دخول حرام بالأصالة ، ولا معاملة قبيحة مقصودة . فمن أين يحرم ماله ؟ وما غلب على الناس من الجهل ورقة الديانة لا يحرم ما بأيديهم ، لأن الإنسان لا يخاطب إلا بما فى علمه ، ثم قال : إن الله خلق المال حلالا ، كما خلق الماء طهورا ، فكما لا ينجس هذا إلا ما غيره ، لا يحرم هذا إلا ما غيره ، إلا أن السلف رضي الله عنهم لمعرفتهم بكون النفوس ، تساهلوا فى الطهارة لحصرها ، وشددوا فى باب الكسب لتساهل النفوس فيها ، حتى جرى فى قواعدهم فى باب الطهارة : أن الأصل مقدم على الغالب ، وفى باب الحلال والحرام : الغالب مقدم على الأصل ، وهى مسألة اختلاف ، وقد أهمل الناس فى هذه الأزمنة باب الحرام ، لا سيما فى بلاد المشرق ، فليكن الفقير من ذلك على بال ، ومن يصحب العلم فلا يضل ، ولا يضيق عليه الواسع ، بل لا يزال فى فسحة ما لم يتغير .

---

(1) رواه الترمذى ، والإمام أحمد ، وابن ماجه ، والحاكم فى المستدرك .

(2) سورة الطلاق ، الآية : ٣

وأشار ابن الفاكهاني إلى أنه ينبغي عدم التعرض للبحث في هذه الأزمنة، والوقوف مع ظاهر الأحوال، لأن البحث لا يجب حيث لا علامة، ووجوده لا يكشف عن شيء، وأكثر العلماء على أن الحلال ما جهل أصله، والحمد لله الذي جعل في الأمور سعة، انتهى كلامه مع بعض اختصار.

وقال الشيخ أبو الحسن: أحل الحلال ما لم يخطر لك على بال، ولا سألت فيه أحداً من النساء والرجال اهـ.

ثم أشار الناظم إلى ما يعمل بالفضلة على الحاجة.

قلت: أشار بقوله «بلا تكليف» إلى أن ما يدخل على الفقير كله من باب التيسير، بلا كلفة ولا تدبير، فإن كان من غير سبب فأمره ظاهر، إلا أنه ينبغي أن يسبق نظره في الأخذ إلى الحق دون الخلق، فإن سبق نظره إلى الخلق فمقتضى الورع عند الخصوص ألا ينيل نفسه شيئاً منه، كما وقع للشيخ أبي مدين رضي الله عنه: أتاه حمل قمح، فنازعته نفسه وقالت: له يا ترى من أين هذا؟ فقال لها: أنا أعرف من أين هذا يا عدوة الله، فأمر به بعض أصحابه أن يرفعه لبعض الفقراء عقوبة لها، لكونها رأت الخلق قبل رؤية الحق تعالى.

وينبغي له أيضاً ألا يتشوف إليه قبل حصوله، فإن تشوف لشيء منع نفسه منه، كما وقع لأيوب الحال مع أحمد بن حنبل في قصة الخبز، وهي معروفة.

وأما إن كان بسبب شرعي، فينبغي أن يكون ذلك خفيفاً غير شاغل عن ذكر الله وأن يكون مقصوداً به الأدب مع الحكمة، غير ملتفت له ولا معتمد عليه.

قوله: «ابتدءوا بالجار والضعيف» أشار إلى كيفية تفريق الفاضل عن الحاجة، وأنه يقدم الأهم فالأهم لحديث «ابدأ بنفسك، ثم بمن تعول[1]».

قال رجل: يا رسول الله عندي دينار، قال أنفقه على نفسك؟ قال: عندي آخر،

---

(١) والحديث روايات منها: «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك» الخ. رواه النسائي عن جابر.

قال : أنفقه على عيالك ، قال : عندى آخر ، قال ، صل به ذوى رحمك ، قال : عندى آخر ، قال : اصنع به ما شئت(١) ، الحديث .

وحق الجار معلوم من الدين بالضرورة ، فيؤثرونه على غيره بعد المراتب المذكورة ويؤثرون من الجيران أحوجهم ، فإن استووا ، فأقربهم إليك بابا ، وإن كان هنالك ضعيف لا جوار له ، والجيران أغنياء قدموه لأن سد الخلل مقدم على الإبرار ، والأخوة فى الله مقدمة على غيرها ، هـــذا كله فى الفضلة والإيثار ، لا فى باب الاضطرار ، بحيث إذا أعطاه هلك واختلت بنيته عن العبادة فذلك ممنوع ، والإيثار ما يحتاج إلى الصبر عند إعطائه من غير إخلال ، فى قوته ولا ضرر فادح يلحقه ، والفضل ما لا يلحقه منـــه شىء من ذلك ، والله تعالى أعلم .

ثم أشار إلى ورعهم وتحفظهم من الحرام والمتشابه ، فقال :

وجنبوا طعام أهل الظلم   والبغى والفساد خوف الإثم
بل أكلوا مما استبان حله   غير الذى لا يعرفون أصله

قلت : أهل الظلم هم ملوك الجور والعمال المضروب على أيديهم ، وأهل البغى هم : السراق والمحاربون ، وأهل الفساد من يتعامل بالربا وبالمعاملة الفاسدة ، ولا يتحاشى الحرام.

ويحتمل أن يكون أهل البغى والفساد شيئاً واحداً ، وهم اللصوص ومن يلحق بهم ممن لا يتقى الله فى معاملته ولا يتحافظ من الحرام فى مأكله وملبسه وغير ذلك .

ويدخل فى أهل الظلم قضاة الجور الذين يقبضون الأجرة على مجرد الحكم ، وكذلك العدول(٢) الذين لا يتحاشون من أموال المسلمين ، مهما قدروا عليها ، عصمنا الله من جميع ذلك .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : وأما تجنبهم طعام الظلمة ونحوهم فلوجوه :

أحدها ما فى إرضائهم من الموالاة التى لا تحل ، أى لأنهم يفرحون بأكل طعامهم أهل الصلاح والخير ، مع ما هم عليه من الظلم ، ما لم يخش الضرر الواضح .

(١) وللحديث روايات أخرى منها : « ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شىء فلأهلك » الخ . رواه النسائى عن جابر .

(٢) جمع عادل ، وهو فى الأصل : المشرك الذى يعدل بربه ، واستعمل هنا فى الظلم ، ومنه قول المرأة للحجاج : إنك لعادل قاسط . أى ظالم .

الثانى : ما فيه من تسلطهم على المنتسبين : إما بسوء الظن بالجهل ، لاعتقادهم حرمة ما بأيديهم ، وأن من يأكله لا خلاق له فيستهينون بهذا الشخص ، بل بكل أهل جنسه : بجعله حجة على غيره ، بمن لا يقدر أن يتوسع توسعه لورع أو ضيق حضيرة ، أى ضيق دائرة معرفته ، فيقول له : فلان أكبر منك أكل طعامى ، وما تكون أنت منه ؟ فيؤذى لذلك .

الثالث : ما فيه من إعانتهم على ما هم فيه ، إذ يرون أنفسهم حينئذ أنهم من أهل الخير ويقولون : لو رأى منا فلان ما يكره ما أكل طعامنا ، لاسيما إن وجد له وجه فى إباحة ذلك وتجرأ على الله بنسبتها لأهل الله ، كما يفعله بعض من وهن الإيمان فى قلبه ، والعياذ بالله .

الرابع : ما فى ذلك من ميل النفس لهم ، ومحبتهم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « اللهم لا تجعل لمنافق على يداً فتحبه نفسى »(١) .

وحكى أبو نعيم فى حليته أن ابن المبارك دخل على الخليفة فوعظه ، وذكره فأعطاه مالا ، فاشترى به عبيداً فأعتقهم ، فقال له محمد بن واسع فى ذلك ، فقال له : ذكرتهم بالله ووعظتهم ، وأخذت منهم مال الله وصرفته فى وجهه . فقال محمد بن واسع الله : قسم قلبك الآن لهم ، كما كان ، قال : لا ، فاستغفر ، رحمة الله على الجميع .

الخامس : ما فى ذلك من تناول الشبهة من غير ضرورة ، فقد قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : من كان من فقراء هذا الزمان مؤثراً للسماع أكولا لأموال الظلمة ، ففيه نزعة يهودية ، قال الله تعالى ـ سماعون للكذب أكالون للسحت ـ اهـ باختصار .

السادس : ما يلحقه بسبب ذلك من الذلة وتغيير الحال ، كما اتفق لكثير من الناس ، واتخذه بعضهم (أى بعض الكبراء) سياسة ، فإذا رأى فقيراً استظهر عليهم بالقوة وخافوا دعوة أو غيرها والوه واحتالوا عليه ، حتى يدخل فى أيديهم فلا يمكنه التعزز عليهم ، وقد كان بعض مشايخ المغرب يقول : الفقير لا يمشى بالليل ، ولا يهرب بالنهار إن رأى ما يخاف ولا يأكل طعام الظلمة .

قلت : لأن هذه كلها تورث الذل .

السابع : ما فى ذلك من فتح باب التشويش ، باعتقاد الناس أن له عندهم جاهاً ،

---

(١) وفى رواية « لفاجر » بدل « منافق » و « قلبى » بدل « نفسى » رواه ابن مردويه فى التفسير ، والديلمى فى مسنده ، وأبو موسى المدينى فى كتاب « تضييع العمر » من طريق أهل البيت رضى الله عنهم .

فيرجعون له بطلب الشفاعة ، وذلك أمر لا يمكنه استيفاؤه ، وقل ما تعلق به رجل فسلم في ديانته ، والله تعالى أعلم .

وهذا كله ما لم تكن ضرورة ، والمرء فقيه نفسه .

وقد ذكر الشيخ الغوري رحمه الله : أن السلطان أبا الحسن صنع طعاماً لجماعة من أهل الخير في وقته ودعاهم له ، فكان منهم من أكل ولم يتوقف ، ومنهم من استظهر بالصوم ، ومنهم من أخرج خبزه وائتدم بإدام الملك ، ومنهم من أكل وقال ، ومنهم من قال : أنا صائم ، ولكن هاتوا من طعام الملك على وجه البركة . فسألهم شيخهم عن ذلك .

فقال الأول : طعام مستهلك ترتبت القيمة في ذمة مستهلكه ، فحل له التصرف فيه ، وقد مكنني منه عن طيب نفسه ، فبأي وجه أتركه .!

وقال الثاني : تجنبت حال الشبهة بجميع وجهه .

وقال الثالث : عملت على القول بإباحة الغلة للغاصب .

وقال الرابع : هو مال مجهول الأرباب يجب فيه التصرف بالقيمة ، فكنت تأخذ وتقدر أن لتقومه بعد .

وقال الخامس : طعام مستحق المساكين ، قدرت على استخلاص بعضه ، فاستخلصت ما قدرت عليه ، وخرجت به لأربابه .

ثم ذكر عنه أنه غسل مزوده مما تعلق من الإدام ، وشق عليه إخراج ما تعلق به من الزغراق ، فأرسلها مع النهر .

ومن هذا النوع ما ذكر أن ابن عباد رحمه الله : أعطاه السلطان كسوة وأعطى الشيخ الكراكي كسوة ، وأعلمهما أنه إنما أعطاهما من الجزية ونحوها ، فقبلها ابن عباد وردها الكراكي رضي الله عنهما ، فقيل لبعض أهل الوقت ، ممن له بصيرة في ذلك ، فقال : الورع مستحب بإجماع ، وجبر قلب الملك واجب بإجماع ، وأنتم ترون من وافق الصواب المتعلق بالواجب ، أو بالمستحب ، هذا ما وقع له في الأمر الظاهر ، ولما بعث له (أي لابن عباد) مولاه بمسك يساوي مالا لعلة كانت به : صبه في المرحاض ، ولم ينتفع به ، فاعرف لهذه الأمور حقها ، فللرد آفات ، كما للأخذ آفات كما لا يخفى ، والورع من ورعه الله ، وإنما يورعه الله علم صدقه في ورعه . انتهى كلام الشيخ زروق .

قلت : وقد اضطرب العلماء فى هدايا الملوك وإجازتهم، فنهم من قبلها ، ومنهم من ردها وقد ذكر الغزالى فى الإحياء جماعة ممن قبلها ومن ردها ، فانظره إن شئت .

وقوله : « بل أكلوا مما استبان حله » إلخ يعنى أن القوم لا يأكلون إلا ما ظهر حله وتحققت إباحته ، ولا يأكلون مما لا يعرفون أصله ، هل هو حلال أو حرام ؟ ولعل ذلك مع قيام الريبة والشك ، والله تعالى أعلم .

وقد استوفى الغزالى فى الإحياء الكلام على الحلال والحرام ،فعليك به .

ثم ذكر الناظم بعض آداب الأكل ، فقال :

ولم يكونوا كرهوا الكلام عليه لكن كرهوا الإرغام

قلت : الكلام على الطعام حسن ، لأن السكوت عليه يدل على الشره والنهمة ، ويستحب أن يكون بعلم ، أو بحكايات الصالحين ، ويكون الكلام بعد بلع الطعام ، لا فى حال مضغه ، لأنه ربما يخرج شىء من فمه فيسقط فى الطعام فيقذره على غيره ، فلا يتكلم الآكل ما دام الطعام فى فمه ، وقد ذكر عن بعض المشايخ أنه استحب أن يسمى عند كل لقمة ، ويحمد عند ابتلاعها ، قال ابن الحاج : وهذا أمر حسن ، لكن السنة لم ترد به ، وهى أحسن من كل ما سواها ، فلم يكن القوم يكرهون الكلام فى حال الطعام ، لكن كانوا يكرهون الإرغام : أى التحتم على الإخوان فى الأكل ، لما فى ذلك من التكلف المنهى عنه ، بل الأدب فى ذلك تركه يفعل ما يشاء ، وقد يكون قولك له : كل ، سبباً فى رفع يده حياء ، فالواجب على صاحب الطعام أن يدفع الطعام ويقرب لهم الماء ، ويغيب عنهم ، فهو فى غاية الظرافة ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر وقت الأكل فقال :

ويكرهون الأكل مرتين فى اليوم والمرة فى اليومين

قلت : إنما كرهوا الأكل فى اليوم مرتين ، لما فيه من تقوية شهوة الطعام ، وقد تقدم أنهم لا يأكلون إلا عن فاقة(١) ، وقد قيل لسهل رضى الله عنه : أكلة فى اليوم ؟ قال : أكلة الصالحين ، قيل : أكلتان ؟ قال أكلة المؤمنين ، قيل : فثلاثة ؟ قال : يا هذا مر أهلك يبنو لك معلفاً .

---

(١) أى حاجة إلى الطعام .

والمراد باليوم بياض النهار ، ومن الفجر إلى الغروب ، والغالب أن الأكل فيه مرتين يثقل الأعضاء ويبطىء الهضم ، ويفسد الطعام فى المعدة ، وفيه قال ابن سينا عفا الله عنه :

توق إذا ما شئت إدخال مطعم ... على مطعم من قبل فعل الهواضم
فكل طعام يعجز السن مضغه ... فلا تبتلعه ، فهـــو شر المطاعم
واجعل طعامك كل يوم مرة ... واحذر طعاماً قبل هضم طاعم

وقال آخر :

ثلاثة هى أسباب المنايا ... وداعيـــة الجسوم إلى الحمام
نكاح يستدام وكثرة نوم ... وإدخال الطعـام على الطعام

ويفهم من كلام الناظم أن الممدوح هو الأكل مرة فى اليوم يعنى مرة فى النهار ، ومرة فى الليل ، وهو الوسط ، وأن الأكل مرة فى اليومين تفريط ، كما أن الثلاثة فى اليوم إفراط .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : وهذا حكم من اعتدل مزاجه أو قارب ، فأما من انحرف إلى حد الإفراط أو التفريط ، فلا ينبغى أن يهمل حكمه ، بل يعمل بما يصلحه من غير إخلال ولا بعد للحق ، فإن الشبع المفرط الذى يفسد المعدة ويضيع الطعام من غير احتياج محرم ، والذى يثقل الأعضاء ولا يفسد شيئاً مكروه ، على خلاف فيه ، والأولى بالشخص ألا يأكل حتى يجوع جوعاً متوسطاً ، وهو الذى يشتهى ما يقوم به أوده ، أى قوامه من معتاد طعامه ، ولا يفرط إلى أن يشتهى كل خبز ، فإنه مضر بالفكرة ، مخل بالقوة ، ولا يفرط بحيث يأكل بالتشهى ، وهو طلب الطعام مقروناً بالشهوة ، ثم ذكر استحباب الاجتماع على الطعام ، فقال :

وفضلوا الجمع على الإفراد ... فيـــه لأجل كثرة الأياد

قلت : إنما فضلوا الاجتماع على الانفراد فى الأكل ، لثلاثة أوجه :

أحدها : ما فى ذلك من التماس البركة الحسية والمعنوية ، أما الحسية فلقوله عليه الصلاة والسلام « اجتمعوا على الطعام يبارك لكم فيه(١) » وأما المعنوية فلقوله عليه الصلاة والسلام «

(١) رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه ، والحاكم ، وابن حبان بلفظ : « اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه » .

« من أكل مع مغفور غفر له » وبقدر ما تكثر الجماعة تعظم البركة ، لأن مع كل إنسان ملكين أو أكثر ، فيكثر حضور الملائكة بقدر ما يحضر من الناس .

وكان الجنيد رضى الله عنه يقول : المؤاكلة مراضعة ، فانظروا من تواكلوه .

وثانيها : ما فى ذلك من العفة والقناعة وعدم الحرص والشره ، لأن أكل الإنسان وحده يدل على نذالته وبخله فى الذالة وحرصه بهمته ، والنذالة باللام بعد الذال هى الرذالة والخسا[رة] وبخله أو حرصه ونهمته ، وفى الحديث « شر الناس من أكل وحده ، وضرب عبده ، ومنع رفده » إلا لضرورة شرعية أو عادية .

وثالثها : ما فى ذلك من الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان عليه الصلاة والسلام لا يأكل طعاماً إلا على ضفف أعنى كثرة الأيدى(١) ، وكان سيدنا إبراهيم الخليل اتخذ قبة ينظر منها مد بصره من كل ناحية لأجل الضيفان ، وربما كان يمشى الأميال فى طلب من يأكل معه .

وقوله : لأجل كثرة الأيادى يصدق بالأوجه الثلاثة ، والأيادى جمع أيد ، وأيد جمع يد ، فهو جمع الجمع ، والله تعالى أعلم ، ثم ذكر آدابا أخر فقال :

ولم يلقم بعضهم لبعض ولم يجل بصره بل يغض

قلت : أشار رحمه الله إلى أن الصوفية لم يكن من عادتهم أن يلقم بعضهم لبعض ، ويحمل ذلك إذا كان على وجه الانبساط والملاعبة لما فيه من قلة الاحتشام والتوقير ، أو يحمل ذلك على تلقيم الخادم إذا أتاهم بالطعام ، وهو نص قول السلمى : « وكره أكثرهم تلقيم من يخدمهم مما بين أيديهم ، لاسيما إذا كان ضعيفاً ، فإنه لا يجوز له التصرف فيما قدم إليه فقال بعضهم : يملكه بالإحضار بين يديه ، وقال بعضهم : بالتناول ، وقال بعضهم : بالوضع فى الفم ، وقال بعضهم : باستيفاء الأكل ، وقال الجنيد رضى الله عنه : تنزل الرحمة على الفقراء عند الطعام ، فإنهم لا يأكلون إلا بالإيثار » انتهى كلام السلمى .

فجعل التلقيم المكروه إنما هو للخادم ، لكن قول الناظم « بعضهم لبعض » ظاهر فى تلقيم الفقراء ، فيحمل على ما تقدم من الانبساط ، وأما إذا كان على وجه التبرك من ترجى بركته

---

(١) رواه أبو يعلى والطبرانى فى الأوسط وابن عدى فى الكامل بلفظ : « أحب الطعام إلى الله ما كثرت عليه الأيدى » .

خلا بأس ، وللمتأخرين من المشايخ فيه أسانيد وطرق ، وقد يستدل له بحديث المرأة التى سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم و أن يناولها مما يأكل ، فناولها من بين يديه ، فقالت : لا أريد إلا من الذى فى فيك فناولها ، وكانت قليلة الحياء(١) ، فصارت بعد من أشد الناس حياء ، الحديث .

وقد جرى العمل بهذا بشرط إذا طلب ذلك من الشيخ أو ممن ترجى بركته ، ولا يكلف به من لا يطلبه ، وأشار أيضاً إلى أن الصوفية إذا كانوا فى حالة الأكل لا يجيلون بصرهم ، أى لا يمدونها إلى من يأكل معهم ، بل يغضون أبصارهم ، وينظرون أمامهم لما فى إجالة البصر من إخجالهم وقلة المروءة معهم ، فإن هيئة الإنسان فى حالة الأكل بشيعة ، لاسيما إذا كان كبير السن ، وقد كان بعضهم ترك أكل الطعام الذى يحتاج للمضغ حياء من الله أن يراه على تلك الهيئة .

وقال بعضهم : استتروا بإدخاله كما تستترون بإخراجه ، فالواجب من جهة الأدب ألا ينظر أحد إلى الآكلين ، ولا يقف على رؤوسهم بماء ولا غيره ، بل يضعه ويذهب عنهم خلاف ما يفعله أرباب الدنيا فى الولائم وغيرها ، والخير كله فى الاتباع ، والشر كله فى الابتداع .

وكان مالك رضى الله عنه كثيراً ما ينشد هذا البيت :

وخير أمور الناس ما كان سنة ‏ ‏ ‏ ‏ وشر الأمور المحدثات البدائع

والله تعالى أعلم .

ثم أشار إلى أدب آخر وهو ، عدم انتظار الغائب إذا حضر الطعام ، فقال :

ولم يروا فيه بالانتظار ‏ ‏ ‏ ‏ فيذهب الوقت بلا تذكار

قلت : أشار رحمه الله إلى أن مذهب الصوفية إذا حضر الطعام بادروا إليه بالأكل ، ولم يكن رأيهم فيه بالانتظار لمن كان غائباً منهم ، بل يعزلون حقه ويأكلون الباقى ، وذلك

---

(١) يبدو أنها رجعت بركة فم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس هذا من باب قلة الحياء وإنما كانت جريئة وقد أراد الله خيراً بها ، فإنها رزقت بعد من الحياء ما لا يعلمه الا الله ببركة فم النبى ﷺ والله تعالى أعلم .

لما فى ذلك من التكلف للغائب، وإهانة الطعام بابتذاله ، أى إهماله وشغل بال الجائع منهم به لا سيما وهم لا يأكلون إلا عن احتياج ، ولأن الحاضر مقدم حقه على الغائب .

قال أبو عبد الرحمن السلمى رضى الله عنه : ويكره الانتظار عند حضور الطعام .

وقد قيل : قلوب الأحرار لاتحمل الانتظار ، ويكره تفويت الوقت بالاشتغال بالأكل حتى حكى عن بعضهم أنه كان يفطر على حسوة يحسوها ، ويقول : الوقت أعز من أن يشغل بالأكل اهـ .

قلت : وإلى هذا الأخير أشار بقوله : « فيذهب الوقت بلا تذكار » ولعله مرتب على محذوف تقديره ولا يطيلون الجلوس عليه فيذهب الوقت بلا ذكر كما رتبه السلمى ، والناظم فى هذا الباب ما نظم ، إلا ما ذكره السلمى حرفا حرفا ، غير أنه قدم وأخر ، وفيه تنبيه على ما كان عليه السلف من الجد والاجتهاد ، ومحافظتهم على أوقاتهم وساعاتهم .

قال الحسن البصرى رضى الله عنه : أدركت أقواما كانوا على ساعاتهم أشفق منكم على دنانيركم ودراهمكم ، يقول : كما لا يخرج أحدكم ديناراً ولا درهما إلا فيما يعود عليه نفعه، فكذلك لا يحبون أن تخرج ساعة من أعمارهم إلا فيما يعود عليهم نفعه .

وقال السرى السقطى : خرجت يوما من بغداد، أريد الرباط بعبادان ، أصوم بها رجب وشعبان ، (فاتفق أن مررت[1]) فى طريق على الجرجانى ، وكان من الزهاد الكبار ، فدنا وقت إفطارى ، وكان معى ملح مدقوق وأقراص ، فقال : ملحك مدقوق ومعك ألوان من الطعام ، لم تفلح ولن تدخل سنن المحبين ، فنظرت إلى مزود كان معه فيه سويق الشعير ، فسف منه ، فقلت : ما دعاك إلى هذا ؟ فقال : إنى سبحت ما بين المضغ والسف سبعين تسبيحة ، فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة ، وفى الخبر « ما من ساعة تأتى على العبد لا يذكر الله فيها إلا كانت عليه حسرة يوم القيامة[2] أنظر تنبيه ابن عباد ، فقد أطال فيه .

ثم نهى عن كثرة الأكل فقال :

وكرهوا البطنة للإخوان فالبطن كالوعاء للشيطان

(١) وضعتها ليستقيم المعنى إذ لم تكن بالأصل الذى راجعنا عليه .

(٢) رواه أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى شعب الإيمان عن عائشة رضى الله عنها .

قلت : البطنة بكسر الباء هي : امتلاء البطن من الطعام ، فأخبر رحمه الله أن الصوفية كرهوا البطنة للإخوان ، وهي الشبع ، أو الزائد فوقه إلى حد لا يضر ، وإلا حرم ، وأشار بهذا إلى قول سيدنا عمر رضى الله عنه : « إياكم والبطنة فإنهـا تذهب الفطنة ، وتبطىء بالجوارح عن الطاعة » .

وأشار بقوله « فالبطن كالوعاء للشيطان » إلى قوله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، فضيقوا مسالكه بالجوع(١) » .

فالبطن إذا امتلأت كثر دم البدن ، فتتسع مجاريه للشيطان فيسلط عليه الكسل والثقل وسوء الخواطر ، والوساوس ، فيكون جسمه كالوعاء للشيطان ، يحشو فيه ما شاء .

وقد قال لقمان لابنه : يابنى إذا ملىء البطن نامت الفطنة ، وخرست الحكمة .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل ملكوت السماء من ملأ بطنه(٢) » .

وقيل يا رسول الله : من أفضل الناس ؟ قال : من قل طعمه وضحكه ، ورضى بما ستر به عورته » .

وقال صلى الله عليه وسلم « البسوا ، واشربوا ، وكلوا فى أنصاف بطونكم ، فإنه جزء من النبوة » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا تميتوا قلوبكم بكثرة الطعام والشراب ، فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء » .

وفى حديث آخر : « إن الله يباهى الملائكة بمن قل طعمه فى الدنيا ، فيقول انظروا إلى عبدى ابتليته بالطعام والشراب فى الدنيا فتركهما » ، اشهدوا يا ملائكتى ما من أكلة يدعها إلا أبدلته بها درجات فى الجنة » اهـ .

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى « مكايد الشيطان » .

(٢) يؤيده ما رواه الديلمى فى مسند الفردوس عنه صلى الله عليه وسلم : « البسوا الصوف وشمروا ، وكلوا فى أنصاف البطون ... تدخلوا فى ملكوت السماء » .

وقد ذكر فى كتاب الإحياء للجوع عشر فوائد :

الأولى : صفاء القلب ، وإنفـاذ القريحة ، ونفوذ البصيرة . فإن الشبع يورث البلادة ويعمى القلب ويكثر البخار فى الدماغ ، كشبه السكر حتى يحتوى على معادن الفكر ، فيثقل القلب بسببه عن الجريان فى الأفكار .

الثانية : رقة القلب وصفاؤه الذى به يتهيأ لإدراك لذة المناجاة والتأثر بالذكر ، فكم من ذكر يجرى على اللسان مع حضور القلب لا يلتذ به ، حتى كان بينه وبين الذكر حجاب من قساوة القلب ، قال أبو سليمان : أحلى ما تكون العبادة إذا لصق ظهرى ببطنى .

وقال الجنيد رضى الله عنه : يجعل أحدكم بينه وبين الله مخلاة من طعام، ويريد أن يجد حلاوة المناجاة .

الثالثة : الانكسار والذل ، وزوال البطر والفرح والأشر الذى هو مبـدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى ، ولا تنكسر النفس ولا تذل بشىء كما تذل بالجوع ، فعنده تسكن لربها وتخشع وتقف على عجزها وذلها .

الرابعة : ألا ينسى بلاء الله وعذابه ، ولا ينسى أهل البلاء، فإن الشبعان ينسى الجائعين .

قيل ليوسف عليه السلام . مالك تجوع وأنت على خزائن الأرض ، قال : أخاف أن أنسى الجائع .

والعبد الفاضل لا يشاهد بلاء إلا ويتذكر بلاء الآخرة ، فيتذكر بجوعه : جوع أهل النار ، وبعطشه : عطش يوم القيامة .

الخامسة : كسر شهوات المعاصى والاستيلاء على النفس ، فإن منشأ المعاصى كلها الشهوات والقوى ، ومادتهما من الأطعمة والأغذية فتقليلهما يقمع كل شهوة وقوة .

السادسة : دفع النوم ودوام السهر ، فان شبع شرب كثيراً ، ومن كثر شربه كثر نومه ولذلك قال بعض المشايخ : معاشر المريدين لا تأكلوا كثيراً وترقدوا كثيراً ، فتخسروا كثيراً ، وفى كثرة النوم تضييع العمر وفوات التهجد ، وبلادة الطبع وقساوة القلب الذى هو أنفس الجواهر ورأس مال العبد .

السابعة : تيسر المواظبة على العبادة ، الأكل يمنع من كثرة العبادة ، لأنه لا يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل ، وربما يحتاج إلى علاجه ، ثم يكثر تردده إلى

الخلاء ، والأوقات المصروفة إلى هذه لو صرفها إلى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لعظم ربحه وكثر خيره ، ومما يتعذر مع كثرة الأكل دوام الوضوء وملازمة المسجد ، فانه يحتاج إلى الخروج لمراقة الماء وغيره ، ويتعذر أيضاً مع كثرة الأكل عبادة الصوم ، فانه يتيسر لمن تعود الجوع دون غيره .

الثامنة : صحة البدن ودفع الأمراض فان سبب الأمراض كثرة الأكل وحصول فضلة الاخلاط فى المعدة ، ثم إن المرض يمنع من العبادات ، ويشوش القلب ويمنع من الذكر والفكر ، وينغص العيش ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء(١) » ، و « أصل كل داء البردة(٢) » .

وفى رواية : البطنة « أصل الداء والحمية أصل الدواء » ، وسمع بعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قوله صلى الله عليه وسلم « ثلث طعام ، وثلث شراب ، وثلث نفس(٣) » فتعجب منه وقال : ما سمعت كلاما فى قلة الأكل أحسن منه ، وإنه لكلام حكيم .

وقال ابن سالم : من أكل خبز الحنطة بحتاً بأدب لم يعتل إلا علة الموت ، قيل وما الأدب قال : يأكل بعد الجوع ، ويرفع قبل الشبع .

وفى الخبر المشهور « صوموا تصحوا(٤) » .

التاسعة : خفة المؤنة ، فان من تعود قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير ، والذى تعود الشبع صار بطنه غريما ملازما ، يأخذ بخناقه كل يوم ، فيقول ماذا تأكل اليوم ، فيحتاج إلى أن يدخل المداخل الرديئة ، فيكتسب الحرام فيعصى ، أو الحلال فيذل ، وربما يمد عينيه إلى الطمع فى الخلق ، وهو غاية الذل والمهانة ، والمؤمن خفيف المؤنة لا يذل نفسه فى شهوة بطنه .

العاشرة : التمكن من الإيثار والتصدق ، فيعود بالفضلة على المساكين ، ويكون

---

(١) ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه » رواه الترمذى من حديث المقدام . (٢) رواه الدارقطنى فى العلل ، وابن السنى وأبو نعيم .
(٣) رواه الترمذى من حديث المقدام ، وهو بقية الحديث المتقدم .
(٤) رواه ابن السنى وأبو نعيم فى الحلية والطبرانى عن أبى هريرة .

يوم القيامة ، فى ظل صدقته ، كما ورد(1) ، فما يأكله لخزانته الكنيف ، وما يتصدق به لخزانته فضل الله ، فليس للعبد من ماله إلا ما تصدق فأمضى أو أكل فأفنى ولبس فأبلى ، فالتصدق بفضلة الطعام أولى من التخمة والشبع .

قال الحسن : لقد أدركنا أقواما كان الرجل منهم يمشى وعنده من الطعام ما يكفيه ، ولو شاء لأكله كله ، فيقول : والله لا أجعله كله فى بطنى ، حتى أجعل بعضه لله تعالى » فهذه عشر فوائد للجوع ، وتنبعث من كل واحدة قواعد لا تنحصر » .

انتهى كلام الغزالى باختصار .

وقد تقدم تقييد الجوع بغير المفسد للفكرة أو المهلك للبشرية ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر أدبا آخر ، وهو ألا يرفع يده قبل الناس إذا كان يقتدى به ، فقال : « قالوا : ولا يمسك يدا ما داموا فى الأكل ، ليفهم ومتى ما قاموا » .

قلت : من آداب الأكل مع الجماعة ألا يمسك يده قبلهم حتى يعلم أن القوم أخذوا حاجتهم من الطعام ، وهذا إذا كان كبيراً يقتدى به ، أو رب المنزل .

وفى بعض الآثار « إن لم تأكل فأكل ، فإن رفع اليد قبل الجماعة يخجلهم ويمنعهم من الاسترسال فى الأكل ، وقد يكون معهم من هو فى الحاجة ، فيمنعه من الأكل فيتضرر بسببه ، ولهذا قالوا : من الأدب الجهر بالتسمية والإسرار بالحدلة ، لأن الجهر بها يخجل من معه ، فيرفع يده قبل قضاء حاجته من الطعام .

ومن آدابهم أيضا : لا يجلس إذا قام القوم عن الطعام ، بل يقوم معهم لأن جلوسه يدل على نذالته : أى سقاطته وهجنته ، وإن كان محتاجا ، إلا فى محل لا يدركه شىء من ذلك .

قال السلمى رضى الله عنه : وإذا كان مع جماعة فلا يمسك عن الأكل ما داموا يأكلونه لا سيما إذا كان متقدمهم .

---

(1) ولفظ الحديث كما رواه الحاكم من حديث عقبة بن عامر « كل امرىء فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس » ورواه الإمام أحمد أيضا :

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أكل مع جماعة كان آخرهم أكلا اهـ .

ولم يذكر السلمى ما ذكره الناظم بقوله : وليقم متى قاموا ، لكنه ظاهر .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : وينبغى أن يراعى فى كل موقف ما يليق به ، فطعام الفقراء يأخذ منه قدر حاجته سواء قلت أو كثرت .

قلت : والمراد بالفقراء : الإخوان .

ثم قال : وطعام المتفضلة أى الأجنبيون المتفضلون به ، يأخذ منه مقداراً لا يخل بمروءته ولا يقدح عندهم فى ديانته ، لأنه إن قلل : قالوا مراء متصنع ، وإن كثر قالوا : إنهم متوسع ، ومن رايا فى أكله فقد ستر نفسه، كذا قال بعض المشايخ لمن رآه يأكل أكلا عنيفاً فنهاه ، فقال : كل من راءا فى أكله فقد راءا فى دينه ، وطعام العامة من المحبين والمنتسبين يأخذ منه على قدر شاهد الحال .

وقد كان حمدون القصار إذا دعى أصحابه إلى وليمة أشبعهم قبل الإجابة ليتناولوا بالعز .

وكان الشيخ أبو مدين رضى الله عنه : يفعل ذلك ويقدمهم عنده بأطيب الطعام .

ومن آدابهم : السخاء ، والإيثار ، والتوسط فى تناوله ، كما أبان ذلك بقوله :

وأمروا فيه بفتح الباب وأكلو بالقصد والآداب
وفتحوا الباب لكل سار وأكلوا بالرفق والإيثار

قلت ذكر من آداب القوم فى الأكل خمسة أمور :

أحدها : فتح باب المنزل الذى يأكلون فيه ، ليدخل عليهم كل من يحتاج إلى الأكل ، وفيه دلالة على كرمهم وغنى قلوبهم ، لأنهم لا يدفعون من يأتيهم ، بل يقابلونه ويفرحون به ، وربما رأوا له المنة عليهم فى أكله معهم ، بل يعتقدون أنه هدية من الله إليهم ، لا سيما لمن كان من إخوانهم أو من ذوى الحاجة لقوله عليه الصلاة والسلام « السائل على باب أحدكم هدية من الله تعالى(١) » أو كما قال .

---

(١) وقال صلى الله عليه وسلم : « ردوا السائل ولو بظلف محرق » رواه البخارى فى التاريخ والإمام أحمد والنسائى عن حواء بنت السكن ، وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام : « ردوا مذمة السائل ولو ولو بمثل رأس الذباب » رواه العقيلى عن أم المؤمنين عائشة .

وكان الشيخ النورى رحمه الله يقول : رأيت لبعض العلماء أنه قال : يجب على الإنسان إذا وقف السائل وهو يأكل أن يناوله .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : فقلت له : يجب ؟ قال : نعم ، مثل الصلاة ، قال : فاستغربته ، وسألت عنه جماعة بالمشرق والمغرب ، فلم أجده عند أحد ، واستدل له بأن عائشة رضى الله عنها أعطته حبة عنب ، وذكرت حديث « ردوا السائل ولو بشق تمرة » .

قال : وفى الاستدلال على الوجوب نظر .

قلت : إنما يظهر الوجوب إذا كان مضطراً أو جاهلا .

ثانيها : الأكل بالقصد من غير إفراط ولا تفريط ، فلا يزيد على الشبع المعتاد ، بل يقصر عنه ، ولا يقلل جداً حتى يختل بدنه ، وخير الأمور أوسطها ، وكذلك لا يكبر اللقمة جداً ، ولا يصغرها جداً ، والوسط مطلوب فى كل شىء .

وقال تعالى : ـ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك[١] ـ الآية ، وقال ـ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما[٢] ـ .

وقال عليه الصلاة والسلام ما عال من اقتصد[٣] ، إلى غير ذلك من الأخبار .

ثالثها الأكل بالآداب ، وهى كثيرة ، فمنها ما تطلب فى أوله ، وهى التسمية جهراً .

ونية التقوى على الطاعة .

والاعتبار فى تيسيره بعد أن عمل فيه عوالم كثيرة ، وغسل اليد إن كان مستقذراً[٤] ، وإلا فلا ، والأكل على السفرة دون الخوان المرتفع[٥] .

والجلوس على إحدى رجليه ، وهى اليسرى ورفع الأخرى وإلصاقها ببطنه .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٢٩ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية : ٦٧ .

(٣) رواه الدارقطنى والطبرانى عن ابن عباس بلفظ : « ما عال مقتصد » .

(٤) غسل اليدين سنة سواء كان فيهما قذارة أو لا ، واتباع السنة أولى .

(٥) لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأكل على خوان قط .

والتشمير عند الأكل، قاله السلمى .

ومنها ما تطلب بعد الشروع فيه : وهى الأكل بثلاثة أصابع ، حيث يتأتى ذلك .

قال السلمى : وليس من الظرافة أن يغمس يده فى الطعام بحيث يتلطخ به اهـ .

والأكل مما يليه . وتصغير اللقمة ، وتجويد المضغ ، وترك النظر إلى لقمة صاحبه . وترك لعق الأصابع قبل تمامه ، ثم رده فى القصعة ، وترك الانحناء على الطعام لئلا يسقط من فيه شىء فيقذره على غيره ، وترك نفض اليد مما يفضل من لقمته فى القصعة ، فان ذلك يقذر على الآكلين ، وهذا كثيراً ما يفعله من لا معرفة له بالأدب ، فيتحرز الفقير منه جهده فان التصوف كله آداب كما يأتى إن شاء الله ، وترك مسح يده فى جوانب القصعة ، وترك الأكل وسط القصعة .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « كلوا من حواليها ولا تأكلوا من وسطها فان البركة فى وسطها »(١) .

والأكل باليد إلا ما كان مائعا أو خفيفاً .

وكره بعضهم الأكل بهذه الملاعق إلا لضرورة .

ومنها ما تطلب بعد التمام ، وهو : الحمد سراً ، ولعق الأصابع . لقوله عليه الصلاة والسلام « إن أحدكم لا يدرى فى أى طعامه البركة »(٢) ثم مسحها ثم غسلها .

وقد رمز بعضهم لهذا الترتيب بلفظ : « لمغ » فاللام للعق ، والميم للمسح ، والغين للغسل .

ومنها لقط ما سقط من الطعام ، يقال : إنه مهر الحور .

وبقى من الآداب التى تطلب عند الأكل : الأكل باليمين بدلا من اليسار ، إلا أن يكون

---

(١) رواه الإمام أحمد والبيهقى عن ابن عباس بلفظ « كلوا فى القصعة من جوانبها ولا تأكلوا من وسطها فان البركة تنزل فى وسطها » وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام : « كلوا من حواليها ، وذروا ذروتها يبارك فيها » رواه أبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن بسر .

(٢) رواه الإمام مسلم من حديث جابر بلفظ « فاذا فرغ فليلعق أصابعه فانه لا يدرى فى أى طعامه تكون البركة » والبيهقى فى الشعب : « لا يمسح أحدكم يده بالمنديل حتى يلعق يده ، فان الرجل لا يدرى فى أى طعامه يبارك له فيه » .

فى هذه طعام وفى هذه ادام ، كما وقع لسيدنا على كرم الله وجهه ، إذ كان فى إحدى يديه خبز وفى أخرى شواء ، وعدم القران فى التمر مثلا ، إلا أن يكون مع قوم أطعمهم وعدم جولان يده إلا أن يكون مع أهله وولده ، وحيث يباح له الجولان .

وآداب الأكل كثيرة ، ذكر منها فى المدخل نبذة صالحة .

ورابعها : الأكل بالرفق ، وهو التأنى فى الأكل بحيث يصغر اللقمة ، ولا يرفع أخرى حتى يبتلع ما فى فيه ، ويجيد المضغ ويلوك طعامه إلى أن ينعمه مضغاً ، ولا يظهر الشره والحرص ، بل يظهر القناعة والغنى عنه .

وخامسها : الأكل بالإيثار ، وهو أن يؤثر غيره على نفسه إن كان الطعام قليلا ، أو كان فيه ما يشتهى فيقدمة لغيره ، كلحم جيد أو غيره ، والإيثار : بذل ما تمس الحاجة إليه دون ضرر لاحق فى الحال والمآل ، وقد مدح الله أهل الإيثار بقوله تعالى ـ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة(١) ـ .

وقال بعضهم : الزهد عندنا : إذا وجدنا آثرنا ، وإذا فقدنا شكرنا .

وقوله « وفتحوا الباب » إلخ لما كان الأمر لا يلزم الفعل ذكر أولا الأمر ، ثم صرح بالفعل ، أو يحمل الأول على الباب الخارجة ، والثانى على الباب الداخلة إن كان للمنزل بابان ، والله تعالى أعلم تتمة .

قال أبو عبد الرحمن السلمى رضى الله عنه : قال بعض مشايخ الصوفية : واجب على المضيف ثلاثة أشياء ، وعلى الضيف ثلاثة أشياء .

فأما على المضيف بأن يطعمه من الحلال ، ويحفظ عليه مواقيت الصلاة ، ولا يحبس عنه ما قدر عليه من الطعام .

وعلى الضيف أن يجلس حيث يجلسه ، وأن يرضى بما قدم إليه ، وألا يخرج إلا بعد استئذان .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من السنة أن يشيع الضيف إلى باب الدار(٢) » .

---

(١) الآية : ٩ من سورة الحشر .

(٢) ذكره الغزالى فى الإحياء ، ولم يخرجه العراقى .

قلت : وإن زاد فهو خير .

ويذكر أن سيدنا إبراهيم الخليل كان يشيع الضيف مسيرة ميل أو أكثر، والله تعالى أعلم .

ثم أشار إلى الحكم الخامس من الأحكام للتسعة ، فقال : والخامس ما يلزمهم من الآداب عند الاجتماع ،

وحاصل هذا الحكم الحض على الآداب ومواطنه وكيفيته ، فقال موطئاً الكلام عليه :

والطريق ظاهر وباطن تعرف منه صحة البواطن

قلت : المراد بالطريق هو طريق السلوك إلى ملك الملوك ، وهي طريق الصوفية ، ولها ظاهر وباطن ، فظاهرها ما يتعلق بإصلاح الجوارح الظاهرة ، وباطنها ما يتعلق بإصلاح العوالم الباطنية .

وأخبر أن استقامة الظواهر دليل تعرف منه استقامة البواطن ، وعبر عن الاستقامة بالصحة ، فصحة الظاهر عنوان صحة الباطن .

قال ابن عطاء الله في الحكم : حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال ، وحسن الأحوال من التحقق بمقامات الإنزال .

وقال أيضاً : ما استودع في غيب السرائر ظهر في شهادة الظواهر ، إلا أن ما تعلق بإصلاح الظواهر يسمى شريعة وما تعلق بإصلاح البواطن يسمى طريقة ، ثم حقيقة .

ثم بين ما يختص بالظاهر وما يختص بالباطن فقال :

ظاهره الآداب والأخلاق مع كل خلق ماله خلاق
باطنه منازل الأحوال مع المقامات لذى الجلال

قلت : لما أخبر أن للطريق لها ظاهر ، وهو ما يظهر على الجوارح من الآداب الرضية والأخلاق السنية والأعمال الزكية ولها باطن ، وهو : ما يكمن في القلوب من الواردات الإلهية والأحوال الربانية والمقامات اليقينية والعلوم اللدنية والأسرار القدسية ، عين هنا ما يختص به الظاهر وما يختص به الباطن ، فأخبر أن ظاهر الطريق : الآداب ، وحقيقته عند الصوفية حفظ الحواس ، وضبط الأنفاس ، أي الأوقات ، والحق أنه تهذيب الجوارح وتصريفها في أنواع المصالح .

قال السلمى رضى الله عنه : وعلى كل جارحة آداب تختص به ، قال الله تعالى ـ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا(١) .

وقال بعض المشايخ : حسن ـــ مع الله تعـــالى : لا تتحرك جارحة من جوارحك فى غير رضى الله عز وجل، فأدب اللسان أن يكون رطباً بذكر الله تعالى ، وبذكر الإخوان بخير ، والدعاء لهم ، وبذل النصيحة ، والوعظ ، ولا يكلمهم بما يكرهون، ولا يغتب ولا ينم (يعنى يمشى بالنميمة) ولا يشتم ولا يخض فيما لا يعنيه ، وإذا كان فى جماعة تكلم معهم ما داموا يتكلمون فيما يعنيهم ، فإذا أخذوا فيما لا يعنيهم تركهم وأمسك ، ويتكلم فى كل مكان بما يوافق الحال ، فقد قيل : لكل مقام مقال ، وقيل : خلق الله اللسان ترجماناً القلب ، ومفتاحا للخير والشر ، وقيل : إذا طلبت صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك، والزم الصمت ، فانه ستر للجاهل وزين للعاقل، قال صلى الله عليه وسلم « وهل يكب الناس على وجوههم أو مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم(٢) .

وآداب السمع : ألا تسمع الفحش والخنا والغيبة والنميمة والمناكر ، وانشدوا :

أحب الفتى ينفى المناكر سمعه كأن به عن كل فاحشة وقرأ

بل يسمع الذكر والوعظ والحكمة وما يعود إليه بالفائدة ديناً ودنيا، ويحسن الإصغاء إلى مكلميه ومخاطبيه ، ملتذا بذلك .

وآداب البصر : الغض عن المحارم ، وعن عيوب الإخوان، وعن المنكرات والمحرمات، فان الله تعالى ـــ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ـــ .

وقيل : من طاوع طرفه تابع حتفــــه (أى موته) وفى رواية (من أرسل طرفه مات حتفه) وأنشدوا .

وإنك مهما ترسل الطرف رائداً لقلبك يوما أتعبتك المناظر
ترى ما الذى لا كله أنت قادر عليه، ولا عن بعضه أنت صابر

ثم قال السلمى : وقيل من غض طرفه تم ظرفه ، وقيل : من كثرت لحظاته دامت حسراته ، ويكون نظره بالاعتبار والاستدلال على قدرة الله تعالى وعظمته وجميل صنعه، عاوياً عن حظوظ النفس الأمارة بالسوء .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٣٦ .

(٢) رواه الترمذى وصححه ، وابن ماجه ، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين.

حكي عن بعضهم أنه قال : نظرت إلى شخص نظرة شر ، فرأيت فى المنام قائلا يقول لى : الدنيا دارى ، والخلائق فيها عبيدى وإمائى ، فمن نظر إلى واحد منهم بغير حق فقد عادانى ، فانتبهت وآليت ألا أنظر إلى شخص بعد ذلك إلا دلى حد الأمانة .

وحكي عن أبى يعقوب النهر جورى أنه قال : رأيت فى الطواف إنسانا بفرد عين[1] ، وهو يقول : أعوذ بك منك ، فقلت : ما هذا الدعاء، فقال : اعلم أنى مجاور منذ خمسين سنة فرأيت يوماً شخصاً استحسنته فاذا لطمة وقعت على عينى ، فسالت على خدى ، فقلت : آه فقيل لى : لحظة بلطمة ، ولو زدت لزدناك .

وقال صلى الله عليه وسلم لعلى رضى الله عنه « إياك أن تتبع النظر فان الأولى لك والثانية عليك[2] » .

وآداب القلب مراعاة الأحوال السنية المحمودة ، ونفى الخواطر الردية المذمومة ، والتفكر فى آلاء الله ونعمائه وعجائب خلقه ، قال الله تعالى ـ ويتفكرون فى خلق السموات والأرض[3] ـ الآية .

وقال صلى الله عليه وسلم : « تفكر ساعة خير من عبادة سنة[4] » .

قلت : وفى رواية « خير من عبادة سبعين سنة » .

فيحمل الأول على تفكر أهل الدليل ، والثانى على تفكر أهل الشهود .

ومن آداب القلب : حسن الظن بالله وبجميع المسلمين، وتطهيره من الغل والحسد والخيانة وسوء الظن وسوء المعتقد ، فانها من خياناته، قال الله تعالى ـ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا[5] ـ .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم « إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح بصلاحها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد سائر الجسد ، ألا وهى القلب[6] » .

---

(١) يعنى بعين واحدة .

(٢) رواه الترمذى ، وقال : حديث غريب ، ورواه أبو داود

(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٩١ .

(٤) رواه ابن حبان فى كتاب العظمة .

(٥) سورة الإسراء ، الآية : ٣٦ .

(٦) متفق عليه .

وقال سرى السقطى : القلوب ثلاثة ، قلب كالجبل لا يحركه شىء ، وقلب كالنخلة أصلها ثابت والريح يميل بها يمينا وشمالا ، وقلب كالريشة يذهب مع كل ريح ولا يثبت .

وآداب اليدين : البسط بالبر والإحسان ، وخدمة الإخوان وألا يستعين بهما على معصية الله تعالى .

وآداب الرجلين : السعى بهما فى صلاح نفسه وإخوانه ، وألا يمشى بهما مرحا ، ولا يختال ولا يتبختر ، ولا يزهو ، فإنهـا مما يبغضه الله تعالى ، وألا تستعين بهما على المعاصى . انتهى .

وأما الأخلاق ، فالمراد بهـا : حسن الخلق مع كل مخلوق ، ومرجعها إلى : الحلم ، والعفو ، والصبر ،

أو تقول : مرجعها إلى أن تعامل الخلق بما تحب أن تعامل به .

أو تقول: مرجعها إلى كف الأذى ، وبذل الندا ، والإنصاف فيما ظهر وما بدا ، وحمل الجفا ، وشهود الصفا ، ورمى الدنيا بالقفا .

وقال الغزالى : هى ملك النفس عند الشهوة والغضب ، ويرجع إلى ما تقدم .

وقوله « مع كل خلق ماله خلاق » معناه : أن تحسن أخلاقك مع من لا خلاق له ، أى لا نصيب له عند الله ، أمرك أن تحسن أخلاقك مع من لا قدر له ، لأنه هو الذى يحتاج إلى تحسين الأخلاق ، وأيضاً التأدب وحسن الخلق مع من لا خلاق له يتضمن التأدب مع غيره بالأحروية ، ومرجع ذلك لقوله تعالى ـ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين[1]

قال عليه الصلاة والسلام : « أمرنى ربى أن أعطى من حرمنى ، وأعفو عن ظلمنى ، وأصل من قطعنى » .

وقال تعالى ـ ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم[2]ـ ومعناه أن تحسن إلى من أساء إليك .

---

(١) الآية : ١٩٩ من سورة الأعراف .

(٢) الآية : ٣٤ من سورة فصلت .

وقوله « باطنه منازل الأحوال . . . مع المقامات » يعنى : أن باطن الطريق هو محل نزل الأحوال والمقامات ، وهى القلوب والأسرار ، لأنها باطنية لا يعلمها إلا الله والفرق بين الحال والمقام أن الحال يتحول فيذهب ويجىء ، بخلاف المقام ، فإنه رسوخ وتمكين .

قال فى العوارف : كثر الاشتباه بين الحال والمقام ، واختلفت إشارات المشايخ فى ذلك ووجود الاشتباه لمكان تشابههما فى نفسهما ، وتداخلهما فتراءا لبعض الشىء حالا وتراءا لبعض مقاما ، وكلا الروايتين صحيح لوجود تداخلهما ، ولا بد من ذكر ضابط يفرق بينهما على أن اللفظ والعبارة عنهما تشعر بالفرق .

فالحال سمى حالا لتحوله ، والمقام مقاما لثبوته واستقراره ، وقد يكون الشىء بعينه حالا ، ثم يصير مقاما ، مثل أن ينبعث من باطن العبد داعية المحاسبة ، ثم تزول الداعية بغلبة صفات النفس ، ثم تعود ، ثم تزول ، فلا يزال العبد حال المحاسبة تعاهده الحال ، ثم يحول الحال ظهور صفات النفس إلى أن تتداركه المعونة من الله الكريم ، ويغلب حال المحاسبة فتنقهر النفس وتنضبط ، وتتملكها المحاسبة ، فتصير المحاسبة وطنه ومستقره ومقامه ، ثم ينازله حال المراقبة ، فمن كانت المحاسبة مقامه تصير له المراقبة حالا ، ثم يحول عنه حال المراقبة لتناوب السهو والغفلة فى باطن العبد ، إلى أن ينقشع ضباب السهو والغفلة ، ويتدارك الله عبده المعونة ، فتصير المراقبة مقاما بعد أن كانت حالا ، ولا يستقر مقام المحاسبة قراره إلا بنازل حال المراقبة ، ولا يستقر مقام المراقبة إلا بنازل حال المشاهدة ، فإذا منح العبد نازل حال المشاهدة استقرت مراقبته وصارت مقامه ، ونازل المشاهدة أيضاً يكون حالا ويحول بالاستتار ، ويظهر بالتجلى ، ثم يصير مقاماً ، وتتخلص شمسه من كسوف الاستتار ، ثم فى مقام المشاهدة أحوال وزيادات وترقيات من حال إلى حال أعلى منه ، كالتحقق بالفنا والتخلص إلى البقاء ، والترقى من عين اليقين إلى حق اليقين ، وحق اليقين نازل يخرق شغاف القلب ، وذلك أعلى فروع المشاهدة ، انتهى .

وكذلك التوبة والورع والزهد والتوكل والرضى والتسليم ، تكون أحوالا ، ثم تصير مقامات ، فما دامت مجاهدة فهى أحوال ، فإذا كانت ذوقا فهى مقامات .

وقد قالوا : الأحوال مواهب ، لأنها موهبة من الله جزاء على الأعمال ، والمقامات مكاسب ، لأن التمكين منها مكتسب بدوام الأعمال .

وفى التحقيق : كلها مواهب .

وقول سيدنا على كرم الله وجهه : « سلونى عن طرق السماوات ، فإنى أعرف بها من طرق الأرض ، أشار إلى المقامات والأحوال فان السالك بصير قلبه سماويا ، فهى طرق السموات ، ومستنزل البركات . قاله السهروردى أيضاً .

وقوله « الذى الجلال » يتعلق بمحذوف ، أى يستقر بها عند ذى الجلال ، وهو الحق تعالى - ذو الجلال والإكرام - والله تعالى أعلم .

ولما كان بين الظاهر والباطن تلازم : ما كمن فى هذا ظهر فى هذا ، أشار إلى ذلك بقوله :

والأدب الظاهر للعيان   دلالة الباطن فى الإنسان

قلت : هذا داخل فيما تقدم من أن صحة الظواهر تدل على صحة البواطن ، فما استودع فى غيب السرائر ظهر فى شهادة الظواهر .

وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم « من سر سريرة ألبسه الله رداءها

فأحوال الظاهر تابعة لأحوال الباطن ، فالأسرة(1) تدل على السريرة ، وما فيك ظهر على فيك ، وكل إناء بالذى فيه يرشح ، وما خامر القلوب فعلى الوجوه أثره يلوح ، فتهذيب الجوارح يدل على تهذيب القلوب ، وآداب الظاهر يدل على آداب الباطن .

حكى أن الجنيد دخل على أبى حفص النيسابورى ، فرأى أصحابه واقفين عند رأسه كأصحاب الملك ، فقال الجنيد : أدبت أصحابك يا أبا حفص أدب الملوك ؟ فقال : لا يا أبا القاسم ولكن : أدب الظاهر عنوان أدب الباطن .

وهو الذى ذكر الناظم هنا ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر فضيلته فقال :

وهو أيضاً للفقير سند   وللغنى زينة وسؤدد

وقيل : من يحرم سلطان الأدب فهو بعيد ، ما تدانا واقترب .

وقيل : من تحبسه الأنساب فانما تطلقه الآداب .

قلت : المراد بالفقير هنا : من لا مال له ، بدليل مقابلته بالغنى وإنما كان الأدب سند الفقير

---

(1) الأسرة : أسرة الوجه : ظاهره وشكله : يدل على ما فى القلب من ثبات أو تقلب إذا أنها تتغير بحسب ما فيه . والله أعلم .

أي معتمداً عليه ، ويرتفع إلى مقام الأكابر ديناً أو دنيا ، لأن القلوب مجبولة على حب أهل الإحسان والتواضع والحلم ، فإن أراد اللحوق بأكابر الدين كان أدبه معهم سبباً في التحاقه بهم ، وإن أراد اللحوق بأكابر الدنيا ، كان أدبه أيضاً سبباً في لحوقه بهم، لأن القلوب مجبولة على حب أهل الإحسان كما تقدم .

وإنما كان للغنى زينة وسؤدداً ، أي شرفاً ، لأن الغنى محبوب بالطبع ، فإذا كان أديباً متأدباً زاد عندهم شرفه .

ومن آداب الغنى : التواضع والكرم ، فإذا خلا من هذين فليس بأديب ، وإذا خلا الغنى من الآداب التحق بالأراذل ، وانخرط في سلك الأنذال، ولذلك قيل : خير ما أعطى الإنسان : عقل يزجره ، فان لم يكن لحياء يمنعه ، فان لم يكن فمال يستره ، فان لم يكن فصاعقة تحرقه يستريح منه البلاد والعباد .

والآداب أيضاً من موجبات القرب والوصال ؛ ولذلك قيل : « من يحرم سلطان الأدب» أي يمنع منه ولم يوجد فيه شيء منه « فهو بعيد ما تدانا » في زعمه « واقترب » في وهمه ، فما مصدرية ، وتدانا واقترب من عطف التفسير والمرادف، أي فهو بعيد مدة كونه متدانياً قريباً في ظنه .

وأشار بهذا لقول أبي حفص رضي الله عنه : التصوف كله أدب ، لكل وقت أدب ، ولكل حال أدب ، ولكل مقام أدب، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ، مردود من حيث يظن القبول .

وقال ابن عطاء الله : من جهل المريد أن يسيء الأدب ، فتؤخر العقوبة عنه ، فيقول : لو كان هذا سوء أدب لقطع الأمداد وأوجب البعاد ، فقد يقطع المدد عنه من حيث لا يدري ، ولو لم يكن إلا منع المزيد ، وقد يقام مقام البعد من حيث لايدري ، ولو لم يكن إلا أن يخليه وما يريد .

وإنما سمى الناظم الأدب سلطاناً لأنه حاكم على الشخص في نفسه، فلا يتركه يميل إلى جهة النقائص والرذائل .

ومن فضيلة الأدب أنها تلحق من لا نسب له بذوي الأنساب ، وتصير الوضيع شريفاً

والدنى رفيعاً ، ولذلك قيل : « من تحبسه الأنساب الدنيــة تطلقه الآداب المرضية » أى من يحبسه عن الارتفاع مع الكبراء نسبه الوضيع ، يطلقه إلى طلب العلو أدبه الرفيع .

قيل لبعض الملوك فى بعض الكتب انه ليس بحسيب ، أى من قوم لهم حسب ، فسأله الملك ، فقال للملك : أنا حسيب لأولادى ، أى يصير أولادى من ذوى الأحساب بسببى . وهكذا كما قال بعضهم : « نحن بنات المجــد لغيرنا » أى نحن نؤسس المجد ونبنيه لغيرنا ، «ولا نستظل ببناء مجد غيرنا » ، وفى ذلك قيل :

كن حليما ودع فلان ابن من كا　　ن حليما واجمع إلى الحلم علما

لا تكن سكراً فيأكلك النا　　س ولا حنظلا تذاق وترمى

ثم تمم فضيلته وشرفه فقال :

فالقوم بالآداب حقا سادوا　　منه استفاد القوم ما استفادوا

(قلت) السؤدد هو الشرف أى ما ساد القوم وشرفوا إلا بالآداب مع الله ومع رسوله صلى الله عليه وسلم ومع أشياخهم ومع سائر المسلمين ، فالأدب مع الله بامتثال أمره واجتناب نهيه ، والاستسلام لقهره .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه فى شرح الحكم : هو حفظ الحدود ، والوفاء بالعهود والتعلق بالملك الودود ، والرضى بالموجود ، وبذل الطاقة والمجهود .

والأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم باتباع سنته وإيثار محبته ، والاهتداء بهديه والتخلق بأخلاقه .

والأدب مع الأشياخ بحفظ الحرمة ، وحسن الخدمة ، وصدق المحبة . .

والأدب مع المسلمين ، بأن تحب لهم ما تحب لنفسك ، أو أكثر .

وتقدمت آداب الجوارح ، فلا بد منها ، وكذلك آداب الأوقات ، وهى تعميرها بالطاعات ، فأوقات العبد أربعة كما قال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه : وقت الطاعة ، ووقت المعصية ، ووقت النعمة ، ووقت البلية ، فوقت الطاعة مقتضى الحق منك شهود المنة ووقت المعصية مقتضى الحق منك تحقيق التوبة ، ووقت النعمة مقتضى الحق منك الشكر ، ووقت البلية مقتضى الحق منك الصبر ، فاذا قام العبد بهذه الآداب كلها حصل له الشرف التام والمنزلة الكبرى عند الخاص والعام .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : وكل نسبة لا أدب فيها فصاحبها كذاب ، لأن عنوان الصدق وجود المراقبة ، وإن كانت الغفلة مع حفظ الأصل غير قادحة ، فقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : كل سوء أدب يثمر أدبا فليس باساءة أدب ؛ يعنى من حيث الواقع ، لا من حيث القصد ، فتأمل ذلك ، وبالله التوفيق .

وقوله « منه استفاد القوم ما استفادوا » يعنى من العلوم والمعارف والأنوار والأسرار والكرامات الحسية والمعنوية ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر بعض تفاصيل الأدب، فقال :

إذ نصحوا الأحداث والأصاغر وحفظوا السادات والأكابر

قلت : ذكر هنا أربعة أصناف من الناس ، من يتأدب معهم إذا اجتمعوا معه ، أولهم، الأحداث : جمع حدث :

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : هو من لا ثبات له ، وهم ثلاث : الحدث سنا ، وهو الصغير الذى لم يميز حقائق الأمور ، فله ولوع بكل ما يراه أو سمعه من مستحسن، فلا تؤمن غائلته فى الانقلاب ، ثم للنفوس ولوع به ، من حيث الجمال الصورى ، أو من حيث التعلق الروحانى ، وقد يكون ذلك لا يشعر به الشخص ، وقد يكون من حيث شعوره ، واصحبتهم آفات حاضرة من حيث شغل البال وحفظه ، ثم حيث اشتغال النفس بالميل له ، ثم من حيث كون الضرر فى النفس بصحبته ، فلا خير فيها ، ولا بد من نصحه عنـــد إقباله بتعريف الأصول ، وترك الفضول .

قلت : الأصل فى صحبته الجواز ، وإنما يمنع لهذه العوارض التى ذكرها ، فمن تحقق سلامته منها فلا يعترض عليه ، وقد ذكره التجيبى ، واستدل للجواز بخدمة أنس بن مالك رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن كان عليه الصلاة والسلام معصوما ، فالأصل فيما يفعله الاقتداء حتى يرد ما يخصصه به .

القسم الثانى من أقسام الحدث : الحدث عقــــلا ، وهو الذى لا يثبت على حقيقة ، ولا ينتهج على طريقة : يتبع كل ناعق ، ويتنسم كل ناشق ، هذا أعظم ضرراً من الذى قبله لفقدان الحقيقة فيه ، وانتفاء قابليتها منه ، ونصحه بتعريف الوجه الذى يقصده ، وبيان الحق بوجه واضح حتى تقوم الحجة وتظهر المحجة ، وأكثر ما يوجد هذا فى فقراء البادية .

قلت : إن كان على الفطرة سهل علاجه، وقربت هدايته .

القسم الثالث : الحدث دينا ، وهو مع كل قوم بما هم عليه، يميل مع كل ريح ، ويسمى : الإمعة بكسر الهمزة وشدة الميم ، ونصحه بدعواه إلى إفراد الوجهة ، وتذكيره بما فى ذلك من الضرر .

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فى كل واد من قلب ابن آدم شعب فمن تتبع قلبه تلك الشعب لم يبال الله فى أى واد أهلكه » .

الثانى : الأصاغر ، والمراد بهم: صغار السن الذين لم يبلغوا سن الحداثة والتمكن فيها ، ونصحهم بغرس الخير فى قلوبهم ، كما قال ابن أبى زيد فى رسالته : « وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشر إليها » .

وقال السلمى رضى الله عنه : والصحبة مع الأصاغر بالشفقة والإرشاد والتأديب والحمل على ما يوجبه حكم المذهب ، ويدلهم على ما فيه صلاحهم ، لا على ما فيه مرادهم ، وعلى ما يفيدهم لا على ما يحبونه ، ويزجرهم عما لا يعنيهم .

الثالث السادات : والمراد بهم : العباد ، والزهاد ، والصالحون ، والعلماء العاملون ، والمريدون السالكون، الذين لم يبلغوا مرتبة المشيخة، ونصح الأول بدلالته على الإخلاص وإسقاط الحظوظ النفسانية والروحانية ، ونصح الثانى بتصحيح النية وإفراد الوجهة مع ما نصح به الأول ، ونصح الثالث بتحقيق التوبة والاستقامة ، ونصح الرابع بتحقيق الإخلاص وتوفير الصبر والحلم والتواضع، ونصح الخامس بالغيبة عن السوى ، أو باسقاط الهوى ومحبة المولى ، وحفظهم بالتعظيم والتوقير والاحتشام ، وباعطاء الرتبة حقها من كل وجه ، ولا يستحقر أحداً أقامه الله فى مقام من المقامات كيفما كان .

قال فى الحكم : إذا رأيت عبداً أقامه الله بوجود الأوراد ، وأدامه عليه مع طول الأمداد ، فلا تستحقرن ما منحه مولاه ، لأنك لم تر عليه سيما العارفين ولا بهجة المحبين ، فلولا وارد ما كان ورد .

وقال أيضاً: قوم أقامهم الحق لخدمته ، وقوم اختصهم بمحبته ، «كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظوراً » .

الرابع : الأكابر ، والمراد بهم المشايخ ، وحفظهم بثلاثة أمور : اتباع ما رسموه ، فان

لم يفهم معناه ، فقد قالوا : خطأ الشيخ أحسن من صواب المريد ، فإن بان غيه توقف من غير اعتراض حتى يظهر أمره .

الثاني : عدم البحث عما جاءوا به إلا من حيث التفهم ، فإن من قال لأستاذه : لم ، لا يفلح أبداً .

الثالث : موالاة من والاهم ومعاداة من عاداهم ، ما لم يكن له مانع شرعي ، أو يجره إلى منكر .

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه : آداب الفقير المتجرد أربعة : الحرمة للأكابر ، والرحمة للأصاغر ، والإنصاف من نفسه ، وعدم الانتصار لها اهـ .

ثم ذكر آدابهم في الكلام فقال :

واجتنبوا ما يؤلم القلوب ....

قلت : هذا عام مع جميع المسلمين ، فلا يتكلم مع مسلم بما يوجعه في قلبه ، ولو كان نصحاً ، فقد قال تعالى - فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى(١) - .

فالوعظ إنما ينفع إذا كان على وجه الملاطفة والسياسة ، ويتأكد ترك ما يؤلم مع الزوجة والأهل ، وكذلك مع الإخوان ، لأن جبر القلوب في جبر القلوب ، وكسر القلوب في كسر القلوب ، فمن جبر قلب عبد بإدخال السرور عليه أو هداية إليه : جبر الله قلبه ، ومن كسر قلب عبد بإدخال الحزن عليه أو تنفيره عنه : كسر الله قلبه ، ومن أراد جبر قلوب عباد الله فليغض عن مساويهم ، وليسكت عن عيوبهم ، فرحم الله القائل :

إذا شئت أن تحيا ودينك سالم وجاهك موفور وعرضك متين
لسانك لا تذكر به عورة امرىء فعندك عورات ، وللناس ألسن
وإن أبصرت عيناك عيباً فقل لها أيا عين لا تنظرى فللناس أعين
وعاشر بمعروف وجانب من اعتدى وفارق ، ولكن بالتي هي أحسن

---

(١) سورة طه عليه الصلاة والسلام ، الآية : ٤٤ ، هذا مع فرعون ، فكيف بتكفير المسلم في هذا الزمن ! ! ؟

وقال الشيخ زروق : فهذه الأبيات جامعة لجميع ما يؤلم القلوب بطريق الاجتناب ، فمن عمل عليها سلم من هذه الآفات التي أصلها كلها التجسس عن أخبار الناس ، وسوء الظن بهم ، وقد قال عليه السلام : « ثلاثة لا ينجو منها ابن آدم : الحسد ، والطيرة ، والظن ، فإذا حسدت فلا تبغ ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض »(١).

ومن خلقه عليه الصلاة والسلام أنه « كان لا يواجه أحداً بما يكره ، إلا أن تنتهك حرمات الله » .

ثم ذكر آدابهم في العمل فقال :

.... وابتدروا بالواجب والمندوب

قلت : أشار بذلك إلى كمال عبوديتهم ، وأنهم يتبادرون إلى حقوق مولاهم : واجبة كانت أو مندوبة ، امتثالا لقوله تعالى ـ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض(٢) ـ على اختلاف قصدهم .

فمنهم من يقصد الثواب والنجاة من العقاب عاجلا وآجلا ، وهم العوام منهم .

ومنهم من يقصد : تحقيق العبودية والقيام بوظائف الربوبية ، وهم الخواص ، أو خواص الخواص ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر آدابهم مع الأشياخ والإخوان ، فقال :

وخدموا الشيوخ والإخوانا وبذلوا النفوس والأبدانا

قلت : خدمة الشيوخ قربة عظيمة ومنقبة جسيمة ، وهي سبب الفوز بالوصول إلى معرفة الحق تعالى ، ونيل درجات المقربين السابقين .

وفي ذلك يقول سيدي عبد الوارث رضي الله عنه : خدمة الرجال سبب الوصال إلى مولى الموالي .

وقال سيدي عبدالله الهبطي رضي الله عنه :

إن كان الخديم ظنه جميل دل على فلاحه دليل

---

(١) وروى ابن عدي قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا حسدتم فلا تبغوا ، وإذا ظننتم فلا تحققوا ، وإذا تطيرتم فامضوا ، وعلى الله فتوكلوا » .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٣٣ .

أهل نفسه لخدمة الرجال ... لكي ينال من حبيبه الوصال
غيره ذل المحب في طلب القرب ... عن عزيز عند أهل الحب

وقال أبو عبد الرحمن السلمي رضي الله عنه : الصحبة مع الأستاذ باتباع أمره ونهيه ، وهي في الحقيقة خدمة لا صحبة .

قيل لأبي منصور المغربي : كم صحبت أبا عثمان ؟ فقال : خدمته وما صحبته ، يعني أن صحبة الصغير للكبير تسمى خدمة ، لا صحبة(١) .

ثم قال : والقيام بخدمة أستاذه واجب ، والصبر تحت حكمه ، وترك مخالفته ، ظاهراً وباطنا . وقبول قوله والرجوع إليه في جميع ما يعرض له ، والتبرك به واستماع كلامه ، وتعظيم حرمته ، ومجانبة الإنكار عليه في شيء من أموره ، سراً وجهراً ، قال الله تعالى ـ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم(٢) ـ الآية .

سأل بعض أصحاب الجنيد الجنيد عن مسألة فأجابه ، فعارضه في ذلك، فقال الجنيد : فإن لم تؤمنوا فاعتزلوا .

ويكون في صحبته كالصحابة رضي الله عنهم مع النبي صلى الله عليه وسلم ، تأديبهم بآداب القرآن في قوله تعالى ـ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله(٣) ـ وقوله تعالى ـ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض(٤) ـ الآية، وقوله تعالى ـ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً(٥) ـ وما أشبه ذلك .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الشيخ في قومه كالنبي في أمته(٦) » اهـ .

---

(١) ومنه قول أنس بن مالك رضي الله عنه « خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم ... » الخ ولم يقل : صحبت ، وهو أدب رفيع .

(٢) سورة النساء ، الآية :

(٣) و (٤) سورة الحجرات . الآيتان : ١ ، ٢

(٥) سورة النور ، الآية : ٦٣

(٦) رواه الخليلي في مشيخته ، وابن النجار عن أبي رافع بلفظ « الشيخ في أهله كالنبي في أمته » ورواه ابن حبان في الضعفاء ، والشيرازي في الألقاب عن ابن عمر .

قلت : والحديث قال ابن الجوزى ، إنه موضوع[1] ، والله تعالى أعلم .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : خدمة الشيوخ أمر زائد على تعظيمهم اهـ .

وأما خدمة الإخوان ، فهى إعانة على ما يعرض له من أمور دينية أو دنياوية بنفسه أو بماله أو بجاهه أو بما يقدر عليه .

قال السلمى رضى الله عنه : رأيت جدى إسماعيل فى النوم يقول لى : ألست تعلم شيئاً من العلوم ؟ فقلت : ربما أعلم شيئاً ، فقال : أليس سئلت أمس عن الاعتقاد فى خدمة الفقراء ؟ فقلت : نعم ، فقال : كتبت ما كتبت ولست بمحتاج إليه ، إنما هى ثلاث كلمات ، وهى : أن تخدم من فوقك بالحرمة ، وأقرانك بالنصيحة ، ومن دونك بالشفقة ، فانتبهت اهـ .

وقال فى آداب صحبتهم ما نصه : والصحبة مع الأقران بالبشر والانبساط والموافقة وبذل المعروف والإحسان ، والكون معهم على حكم الوقت .

حكى أن العباس ابن عطاء مـد رجليه بين يدى أصحابه ، وقال : ترك الأدب مع أهل الأدب أدب .

وقال الجنيد رضى الله عنه : إذا صحت المودة سقطت شروط الأدب[2] .

روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان عنده أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، فدخل عثمان فغطى ركبتيه ، وقال : « ألا أستحى من تستحى منه الملائكة[3] » ، فحشمه عثمان وإنه عظمت فالحالة التى بينه صلى الله عليه وسلم وبينهما : يعنى أبا بكر وعمر ، أصفى ، ثم قال : ولا يداهنهم فيما يخالف المذهب .

وقد قال رويم : ما زالت الصوفية بخير ما تنافروا ، فإذا اصطلحوا فلا خير فيهم ، ويخضع عند الحق لقائله بالقبول .

روى أن عمر رضى الله عنه أمر بقلع ميزاب كان من دار العباس بن عبد المطلب إلى

---

(١) وكذلك حكم المناوى فى المقاصد الحسنة بوضعه ، وذكر فيه كلاماً طويلا ، فارجع إليه إن شئت .

(٢) وفى المثل السائر : « شدة الألفة ترفع الكلفة » .

(٣) رواه الإمام مسلم ، والإمام أحمد عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها .

الطريق بين الصفا والمروة ، فقال له العباس ، قلدت ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وضعه بيده ؟ فقال : إذن لا يرده إلى مكانه غيرك ، ولا يكون السلم غير عاتق عمر ، فقام على عاتقه ، فرده إلى موضعه ، رضى الله عنهما ، انتهى .

وقوله : « وبذلوا النفوس » إلخ ، والبذل هو الخدمة والمهنة ، يقال : ثوب مبتذل ، أى مهان بالخدمة ، يعنى أنهم بذلوا نفوسهم وأدانوها فى خدمة الشيوخ والإخوان ، فنالوا غاية العرفان ، وحازوا أقصى مقام الإحسان ، نفعنا الله بهم وخرطنا فى سلكهم ، آمين ، ثم ذكر آدابهم فى العلم ، فقال :

وأنصتوا عند المذاكرات	واحترموا الماضى معاً والآت
وسألوا الشيوخ عما جهلوا	ووقفوا من دون ما لم يصلوا
وعملوا بكل ما قد علموا	وآثروا واغتفروا واحتشموا

قلت : أما الإنصات عند المذاكرة فلأنه يدل على كمال العقل والرزانة ، فقد قالوا : من كمل عقله قل كلامه ، ومن قل عقله كثر كلامه ، وأيضا الكلام إنما يفهم بتمامه ، فإذا تم الكلام تكلم بما عنده من غير ملاججة ولا خصام ، ولا ينبغى السكوت بالكلية إذ لا يعرف الشيخ حاله ولا مقامه إلا بكلامه .

وقال شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه : تعلم المذاكرة كتعلم الرماية ، فلا بد أن يرموا الإشارة ، فتارة أمامها وتارة قدامها ، حتى يصادفها ، أو كلام هذا معناه .

وأما احترام الماضى فالمراد من تقدم من الصحابة والتابعين والأولياء والصالحين والعلماء العاملين ، واحترامهم ألا يذكروا إلا بالإحسان ، وأن يلتمس لهم أحسن المذاهب .

ويرحم الله النووى لما سئل عن ابن العربى الحاتمى : فقال : « الكلام كلام صوفى ، تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون » .

ومن احترامهم الاستغفار والترضى عنهم ، قال تعالى ـ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان(١) ـ .

---

(١) سورة الحشر ، الآية : ١٠ .

وأما احترام الآتى ، فمناه ألا يقطع المادة ويحجر القدرة ، فيقول : انقطعت الأولياء ولم يبق أحد ، وانقطعت التربية ولم يبق من يصلح لها ، أو كان الناس وليس هذا زمانهم أو نحو ذلك من سوء الظن بالله وبعباده .

وأما « سؤال الشيوخ عما جهلوا » فلأن طلب العلم واجب على كل مسلم ، وهو معلوم من الدين بالضرورة ، ووقع الإجماع على أنه لا يحل لامرىء أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه ، وإنما يسئلون عما يحتاجون إليه فى الحال من عمل أو حال أو مقام دون ما يتعلق بالمستقبل من المقامات، وهو معنى قوله « ووقفوا من دون ما لم يصلوا » يعنى دون الذى لم يدركوه بالمنازلة والذوق ، فلا يسئلون عنه ، لأنه لا تدركه عقولهم ، وإن أدركته اتصلت به على غير وجه التحقق ، فكان ضرره أكثر من نفعه .

وأما عملهم بكل ما علموا، فلأن العمل نتيجة العلم ، فعلم بلا عمل وسيلة بلا غاية ، وعمل بلا علم جناية .

وفى الحديث « مثل العالم الذى لا يعمل، كالشمعة: تحرق نفسها وتضىء على غيرها(١) » .

ولأن « العلم يهتف بالعمل فإن وجده وإلا ارتحل (٢) » و « من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم(٣) » .

فالعلم إذا أيد بالعمل نهض ، ثم أنتج نوراً تاماً ، ينتج ذلك النور حكمة ، فيكون كل شىء من صاحبه علماً وحكمة .

وقوله : « وآثروا » يعنى أنهم آثروا على أنفسهم فى الكلام ، فيقدمون أكبرهم علما أو سناً ، ويؤثرون أيضاً على أنفسهم فى صدور المجالس والمحافل ، وكل ما فيه تعظيم .

وقوله « اغتفروا » أى سامحوا وعفوا عن جفوة الإخوان الذين لم يتهذبوا ، وصبروا على غلظتهم فى المذاكرة وغيرها .

---

(١) رواه الطبرانى ، والضياء المقدسى بلفظ : « مثل العالم الذى يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضىء للناس ويحرق نفسه » .

(٢) وقال صلى الله عليه وسلم : « كل علم وبال على صاحبه إلا من عمل به » رواه ابن حبان .

(٣) رواه أبو نعيم فى الحلية .

وقوله « واحتشموا » أى تركوا المنازعة والمخاصمة والملاججة بالغضب ، لأن ذلك يؤديها لى الشرور والعداوة والحقد ، فتخرج المذاكرة حينئذ إلى المجادلة والمراء .

وقد قال عليه الصلاة والسلام « من ترك المراء وهو محق بنى له بيت فى أعلى الجنة ، ومن ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت فى أسفل الجنة »(١) .

ثم ذكر آدابهم فى المعاشرة فقال :

واحتكموا بالعدل والإنصاف فوردوا كل معين صاف

قلت : أشار رحمه الله إلى أن الفقراء لايداهن بعضهم بعضا فى الحق ، ولا ينافق بعضهم بعضا ، بل يأتمرون بينهم بالمعروف ويتناهون عن المنكر ، فيحكمون بالعدل على بعضهم بعضاً ، وعلى أنفسهم ، ومن توجه عليه حق من الحقوق أنصف وأذعن وانقاد للحق ، ولا يتعصب ولا يتحامى حمية الجاهلية ، وحقيقة العدل هو : تنفيذ الحق من غير زيادة عليه ولا نقصان منه ، والإنصاف هو الاعتراف به من غير توقف ، ويقال الإنصاف من شيم الأشراف .

وقال أبو العباس بن العريف رحمه الله : لا بد لطالب العلم الحقيق من معرفة الإنصاف ولزومه بالأوصاف اهـ ،

قلت : ولا بد أيضاً للعالم من التحقق بالإنصاف ليرجع للحق أينما ظهر .

وقد قالوا : « إذا أخطأ العالم لا أدرى أصيبت مقاتله » .

وكان الشيخ عبد العزيز المهدى رحمه الله : إذا سئل عن شىء لا يدريه يقول: لا أدرى ، وإذا سئل عن شىء يدريه يقول : أحب أن أسمعه من غيرى .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : ومن عجيب ما سمع فى ذلك أن ابن الحاج حكى فى مدخله : أنه لما طالب شيخه ابن أبى جمرة رضى الله عنه فى أن يقرأ عليه ، قال له : وتترك القضاة والاكابر الذين كنت تقرأ عليهم وتقرأ على ؟ فقال : عزمت ، قال : استخر الله ، قال : استخرت ثم جئت من الغد ، فقال: عزمت ، قلت : نعم ، قال : لايخطر على بالك أنك جلست بين يدى عالم ولا إلى عالم وأنت متعلم ، ولكنا قوم اجتمعنا لطلب أحكام الله ، فإن وجدنا الحق على لسان صبى من صبيان المكتب اتبعناه .

---

(١) وهو حديث طويل رواه الطبرانى وذكره الحافظ ابن حجر الهيثمى فى الزواجر ١٣ ص ١٢٢ .

قلت : فهذا الأمر الذى كان عليه سلف هذه الأمة ، وإلا لما صح مخالفة متأخرهم لمتقدمهم ، والله أعلم .

ثم المنصف هو : الذى لا يبالى كان شيخاً أو تلميذاً أو عالما أو معلما ، ظهر الحق على لسانه أو لسان غيره ، لأنه مقصوده دون ما سواه ، وقليل ما هم اه .

قوله « فوردوا كل معين صافى » الورود ، هو : الشرب، والمعين هو : الماء الجارى ، والصافى : لا تغيير فيه ، يعنى أن الصوفية لما حكموا بالعدل ، واتصفوا بالإنصاف شربوا من العلوم أعذبها وأصفاها، لأن القلوب إذا صفت وتزكت وتطهرت من الدعوى والمكابرة، أشرقت فيها أنوار العلوم ، ولاحت فيها أسرار الفهوم ، فأخذت من العلوم أصفاها ، ومن الأنوار أبهاهـــا ، ومن الأسرار أسناها وأوفاها ، فمن صفى صفى له ، ومن كدر كدر عليه ، فالعلم المكدر هو علم التقليد ، أو علم الدليل ، والعلم الصافى هو علم الأذواق ، أو علم الشهود .

وفى هذا المعنى قال القطب ابن مشيش رضى الله عنه : « وانشلنى من أوحال التوحيد وأغرقنى فى عين بحر الوحدة ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر شروط الأخوة وآدابها فقال .

وبعضهم كان لبعض عوناً يلقى لديه دعة وأمنا
ينصره فى الحق حيث كانا فإن أساء قارضه إحسانا

قلت : أشار رحمه الله إلى أن الصوفية رضى الله عنهم (أعنى الفقراء) كانوا يتعاونون على البر والتقوى ، لأن ذلك لمقصد جمعهم ، فيعين أخاه بنفسه وماله وجاهه وعلمه وعمله وهمته وحاله ومناصحته وموداته ومصادقاته إلى غير ذلك ، وما كان اجتماعهم إلا ليتعاونوا على ذكر الله وسائر أبواب الخير .

قال تعالى ـ وتعاونوا على البر والتقوى[1] ـ وبذلك التعاون يصير كل واحد منهم فى راحة وأمن من حاجته ، وهذا معنى قوله «يلقى لديه دعة وأمنا» أى يلقى عنده راحة فيما يعانيه عند توجه أخيه لذلك الأمر ، أو عندما يعينه عليه، وأمنا من فوات مقاصده بسببه، ولذلك

(١) الآية ٥ : سورة المائدة .

قال عليه الصلاة والسلام ، « مثل الأخوين كمثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى[1] » وكمثل البنيان يشد بعضه بعضاً ، وفى معناه قيل :

إن أخاك الحق من كان معك ... ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صدعك ... بدد فيك شمله ليجمعك

قوله « ينصره فى الحق » إلخ أشار به إلى قوله صلى الله عليه وسلم .

« انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، قالوا : يا رسول الله ، فإذا ننصره مظلوما ، فكيف ننصره ظالما ؟ قال : تأخذ على يديه فترده عن ظلمه[2] » .

وإنما كان رده عن الظلم نصراً ، لأن نفسه ظالمة له ، وهو مغلوب فى يديها ، فإذا رددته عن ظلمه فقد نصرته عليها ، وإذا تركته يظلم فقد خذلته ، وقد تقدم قول رويم[3] لا يزال الصوفية بخير ما تنافروا . فاذا اصطلحوا قل دينهم .

وقوله « فان أسا قارضه إحسانا » القرض هو السلف ، أطلقه هنا على مطلق العطاء ، أى وان أساء فقير إلى أخيه فى قول أو فعل سامحه ، وبذل له إحسانا وعفوا ، وامتثالا لقوله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام ومن يقتدى به - ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . ومايلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم - أى ادفع السيئة بالتى هى أحسن ، وقد تقدم قوله عليه الصلاة والسلام فى تفسير قوله تعالى خذ العفو الآية إن الله أمرنى أن أعفو عمن ظلمنى وأصل من قطعنى وأعطى من حرمنى » .

قلت : وقد رأيت للغزالى كلاما حسنا فى آداب الأخوة وشروطها ذكره فى الإحياء ، فرأيت أن أذكره على وجه الاختصار لما فيه من الفوائد الغزار ، قال رضى الله عنه :

---

(١) الحديث كما فى الإحياء «مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى» رواه السلمى فى « آداب الصحبة » والديلمى فى « مسند الفردوس » . وقال العراقى : إنه من قول سلمان الفارسى رضى الله عنه ، والله أعلم .

(٢) رواه أحمد ، والبخارى ، والترمذى ، والدارمى ، وابن عساكر . ولفظه كما فى « الفتح الكبير فى ضم الزيادة إلى الجامع الصغير كلاهما للسيوطى » : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما قيل كيف أنصره ظالما ؟ قال تحجزه عن الظلم ، فان ذلك نصره » وللحديث روايات أخرى بلفظ « تأخذ على يديه » قال السخاوى فى « المقاصد الحسنه » رواه البخارى .

(٣) فى الأصل « حمدون القصار » راجع ص ١٧٤

• اعلم أن عقد الإخوان رابطة بين الشخصين ، كعقد النكاح بين الزوجين ، وكما يقتضي النكاح حقوقا يجب الوفاء بها، فكذلك عقد الأخوة ، فلأخيك عليك حق في المال وفي النفس وفي اللسان وفي القلب ، وبالعفو وبالدعاء .

ثم قال : وذلك يجمعه ثمانية حقوق :

الحق الأول : في المال بالمواساة ، وذلك على ثلاث مراتب أدناها أن تنزله منزلة عبدك وخادمك ، فتقوم بحاجته بفضلة مالك، فاذا سنحت له حاجة وعندك فضلة أعطيته ابتداء. فان أحوجته إلى سؤال فهو غاية التقصير .

الثانية : أن تنزله منزلة نفسك ، وترضى بمشاركته إياك في مالك ، فتسمح له في مشاطرته .

الثالثة وهي العليا : أن تؤثره على نفسك ، وتقدم حاجته على حاجتك ، وهي رتبة الصديقين ومنتهى درجة المتحابين .

ومنها : الإيثار بالنفس أيضاً كما روى أنه سعى بجماعة من الصوفية إلى بعض الخلفاء، وهو المتوكل ، فأمر بضرب رقابهم ، وفيهم أبو الحسن النوري ، فبادر إلى السياف ليكون أول مقتول،فقيل له في ذلك : فقال: أحببت أن أوثر إخواني بالحياة في هذه اللحظة ، فكان ذلك سبب نجاة جميعهم في حكاية طويلة .

الحق الثاني : الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات ، والقيام بها قبل السؤال ، وتقديمها على الحاجة الخاصة ، وهذه أيضاً لها درجات كالمواساة ، فأدناها : القيام بالحاجة عند السؤال ولكن مع البشاشة والاستبشار ، وإظهار الفرح ، وأوسطها أن تجعل حاجته كحاجتك ، فتكون متفقداً لحاجته ، غير غافل عن أحواله ، كما لا تغفل عن أحوال نفسك ، وتغنيه عن السؤال ، وأعلاها أن تؤثره على نفسك وتقدم حاجته على حاجتك ، وتؤثره على نفسك وأقربائك وأولادك .

كان الحسن يقول : إخواننا أحب إلينا من أهلينا وأولادنا، لأن أهلينا يذكروننا الدنيا وإخواننا يذكروننا بالآخرة .

الحق الثالث : على الإنسان بالسكوت ، فيسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله

ويسكت عن أسراره التي بثها إليه، فلا يبثها إلى غيره، ولا إلى أخص أصدقائه، ولا يكشف شيئا منها، ولو بعد القطيعة، ويسكت عن عاراته ومدافعته في كلامه.

الحق الرابع: على اللسان بالنطق، فيتودد إليه بلسانه ويتفقده في أحواله التي يجب أن يتفقده فيها، كالسؤال عن عارض عرض له، وأظهر شغل القلب بسببه، فينبغي أن يظهر بلسانه كراهتها، والأحوال التي يسر بها ينبغي أن يظهر بلسانه مشاركته في السرور بها، فمعنى الأخوة المساهمة في السراء والضراء، ويدعوه بأحب أسمائه في حضوره ومغيبه، ويثني عليه بما يعرف من محاسن أحواله عند من يريد هو الثناء عنده، وكذا على أولاده وأهله حتى على عقله وخلقه وهيئته وخطه وشعره وتصنيفه، وجميع ما يفرح به من غير كذب، ولا إفراط، ويبلغه ثناء من أثنى عليه، مع إظهار الفرح به، ويذب عنه في غيبته مهما قصد بسوء أو تعرض بعرضه، بكلام صريح أو تعريض، وتعلمه مما علمك الله، وتنصحه.

الحق الخامس: العفو عن الزلات والهفوات، فإن كانت زلته في الدين بارتكاب معصية فليتلطف في نصحه، فإن بقي مصراً فقد اختلف الصحابة في ذلك، فذهب أبو ذر إلى مقاطعته، وقال: إذا انقلب أخوك عما كان عليه فابغضه من حيث أحببته، وذهب أبو الدرداء وجماعة إلى خلاف ذلك، وقال أبو الدرداء: إذا تغير أخوك عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك، فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى، وهذه ألطف وأفقه، وذلك لما في هذه الطريق من الرفق والاستمالة والتعطف المفضي إلى الرجوع والتوبة، وأيضاً للأخوة عقد ينزل منزلة القرابة، فإذا انعقدت وجب الوفاء بها، ومن الوفاء ألا يهمله أيام حاجته وفقره، وفقر الدين أشد من فقر المال.

ثم قال: والفاجر إذا صحب تقيا وهو ينظر إلى خوفه رجع عن قريب، ويستحي من الإصرار، بل الكسلان يصحب الحريص في العمل، فيحرص حياء منه، وإن كانت زلته في حقك، فلا خلاف أن العفو والاحتمال هو المطلوب.

الحق السادس: الدعاء له في حياته ومماته بكل ما يحب لنفسه وأهله.

الحق السابع: الوفاء والإخلاص، ومعنى الوفاء: الثبات على الحب، وإدامته إلى الممات معه، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه.

الحق الثامن: التخفيف، وترك التكليف والتكلف، فلا تكلف أخاك ما يشق عليه، بل

تروح سره عن مهماتك وحاجاتك ، وترفهه عن أن تحمله شيئاً من أعبائك ، ولا تستمد من من مال وجاه ، ولا تكلفه التواضع لك والتفقد والقيام بحقوقك ، بل ما تقصد بصحبته إلا الله تعالى » .

انتهى المراد منه ببعض اختصار

ثم ذكر بعض ما يجتنب فعله فقال :

وليس حط الرأس من آدابه	بل الصواب كان فى اجتنابه
بل هو مبنى على القصاص	لمن أراد حسبه الخلاص
وليس فى قيام الاستغفار	أصل صحيح واصطلاح جار

قلت : أما حط الرأس ، فهو أن الفقير إذا أساء الأدب مع أحد من الفقراء أو غيرهم يأتى إليه ويحط رأسه بين يديه ، ليؤدبه أو يقتص منه ، أو يسمح له ، وهذا أمر لم يرد فى الشريعة ، ولا جرى به عمل فى الطريقة ، فالصواب اجتنابه ، لأن ذلك كان عند من قال مبنيا على القصاص ليتخلص المجنى عليه من الجانى ، فهو من باب التمكين من القصاص ، وهو يتأتى بغير حط الرأس ، فلاحاجة إلى ابتداع هذا الحط ، وقد مكن عليه الصلاة والسلام ع كاشة من القصاص ، ولم يكن فيه شىء زائد على التمكين من القصاص لمن أراد أن يحتسب فى خلاص نفسه فى الدنيا قبل الآخرة .

وأما قيام الاستغفار ، فهو أن الفقير إذا أساء فى حق الفقراء أو غيرهم ، وأراد التوبة والاستغفار قام على رءوس الفقراء معترفاً بذنبه ومظهراً للاستغفار ، ومعتذراً عما صنع ، وهذه الحالة لم يجر بها عمل فقراء المغرب ، ولا مستند لها من السنة ، فتركها أولى ، إلا لضرورة ، وهذا خلاف ما ذكره أبو مدين بقوله :

وحط رأسك واستغفر بلا سبب	وقم على قدم الإنصاف معتذرا

فلعله لم يصحبه عمل بعده ، وأراد به المبالغة فى الاعتذار ، والله تعالى أعلم .

ثم أجمل ما بقى من الآداب بقوله :

(والقصد من هذا الطريق الأدب	فى كل حال منه : هذا المذهب)

قلت : أشار رحمه الله إلى أن الطريق مبنية على الآداب ، فمن لا أدب له لا طريق له ،

ومن أساء الأدب مع الأحباب طرد إلى الباب ، ومن أساء الأدب فى الباب ، طرد إلى سياسة الدواب .

وقال بعضهم : اجعل عملك ملحاً وأدبك دقيقاً، وقد تقدم قول أبى حفص : التصوف كله آداب إلخ .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : أربعة آداب إذا خلا الفقير المتسبب منها فلا تعبأن به وإن كان أعلم البرية : مجانبة الظلمة ، وإيثار أهل الآخرة، ومواساة ذوى الفاقة ، ومواظبة الخمس فى الجماعة .

وأربعة آداب إذا خلا الفقير المتجرد منها . فاجعلوه والتراب سواء : الرحمة للأصاغر والحرمة للأكابر ، والإنصاف من نفسه ، وترك الانتصار لها .

وقال محى الدين بن العربى رضى الله عنه : أربعة من حازها فقد حاز الخير كله : تعظيم حرمات المسلمين ، وخدمة الفقراء ، والإنصاف من نفسه ، وترك الانتصار لها .

وباب الأدب باب كبير قد استوفى جله السلمى والغزالى فى الإحياء ، وبداية الهداية ، ومداره على ما تقدم .

والضمير فى « منه » يعود على الطريق ، أى : والقصد من هذا الطريق الأدب فى كل حال من أحواله ، هذا هو مذهبهم الذى تمسكوا به فوصلوا ، وبالله التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ثم ذكر الحكم السادس فقال :

السادس فى حكم السماع ، قلت : السماع هو استماع الأشعار بالنغم والموسيق ، وتكلم هنا على حكمه وأحكامه وآدابه وفوائده ، وبدأ بالحكم فقال :

وللأنام فى السماع خوض لكن لهذا الحزب فيه روض
قال المراقيون بالتحريم قال الحجازيون بالتسليم

قلت : الخوض فى الأصل هو الدخول فى الماء ، ولما كان الغالب على الماء التغير بالخوض فيه ، صار يطلق على الدخول فى الأمور المشكلة الملتبسة لكثرة الخوض فيها ، والروض معلوم ، يجمع على رياض ، وهو مكان النزهة والفرجة .

يقول رحمه الله : الناس فى السماع خوض كبير فى منعه وجوازه ، لكن لهذا الحزب

(وهى جماعة الصوفية) التى هى حزب الله نزهة وخمرة يجدونها فى قلوبهم وأسرارهم ، ولذلك لما سئل الجنيد عن السماع قال : كل ما يجمع القلب بالله فهو جائز ، أو ما هذا معناه .

ثم ذكر الخلاف ، فاخبر أن العراقيين قالوا بالتحريم ، والمراد بهم الحنفية ومن تبعهم، وأهل الحجاز قالوا بالتسليم أى الإباحة أو الوقف ، والمراد بهم مالك والشافعى ومن تبعهم فقد روى أبو مصعب أن مالكا سئل عن السماع فقال : لم يبلغنى فيه شىء إلا أن أهل العلم ببلدنا لا ينكرونه ، ولا يقعدون عنه ، ولا ينكره إلا غبى جاهل ، أو ناسك عراقى غليظ الطبع .

قلت : لا يشك عاقل أن الأصل فى السماع هو الجواز ، بدليل قضية الجوارى اللاتى كن يغنين ويضربن بالدف يوم العيد ، والرسول عليه الصلاة والسلام حاضر ، وهى فى البخارى وغيره .

وقال أبو عبد الرحمن السلمى رضى الله عنه :

وروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كانت عندى جارية تسمعنى فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى على حالها ، ثم دخل عمر ففرت ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما يضحكك يا رسول الله ، فحدثه فقال : لا أخرج حتى أسمع مما سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرها فأسمعته .

قلت : وذكره التجيبي أيضاً بهذا اللفظ ، ثم قال السلمى :

وسئل ذو النون عن السماع ، فقال : وارد حق يزعج القلوب إلى الحق . فمن أصغى إليه بحق تحقق ، ومن أصغى إليه بنفس تزندق .

قال السرى : تطرب قلوب المحبين إلى السماع وتخاف قلوب التائبين ، وتكتاب قلوب المشتاقين .

وقيل : مثل السماع مثل الغيث إذا وقع على الأرض الجدبة فتصبح مخضرة ، كذلك القلوب الزكية تظهر مكنون فوائدها عند السماع ، وقيل يحرك ما ينطوى عليه القلب منه السرور والحزن ، والرجا والشوق ، فربما يخرجه إلى البكاء ، وربما يخرجه إلى الطرب .

وقيل : السماع فيه حظ لكل عضو ، فربما يبكى وربما يصرخ ، وربما يصعق وربه يرقص ، وربما يغمى عليه .

وقيل : أهل السماع ثلاثة : تائب ، وصادق ، ومستقيم .

وقيل : المستمعون ثلاثة : مستمع بربه ، ومستمع بقلبه ، ومستمع بنفسه .

وقيل : يحتاج المستمع إلى ثلاثة : دقة ، ورقة ، وحرقة مع فناء الطبع ودخول المقاتل ، ولا يصح السماع إلا لمن فنيت حظوظه ، وبقيت حقوقه وخمدت بشريته ، ثم قال : فكذلك السماع يؤثر على مقدار صفاء الباطن وقوة الوارد .

قال بعض المشايخ : لا يصح السماع إلا لمن كان قلبه حيا ونفسه ميتة، فأما من كان نفسه حية وقلبه ميتاً ، فلا .

حكى عن بعض الأبدال أنه قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلت : ما تقول في السماع الذى عليه أصحابنا ، فقال : هو الصفاء الذى لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء ، انتهى المراد منه .

وقد أشبع الكلام فيه ابن ليون التجيبي فى الإنالة ، قال فيها : فاستماع الشعر لا ينكره إلا جاهل بالسنة ، ثم قال : وقال صالح بن أحمد بن حنبل : إنه رأى أباه يستمع من جاره غناء كان فى بعض ديار جيرانه ، ثم قال : وعن أنس كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ نزل عليه جبريل فقال : يا رسول الله فقراء أمتك يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام ، وهو نصف يوم ، ففرح فقال : أفيكم من ينشدنا ، فقال بدرى: نعم يا رسول الله ،فقال : هات ، فأنشد البدرى يقول :

قد لسعت حية الهوى كبدى   فلا طبيب لها ولا راق
إلا الحبيب الذى قد شغفت به   فعنده رقيتى وترياقى

فتواجد عليه السلام وتواجد أصحابه معه ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فلما فرغوا أوى كل واحد إلى مكانه . فقال معاوية ما أحسن لعبكم يا رسول الله ، فقال : مه مه يا معاوية ليس بكريم من لم يهتز عند ذكر الحبيب ، ثم اقتسم رداءه من حضرهم بأربعمائة قطعة ، وذكره القدسى والسهروردى ، وتكلم الناس فى هذا الحديث(١) .

---

(١) قال الحافظ جلال الدين السيوطى ما معناه : إن الحديث الذى فيه « لسعت حية بالهوى كبدى » ، وذكر حديثاً آخر ، وقال : الحديثان باطلان موضوعان باتفاق أهل =

قلت : والتحقيق فى السماع هو التفصيل فأما أهـــل الحقائق فلا شك فى جوازه لهم، أو استحبابه على ما يأتى ،ومستندهم ما تقدم ، وأما أهل الشرائع فإن خلا المكان من النساء أو الشبان فهو حرام سداً للذريعة ، والله تعالى أعلم . وإلى هذا التفصيل أشار بقوله فقال :

وإن الشيوخ فيـــه فنا إذ جعـــلوه للطريق ركنا
وإنمـــا أبيح للزهاد وندبه إلى الشيوخ باد
وهو على العوام كالحرام عند الشيوخ الجلة الاعلام

قلت : أشار رحمه الله إلى أن السماع فيه للشيوخ العارفين فنون ، وزيادات ومواجيد، وأحوال وواردات ، فلذلك جعلوه ركنا يأوون إليه ، ولا يعتمدون عليه ، لأنه رخصة الضعفاء منهم ، كما يأتى ، وأما الأقوياء فلا يحتاجون إليه ، وقد سئل الجنيد رضى الله عنه عن السماع : أمباح هو ؟ فقال : كل ما يجمع العبد على ربه فهو مباح ، وقد تقـــدم، والتحرير : هو التفصيل ، كما ذكره الناظم ، فقسم مباح ، وقسم مندوب ، وقسم حرام، فهو الزهاد مباح ، لأن نفوسهم ماتت عن الشهوات والمستلذات ، فلا ضرر لهم فيه حتى يحرم ، ولا نفع لهم فيه حتى يندب، إذ لم يبلغوا رتبة التحقيق والذوق ، وللشيوخ العارفين مندوب ، لأنه يثير فيهم الوجد والوارد حتى ينشر ذلك فى عوالم الأجساد ، وتتسع ميادين الحضرة ، فيكون للحضار منها نصيب ، لأن من تحقق بحالة لم يخل حاضروه منها ، وكل ما أدى إلى الكمال فهو كامل ، وعلى العوام حرام ، أو كالحرام ، لأنه ينشر فيهم الشهوات والمعاصى، ويحرك عليهم الطباع الرديئة والعوائد الدنيئة ،فإذا انتفت هذه العلل كان مباحا، إلا إن حضره أهل الفساد ، فيمنع مطلقا سداً للذرائع ، وإنما حرم على العوام لأن الغنا مرقاة الزنا ، وأنه ينبت النفاق فى القلب .

وقالوا أيضاً : السماع راح ، تشربه الارواح ، بكئوس الآذان ، على معانى الألحان،

= الحديث انظر الفتاوى ج ١ ص ٣٣٦ . وفى الإحياء : وأما مالك رحمه الله فقد نهى عن الغناء،وقال : إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له ردها،وهو مذهب سائر أهل المدينة، وقال الشافعى رحمه الله : إن الغناء لهو مكروه يشبه الباطل ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته .

ولكل امرىء ما نوى ، وماء زمزم لما شرب له(١) ، وهذا وما سمع له(٢) .

وقالوا أيضاً : من سمع بتزندق تزندق ، ومن سمع بتحقق تحقق ، وإذا ذكر الهوى فلكل امرىء ما نوى .

وكان بعضهم يقول : أنتم غنوا كما تحبون ، ونحن نسمع كما نحب ، وبالله التوفيق .

ثم ذكر نتائجه السنية والدنية فقال :

وفيه كان ميلق الأحوال كيما يبين سافل وعال

قلت . الميلق فى اللغة هو ، السرعة ، وفرس ميلق ، أى سريع (قاله فى القاموس) يعنى أن السماع سرعة ظهور الأحوال الزكية أو الدنية ، فمن كان قلبه مع ربه حركه سريعاً إلى حضرة قدسه ، ومن كان قلبه مع حظه وهواه حركه إلى حظوظه ومناه . لأجل ذلك يظهر من سقط فى أسفل سافلين ، ومن ارتفع فى أعلى عليين .

ثم أشار إلى نتيجة أخرى فقال .

وهو صراط عندهم محدود يعبره الواجد والفقيد

قلت : السماع عند الصوفية طريق محدود ، أى معلوم بحدوده ورسومه ، «يعبره»: أى يسلكه الواجد لحاله ، وهو الذى حجب بالجمع عن الفرق ، أو الذى لم يحجبه جمعه عن فرقه ولا فرقه عن جمه ، ويسلكه أيضاً الفاقد لحاله ، وهو الذى حجب بالفرق عن الجمع، فيظهر على كل واحد ما كن فى سره ، فالواجد يزيده فى حضرة الحق عشقاً ووجداً ، والفاقد يزيده عن ربه طرداً وبعداً ، فكل إناء بالذى فيه يرشح .

قال الجنيد رضى الله عنه : كل مريد رأيته يميل إلى السماع فاعلم أن فيه بقية من البطالة .

---

(١) رواه ابن أبى شيبة ، والإمام أحمد ، وابن ماجه ، والبيهقى ، عن جابر ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن عبد الله بن عمرو ، والدار قطنى والحاكم عن ابن عباس ، والمستغفرى فى الطب عن جابر .

(٢) الأخيرة ليست من لفظ الحديث الشريف، بل هى نوع مقابلة . والحق أنه لايجوز مقابلة هذا بذاك ، إذ فرق بين قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الناس .

وقال أيضاً : السماع صراط ممدود، عليه يعبر صاحب يقين وجود، وصاحب شك وجحود إما أن يرفع سالكه إلى أعلى عليين، أو يكبكبه فى أسفل سافلين - فكبكبوا فيها هم والغاوون(١) - ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون(٢).

وإلى هذا أشار الناظم بقوله :

فعابر يحله عليين وآخر يحطه فى سجين

قلت : فالعابر الذى يحله فى عليين هو : من تحقق بالوحدة، وفهم الإشارة، وذاق حلاوة الخمرة، فلا يزال يسمع بالله، ومن الله حتى يغيب عن حسه، ويغرق فى حضرة قدسه، فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين، والآخر الذى يحطه فى سجين هو الذى يسمع بنفسه، ويتذكر حظوظه وهواه الذى كان مشغولا به سره ونجواه، فلا يزال يزعجه الشيطان حتى يلقيه فى بحر الردى والهوان، فينهض فى طلب المعاصى والطغيان فأولئك الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الرحمن أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون، فيكتب مع الفجار - كلا إن كتاب الفجار لفى سجين(٣) - نسأل الله العصمة بمنه آمين.

ثم ذكر نتيجة أخرى فقال :

وهو سرور ساعة يزول نعم، وسم ساعة قتول

قلت السماع إنما هو فرح ساعة، ثم يذهب، فمن كان فرحه بالله اجتنى ثمرته وجناه، وفاز بمعرفة ربه ورضاه، ومن كان فرحه بهواه فقد باء بغضب من الله، وهو أيضاً سم قاتل لمن حركه إلى الهوى والباطل.

قال السلمى رحمه الله : بلغنى أن أبا عمرو بن نجيد قال لأبى القاسم النصراباذى : بلغنى أنك مولع بالسماع ؟ قال : نعم هو خير من أن نقعد فنغتاب، فقال . هيهات يا أبا القاسم زلة فى السماع شر من كذا وكذا سنة تغتاب.

---

(١) ٩٤ : من سورة الشعراء.
(٢) ٥٢ : سورة النور.
(٣) سورة المطففين، الآية : ٧.

قلت : ولعله من جهة الاقتداء به ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر نتيجة أخرى من نتائج السماع، فقال :

وهو قياس العقل نقاش القلوب إذ ينزل الحال به ثم يؤوب

قلت : السماع معيار العقول فى الخير والشر، فيعرف به الكامل فى الخير من الناقص فيه والكامل فى الشر من المتوسط فيه .

أما الكامل فى الخير فهو المتمكن فى المعرفة الراسخ فيها ، فهذا كالجبل لا يحركه سماع ولا تهزه ريح ، وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب .

قيل للجنيد : مالك كنت تتحرك فى السماع ، والآن لا يظهر عليك شىء ؟ فقرأ الآية وترى الجبال(1) إلى آخرها .

وأما الناقص فى الخير فهو السائر ، فهذا إذا سمع تحرك وتواجد ، ورقص وشطح ، فهذا مغلوب للحال ، لكنه فى أثر الرجال ، فمن دام سيره ظهر خيره ، ووصل إلى ما وصل إليه غيره .

وأما الكامل فى الشر ، فهو المنهمك فى الغفلة ، إذا سمع هاج شره ، وغلبته نفسه ، وبطشت فى الحين إلى ما تقدر عليه من الفساد .

وأما المتوسط فى الشر ، فتحركه نفسه، ويغلبها فى الوقت ، فإذا قامت جمحت إلى طلب ما تحركت إليه ، إلا أن يعصمه الله بحفظه .

وهو أيضاً (أى السماع) نقاش القلوب ، فيخرج ما فيها من خير وشر ، كمن ينقش على الماء فيخرجه ، إن كان صافياً شرب ، وإن كان متغيراً طرح .

وقوله : «إذ ينزل الحال به ثم يؤوب»، هو تصوير النقش المذكور ، لأن السماع ينقش عن ما فيه من الحال ، إما ربانى ، أو شيطانى، أو نفسانى ، والجميع يزول ويذهب ، فإن كان ربانياً بقى أثره من الخشوع والطمأنينة والتواضع والزهد وحسن الخلق ، وإن كان شيطانياً أو نفسانياً لم يبق بعده إلا القسوة والغلظة والحرص والطمع وغير ذلك من الأخلاق المذمومة .

---

(1) الآية : ٨٨ من سورة النمل .

وفى الحكم لابن عطاء الله « لا تزكين وارداً لا تعرف ثمرته ، فليس المراد من السحابة الإمطار ، وإنما المراد منها وجود الأثمار ، وهذا مراد من قال : من لم يؤثر فيه السماع زيادة ما عنده فهو نقص فى حقه ، لأن الواردات لا تراد لذاتها ، وإنما تراد لثمراتها » والله تعالى أعلم .

ثم شبه الحال الربانى بالمطر النازل فى أصول الشجر كما تقدم فى الحكم ، فقال :

(وآثاره فى عرصات القلب كالوبل فى الغصن القويم الرطب)

قلت : العرصات : جمع عرصة ، وهو المكان الواسع الذى تغرس فيه الأشجار ، كنى به هنا عن سعة القلوب الفارغة من الشواغل والشواغب ، وأراد أن السماع يترك آثاره فى قلوب العارفين المطهرة من دنس الهوى ، الفارغة من حب السوى ، كما يترك المطر الغزير آثاره فى الغصن القويم الرطب ، وهو الزهر أولا ، والعقد ثانياً ، والثمار ثالثاً ، فليس المراد من المطر نزوله ، وإنما المراد ما ينشأ عنه من الثمار ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر آدابه فى الجملة ، فقال :

ولا يجوز عنده التكلم ولا التلاهى ، لا ، ولا التبسم

قلت : إنما لا يجوز التكلم عنده ، لأنه عند العارفين محل الوجد والخرة والكلام يشوش القلب ويبعده من الحضرة ، ويتلف عن الحقيقة ، فالواجب تركه لمن أراد جبر قلبه ، وعند غير العارفين رخصة ، لأنه قريب من رتبة الباطل ، فأقل شىء يرده إليه .

قال السلمى رضى الله عنه : والسكون مع حضور القلب وجمع الهم ، والوقوف على أقوال المنشدين أولى من المداخلة ، لأنه محل الاستكانة والتمكين ، والهدوء والإنصات من آداب المستمعين ، قال الله تعالى — فلما حضروه قالوا أنصتوا(١) — الآية ،وقال — وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً(٢) — اهـ .

وأما التلاهى عنه ، فإنه يقتضى أنه لا أرب له فيه من جهة قلبه ، وإنما مراده راحة نفسه ، والفرجة والتلاهى يكون بالالتفات عنه بقلبه أو بدنه ، شغلا بغيره .

(١) الأحقاف ، الآية : ٢٩ .

(٢) طه ، الآية : ١٠٨ .

وإما التبسم فيه ، فإن فيه إساءة الأدب ، فإن غلبه خرج ، وإلا أخرج وزجر .

قال السلمي رحمه الله : ولا يحضر مجلس السماع من يتبسم أو يتلاهى .

يحكى عن الشيخ أبي عبدالله بن خفيف أنه قال : حضرت مع شيخي أحمد بن يحيى السماع بنهران (اسم موضع) فاتفق فيها سماع أمم بموضع ، فطاب وقت الشيخ وتواجد ودار ، وكان في صفة بحذائنا قوم من أبناء الدنيا ، فتبسم واحد منهم . فأخذ الشيخ منارة كبيرة كانت هناك فرماه بها ، فأصابت الجدار فانغرست أرجلها الثلاث في الحائط ، وكان قد صلى ثلاثين سنة للصبح بوضوء العشاء ، اهـ .

ثم نهى عن حضور الأحداث فقال :

ويمنع الأحداث من حضوره وإن يكن ذاك فمن ظهوره

قلت : مما يتأكد في مجالس السماع منع الأحداث من حضوره ، إما حدث السن وإما حدث الدين ، أو العقل ، وقد تقدم تفسيرهم .

أما حدث السن فلما تحرك مشاهدتهم من الفتنة ، لا سيما مع دواعي ذلك من الشعر والأوزان والترنم بالأصوات الحسان، والنفس لها في هذا الميدان مجال عظيم ومكر كبير :

وأما حدث الدين أو العقل ، فإن حضور غير الجنس يمنع من المدد ، وذلك مجرب في الذكر والمذاكرة ، والسماع عند الصوفية ذكر قلبي ، فإن ألجأت الضرورة إلى حضورهم فليكونوا صفاً من خلف الناس خافضين أصواتهم . وهذا معنى قوله « وإن يكن ذاك فمن ظهوره » أي ، وإن يكن ذلك الحضور ولم يمكن التحرز منهم بوجه ، فليكن حضورهم من ظهور السماع ، أي من وراء ظهور المستمعين . والله تعالى أعلم .

قال السلمي رحمه الله : ولا رخصة للأحداث في القيام والتحرك أصلا ، وأكثر المشايخ يكرهون حضورهم بمجلس السماع ، ولا يرخصون لهم فيه .

سمعت والدي رحمه الله يقول : دخلت بغداد زائراً لجعفر الخلدي ، فوجدت أبا العباس النهاوندي عنده ، وهو حدث ، فكلما حضرنا دعوة فيها سماع أمر أبا العباس بالانصراف ، ولم يأمره أن يقعد في مجلس السماع .

ثم نهى عن الرقص والتحرك فيه لغير المغلوب فقال :

والرقص فيه دون هجم الحال ليس على طريقة الرجال
وإن يكن يقوى على السكون فإنه أسلم للظنـــون

قلت : الرقص والترقص هو الارتفـاع والانخفاض ، يعنى أن الرقص فى السماع والتحرك دون غلبة الحال ، ليس هو طريق الكمال ، بل الكمال هو السكون والوقار وخفض الصوت والاستماع ، فإنه أسلم لسوء الظنون بمن يفعل ذلك. وإن كان صادقا . إذلا سلامة من الخلق ، ثم اعلم أن الرقص وقع فيه اضطراب كبير بين الصوفية وعلماء الشريعة، والتحرير فى المسألة أن نقول : الأصل فى الرقص هو الإباحة ، إذلم يرد نص عن الشارع فيه بتحريم ولا إباحة ، بل ظواهر النصوص تقتضى الإباحة، وسيأتى ذكرها إن شاء الله. وأيضاً الأصل فى الأشياء هى الإباحة ، وقيل الوقف حتى يأتى الحظر ، ولم يرد فى كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يقتضى التحريم ، وإنما حرمته الأئمة لما قارنه من تعاطى أهل الفساد بجمع النساء والشبان وآلة اللهو ، والعلة تدور مع المعلول وجوداً وعدما، فيتحصل فى الرقص أنه على ثلاثة أقسام : قسم حرام، وقسم مباح، وقسم مطلوب .

فأما القسم الذى هو حرام ، فهو رقص العوام بمحضر النساء والشبان ، فهذا حرام لما يؤدى إليه من الفساد ، وما يهيج من الطباع الدنية والنفوس الشيطانية ، ويلتحق به ما خلا من ذلك ، لكن قصد به التصنع والرياء وإظهار الحال ، والتظاهر بما ليس فيه حقيقة ، فهو حرام أيضاً لما داخله من الرياء والتلبيس .

وعلى هذين القسمين يحمل كلام من أطلق التحريم ، كصاحب « المعيار » و « النصيحة الكافية » وغيرهما .

وأما القسم المباح ، فهو الذى يفعله الصالحون وأهل النسبة من غير وجد ولا تواجد ، وإنما يفعلونه راحة لنفوسهم ، وتنشيطا لقلوبهم بشرط الزمان والمكان والإخوان ، خاليا من حضور ما تقدم من النساء والشبان ، فهذا مباح إذ لا موجب للتحريم فيه ، إذ علة التحريم هو ما تقدم، وهو خال من ذلك، وأما ما يقال : إنه من فعل السامرية حين عبدوا العجل فعلى تقدير صحته فإنما حرم فعلهم لفساد قصدهم ، لأنهم قصدوا بذلك تعظيم العجل أو الفرح به ، وهذا كفر ، ولو كان رقصهم خاليا من ذلك ما حرم عليهم .

وقد ثبت أن جعفـــر بن أبي طالب رضى الله عنه رقص بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال رسول الله « اشبهت خلقى وخلقى » وذكره السنوسى فى « نصرة الفقير » وغيره .

وقال ابن ليون التجيبي ما نصه : وأما الرقص فى المسجد ففى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : جاء جيش من الحبشة يزفون يوم عيد فى المسجد ، فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعت كفى على منكبيه ، فجعلت أنظر إلى لعبهم ، قال ابن عيينة : والزفن الرقص ، فثبت أن الرقص فى أصله مباح ، ولو كان حراما لذاته مافعل بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما القسم المطلوب فهو : رقص الصوفية أهل الذوق والحال، إما وجداً أو تواجدا ، سواء كان ذلك فى حضرة الذكر أو السماع ، ولا شك أن دواء القلوب من الغفلة وجمعها بالله مطلوب بأى وجه أمكن ، ما لم يكن بمحرم مجمع على تحريمه ، فلا دواء فيه ، وقد تقدم قول الجنيد لما سئل عن السماع ، قال : كل ما يجمع العبد على ربه فهو مباح .

وقال الفاسى فى « شرح الحصن » عن شيخ الإسلام السيوطى رحمه الله ما نصـــه : أقول وكيف ينكر الذكر قائما ، وقد قال تعالى ــ الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم[1] ــ .

وقالت عائشة رضى الله عنها : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله على كل أحيانه[2] » وإن انضاف إلى هذا القيام رقص ونحوه فلا إنكار عليهم ، فذلك من لذة الشهود والمواجيد :

وقد روى فى الحديث رقص جعفر بن أبى طالب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال له « أشبهت خلقى وخلقى » وذلك من لذة هذا الخطاب ، ولم ينكر ذلك عليه النبي عليه الصلاة والسلام ، فكان هذا أصلا فى رقص الصوفية لما يذكرونه من لذة المواجيد .

وقد صح القيام والرقص فى مجالس الذكر والسماع عن جماعة من أكابر الأئمة منهم شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام اهـ .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٩١ .
(٢) رواه مسلم ، والترمذى وأبو داود ، وابن ماجه عن عائشة .

وهو نحو ما فى « الإحياء » وزاد فيه حديث نظر عائشة رضى الله عنها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة وهم يرقصون ، وقوله لهـــا « أتحبين أن تنظرى إلى زفن الحبشة » والزفن الرقص انتهى .

وذكره ابن زكرى فى شرح النصيحة .

قلت : وقد تواتر النقل عن الصوفية قديماً وحديثاً شرقاً وغرباً أنهم كانوا يجتمعون لذكر الله ، ويقومون ويرقصون ، ولم يبلغنا عن أحد من العلماء المعتبرين أنه أنكر عليهم .

وقد رأيت بفاس بزاوية الصقليين جماعة يذكرون ويرقصون من صلاة العصر يوم الجمعة إلى المغرب ، مع توفر العلماء ، فلم ينكر أحد عليهم ، وقد بلغنى أن شيخنا شيخ الجماعة سيدى التاودى بن سودة كان يحضر معهم فى بعض الأحيان ، فلا ينكر على الفقراء الرقص فى حال ذكرهم إلا مقلد جامد ، أو معاند جاحد ، يرحم الله الشيخ زروقا رضى الله عنه فى بعض شروحه على مقطعات الششترى لما تكلم على هذا المعنى ، قال : وإنما أطلت الكلام هنا لوجهين :

أحدهما مخافة أن يغتر الغوغاء ، ممن لا خلاق له بهؤلاء السادات فيتعاطونه فى غير محله ، فيقع فى المقت[1] .

ثم قال : والآخر أن يتبع قول الملحدين ، أهل العقول الواهية ، والأفئدة الخاوية ، فيقدح فى جملة طريقة أنتجها الصالحون من أولياء الله ، وظهرت نتيجتها فى كثير من عباد الله واشتملت نسبتها على رجال قاموا بأحكام الشريعة وآداب الحقيقة ، وتعلقوا بأسماء رب العالمين ، وتخلقوا بأخلاق سيد المرسلين ، آثارهم حميدة ، وملاقاتهم سعيدة ، ترغب الملائكة فى خلتهم ، واشتاقت الأنبياء والرسل إلى رؤيتهم ، كتاب الله مطرز بالثناء عليهم ، وبشائر السنة كلها تشير إليهم ، عند ذكرهم تتنزل الرحمة ، وبسبب وجودهم تدفع النقمة ، رغب فى اللحوق بعسكرهم خليل رب العالمين حيث قال فيما أخبر الله عنه فى كتابه المبين — رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين — وتبعه الصديق الأمين فى ذلك ، حيث قال — توفنى

---

(١) على أن المقصود من الرقص هنا ليس هذا الذى يتعارف الناس عليه اليوم ، إنما هو نوع من الفرح يملك على الإنسان مشاعره فيحدث فيه نوع اضطراب غير إرادى . وهذا لا لوم فيه والله أعلم .

صلها والحقنى بالصالحين — واستشهادنا فى معرض الولاية بهاتين الآيتين اللتين سبقتا فى مقام النبوة ، إنما اقتبسنا الدليل على ذلك ، وهذا من باب تناول الأعلى إلى الأدنى بالثناء عليه ليعرف غيره بعض شواهد فضيلته كما فى قوله صلى الله عليه وسلم .

« اللهم أحينى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين(١) » .

أى واجعل المساكين هم قرابتى المحدقون بى يوم المحشر ، فقد عرف صلى الله عليه وسلم بفضيلة المساكين ، وعظم جاههم عند الله ورسوله ، لطلبه من الله أن يكونوا فى كفالته ، لا أنه فى كفالتهم ، فكذلك عرف الصديق بفضيلة أمة الإسلام ، وخصوصاً الصالحين منهم لا أنه طلب من الله اللحوق بعسكرهم لقصوره عن إدراك مقامهم، لكن مبالغة فى التعريف بعظم جاههم عند خالقهم ، فعرف أولا بفضيلة الإسلام عموما ، وعرف ثانيا بفضيلة الصالحين منهم خصوصاً ، ملأ الله قلوبنا من محبتهم ، وسلك بنا سبيل سيرتهم ، وحشرنا فى زمرتهم ، اللهم آمين ، انتهى كلامه رضى الله عنه .

ثم أشار إلى أن السماع إنما هو رخصة للضعفاء ، فقال :

وليس يحتاج إلى السماع إلا أخو الضعف القصير الباع

قلت : أشار إلى أن السماع لا يحتاجه ويزيد به إلا من كان ضعيف الحال قصير الباع فى المعرفة والشهود ، وأما القوى المتمكن فلا يحتاج إليه .

قال السلمى رضى الله عنه : وقيل يحتاج إلى السماع من كان ضعيف الحال ، فأما القوى فلا يحتاج إلى ذلك .

وقال الحصرى ، ما أدون حال من يحتاج إلى مزعج يزعجه ، ولعمرى ما تحتاج الثكلى (أى الثكلة) إلى نائحة ، والثكلى هى : التى مات ولدها .

وقيل هو (أى السماع) لقوم كالغذاء ، ولقوم كالدواء ، ولقوم مروحة ، كما قال تعالى

---

(١) رواه ابن ماجه ، ولفظه ، من المقاصد الحسنة للحافظ السخاوى : « اللهم أحينى مسكينا ، وأمتنى مسكينا ، واحشرنى فى زمرة المساكين » ورواه الطبرانى فى الدعاء والحاكم ، والبيهقى فى الشعب ، وأبو الشيخ ، والديلمى ، والترمذى فى الزهد .

ــ قل هو الذين آمنوا هدى وشفاء(١) ــ الآية .

وقال موضع آخـــر (وسئل بعض الشيوخ عن شرب القلوب من السماع ، وشرب الأرواح والنفوس) فقال : شرب القلوب الحكم، وشرب الأرواح النغم، وشرب النفوس ما يوافق طبعها من الحظوظ ، ونعت الحسن والجمال .

ثم أشار إلى علامة الضعف ، فقال :

والزعقات فيـــه والتمزيق ضعف ، وهز الرس والتصفيق

قلت : ازعق هو : الصياح والتمزيق هو : تخريق الثياب ، وهز الرأس : تحريكه ، والتصفيق الضرب بالكف يعني : أن الصراخ في السماع وتمزيق الثياب وتحريك الرأس والتصفيق باليد إنما يصدر من ضعيف الحال ، الذي هو مغلوب للأحوال ، وأما القوى المالك للأحوال ، فلا يصدر منه شيء من ذلك .

قال السلمي رضي الله عنه : وليس من الأدب استدعاء الحال والتكليف القيام ، إلا من غلبه حال فيه ، فينزعج أو يكون على سبيل مساعدة لصادق ، أو مطايبة لخاطر من غير تساكر ولا إظهار حال ، وترك ذلك أولى .

روى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعظ فصعق رجل من جانب المسجد ، فقال : « من هذا الملبس علينا ديننا ، إن كان صادقاً فقد شهر بنفسه ، وإن كان كاذباً محقه الله » .

ثم قال : حكى أن شاباً كان يخدم الجنيد ، وكلما سمع شيئاً زعق وتغير ، فقال : إن ظهر فيك شيء بعد هذا فلا تصحبني ، فكان يضبط نفسه ، وربما كان يقطر من كل شعرة منه قطرة عرق حتى كان يوم من الأيام زعق زعقة خرجت منها روحه .

والزعقة من وجهين : أحدهما التوجع ، والأخرى التطلع ، زعقة التوجع من حيث الخوف والحزن ، وهي نظيرة صيحة المصاب ، وزعقة التطلع من المحبة والشوق والرجاء ، وهي نظيرة صيحة المتطلعين للإهلاك إذا تحققوا ذلك ، وهذا لايكون إلا عند وجود غائب أو فقدان حاضر ، ومثلها كمثل العطسة لا يدرى كيف تجيء .

---

(١) الآية : ٤٤ من سورة فصلت .

قلت : أما التمايل يميناً وشمالا فلا يدل على الضعف ، وقد رأيت شيخنا يفعله عند السماع وهو من لذة التواجد ، فلا يدل على الضعف ، والله تعالى أعلم .

وقد ذكر ابن عرضون فى « مقنعه » أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا إذ ذكروا الله مال بعضهم على بعض كالشجرة فى يوم الريح العاصف ، أو ما هذا معناه ، ثم أشار إلى أن السماع لم يكن عندهم مقصوداً للاجتماع ، بل حيث ما تيسر ، فقال :

ولم يكن لأجله اجتماع ولا لدى غيبته انصداع

قلت الانصداع هو الافتراق ، يعنى أن القوم لم يكن اجتماعهم مقصوداً للسماع . بحيث إذا وجد اجتمعوا وإذا غاب افترقوا ، بل كانوا إذا اتفق اجتماعهم لأمر من الأمور ، أو إذا دعاهم أحد إلى وليمة أو سرور استعملوه ، لأنهم أغنياء عنه بحلاوة الذكر والمعرفة والله تعالى أعلم .

ثم ذكر أنه لم يكن فيه آلة اللهو ، فقال :

ولم يكن فيه مراسنونا ولا طنابر ومسمعونا
وليس أيضاً كان فيه طار ولا مزاهر ولا تنقار
والشمع والفرش والتكالف أحلف ما كانت يمين حالف

قلت « المراسنون » بفتح الميم هى الطائفة التى تجيب القوال بالدندنة ونغم الموسيق ، بحيث إذا فرغ القوال من الشعر أجابوه بكلام اللهو والنغم المستلذة ، وهو من شأن أهل اللهو ، فالتشبه بهم هجنة ، والطنابير : جمع طنبور ، وهو شبيه بالعود فى صورته ، وقيل هو بنفسه والمسمعون المرصدون للغناء فى الولائم . يسمعون الناس غناءهم ولهوهم ، والطار معلوم ، وهو ذو الشراشر ، والمزهر هو الجلد من جهتين ، والتنقار هو : فعل النقر ، ويكون فى نقر الأوتار المعلومة .

يقول رحمه الله : إن سماع القوم لم يكن فيه شىء مما ذكر ، مما هو من آلات اللهو ، ويلتحق بما ذكر : الرباب ، والشبابة ، والبندير ، والزمارة ، وغير ذلك مما يستعمله أهل اللهو فينبغى للفقير أن يجتنبها ، وهذه مسألة خلافية ، فقد رجح الغزالى فى « الإحياء » جواز سماع هذه الأشياء ، بشرط خلو المكان والإخوان والزمان ، قيل : وهو مذهب الشافعى (١) ، ورده بعضهم .

---

(١) راجع هامش ص ١٨٦ من هذا الكتاب .

والحاصل أن العارف المحقق الذى غرق فى عين بحر الوحدة حتى كان سمعه بالله ومن الله وبصره بالله وإلى الله ، ووجد أنه بالله ومن الله ، لا يكدره شىء ، فلا ينكر عليه شىء .

وقد قالوا : إذا ثبتت عدالة المرء فليترك وما فعل .

وهذه مسألة خلافية لم يرد فيها نص من الشارع ، والأصل فى الأشياء الإباحة حتى يرد الحظر ، وما حرم السماع حتى أخذه أهل اللهو ، ونقلوه إلى لهوهم وقارنوه مع شرب الخمر والزنا ، فحرم حينئذ ، سداً للذريعة ، والله تعالى أعلم .

وقد كان بعض علماء الحديث من أهل الحفظ والضبط يستعمل ضرب العود ، فعيب عليه فحلف لا يحدث بحديث حتى يضرب العود . فأخبر به السلطان (قيل هارون الرشيد) فأرسل إليه وقال له : حدثنى بحديث المخزومية ، فقال أحضر العود ، فقال له الملك : عود البخور ؟ فقال : بل عود الطرب ، فضحك الملك ، ثم قال : من يحرم السماع من الفقهاء ، فقال له: من طبع الله على قلبه ، ثم قال له ذلك العالم : لقد حضرت وليمة بالمدينة ، وفيها علماؤها ، حتى لو سقط البيت لم يبق مفتى بالمدينة ، وأصغرهم مالك ابن أنس ، فغنوا وهو يزمزمه ، فغنوا وأنشدوا ، اهـ (ذكره ابن عرفة فى باب النكاح) نقلته بالمعنى (١) .

وقوله : الشمع والفرش إلخ . يعنى أنهم لم يكونوا يتكلفون بالسماع حتى يحضروا الشموع الموقودة ، والفرش الممهدة ، والوسائد المزوقة ، وإنما كانوا يحضرون له على حالة الفاقة والابتذال،على ما يصادف الوقت والحال . وليس مراده أنها محرمة، وإنما مراده أن طريق القوم عدم التكلف ، فإن صادف الحال أنها أعدت فلا يمتنعون منها ، لأن الصوفى اتسعت دائرته ، فلا يختار شيئاً ولا يمتنع من شىء ، بل ما أعطاه سيده أخذه بالقبول ، إلا ما حرمته الشريعة المطهرة بنص صريح لا تأويل فيه، فهو حينئذ أولى بالأدب من غيره والله تعالى أعلم ، ثم قال :

وأمروا فيه بغلق الباب   وإنما ذاك للاجتناب

قلت : وإنما أمروا فى حال السماع بغلق الباب لئلا يحضر معهم من يجتنب حضوره من الأحداث والعوام والنساء وغير ذلك مما لا يليق حضوره ، لأن مجلس السماع إذا كان ربانياً هو كمجلس الذكر والمذاكرة ، ومجلس الذكر والمذاكرة غذاء الأرواح ورضاع القلوب ، فهى ترضع بعضها بعضاً . فإذا حضر صاحب التخويض رضعت منه بعض القلوب ذلك

---

(١) انظر هامش ص ١٨٦ .

التخويض ، فربما يسرى ذلك فى الجماعة ، فلا يجدون حلاوة الوجد، ولا لذة الخرقة، ولذلك قال الجنيد رضى الله عنه : المواكلة رضاعة فانظروا من تواكلوا ، فيصدق بالحسى والمعنوى .

وقد عقد بعض الشيوخ حلقة الذكر فى بيت مظلم فلم يجدو قلوبهم ، فقال لهم ائتونى بالمصباح ، فلما أتوا به وجـــدوا معهم طالبا من طلبة المدرسة ، فأخرجوه فحينئذ وجدوا قلوبهم .

وحكى عن بعض أشياخنا (وأظنه سيدى محمد بن عبد الله) أنه كان فى مجلس المذاكرة جلس معهم رجل عامى ، فأزال الشيخ عنه ثوباً ، وقال له : قم بع فى السوق ، فلما خرج قال له : خذ ثمنه ولا تعد ، وسد الزاوية .

والحاصل : أن حضور غير الجنس مشوش مانع من زيادة المدد ، والله تعالى أعلم .

ثم حرر الخلاف فى السماع فقال :

وليس للقائل ما يقول   فى الشعر إذ سمعه الرسول

قلت « سماع الشعر من غير ألحان ولا موسيق لا نزاع فيه، لأنه سمعه عليه الصلاة والسلام وأجاز عليه ودعا لقائله ، وإنما النزاع فى الترنم به » .

وقوله « بألحان وموسيق» فمن كان طبعه جامداً لا يحركه شىء، لا لخير ولا لشر، كان فى حقه مكروها إن شغله عن ذكر الله أو مباحا إن لم يشغله ، ومن كان طبعه مائلا للهوى وحب الدنيا وعلم أنه يحركه للفساد حرم عليه ، ومن كان قلبه معموراً بمحبة مولاه ، فانيا عما سواه ، كلما سمع زاد به إلى مولاه ، فهذا يستحب فى حقه السماع .

هذا حاصل ما ذكره فى « حل الرموز » حين تكلم على السماع .

فقال : السماع ينقسم إلى ثلاثة أقسام : منه ما هو حرام محض ، وهو لأكثر الناس من الشبان ، ومن غلبت عليهم شهواتهم ، وملكهم حب الدنيا ، وتكدرت بواطنهم ، وفسدت مقاصدهم ، فلا يحرك السماع منهم إلا ما هو الغالب عليهم من الصفات المذمومة ، سيما فى زماننا هذا .

والقسم الثانى : منه مباح ، وهو: من لاحظ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن ، واستدعاء السرور والفرح .

والقسم الثالث :مندوب ، وهو: من غلب عليه حب الله تعالى، والشوق إليه ، فلا يحرك السماع منه إلا الصفات المحمودة ، وتضاعف الشوق إلى الله ، واستدعاء الأحوال الشريفة والمقامات العلية ، والكرامات السنية ، والمواهب الإلهية .

قال الشيخ ابن ذكرى رحمه الله : فتبين من هذا أنه لا نص فيه من الشارع ، والذي تقتضيه قواعد الشريعة انقسامه إلى ما ذكر ، إه .

ثم ذكر أصل استعمال السماع فقال :

وإنما كان السماع قدما	قصداً المريد الشيخ يشكو السقما
وجاء هذا ، ثم جاء هذا	حتى استقلوا عنده أفذاذا
فبث كل ما به قد جاء	فعوضوا من دائهم دواء
فعندما نشطت النفوس	وزال عنها كسل وبوس
وطابت القلوب بالأسرار	واستعملت نتائج الأفكار
ترنم الحادى ببيت شعر	فاكتنفته غامضات الفكر
كل له مما استفاد شرب	هذا له قشر وهذا لب
فإن تمادى وأتم الشعرا	أبدوا من الشرح عليه سفرا
فهكذا كان سماع الناس	فهل ترى به كذا من باس

قلت : القدم بكسر القاف معناه : القديم، وهو ظرف، أى فى القديم ، والسقم : المرض والأفذاذ:الجماعة المتفرقة ، جمع فذ ، وهو المنفرد ، وبث شكواه : أودعها وأخبر بها ، والنشاط خفة الأعضاء ، والكسل ضده ، والباس هو الضر والداء ، والأسرار : الأذواق والأحوال ، ونتائج الأفكار : العلوم ، والترنم : التغنى . والحادى : القوال ، واكتنف الشىء : أحاط به ، فصار فى كنفه . والغامض : الخفى ، والشرب (بكسر الشين) النصيب من الماء ، والقشر : ظاهر الشىء ، واللب باطنه .

يقول رضى الله عنه : وإنما كان استعمال السماع فى الزمان المتقدم عند قصد المريد الشيخ يشكوا إليه سقمه ومرضه الذى أصاب قلبه من غفلة أو فترة أو قسوة أو كسل أو طغيان أو غير ذلك من العيوب التى لا تحصى ، ثم توالى المجىء إلى الشيخ : هذا بعد هذا ، حتى استقل عنده جماعة من الفقراء ، فشكى كل واحد داءه ، لأنه طبيب ماهر ، وقد يداويه

باللمحة أو بالنظرة ، فعندما أحسوا بالشفا ونشطت نفوسهم ، وذهب داؤهم وبؤسهم ، وطابت قلوبهم بالأذواق، وامتلأت قلوبهم بالأنوار ، وأشرقت فيهـــا شموس المعارف والأسرار ، واستعملت نتائج أفكارهم ، فأبدت من العلوم ما يليق بسعة صفائها : ترنم الحادى بالغزل الرقيق ، واستعمل من الشعر ما بالجانب يليق ، فإذا سمعته دقائق أفكارهم الصافية ، وغوامض فهومهم العلية ، أحاطت بمعانى تلك الأشعار ، واستخرجت ما فيها من علوم وأسرار ، كل واحد على قدر نصيبه وشربه مما استفاد من شيخه بمحبته وصدقه، وعلى قدر مجاهدته وسيره ، فنهم من يكون حظه معانى الكلام الظاهرة ومنهم من يخوض بفكره إلى المعانى الباطنة . وقد يقع فى أسماعهم من كلام واحد مايليق بحال كل واحد ، على حسب مقامه ، كالنفر الثلاثة الذين سمعوا قائلا يقول : يا سعترا برى ، فبعضهم سمع : اسع تر برى. وبعضهم سمع : الساع ترى برى ، وبعضهم سمع : ما أوسع برى ، فالأول حاله بداية ، والثانى الاستشراف على النهاية ، والثالث حاله واصل إلى الغاية .

وفى هذا المعنى قال ابن عطاء الله : العبارة قوت العائلة المستمعين ، وليس لك منها إلا ما أنت له آكل ، فان تمادى الحادى على شعره حتى أتمه تكلموا فيه . واستخرجوا ما عندهم فيه من العلوم ، كل على قدر وسعه — لينفق ذو سعة من سعته — الواصلون — ومن قدر عليه رزقه — السائرون ، فاظهروا من علومهم ما يملؤ سفراً أو أكثر ، فهكذا كان سماع الناس فى الزمان المتقدم ، فهل ترى أيها المنكر لهذا الفعل من بأس أو أنت من الحال والوجد من أهل الإفلاس .

قلت : وليس مراد الشيخ الحصر فى هذه الكيفية حتى لايصح السماع ، إلا إذا كان هكذا بل كل من وجد فى نفسه كسلا أو قبضاً : استعمل ما يزيل به كسله أو مرضه .

ثم اعلم أن اعتراض أهل الظاهر على الصوفية لا ينقطع أبداً : سنة ماضية ، وخصوصاً فى السماع والرقص ، وهم معذورون، لأنهـــم لا يشاهدون إلا ذواتا ترقص وتشطح ، ولا يدرون ما فى باطنها من المواجيد والأفراح ، فيحملون ذلك على خفة العقل والطيش ، فيقعون فيهم ، إلا من عصمه الله بالتسليم ، ولذلك كان التصديق بطريقة القوم ولاية ، والاعتراض جناية ، إلا من صحت نيته وحمله الغيرة، فهوما جور من جهة ، محروم من جهة .

وقد رأيت للطرطوشى اعتراضا كبيراً على الصوفية فى الرقص، حتى قال فيه : إنه ضلالة وجهالة ، وذلك لما قلنا،قال تعالى — بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله — .

وكان الشيخ ابن عباد رضى الله عنه يقول : لا تجعلوا لأهل الظاهر حجة على أهل الباطن، أى لأنهم لم يدركوا ما أدركه أهل الباطن ، فلا تقوم الحجة عليهم بمجرد سوء الظن، وقد در أبى مدين حيث يقول :

إذا لم تذق ما ذاقت الناس فى الهوى فلله ياخالى الحشا لا تعنفنا
إذا اهتزت الأرواح شوقا إلى اللقا نعم : ترقص الأشباح ياجاهل المعنى

إلى آخر كلامه وبالله التوفيق .

ثم أشار إلى مسألة الخلع ، وهى خلع الثوب عنه ، وإلقاؤه للفقراء فرحا وتواجدا كما فعله عليه الصلاة والسلام ، فقال :

وكرهوا الخلع على المساعده لأن فيه كلفة المعانده
ومن يكن يخلع عند الحال فلا يجوز رده بحال
إذ كان كل عائد فى هديه كالكلب ظل عائداً فى قيئه

قلت الخلع بفتح الخاء وسكون اللام هو : نزع الثوب عند السماع، وهو على ثلاثة أقسام : إما أن يكون مساعدة لغيره ، أو لغلبة حال عليه ، أو سقط بنفسه ، الأول مكروه لما فيه من التكلف والمعاندة ، أعنى المنافسة ، لأنه لما رأى غيره خلع ثوبه وجداً أو حالا : خلع هو ثوبه مساعدة له ، ومنافسة فيما فعل ، وهذا لا يخلوا من رياء وتصنع ، وإليه أشار بقوله « وكرهوا الخلع » إلخ . وإما أن يكون لغلبة حال عليه ، فنزعه فرحا بالوجد أو شكراً لما وهبه الله من سنى الأحوال ، فهذا يأخذه الفقراء ، ولا يجوز له الرجوع فيه بحال ، لأن فيه الرجوع فى الصدقة وقد قال عليه الصلاة والسلام : « العائد فى صدقته كالكلب يعود فى قيئه(١) » ، وإلى هذا أشار بقوله « ومن يكن يخلع عند الحال» إلخ .

قال السلمى : وأكثر المشايخ يكرهون طرح الخرقة على سبيل المساعدة ، لما فيه من التكلف المخالف للحقيقة ، وما كان من معارضة حال أو وقت ، فلا يجوز فيه الرد ، لأن ذلك شبه هبة وهدية ، وقال صلى الله عليه وسلم .

---

(١) متفق عليه من البخارى ومسلم ورواه أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن ،

« العائد فى صدقته كالكلب يعود فى قيئه » .

وقيل : من رجع فى هبته بالغ فى خسته اه .

ثم إلى حكمه ، فقال :

وحكمه فى أفضل الأحكام ... رأى العراق ليس رأى الشام

قلت : ظاهر كلامه أن الضمير فى « حكمه » يعود على الخلع الذى هو أقرب مذكور ، لكن لم يذكر السلمى الذى يعتمده الناظم فى هذا النظم هذا الخلاف ، وكذلك التجيبى فى الإقالة، مع أنه أطال فيه الكلام ، ويحتمل أن يرجع الضمير إلى السماع من أصله ، ويكون استدراكا لترجيح أحد القولين المتقدمين، فى قوله «قال أهل العراق بالتحريم، وقال الحجازيون بالتسليم» لكنه بعيد، لأن أهل الحجاز غير أهل الشام ، وأيضاً السياق يأباه . ولعل الناظم اطلع على خلاف بين أهل العراق وأهل الشام فى الخلع بالجواز والمنع .

وجنح للشيخ زروق إلى المنع فقال : تنبيه .

الذى ينبغى الجزم فى هذا الزمان منع الخرق، أى خلعها وأخذها والدخول عليها، لما عليه الناس من الشحة والاعتلال اه .

قلت : بل الظاهر الجواز . وليس فى طريق الصوفية صوفى شحيح ، بل هو من أقبح القبيح ، ومن كان شحيحاً تعلم السخاء بهذا وبغيره ، ثم أشار إلى ما يفعل بها ومن يستحقها ، فقال .

وحكموا الوارد فى الخروق ... للأنس والخبرة بالطريق

قلت : إذا اختلف الفقراء فى الخرق التى تخلع فى مجالس السماع والذكر، هل ترد لصاحبها أو تقطع وتفرق بينهم أو تعطى للأحوج منهم ، حكموا أول وارد عليهم، فما حكم به اتبعوه وإنما فعلوا ذلك للأنس الذى يحصل بينهم فى ذلك الحكم، بحيث لا يتغير قلب أحد .

وقيل : يحكمون من كان أهل الخبرة بطريق القوم ، وهذا ما لم يحضر الشيخ ، وأما إن حضر فالحكم له ، وإذا خلعت على القوال فهى له لقوله عليه الصلاة والسلام « من قتل قتيلا فله سلبه (1) » .

---

(1) متفق عليه ورواه أبو داود والترمذى والإمام أحمد وابن ماجة . ولفظه فى الفتح الكبير : « من قتل كافراً » بدل « قتيلا » .

وقيل : إن كان من جملة الفقراء فهو كأحدهم ، وإن كان محبا فقط فهى له ، وإن كان بأجرة فلا شىء له .

ثم ذكر ما يسقط بنفسه من غير أن يخلعه صاحبه ، فقال :

والسقط مردود بلا خلاف   وقدر هذا فى السماع كاف

قلت : السقط بالكسر بمعنى : المسقوط ، يعنى أن ما سقط من غير اختيار صاحبه فهو مردود عليه ، ولو كان من غلبة حال أو وجد إذ الخالع المتقدم إنما هو ما كان باختيار صاحبه فرحاً بالوجد أو الحال ، أو شكراً ، لا ما سقط بغير اختياره، فلا يحل أخذه ، إذ : « لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب نفسه(١) » .

تتميم : قال ابن ليون التجيبى : ومن أشار بيده أن يخلع ، بان عنه ما عليه ، ومن دخل الطابق (أى الحلقة) بفرجية غير مزرورة بانت عنه ، يعنى لتفريطه وعدم حزمه ، ومن خلع ما على رأسه بان عنه كل ما عليه ، فان الخرق تابعة للتاج. قلت ولعل هذا حيث جرى به أو عمل ، وإلا فالظاهر اختصاصه بما خلع ثم قال : ومن رقص ويده تحته بانت عنه خرقه ، ومن عثر فى ثوبه أو داسه (أى وطىء عليه برجله) أو أطفأ به السراج ، أو آذى به أحداً أو شبه ذلك بان عنه الثوب ، وكذلك الإشارة بالكم ، فإن الفقير محفوظ والسقط بائن عنه، فيبين عنه ثوبه بأقل شىء ، بخلاف المحب ، فإنه لا يبين عنه ثوبه إلا باختياره ، والصائح الفاحش فى السماع يطالب صاحبه، فإن انفصل ، وإلا استغفر ، وكذلك الوقف الكثير فى الطابق (أى الحلقة) ما لم تشهد له البواطن بالصدق ، ولا يزاحم محترم محترماً فى طابقه ، ولا يدخل الطابق غير فقير ، لأنه لا يدرى مشرب القوم ، ويحبسه الخادم فى موضعه إن غلب عليه وارد ، انتهى .

وهذا القدر كاف فى السماع ، لمن له صدق واستماع ، وبالله التوفيق ، وهو الهادى إلى سواء الطريق .

ثم أشار إلى الحكم السابع من أحكام الترجمة التسعة فقال : السابع فى حكم السفر والقدوم على المشايخ : اعلم أن للسفر آداباً تطلب قبل الشروع فيه ، وآداباً حال الشروع ، وآداباً بعده ، فأما التى تطلب قبل الشروع فمنها الاستخارة لقوله عليه الصلاة والسلام .

---

(١) هذا لفظ حديث شريف رواه أبو داود .

« ما خاب من استخار ، ولا ندم من استشار(١) » .

وروى البخارى عن جابر رضى الله عنه قال : كان رسول الله يعلمنا الاستخارة لما يعلمنا الفاتحة ، يقول : إذاهم أحدكم بأمر فليركع ركعتين ثم يقول : اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، واستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وانت علام الغيوب ،اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى ، أو قال عاجل أمرى وآجله فاقدره لى ويسره لى ، ثم بارك لى فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى ، أوقال عاجل أمرى وآجله ،فاصرفه عنى واصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان ، ثم رضنى به ، اه والركعتان بالكافرون والإخلاص ، ويقتصر على هذه الاستخارة دون غيرها مما فيها نوم أو غيره ، ويكررها ثلاثا أو سبعا إن كان أمراً مهما .

ومنها الاستشارة إن كان له شيخ ، فليستشره ولا يسافر بغير إذنه ، وإن لم يكن له شيخ فليستشر من اشتهر بالصلاح والخير من العلماء العاملين ، وكذلك الوالدين ، ومنها النية الصالحة فلا يسافر بقصد الدنيا أو النزهة ، وسيأتى الكلام على هذا عند قول الناظم « ولم تكن أسفارهم تنزها ، بل كان فيها نحو التوجها » وبقدر ما يعدد من النيات يحصل له من الخيرات وقد قال الشيخ القطب ابن مشيش لأبى الحسن : لاتنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله ، ولا تجلس إلا حيث تأمن غالبا من معصية الله ، ولا تصحب إلا من تستعين به على طاعة الله ولا تصطف لنفسك إلا من تزداد به يقينا ، وقليل ما هم ، ومنها التماس الصاحب ، وفى بعض الآثار « التمسوا الرفيق قبل الطريق(٢) » وقد نهى عليه الصلاة والسلام عن السفر وحده ، وقال : الراكب شيطان ، والراكبان شيطانان ، والثلاثة ركب(٣) » اه . ولا يسافر مع غير جنسه ، ولا يصحب إلا من يزيد به إلى ربه .

وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم حين قالوا له : من نجالس يا رسول الله ؟ قال :

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط بلفظ : « ما خاب من استخار ، ولا ندم من استشار ، ولا عال من اقتصد » .

(٢) ونص الحديث : « التمسوا الجار قبـل الدار ، والرفيق قبل الطريق » رواه الطبرانى فى الأوسط عن رافع بن خديج .

(٣) [illegible] الترمذى والحاكم عن عبد الله بن عمرو .

« من ذكركم بالله رؤيته وزاد فى علمكم منطقه ، وذكركم بالآخرة عمـــله » والمراد بالمجالسة مطلق المصاحبة ، فتصدق بالسفر وبغيره .

ومنها قضاء الديون ، ورد الودائع ، فإن لم تحل وتعذر تعجيلها فليترك وكيلا يؤدى عنه وإن كانت عليه مظالم تحلل منها ، لأنه لا يدرى : هل يرجع أم لا ؟ .

ومنها استعداده لحمل الماء ، فيستصحب قربة أو ركوة يتوضأ منها ، قال السلمى رضى الله عنه : ويجب على المسافر استصحاب ركوة أو كوز للطهارة ، والركوة أولى ، والركوة إناء من جلد ، وقال فى القاموس : زق صغير ، ثم قال : سمعت والدى رحمه الله يقول : كان بعض المشايخ اذا صالحه المسافر تفقد أثر حمله الركوة من كفه وأصابعه ، فإن وجده وأى أثر الركوة أحسن قبوله ، والا ازدراه .

وقال بعضهم : اذا رأيت الصوفى وليس معه ركوة ولا كوز ، فاعلم أنه عزم على ترك الصلاة وكشف العورة ، شاء أم أبى .

ويستحب للمسافر استصحاب العصا والإبرة والخيوط ، والمقص والموسى ونحوها ، فان ذلك مما يستعين به على أداء الفرائض كما يجب ، واذا أراد أن يسافر فن الأدب أن يطوف على اخوانه ويعرفهم بسفره ويودعهم ، ويستحب لمن هو فى صحبتهم تشييعه ، كذلك كان أدب المشايخ . اذ انتهى .

وأما التى تطلب حين الشروع فى السفر فنها : صلاة أربع ركعات ، فقد روى الديلمى أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا أراد سفراً صلى أربع ركعات ، يقرأ فى كل ركعة بفاتحة الكتاب والإخلاص ، فاذا سلم قال : اللهم انى أتقرب بهن اليك ، فاجعلهن خليفتى فى أهلى ومالى ، فاذا نهض للسفر من جلوسه قال : اللهـــم بك انتشرت واليك توجهت ، وبك اعتصمت ، اللهم أنت ثقتى ورجاءى ، اللهم اكفنى ما أهمنى وما لا أهتم به ، وما أنت أعلم به منى ، وزودنى التقوى ، واغفر لى ذنبى ، ووجهنى للخير حيث ما توجهت ، ثم يقرأ الكافرون والإخلاص والمعوذتين » .

ومنها توديعه أهله وجيرانه وأصحابه ، يقول : استودعكم الله الذى لا تضيع ودائعه » ويقال له : زودك الله التقوى ، وغفر ذنبك ، ويسر لك الخير حيث ما كنت .

ومنها قراءة ورد السفر ، وهو : استغفر الله (عشراً) اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم يسليما (عشرا) حسبنا الله ونعم الوكيل (عشراً) ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم (عشراً) .

هكذا تلقيناه من أشياخنا زاد شيخنا البسملة (عشرا) .

قال ينبغى أن تكون بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا الورد حفيظة وحصن يقال فى كل سفر ولو قرب ، وينبغى تقديمه على التوديع ، وإذا كان له مركوب(١) قال إذا جعل رجله فى الغرز : بسم الله ، وإذا استوى على ظهره ـــ الحمد لله سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون ـــ سبحانك إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، هكذا روى الترمذى .

زاد غيره : « الحمد لله الذى حملنا فى البر والبحر ، ورزقنا من الطيبات . وفضلنا على كثير من خلق تفضيلا ، اللهم إنا نسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هون علينا سفرنا هذا ، واطوعنا بعده ، اللهم أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الأهل اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى المال والأهل ».

ويكبر ويسبح ويحمد (ثلاثا وثلاثين) ويهلل (مرة) .

وأما التى تطلب بعد الشروع فاشتغاله بذكر الله ، وبالتفكر والاعتبار فى عظمة الله ، وكل ما رأى شيئا عرف فيه صانعه ومولاه ، وإذا علا على شرف كبر ، وإذا هبط فى واد أو مكان منخفض سبح ، وإذا انفلتت دابته قال : يا عباد الله احبسوا ، وإذا رأى قرية أو مدينة قال : اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، أسألك خير هذه القرية وخير أهلها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها ، وإذا وصل وضع يده على سورها،ويقرأ لإ يلاف قريش (ثلاثا) فاذا فعل ذلك لم يزل صحيحا جسمه فيها حتى يخرج ، وإذا دخلهـــا قال : اللهم بارك لنا فيها (ثلاثا) اللهم ارزقنا جناها وأعذنا من وباها ، وحببنا إلى أهلها وحبب صالح أهلها إلينا .

---

(١) أى دابة يركبها .

وسيأتى بقية الأدب والآداب التى تطلب حين يصل عند الناظم إن شاء الله .

وينبغى للفقير أن يشد يده على هذه الآداب النبوية ، فانها دليل المحبة ، قال الله تعالى — قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله — والله تعالى أعلم .

ثم قدم الحكمة فى سفرهم وما المقصود به فقال :

مذهبهم فى جولة البلدان	زيارة الشيوخ والإخوان
ثم اقتباس العلم والآثار	أورد ظلم أو للاعتبار
أو للخمول أو لنفى الجاه	أو للرسول أو لبيت الله

قلت من سنة الفقراء فى بدايتهم الجولان فى البلدان ، وعدم التقرر[1] فى الأوطان ، وذكر الناظم فى حكمة ذلك عشرة أوجه :

أولها : زيارة الشيوخ ، وهى أعظمها بعد الحج وزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك لما فيها من زيادة فيض الإمداد واكتساب الأوصاف المحمودة ، والتخلص من الأوصاف المذمومة ، مع اقتباس العلم والحال ، وفى ذلك من الخير ما لا يعلمه إلا الله ، وسيأتى بعض ذلك إن شاء الله .

وعن أبى رزين رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « زر فى الله فان من زار فى الله شيعه سبعون ألف ملك ، يقولون : اللهم صله كما وصل فيك ، وناداه مناد أن طبت وطاب ممشاك ، وتبوأت من الجنة مقعداً » .

قلت وهذا الذى ذكره الناظم زيارة الأحياء .

وأما زيارة الأموات ، فمن ظفر بشيخ التربية ، فلا يحتاج إلى زيارة غيره : حيا كان أو ميتـــا .

وقد قال التجيبى : إن زيارة الأموات ليس من طريق القوم .

---

(١) أى الاستقرار .

(٢) ورواه أبو نعيم فى « الحلية » عن ابن عباس ، ونصه كما فى الفتح الكبير : « زر فى الله فانه من زار فى الله شيعه سبعون ألف ملك » .

قلت : وهو كذلك ،لأن القوم قد أغناهم بالأحياء، فلا يزورون الأموات إلا للدعاء لهم حم عليهم ، وأما من لم يظفر بشيخ التربية فينبغى له الإكثار من زيارتهم، فإن غاية نفع أن يدله على الحى ، وفى ذلك يقـــول الشيخ الصالح أبو إسحاق سيدى إبراهيم التازى بن وهران) .

زيارة أرباب التقى مرهم يبرى ... ومفتاح أبواب الهداية والخير
وتحدث فى الصدر الخلى إرادة ... وتشرح صدراً ضاق من سعة الوزر
وتنصر مظلوما ، وترفع خاملا ... وتكسب معدوما ، وتجبر ذا كسر
فكم خلصت من لجة الإثم فاتكا ... فألقته فى بحر الإنابة والبر
وكم من مريد أظفرته بمرشد ... خبير بصير بالبلاء وما يبرى
فألق عليه حلة يمنية ... مطرزة بالفتح واليمن والنصر
عليك بها ، فالقوم باحوا بسرها ... ووصوا بها يا صاح فى السر والجهر
فزر ، وتأدب بعد تصحيح نية ... تأدب مملوك مع المالك الحر
ولا فرق فى أحكامها بين سالك ... مرب ومجذوب وحى وذى قبر
وذى الزهد والعباد فالكل منعم ... عليه، ولكن ليست الشمس كالبدر

ثانيا : زيارة الإخوان، ولا شك أن السفر لزيارة الإخوان قربة عظيمة ومنقبة جسيمة هى من أفضل السياحة قال الله تعالى — ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون[1] — فالمراد بالذين آمنوا : هم أنصار الدين ، الذين ينصحون عباد الله ، وهم الفقراء المتوجهون إلى الله ، فإن كل من لقيهم نصحوه وذكروه بالله .

وقال عليه الصلاة والسلام : «يقول الله تعالى: وجبت محبتى للمتحابين فى، المتجالسين فى ، المتزاورين فى، المتباذلين فى ، رواه مالك[2] .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٥٦ .

(٢) وروى الحديث من طرق أخرى منها : « حقت محبتى للمتحابين فى ، وحقت محبتى للمتواصلين فى ، وحقت محبتى للمتناصحين فى ، وحقت محبتى للمتزاورين فى ، وحقت محبتى للمتباذلين فى : المتحابون فى على منابر من نور ، يغبطهم بمكانهم النبيون والصديقون والشهداء » رواه الإمام أحمد ، وابن حبان ، والحاكم ، والقضاعى . عن عبادة بن الصامت . =

وقال صلى الله عليه وسلم : إن فى الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها أعدها الله للمتحابين فيه ، والمتزاورين فيه ، والمتباذلين فيه ، رواه الطبرانى .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أن رجلا زار أخا له فى قرية فأرصد الله تعالى له على مدرجته ملكا ، فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخا لى فى هذه القرية قال : هل لك عليه من نعمة تربها ؟ قال: لا ، غير أنى أحببته فى الله: قال : فإنى رسول الله إليك أن الله قد أحبك كما أحببته فيه ، اه . رواه مسلم ، والمدرجة الطريق .

وقال صلى الله عليه وسلم « من عاد مريضاً أو زار أخاً فى الله ، ناداه مناد أن طبت وطاب ممشاك(١) » .

وقال أيضاًصلى الله عليهوسلم : « ما من عبد أتى أخاه يزوره فى الله ، إلا ناداه مناد من السماء أن طبت وطابت لك الجنة ، وإلا قال الله فى ملكوت عرشه: عبدى زارنى وعلى قراه فلم يرض له بثواب دون الجنة (٢)» .

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه لأصحابه حين قدموا عليه : هل تجالسون ؟ قالوا: لا نترك ذلك ، قال : فهل تزاورون ؟ قالوا : نعم يا أبا عبد الرحمن ، إن الرجل منا ليفقد أخاه فيمشى على رجليه إلى آخر الكوفة حتى يلقاه ، قال : إنكم لن تزالوا بخير ما فعلتم ذلك . اه .

ثالثها : اقتباس العلم النافع ، ولا شك أن السفر لطلب العلم فرض فقد قال عليه الصلاة والسلام « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وقال أيضا « اطلبوا العلم ولو بالصين » ذكره فى القوت (٣) .

= ونص عبارة الإمام مالك فى الموطأ : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تبارك وتعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون لجلالى ؟ اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى » ورواه أيضاً بهذا اللفظ الإمام أحمد ومسلم .

(١) رواه الترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة ، ولفظه من الفتح الكبير « من عاد أخاه فى الله ناداه مناد : أن طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلا » .

(٢) رواه ابن عدى ، والبيهقى ، والطبرانى فى الأوسط ، والأصغر ، والخطيب وابن عبد البر فى العلم ، وابن ماجه .

(٣) رواه ابن عبد البر وابن عدى والبيهقى فى المدخل عن أنس بن مالك .

وقال صلى الله عليه وسلم « من سلك طريقا يلتمس بها علما سهل الله له طريقا إلى الجنة(١) » وقال صلى الله عليه وسلم : ما من خارج خرج من بيته فى طلب العلم إلا وضعت الملائكة له أجنحتها ، رضى بما صنع(٢) » .

وعن قبيصة رضى الله عنه قال :«أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا قبيصة ما جاء بك ؟ قلت : كبرت سنى ورق عظمى فأتيتك لتعلمنى ما ينفعنى الله به قال : يا قبيصة ما مررت بحجر ولا شجر ولا مدر الا استغفر لك» الحديث .

وقال صلى الله عليه وسلم « من غدا يريد العلم يتعلمه لله ، فتح الله له بابا إلى الجنة ، وفرشت له الملائكة أكتافها ، وصلت عليه ملائكة السموات ، وحيتان البحر ، وللعالم من الفضل على العابد كالقمر ليلة البدر على أصغر كوكب فى السماء ، والعلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا درهما ولا ديناراً ، ولكنهم ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر ، وموت العالم مصيبة لا تجبر ، وثلمة لا تسد ، وهو نجم طمس : موت قبيلة أيسر من موت عالم » .

والمراد بالعلم فى الحديث : « العلم النافع فيصدق بعلم ذات الله وصفاته » وأحكامه ، والمراد بالعابد الذى فضل عليه العالم : العابد الجاهل بما يلزمه من أداء فرضه ، فلا شك أن عبادة الجاهل فى جحره ، والعالم شامل للعلم بالله ، وهو الولى ، والعالم بأحكام الله وهو : العالم العامل المخلص ، والله تعالى أعلم .

رابعها : اقتباس الأثر وهو حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، وفضل السفر إليه كفضل السفر إلى العلم ، لأنه عين العلم ، وقال صلى الله عليه وسلم « نضر الله أمرءاً سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع » ومعنى « نضر » بهج وحسن .

خامسها : رد المظالم والسفر لذلك فرض ، كما إذا كان على الفقير دين أو قصاص أو حق من حقوق العباد ، فيسافر إليه ايرده أو يتحلل منه ، هكذا ذكره السلمى ، ونصه: ثم لطلب العلم ، ثم لزيارة الإخوان والمشايخ ، إلى أن قال : ثم لرد المظالم والاستحلال ، ثم لطلب الآثار والاعتبار ، ثم لرياضة النفوس وخمول الذكر اه . وهذا نص ما ذكره الشيخ فى هذه الأبيات .

---

(١) رواه مسلم والترمذى عن أبى هريرة .

(٢) رواه أحمد، وابن ماجه ، وابن حبان ، والحاكم ، وفى آخره — كما فى الفتح الكبير « حتى يرجع » وفى الباب أحاديث كثيرة فى وضع الملائكة اجنحتها لطالب العلم .

وقد تردد الشيخ زروق فى تفسيره ، لحمله أولا على رد ظلم العباد بعضهم عن بعض ، وجعله من تغيير المنكر وقال : هذا على من يمكنه ذلك من غير تقص فى دينه كما هو معلوم فى باب تغيير المنكر .

قلت : ولو حمله على رده بالشفاعة والإصلاح لكان أقرب ، ويكون فى حق الكاملين منهم .

وحمله ثانيا على ما قلنا من رد المظالم، ثم قال: وقد يريد الفرار من الظلم، فان المؤمن لايذل نفسه ، وقد قال تعالى — يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون (١)— وقال تعالى — ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها(٢) — وقد يريد الفرار من المحل الذى يجرى فيه الظلم على يديه كفرار إبراهيم بن آدهم رضى الله عنه من أرضه وغيره ، وكما فى حديث الرجل الذى قتل تسعة وتسعين نفسا ثم كمل المائة بالعابد ، فلما دل على التوبة قال له : « اخرج من أرضك إنها أرض سوء » الحديث(٣) . اه .

وهذه كلها احتمالات يقبلها اللفظ ، وأما المقصد فهو الأول ، لأن عادة الناظم محاذاة ما للسلمى ، والله تعالى أعلم .

سادسها : الاعتبار بما يرى فى سفره من جبال وأنهار وعيون وبحار وأشجار وثمار وأصناف المخلوقات ، وضروب الكائنات ، وقد تقدم أنه ينوى هذا فى أول سفره .

سابعها : قصد الخمول ونفى الجاه إذ لا يتحقق الإخلاص حتى يسقط من عين الناس ، ويسقط الناس من عينه ، ولا شك أنه إذا تغرب فى البلدان لا يعرفه أحد ، فيأمن من الظهور الذى هو قاصم الظهور ، والخمول مقصود عند القوم فى البدايات ، وملحوظ فى النهايات .

ثامنها: نفى الجاه ، وهو قريب من الخمول،ويفرق بينهما بأن قصد الخمول هو الذى لم يكن له جاه فأراد أن يبقى على خموله ، ونفى الجاه هو الذى كان له جاه وأراد نفيه وزواله فاذا سافر إلى موضع لا يعرفه أحد، فالغالب تحقيق خموله ، وينبغى له أن يكتم اسمه ويخفى حاله حتى لايعرف لأنه إذا عرف رجع إليه ماهرب منه ، والمراد بالجاه : المضر أو الجارى على

---

(١) الآية : ٥٦ سورة العنكبوت .

(٢) الآية : ٩٧ سورة النساء .

غير وجه مستقيم ، أو الذي يخشى منه نقصا أو شغلا ، أو الذي تميل إليه النفس وتركن إليه فإن الركون إلى ظل العز قاطع كبير .

تاسعها : لزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهي من أكبر القربات وأعلى الدرجات ، فقد قال عليه الصلاة والسلام « من زارني في المدينة وجبت له شفاعتي(١) » أو كما قال ، وقال صلى الله عليه وسلم : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى(٢) » اهـ .

عاشرها : زيارة بيت الله الحرام ، والوقوف بعرفة ، وهو فرض المستطيع ، مستحب لغيره إذا سلم من تضييع واجب ، قال صلى الله عليه وسلم : « من حج هذا البيت ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه »(٣) اهـ .

تنبيه : قال الشيخ زروق رضي الله عنه : كل هذه الوجوه تحتاج لتصحيح النية، وتحقيق القصد ، فإن النفس خادعة ، وللأمور آفات ، واعتبر هذا بحكاية أحمد ابن أرقم ، حيث جنحت نفسه لطلب الجهاد فتعجب منها ، وقال: نفس تأمر بالخير،هذا عجب، ثم سأل الله تعالى قائلا : اللهم إني مصدق بقولك — إن النفس لأمارة بالسوء — ولها مكذب فأطلعني على حقيقة هذا الأمر ، قالت :يا أحمد إنك تقتلني كل يوم كذا وكذا قتلة ، ولا يشعر بي أحد فأردت موتة واحدة ، ويقال : مات شهيداً .

قال الإمام أبو حامد رحمه الله ، فانظر كيف رضيت بالرياء بعد الموت انتهى بمعناه .

قلت : وبقي من فوائد السفر صحة البدن والقلب فقد قال عليه الصلاة والسلام : سافروا تصحوا وتغنموا(٤) ، وكذلك قصد موت الغربة ، فقد قال أيضا عليه الصلاة والسلام : « الغريب شهيد ويفسح له في قبره كبعده من أهله »(٥) .

ثم ذكر مفهوم ما تقدم فقال :

ولم تكن أسفارهم تنزهـا   بل كان لله فيها نحوه التوجها

---

(١) وقال عليه الصلاة والسلام « من زارني بالمدينة محتسباً كنت له شهيداً ، أو شفيعاً يوم القيامة » رواه البيهقي في شعب الإيمان .

(٢) رواه أحمد ، وأبو داود، والنسائي ، وابن ماجه،وهو متفق عليه من البخاري ومسلم.

(٣) رواه البخاري ، وأحمد ، والنسائي ، وابن ماجه ، والترمذي .

(٤) رواه البيهقي والشيرازي في الألقاب . وأبو نعيم في الطب ، والقضاعي .

(٥) في حديث طويل رواه ابن عساكر

ولم تكن أيضاً بلا استئذان للشيخ والآباء والإخوان
ولم يكن ذلك الفتوح أو لامرىء مبتذل ممدوح

قلت : إنما لم تكن أسفارهم للتنزه فى البلدان ، أو لكروب الأوطان ، بل فى رضى الرحمن ، لأن مقاصدهم دائرة على الجد والتحقيق والمناقشة والتدقيق ، لا ينقلون أقدامهم إلا حيث يرجون رضى الله ، ولا تنزل هممهم العالية إلا على الله ، غائبون عما سواه ، لا يتوجهون بهممهم إلا نحو الحبيب ، ولا يسافرون بقلوبهم إلا إلى حضرة القريب المجيب بخلاف العامة : أنفسهم غالبة عليهم ، وشهواتهم حاكمة عليهم ، إن تحركوا للطاعة خوضتها عليهم، فأفسدت عليهم نياتهم وأزعجتهم فى هوى أنفسهم، تظهر لهم الطاعة وتخفى لهم الخديعة .

روى أن رجلا جاء يودع بشراً الحافى رضى الله عنه عند مشيه للحج، وقال : قد عزمت على الحج أتأمر بشىء ، فقال له بشر : كم أعددت للنفقة ؟ فقال : ألفى درهم ، فقال له بشر : أى شىء تبتغى بحجك نزهة أو اشتياقاً إلى البيت وابتغاء مرضاة الله، قال: ابتغاء مرضاة الله ؛ قال فإن أصبت رضى الله تعالى ، وأنت فى منزلك وتنفق ألفى درهم وتكون على يقين من مرضاة الله، أتفعل ذلك ؟ قال : نعم، قال : اذهب فأعطها عشرة أنفس : مديناً يقضى دينه، وفقيراً يرم شعثه ، ومعيلا يجبر عياله ، ومربى يتيم يفرحه ، وإن قوى قلبك أن تعطيها لواحد فافعل ، فإن إدخالك السرور على قلب امرىء مسلم، وإغاثة لهفان وكشف ضر محتاج ، وإعانة رجل ضعيف اليقين أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام ، قم فأخرجها كما أمرناك وإلا قل لنا ما فى قلبك ، قال: يا أبا نصر : سفرى أقوى فى قلبى، فتبسم بشر وأقبل عليه وقال له : المال إذا جمع من وسخ الشبهات والتجارات اقتضت النفس أن تقضى به وطراً تسرع إليه بظاهر الأعمال الصالحات ، وقد آلى الله على نفسه ألا يقبل إلا عمل المتقين اهـ .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : إذا أكرم الله عبداً فى حركاته وسكناته نصب له العبودية لله ، وستر عنه حظوظ نفسه ، وجعله يتقلب فى عبوديته ، والحظوظ عنه مستورة مع جرى ما قدر له ، ولا يلتفت إليها كأنه فى معزل عنها ، وإذا أهان الله عبداً فى حركاته وسكناته نصب له حظوظ نفسه ، وستر عنه عبوديته فهو يتقلب فى شهواته وعبودية الله عنه بمعزل ، وإن كان يجرى عليه شىء منها فى الظاهر ، قال : وهذا باب من الولاية والإهانة .

وأما الصديقية العظمى والولاية الكبرى، فالحظوظ والحقوق كلها سواء عند ذوي البصيرة لأنه بالله فيما يأخذ ويترك اه .

وإنما لم تكن أسفارهم بلا استئذان الشيخ والآباء، لأن السفر من غير إذن الشيخ لا بركة فيه، ولا سير إلى الله فيه ، بل فيه نقض للعهد الذي أخذه عنه : ألا يتحرك إلا بإذنه ، وقد يكون له نظر في إقامته ، وكانت الفقراء في الزمان السالف يستأذنون فيما هو أقل من هذا وقد وجد بعض الفقراء باقلا (أي فولا) فأتى به إلى الشيخ فقال : يا سيدي ما أفعل بهذه الباقلا ، فقال له : أفطر عليها ، فقال بعض الحاضرين : يا سيدي يشاورك حتى في الباقلا ، قال: نعم لو خالفني في شيء لم يفلح ، أو ما هذا معناه، وهذا إن كان السفر بعيداً، وأما القريب الذي لا يستغنى عنه ، فأمره قريب .

وأما استئذان الآباء فهو أيضاً من الأمور المؤكدة .

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: فإن حق الوالدين واجب شرعاً، إلا في واجب لا محيد عنه ، ولا تراخي فيه كطلب علم حاله ، والجهاد عند تعيينه ، والحج عند ضيق وقته ، إذا توفر شرطه .

وقال السلمي : ولا يسافر بغير رضى الوالدين والأستاذ ، وبغير إذنهم ، حتى لا يكون عاقاً في سفره ، فلا يجد بركة في أسفاره .

قلت : هذا إن تحقق أنهم لا يمنعونه من زيارة الشيخ ، وأما إن تحقق أنهم يمنعونه من زيارة شيخ التربية أو من صحبته ، فلا فائدة في استئذانهم ، ويسقط عنه استئذانهم ، حسبما ذكره البلالي في « اختصار الإحياء » ونصه في باب حقيقة علم الباطن ، ويسافر إليه ولو منع أبواه في فرضه .

وذكر الشيخ السنوسي في « شرح الجزيري » أن النفس إذا غلبت كانت كالعدو إذا فجأ فتجب مجاهدتها والنهوض إليها بقواه العلمية والعملية ، وفي مثل هذا يسقط استئذان الأبوين وغيرهما ، إلخ كلامه الطويل في المسألة .

وقد يرجح هـذا قوله تعالى — وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما(١) — فإن الشرك على قسمين : أكبر وأصغر «وما» من ألفاظ العموم ، والشرك

---

(١) الآية : ١٥ من سورة لقمان .

الأصغر لا ينجو منه فى الغالب إلا بصحبة من تخلص منه بشيخ كامل ، والقرآن بحر واسع يغرف منه كل أحد على قدر وسعه .

ومما يناسب ما قلناه من مخالفة الأبوين فى صحبة الشيخ ، قول الشاعر :

ولا أصغى إلى من قد نهانى ولى إذن عن العذال صما
أخاطر بالخواطر فى هواكم وأترك فى رضاكم أباً وأماً

ولقد سمعت من أشياخنا وغيرهم : أن شاباً كان يحضر مجلس شيخ شيوخنا ، سيدى يوسف الفاسى ، وكان أبوه ينهـــاه عن ذلك ويزجره ، حتى كان ربما يأتى لمجلس الشيخ ويقول : أترك لى ولدى ، فكان الشيخ يقول للشاب : يا ولدى أطع أباك فى كل شىء إلا فى القدوم إلينا وحضور مجلسنا ، وكأنه تمسك بقول الغزالى : « إن أخذ علم التصوف فرض عين » والله تعالى أعلم .

وقول السلمى : لئلا يكون عاقاً لوالديه : اعلم أن عقوق الوالدين لا يكون بمجرد مخالفتهم ، فإن الوالدين على ثلاثة أقسام :

قسم : يكونان وافرى العقل واسعى الصدر ، لا يغضبان بشىء .

وقسم : يكونان ضعيفى العقل ضيق الصدر ، يغضبان بأقل شىء ، وقد يغضبان بلا شىء .

وقسم : يكونان معتدلى الحال .

فأما القسم الأول : فقد يعقهما ، ولو لم يغضبا .

وأما القسم الثانى : فقد لا يكون عاقاً لهما ولو غضبا ، والمرجع فى ذلك لعرف أهل العقول الكاملة بحيث يشهدون فى ذلك ويقولون : إنه عقوق ، سواء ظهر غضب أو لا .

وأما الثالث : فغضبهما عقوق ، كذا سمعت هذا التفصيل من بعض العلماء الفاسيين وهو صحيح حسن (نقله بعض شراح الشمايل) والله تعالى أعلم .

وأما استئذان الإخوان ، فهو حسن لعله ينهض حالهم للزيارة معه .

وأما كون سفرهم لم يكن للفتوح ، وهو ما يقبضه من الهدايا والصدقات ، فقد تقدم أن سفرهم إنما كان لرضى الرحمن ، أو لتذكير الإخوان ، أو لرياضة النفوس ، ولم تكن أسفارهم لقصد الدنيا ، فإن ذلك من الهمة الدنية ، وكل من كان سفره للدنيا ، فلا قيمة له عند الله ،

ومن كانت همته ما يدخل بطنه ، كانت قيمته ما يخرج منها ، وجلوس من كانت هذه همته في بيته أفضل له ، نعم إن تخلصت النية ثم أعطاه الله فتوحاً أخذه بنية الشيخ أو صرفه فيما يضطر إليه ، وكذلك السفر لمن كان مشهوراً بالسخاء والعطاء ، فهو من قبيل السفر للدنيا إذ لا يخلو من طمع فيه ، وما أقبح الطمع ، وما أحسن الورع .

دخل سيدنا على كرم الله وجهه البصرة فوجد الناس يقصون في المسجد ، فأقامهم حتى وقف على الحسن البصري، فرأى عليه سمتاً وهديا ، فقال له : إني سائلك فان أجبتني تركتك ، وإن لم تجبني أقمتك كما أقمت أصحابك ، فقال له : سل عما بدالك ، فقال له : ما فساد الدين ؟ قال : الطمع ، قال : وما صلاح الدين ؟ قال : الورع ، قال له اجلس فمثلك يتكلم على الناس . اهـ .

وإلى هذا أشار بقوله «أو لامرىء مبتذل ممدوح» والمبتذل اسم فاعل ، من ابتذل طعامه أعطاه ، وأصل ما ذكره الناظم قول السلمى رحمه الله : ولا يسافر للنزهة والبطر ورءاء الناس والجولان في البلدان لطلب الدنيا والصبوب على متابعة الهوى .
قال أبو تراب النخشبي رضي الله عنه : ليس شر أضر على المريدين من أسفارهم على متابعة هواهم ، وما فسد من فسد من المريدين إلا بالأسفار البطالة .

قال الله تعالى — ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورءاء الناس(١) — وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يأتي على الناس زمان يحج أغنياء أمتي للنزهة ، وأوساطهم للتجارة ، وقراؤهم للرياء ، وفقراؤهم للمسألة(٢) » وقال أيضا(٣) قال أبو حفص النيسابوري : ينبغي للمسافر ثلاثة أشياء : ترك تدبير الزاد ، وتقدير الطريق ، ويعلم أن الله حافظه .

ثم ذكر آداب الوصول ، فقال :

لحيث ما حلوا بلدا فبالحرا أن يقصدوا الشيخ وبعد الفقرا

---

(١) الآية : ٤٧ من سورة الأنفال .
(٢) ولفظ الحديث : « إذا كان آخر الزمان خرج الناس للحج أربعة أصناف : سلاطينهم للنزهة ، وأغنياؤهم للتجارة ، وفقراؤهم للمسألة ، وقراؤهم للسمعة ، رواه الخطيب بإسناد مجهول ، وأبو عثمان الصابوني في كتاب المائتين بمعناه .
(٣) أي قال أبو تراب النخشبي .

قلت : من آداب الفقراء إذا حلوا بلداً من البلدان ، سواء كانت التى فيها شيخهم . أولا أن يقصدوا شيوخها و كبراءها أولا ، ثم يقصدوا فقراءها ، لأن التقديم تعظيم ، والتعظيم على قدر المقام ، ومن لا يعظم لا يعظم ، وإذا قصدوا شيوخها فلا يدخلون عليهم إلا معتقدين كمال ولايتهم ، ولا يدخلون مختبرين فيحرمون بركتهم ، فكل من قصد الأولياء بالميزان ، فلا ينال إلا الحرمان ، ومن أتاهم بالتعظيم وحسن الاعتقاد نال من الله كمال المحبة وحسن الوداد ، وينبغى أن ينعزل من علمه وعمله وحاله ، كما يفعل مع شيخه ، وكذلك يفعل مع الفقراء ، فلا يدخل عليهم إلا معتقداً كمالهم ، وينعزل أيضا عن علمه وعمله ، فيرجع إلى علمهم فيما يشيرون إليه ، ولا يدعى علما ، ولا يراه فى حضرتهم ، بل يرى علمهم أكمل من علمه ، وأنه مفتقر إليهم وإن كان أعلى منهم فى الظاهر ، ويرى عملهم أوفى من عمله ، وإن كان أوفى منهم فيه ، لأن ذلك معتبر بالحقائق ، وهى باطنية قلبية ، فيحملها على أكمل الوجوه وأتمها ، فيشرب منهم على قدر اعتقاده ، ويأخذ من مددهم على قدر صدقه ، وهذا الترتيب الذى ذكرنا هو مع الاختيار ، فإن تعذر لقاء المشايخ أولا : قدم الفقراء .

وقوله « فبالحرا » أى فبالأحروية والأولوية أن يقدموا الشيخ ، ثم بعد ذلك الفقراء إن أمكن كما قلناه ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر آداب لقاء الأشياخ ، والجلوس معهم ومكالمتهم ، فقال :

وإن للقوم هنا آدابا إذ جعلوا كلامهم جوابا
فإن تعاطى الشيخ منهم قولا قالوا ، وإلا فالسكوت أولى

قلت : للقوم فى لقاء المشايخ آداب .

منها : أنهم إذا قربوا المنزل رفعوا أصواتهم بالهيللة والذكر ، فلا يزالون كذلك حتى يصلوا الى الزاوية فهو من تعظيم النسبة ويفعلون ذلك عند قربهم للمداشر ، لما فيه من تنبيه الغافلين الشياطين ، ومنها انتظار خروج الشيخ من غير نداء عليه ، ولا رسول إليه ، قال الله تعالى — إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون[1] —

ومنها تقبيل يد الشيخ ، ثم رجله ان جرت بذلك عادة للفقراء ، فهو من أحسن التعظيم وهو من تربية الآداب والمهابة .

(١) سورة الحجرات الآية : ٤ .

وفى ذلك قال الشاعر :

يا من يريد خرقة المحبة خذوها عنى : هى حلال
ومن يريد يسقى منها غبا خد يضع لأقدام الرجال
راعى حطات لكل شيخ هم الموالى : سقونى زلال

ومنها جلوسهم بين يديه على نعت السكينة والوقار، خافضين أصواتهم، ناكسين رءوسهم غاضين أبصارهم ، فلا يكلمونه حتى يبدأهم بالكلام .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : ثم إن طلب أحدهم بالكلام ، فإن كان الكلام عاديا أتى به منخفضا، وإن كان فى العلوم والحقائق نظر ، فإن حضرته نفسه ترك ، وإلا تكلم بأقل ما يمكنه الكلام فى ذلك ، لأن الكلام فى حضرة الأستاذين مقت .

ثم قال : ومن أعجب ما شهدته فى بعض الناس أنهم يدخلون على رجال من أهل الكمال لقصد الانتفاع بهم ، ثم يبسطون ألسنتهم بالكلام فى وجوه من صور الحقائق ، ويرون أنهم بذلك متقربون لقلوبهم ، ومتحببون لهم، ولا أدرى هل ذلك لظنهم خلوهم عما يألونه ، أو لرؤيتهم أن ذلك مما يقربهم إليهم ، أو ليروهم أنهم يفهمون ويذوقون، هذه كلها جهالات أعاذنا الله منها ، انتهى كلامه .

قلت : أما فى حال المذاكرة فلا بأس أن يتكلم بما عنده من العلم إعانة للشيخ ، بانخفاض وتواضع ، ولا يعارضه فى كلامه ، فإن لم يفهم كلام الشيخ ، أو رآه مخالفاً لرأيه ، أو لما عند غيره ، يقول : يا سيدى هذا ما فهمته ، وقد ظهر لى كذا وكذا ، وقال فلان : كذا وكذا على وجه الاستفهام ، لا على وجه التعارض ، فإن ظهر له خلاف ما ظهر للشيخ فليسكت ، وإن وقعت معارضة بين الشيخ وبعض الفقراء أو غيرهم ، فلينصر الشيخ ما استطاع ، فإن ذلك مما يجلب المودة من الشيخ ، ثم إن تعاطى الشيخ من الفقراء كلاما أو من أحدهم : كلمه بخفض وتواضع ، وإلا فالسكوت أولى .

وقد أشرت إلى هذه الآداب مع زيادة فى قصيدتى العينية التى وضعتها فى الآداب ، فقلت بعد كلام :

مع الشيخ آداب إذا لم تكن له فإنه فى واد القطيعة راتع

خضوع، وهيبة، وصدق محبة ... وعقل كال فيه : إنه جامع
فلاترفعن صوتا إذا كان حاضراً ... ولا تضحكن، فالضحك فيه لجائع
ولا تعترض أصلا عليه فانه ... بنور شهود البصيرة تابع
ولا ترمين عينا إلى ماء غيره ... فترى كسيراً فى المعاطش ضائع
ولا تخرجن من غش تربية غدت ... تمدك بالأنوار منها تتابع
إلى أن ترى الترشيد قد حاز وقته ... وصرت من التمكين أمرك شائع
تمد من الأنوار من كل وجهة ... وتسق من الأنام من هو تابع

ثم أشار إلى آداب المقدم عليهم فى حق القادمين، فقال :

واجب على أولى الإقامه ... تفقد الوارد بالكرامه
وهو يزور القوم فى الحرام ... وإنما ذاك للاحترام
ويبدءوا الوارد بالسلام ... وبالطعام ثم بالإكرام
وكلموه بعدها تكلما ... تأسياً بفعل إبراهيما
وكرهوا سؤال هذا الوارد ... إلا عن الشيخ أو التلامذ

قلت : ذكر فى هذه الأبيات ستة آداب فى حق المقدم عليهم :

أولها : تفقد الوارد بالكرامة، وهو الذهاب إلى لقائه وإظهار المبرة فى وجهه والفرح به وإراحته من شوشته وتعلقاته، وإنزاله فى محل يظهر به التعظيم كدار، أو زاوية، والدار أبلغ فى تعظيمه، فان نزل فى محل قدم عليه من لم يكن خرج للقائه. فالوارد أحق أن يزار فى محله إلا أن يكون بمكة، فان عليه أن يزور المجاورين لبيت الله الحرام، لحرمة بيت الله الحرام، فلا يخرجون منه إلى غيره، وهذا معنى قوله « واجب على أولى الإقامة » إلخ. وقوله « وهو يزور القوم » إلخ. على ما فى بعض النسخ.

ثانيها : ابتداؤه بالسلام تأنيساً له لقوله عليه الصلاة والسلام : « لكل داخل دهشة فابدءوه بالسلام، ولكل طاعم وحشة، فابدءوه باليمين ».

وإليه أشار بقوله « ويبدوا الوارد » اه.

ثالثها : مبادرته بالطعام ، ويسمى هذا الطعام « القرى » والمراد ما تيسر ووجد من غير تكلف ، وهذه من المسائل التي تطلب المبادرة بها ، وقد نظمها بعضهم فقال :

بَادِرْ بِتَوْبَةٍ قِرىً والدَّفْنِ   نِكَاحِ بِكْرٍ ، وَصَلاةٍ ، دَيْنِ

رابعا : إظهار كرامته بما يقدر عليه من الطعام من غير تكلف مفرط ولا تفريط ، فالصوفي لا يتكلف ولا يكلف ، فإن كان موسعاً عليه بالغ في إكرامه من غير سرف .

قال السلمي : ولما ورد أبو حفص على الجنيد تكلف في خدمته فأنكر عليه ، فقال : لو دخلت خراسان علمتك كيف الفتوة ، فقيل له في ذلك ؟ فقال : صيرت أصحابي مخانيث ، تقدم إليهم ألوان الطعام والطيبات كل يوم ، وإنما الفتوة عندنا ترك التكلف ، ثم قال له : إذا حضرك الفقراء فاخدمهم بلا تكلف ، حتى إذا جعت جاعوا معك، وإذا شبعت شبعوا معك ، وحتى يكون مقامهم وخروجهم من عندك واحداً .

خامساً تكليمه تكليما خفيفا ، كما فعل إبراهيم عليه السلام حيث بدأ بالسلام ، ثم أتى بالطعام ، ثم تكلم معهم ، قال تعالى ــ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم(١) ــ الآية ، ثم قال ــ فما خطبكم أيها المرسلون(٢) ــ فهذا هو الكلام ، وإليه أشار بقوله « وكلموه » إلخ . والتأسي هو الاقتداء .

سادسها : ترك سؤاله عن أحوال الدنيا وأحاديثها ، فإن ذلك مما لا يعني ، ويقسي القلب ، وإليه أشار بقوله « وكرهوا » إلخ .

وأصل ما ذكره الناظم قول السلمي رضي الله عنه : وعلى المقيمين أن يسلموا عليه ، أي على الوارد ، لحق القادم أن يزار ، إلا أن يكون بمكة ، فان عليه زيارة المجاورين لحرمة بيت الله الحرام ، ثم يقدم إليه ما حضر من الطعام من غير تكلف ، فقد قيل : الأدب مع الضيف أن يبدأ بالسلام ، ثم بالإكرام ، كصنع الخليل عليه الصلاة والسلام - إذ دخلوا عليه

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٢٤ .

فقالوا سلاما قال سلام، فما لبث أن جاء بعجل حنيذ(١) ــ وقد قال عز وجل ــ قد كان لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه(٢) ــ ولا يسئل عن أحاديث الدنيا مما لا يعنى، بل عن أخبار المشايخ والأصحاب والإخوان المتعاونين على أعمال الخير.

ثم أشار إلى ملازمة الأوراد فى حال السفر، فقال :

وكرهوا تضييعه أوراده كيف، وقد جاء إلى الزياده

قلت : أوراد الإنسان ما كان وظفه عليه شيخه، أو وظفه على نفسه، والمراد من ما كان يعمله فى حضره، فاذا سافر بقى على ما كان عليه، لقوله عليه الصلاة والسلام «أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل(٣)».

وذلك بقدر الاستطاعة، وإلا فالسفر محل التعب والنصب، فقد يشق عليه فى حال حضره مع أن أجره جار عليه، ولو لم يفعل، ففى الحديث «اذا مرض الإنسان أو سافر أجرى عليه ماكان يعمل مقيما صحيحا(٤)» أو كما قال عليه الصلاة والسلام «نعم الفكرة والقراءة» إن كان من أهلها لا يتركها، وكذلك المذاكرة، وكيف يترك أوراده بالكلية، وهو إنما سافر لطلب الزيادة الباطنية.

كان بعض المشايخ يقول : عليك بالذكر عند البسط، وبالفكر عند القبض، وبالحمد على كل حال، وردك لا تتركه، فإن فاتك بالليل استدركه بالنهار، وإن سافرت فاجعل وردك كله فى الذكر، أو اتركه على حاله، الى آخر كلامه، ثم قال :

ومن يسافر فى هوى النفوس فإنما يؤمر بالجلوس

قلت : ما قاله ظاهر، وقد تقدم هذا المعنى مراراً، وتقدم ضابط أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه قريبا، والغالب على من لم يظفر بشيخ التربية هذا الوصف الا النادر، اذ لا يخرج من حظوظ النفس إلا بصحبة من خرج منها، والله تعالى أعلم :

---

(١) سورة هود عليه الصلاة والسلام، الآية : ٦٩ .

(٢) سورة الممتحنة، الآية : ٤ .

(٣) متفق عليه من البخارى ومسلم .

(٤) رواه الإمام أحمد، والبخارى عن أبى موسى، ولفظه من «الفتح الكبير» : «اذا مرض العبد كتب الله تعالى له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحاً مقيما» .

تتمة : بقى آداب تتعلق بالسفر ذكرها السلمى .

منها : أنه إذا دخل بلداً فيها زوايا قصد أعظمها وأكثرها فقراء .

قلت : هذا إن كانوا كلهم من طريقته ، وإلا نزل على من هو متفق معه فى النسبة .

ومنها : أنه ينبغى أن ينزل على الموضع الذى فيه المياه الجارية ، والمطاهر النقية .

قال : وسمعت أبا طاهر الأشقر يقول : كان يصحبنى فقير مليح ، كلما نزلنا منزلاً تفقد موضع الطهارة ، فإن وجده نظيفاً طيباً استطاب المكان وتناول ما قدم إليه من الطعام ، وإن لم يكن ذلك لم يتناول الطعام ، وقال : هذه بلية ليس فيها كنيف .

ومنها : أنه إذا دخل بلداً ليس فيها فقراء نزل على أكثرهم محبة لهذه الطائفة ، وأحسنهم إيماناً بهم وميلا إليهم ، فإذا دخل دويرة تنحى ناحية ونزع خفيه ، يبدأ باليسرى فى النزع وباليمنى فى اللبس ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا تنعل أحدكم فليبدأ باليمنى وإذا نزع خفيه ، يبدأ باليسرى(١) » ، ثم يقصد موضع الطهارة فيتوضأ ويصلى ركعتين ، فإن كان هناك شيخ قصد زيارته وقبل رأسه ، إلا أن يكون الزائر حدثاً فيقبل يديه اهـ .

ومنها : أنه ينبغى لمن أراد السفر أن يتعلم أحكامه كأحكام قصر الصلاة ، والتيمم ، والقبلة(٢) ، وغير ذلك مما يتوقف عليه فى السفر .

قال الشيخ أبو يعقوب السنوسى رحمه الله : يحتاج المسافر إلى أربعة أشياء فى سفره ، وإلا فلا يسافر : علم يسوسه ، وورع يحجزه ، وخلق يصونه ، ويقين يحمله .

سئل أبو رويم عن أدب المسافر ؟ فقال : ألا تسبق همته خطوته ، وحيث ما وقف كان منزله .

ومنها أنهم إذا كانوا جماعة وليس فيهم مقدم ، ولا شيخ أن يتفقوا على مقدم يرجعون

---

(١) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه ، ولفظه : « إذا انتعل أحدكم فليبدأ باليمنى ، وإذا خلع فليبدأ باليسرى ، لتكون اليمنى أولهما تنعل ، وآخرهما تنزع » .

(٢) بكسر القاف ، مكان الاتجاه للكعبة الشريفة وهو مسافر .

إليه في أمورهم ، ففي بعض الآثار : « لا خير في قوم ليس فيهم من يعظم في الله » ، ومعناه ثابت في الحديث عند المنذرى ، غير أني لم أستحضره .

وقال السلمى في « آداب الصحبة » : ومن آدابهم إذا اجتمعوا أن يقدموا أحدهم لتكون مراجعتهم إليه واعتمادهم عليه ، ويكون أرجحهم عقلا ، ثم أكبرهم همة ، ثم أعلاهم حالا ثم أعلمهم بالمذهب ، ثم أسنهم .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ، فإن استووا فأفقههم في الدين ، فإن استووا فأقدمهم هجرة(١) » ، ثم أحسنهم خلقا ، ثم أتمهم أدبا ، ثم أسبقهم بلقاء المشايخ ، انتهى المراد منه .

وقال أيضا : ومن آدابهم ألا تجرى بينهم في حديثهم : هذا لى وهذا لك ، ولو كان كذا لم يكن كذا ، ولعل ، وعسى ، ولم فعلت ؟ ولم لم تفعل ؟ وما يجرى مجراها فإنها من أخلاق العوام(٢) .

ثم قال : ولا يجرى بينهم الإعارة والاستعارة(٣) .

قال بعضهم : الصوفى لا يعير ولا يستعير ، ولا تجرى بينهم المخاصمة ولا المجادلة ، ولا الاستهزاء ولا الازدراء ، ولا المراجعة ، ولا المغالبة ، ولا الغلبة ، والنقيصة لا تكون بينهم ، بل يكون كل واحد منهم للكبير كالابن ، وللصغير كالأب ، وللنظير كالأخ ، وللوالدين والأستاذين كالملوك .

---

(١) ونص الحديث : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة ، فإن كانوا في السنة سواء ، فأقدمهم هجرة ، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سنا ، ولا يؤمن الرجل الرجل في أهله وسلطانه ، ولا يقعد في بيته على تكرمته إلا بإذنه » . رواه أحمد ، ومسلم ، والأربعة عن ابن مسعود .

(٢) المقصود : منع الجدال على أى شكل كان .

(٣) لئلا تدب بينهم الشحناء والتنافر .

وهذا ليس خاصا بالسفر، وإنما هو من آدابهم فى الصحبة على الدوام، وفى السفر أكثر لأن السفر يسفر عن المعايب، ولا يبقى على حاله فى حال السفر إلا الصديق .

ومنها : أنه إذا أقبل وقرب إلى بلده ،قال : ولا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، آيبون تائبون عابدون ساجدون ، لربنا حامدون صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، لا يزال يقولها حتى يدخل البلد ، فاذا دخلها قال : اللهم اجعل لنا بها قراراً ، وارزقنا حسنا، فاذا دخل على أهله(١) . قال : أوبا أوبا ، لربنا توبا ، لا يغادر علينا حوبا .

ومنها : أنه ينبغى أن يستصحب هدية لأهله وأقاربه وجيرانه ، على قدر وسعه .

ومنها : أنه ينبغى أن يدخل أول النهار، ولا يدخل ليلا فان تعذر أرسل رسولا يعلم به وقد نهى عليه الصلاة والسلام « أن يطرق أهله ليلا(٢) والله تعالى أعلم وبالله التوفيق .

ثم أشار إلى الحكم الثامن من الأحكام التسعة ، وهو السؤال ، فقال :

الثامن فى السؤال : أى الطلب .

قلت : ذكر فى هذه الترجمة : حكمه ، وآدابه ، ومواطنه ، فبدأ بحكمه ، فقال :

حكم السؤال عندهم مشروع طوراً ، وطوراً عندهم ممنوع

قلت : اعلم أن السؤال أصله فى الشريعة الجواز، قال تعالى ـ وأما السائل فلا تنهر(٣) ـ وقال عليه الصلاة والسلام : « أعط السائل ولو على فرسه(٤) » .

ثم تعتريه الأحكام الخمسة يكون : واجبا ، ومندوبا ، ومباحا ، ومكروها ، وحراما .

---

(١) والسنة إذا دخل البلد بدأ بالمسجد قبل أهله .

(٢) ففى الحديث : « نهى النبى صلى الله عليه وسلم أن يطرق الرجل أهله ليلا » متفق عليه من حديث جابر .

(٣) سورة الضحى ، الآية : ١٠ .

(٤) ولفظه عند ابن عدى « اعطوا السائل وإن جاء على فرس » .

فأما الواجب فهو سؤال الاضطرار خوفا على البشرية أو الروحانية ، وذلك إذا غلبته نفسه للرياسة والكبر .

وقد نص ابن العربي على وجوبه على المريد في بدايته ، حسبما ذكره القسطلاني في شرح البخاري في باب الزكاة .

وأما المندوب فهو إذا سأل لغيره عند حاجته ، أو لتهذيب نفسه عند الأمن عليها ، وأما المباح فهو ما إذا سأل اختباراً لنفسه ، هل تقدر عليه أم لا ، وإذا طال عهده به اختبرها ، هل رجعت لأصلها أو هي باقية على موتها ، وأما المكروه فهو سؤاله لنفسه عند الحاجة قبل الضرورة ، وقيل : مباح ، على ما سيأتي .

وأما الحرام ، فهو السؤال تكثراً أو إلحاحا ، وسيأتي الكلام على هذه الأقسام في شرح كلام الناظم إن شاء الله .

ثم أشار إلى القسم الواجب أو المندوب ، فقال :

وما على السائل من تأويل　　　لأجل قهر النفس والتذليل
فمن أولى الأذواق والأحوال　　　من كان راض النفس بالسؤال
قالوا : ولا خير إذن في العبد　　　ما لم يكن قد ذاق طعم الرد

قلت : السؤال لأجل قهر النفس يصدق بالواجب والمندوب ، فالواجب ما إذا كانت نفسه غالبة عليه ، وفيها نفخة وكبر ورياسة ، ولا يمكن دواؤها إلا به لقوله عليه الصلاة والسلام « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال خردلة من كبر »(1) والمندوب ما إذا كانت مأمونة من ذلك ، لكن ثقل عليها وجمحت منه وهو في محل الرياضة ، فهذا مستحب في حقه إذ لا يثقل عليها الا ما يقتلها ، ولا شيء أسرع في قتلها منه ، فتقرب عليه المسافة ، وهذا ما لم يأمره به شيخه ، وإلا تعين عليه ، وصار من قبيل الواجب (وقيده) الشيخ زروق بما إذا لم يوصله

---

(1) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ، قيل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ، ونعله حسنة ؟ قال : « إن الله جميل يحب الجمال : الكبر : بطر الحق وغمط الناس » رواه مسلم عن ابن مسعود .

إلى ضرر فى دينه ودنياه(1) .

قلت : مثل الضرر فى الدين ما إذا كان يتكشف فى الديار على محارم الناس ، لأن عادة النساء لا يستترن من الفقراء فى السؤال ، ومثل ضرر الدنيا إذا خاف أن يقبض ويؤخذ ماله .

ثم قال الشيخ زروق : ولا يجعله الشيخ منهاجا وقاعدة كلية يعرف بها فقراءه ، فإن ذلك يؤدى لنقيض المقصود ، لاسيما مع هيئة مقصودة وكيفية معلومة تصير صاحبها علماً فيما توجه له فيزيده تعززاً وفساداً ، ولذلك قل ما ينجح من استعمله إلا ان يكون ذلك كما كان يفعله بعض الفقراء من أهل مصر : أنه كان إذا أتاه أحد من أبناء الدنيا ألزمه بذلك من غير شهوة حتى يأتى على آخر المدينة ثم يتصدق به . فقد يكون له وجه انتهى .

قلت : وما ذكره الشيخ زروق محمول على ما يفعله بعض الفقراء ، يأخذون علماً أو راية ويقصدون الدائر والخيم ، وهذا حرام ، وأما ما يفعله أصحابنا فإنما هو لقتل النفوس ، وقوت الأرواح إذ لا يتقدم له الفقير حين يؤمر به ، إلا بعد جهد جهيد وجهاد شديد ، بحيث تتمنى النفس الموت الحسى اختياراً ، وترضى أن تموت مراراً ولا تتقدم له ، إلا أن الصدق وهمة الشيخ تحمله على الامتثال ، فلا شك أنه يقرب مسافة بعيدة ، ويقتل النفس ، ويجهز عليها فى مرة واحدة ، وأصل دخوله فى هذه الطائفة على هذا الوجه أن شيخ شيخنا (سيدى على العمرانى) كان له جاه ووزارة ورياسة فى فاس ، فلما دخل فى يد الشيخ ، ورأى صدقه وجده ، قال له : أرى لك خمرة(2) لم يقدر عليها أحد قبلك ، ولولا ما رأيت فيك من الصدق والجد ما دللتك عليها ، قال : وما هى يا سيدى ؟ قال : السؤال ، فتقدم إليه .

---

(1) هذا الكلام كله يرده قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يتكفل لى أن لا يسأل الناس شيئا فأتكفل له بالجنة » فكان ثوبان راوى الحديث تسقط علاقة سوطه ولا يأمر أحداً يناوله إياه ، وينزل هو فيأخذه ، رواه أبو داود والنسائى وغيرهما . وبهذا الحديث الشريف الصحيح نعرف كيف يعلمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عزة الإسلام ، فإن للإسلام عزة فى قلب المسلم تنفره عن السؤال ولو أين الطريق .

(2) الخامرة : المخالطة ، والأخذ بالقهر والغلبة ، ومنه استخمر القوم: أى ملكهم قهراً والله تعالى أعلم .

ورأيت فى كتابه أنه قال له : يا ولدى، إنك تطلب هذا العلم(١) ، ولا تنال منه ما تريد إلا بالذل، فدخل فيه ، وسكن إلى مماته رضى الله عنه .

قوله : « فمن أولى الأذواق » الخ . يعنى أن بعض أهل الأذواق والأحوال « كان راض نفسه » أى ريضها وهذبها بالسؤال .

قال السلمى رضى الله عنه : وقد رخص بعضهم فى السؤال لمن يقصد بذلك تذليل النفس .

وقال عبد الله بن منازل : لا خير فيمن لم يذق طعم إجابة الرد .

وكان بعض المشايخ يأكل من السؤال، فسئل عن ذلك ؟ فقال : اخترته لكراهته نفسى .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيرى : ولا يزال الفقير بخير ما دام خبزه كسراً ، فإذا دارت الخبزة بين يديه دار الشر على رأسه .

وما أحسن حال السائل يقف بكل باب يسمع « يفتح الله » انتهى .

وكان إبراهيم الخواص تعرض عليه الألوف فلا يقبلها، وربما سأل من يعرف من الناس الدرهم والدرهمين ، لا يزيد على ذلك ، وكان أبو جعفر الحداد ، وهو شيخ الجنيد : يسئل بابا أو بابين أو ثلاثا بين العشائين، فكانت العامة تتعجب منه أولا، ثم عرف بذلك ، فكان لا يعيبه عليه العامة ولا الخاصة مع جلالة قدره وعلو معرفته بربه .

وكان إبراهيم بن أدهم معتكفاً بجامع البصرة، ولا يفطر إلا من ثلاثة أيام إلى ثلاثة أيام، يخرج بعد صلاة المغرب يطلب على الأبواب فطره .

وممن راض نفسه بالسؤال شيخ شيوخنا (سيدى عبد الرحمن المجذوب) وكذلك الشيخ العارف أبو الحسن الششترى، وفعله أيضاً فى أول بدايته أبو الحسن البردعى بأمر شيخه أبى عبد الله التاودى ، وغيرهم ممن لا يعرف .

---

(١) التذلل المطلوب للعلم فقط ليرفع عنه عار الجهل ، قال الشاعر :

من لم يذق ذل التعلم ساعة ... تجرع كأس الجهل طول حياته

لا الوقوف على قوارع الطريق وسؤال الناس أعطوه أو منعوه .

وقوله : « ولا خير إذن فى العبد » الخ . يعنى أن الفقير إذ لم يذق طعم الرد حتى يكون رد عنده أحلى من العطاء ، فلا خير فيه ، لأن نفسه لم تمت حيث استحسنت العطاء ، وثقل عليها المنع، فالواجب عليه الدوام عليه حتى يذوق سره، وذوق سره أن يكون المنع أحب إليها من العطاء والله تعالى أعلم .

ثم أشار إلى القسم الممنوع فقال :

ومنعوا السؤال للتكاثر بل حكموا عليه بالتهاجر
والقوم لما يسألوا إلحافا ولا تكاثراً ولا جزافا
بل ذاك كان منهم اضطرارا فيسألون القوت والإفطارا

قلت : هذا من القسم الممنوع ، وهو أن يسئل لقوت البشرية من غير اضطرار ، واختلف العلماء فى القدر الذى تحرم معه المسألة ، فقيل : أربعون درهماً ، وقيل: قوت يوم وليلة ، وهو أقرب ، والسؤال للتكاثر وهو لاكتساب المال والتكثر منه ، ولو صحبته نية نيل نفسه فلا ينفع ، لأن الخبيث يغلب الطيب ، لكثرته .

أخرج البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس فى وجهه مزعة لحم » والمزعة القطعة .

وقال أيضاً ﷺ «إنما المسائل كدوح يكدح بها الرجل وجهه، فمن شاء أبقى على وجهه ومن شاء ترك، إلا أن يسأل ذا سلطان فى أمر لا يجد منه بدا[1] » اهـ . والكدوح الخموش .

وقال ﷺ : « لا يزال العبد يسأل وهو غنى حتى يخلق وجهه ، فما يكون له عند الله وجه[2] » اهـ .

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وابن حبان عن سمرة بدون لفظ « انما » فى أول الحديث .

(٢) وفى هذا المعنى وردت عدة أحاديث ، منها قوله ﷺ : « من سأل الناس أموالهم تكثراً ، فإنما يسأل جمر جهنم ، فليستقل منه أو ليستكثر » رواه أحمد ومسلم وابن ماجه عن أبى هريرة .

وعن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من سأل مسألة عن ظهر غنى استكثر بها من رضف جهنم ، قالوا : وما ظهر غنى قال عشاء ليلة » .

قلت : وهذا يرجح القول الثانى فى القدر الذى يحرم معه السؤال ، وهذا كله مبنى على القصد والنية ، فمن كان مراده قوت الروحانية فلا كلام معه ، ومن كان مراده قوت البشرية خسر وخاب — قل كل يعمل على شاكلته — ومن عادة القوم إذا عرفوا أحداً يسئل لشهوة نفسه هجروه ولاموه حتى يتوب ، ومن عادتهم أنهم لا يسألون إلحافا ، أى بحرص وإلحاح حتى يؤذى المسئول .

قلت : وقد كان يفعله بعض الإخوان عفا الله عنهم ، فإن كان لجذب غلب عليهم فيسلم وإلا فغير صواب ، والله تعالى أعلم .

وقيل : الإلحاف السؤال دون احتياج ، قال عليه الصلاة والسلام : « من سأل وله أربعون درهماً فقد ألحف »(١) ويجمع بين مفهوم هذا والحديث المتقدم عن على كرم الله وجهه بأن المتقدم فى حق من عرف بالزهد والتوكل ، واشتهر بسيما الفقر ، وهذا فى حق العوام الذين لم يعرفوا بذلك كما قال عليه الصلاة والسلام فى فقير وجد عنده دينار ، فقال « كية من نار » وقد وجد عند غيره أكثر من ذلك فلم يقل فيه ذلك ، والله تعالى أعلم .

= (أو خدوش ، أو كدوح) قيل : وما الغنى ؟ قال : « خمسون درهما أو قيمتها من الذهب » رواه أحمد ، والأربعة والحاكم عن ابن مسعود .

ومنها : « من سأل شيئاً وعنده ما يغنيه ، فإنما يستكثر من جمر جهنم ، قالوا : وما يغنيه ؟ قال : قدر ما يغديه أو يعشيه » رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن حبان ، والحاكم عن سهل بن الحنظلية . والأحاديث فى هذا الباب كثيرة جداً . ونسأل الله تعالى أن يقينا وكل مسلم شر السؤال لغير الله إذ أن السؤال لغير الله ذل وهو عكس المطلوب فى علم التصوف ، والحق أحق أن يتبع .

(١) رواه أبو داود وابن حبان عن أبى سعيد .

والسؤال جزافاً بكسر الجيم وفتح الزاى(1) هو من يتخذه حرفة يصطاد به أموال الناس، وذكر فى القاموس أن الجزاف بفتح الجيم وشد الزاى، هو: الصياد والمجزفة بكسر الميم شبكة يصطاد بها.

قال بندار بن الحسن رضى الله عنه: من سأل وله ما يغنيه خفت أن يخاصمه فقراء المسلمين يوم القيامة، ويقولون أخذت ما جعل لنا من المال ولم تكن منا اه.

وإنما كان سؤال القوم عند الفاقة والاضطرار دون السعة والاختيار، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الآداب التى تكون عند السؤال فقال:

(وأدب الصوفى عند المسأله أن يدخل السرق إليه يسأله)
(لسانه يشير نحو الخلق وقلبـــه معلق بالحق)

قلت: السؤال الذى يكون لقوت الروحانية له آداب، إذا فعلها استحق بذلك فتح الباب ورفع الحجاب، وإن لم يفعلها لم يفتح له فيه الباب، وربما كان زيادة فى الحجاب:

الأول: أن يكون قصده قوت الروحانية فقط، أو قوت الفقراء، أو من تعلق به مع الاضطرار، وأما إن كان قصده قوت بشريته، أو شهوة من شهواته فضرره أكبر من نفعه.

الثانى: أن يكون بإذن من الشيخ، فإن لم يكن إذن فقد خسر فيه، وكل من تبطش نفسه له فلا نفع له فيه، إذ لا تموت النفس إلا بما يثقل عليها.

الثالث: أن يكون متحلياً بحلية العبد الفقير، يطلب المدد من العلى الكبير، فيكون حافى الرجل عارى الرأس فقيراً ذليلا ينادى سيده متاع الله: لله، ويحضر قلبه المعرفة حين يقول: لله.

الرابع: أن يكشف عن يده إلى الذراع، ويمدها إلى نحو المسئول، وينظر إلى جهته، لأن ذلك أشد على النفس وأسرع فى موتها، إذ الحياء جله فى العين، والمراد إنما هو موت النفوس وحياة الأرواح.

---

(1) أخذ الشىء بمجازفة وجزافاً، وهو فارسى معرّب.

الخامس : أن يكون عارفاً أو مستشرفاً فتكون يده ولسانه يشيران إلى الخلق حكمة، وقلبه معلق بالملك الحق .

قال فى الحكم : لا تمدن يدك إلى الأخذ من الخلائق، إلا أن ترى أن المعطى فيهم مولاك فإن كنت كذلك فخذ ما وافقك العلم .

وقيل : من علامة الفقير الصادق أن يأخذ الصدقة عن يعطيه ، لا عن جرت الصدقة على يديه ، وعلامته أن لا يذم مانعاً ، ولا يمدح معطياً ، ومن لم يكن عنده هذا العلم تعلمه قبل الخروج إلى السؤال ، فإن كثر عليه العطاء فينبغى أن يقصر فى السؤال ، لأن النفس مجبولة على حب العطاء ، وأما إن ظهر عليه المنع فينبغى أن يزيد فيه ، لأن ذلك حينئذ تمحض لحياة الروح ، فإن قبض شيئاً ولم يجد أحداً من الإخوان فليتصدق بذلك ليلا ، بحيث لا يشعر به أحد ، أو يرميها فى موضع خال ، والأحسن أن ينزل ذلك فى موضع ينتفع به الناس ولا يشعر به .

السادس : ألا يسأل من النساء ولا من الصبيان ، وهو من لم يحتلم ، ولا من أهل الذمة ولا عن لا يتحاشى من الحرام ، وهذا إن كان معه شىء من السلوك ، فإن كان مجذوباً محضاً ، فلا كلام عليه ، وهذا معنى قوله فى الحكم ، فخذ ما وافقك العلم ، وقد حرر المسألة الشيخ ابن عباد علماً وتصوفاً ، وذكرنا من ذلك فى الشرح نبذة صالحة ، فلينظر ذلك من أراده ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر القسم المكروه والمباح والمندوب ، فقال :

وكرهوا سؤاله لنفسه ثم أباحوه لأهل جنسه
ولم يعدوه من السؤال لكن من الدون على الأعمال
إذ كان خير الخلق فى أترابه يسأل أحياناً إلى أصحابه

قلت : اتفقت الصوفية على كراهية سؤال الفقير لقوت بشريته عند الحاجة ، ما لم يبلغ حالة الاضطرار ، وحالة الاضطرار أن يضعف عن العمل أو تضعف فكرته ، أو إن كان مسافراً ضعفت قوته على المسير ، فهذا يباح له أو يندب ، فإن خاف على نفسه وجب ، فإن لم يبلغ الفقير إلى الحال الذى وصفنا فالأفضل فى حقه الصبر والاكتفاء بعلم الله حتى يأتيه الله

رزقه - إن الله يرزق من يشاء بغير حساب - ويعطى بلا أسباب ، فقد قيل: « ما نزلت فاقة بمؤمن فانزلها بالله ، فدامت عليه أكثر من ثلاثة أيام قط » .

وفى حكاية بشر الحافى رضى الله عنه ، قال : رأيت على بن أبى طالب رضى الله عنه فى نوم ، فقلت : يا أمير المؤمنين ما أحسن عطف الأغنياء على الفقراء : طلبـــا للثواب ، قال رضى الله عنه : وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء ثقة بالله .

ولله در القائل :

إذا ما مددت الكف ألتمس الغنى إلى غير من قال اسألونى : فشلت[1]
سأصبر جهدى فى صيانة غرتى[2] وأرضى بدنياى ، وإن هى قلت

وقال بعض الحكماء : عز النزاهة أشرف من سرور الفائدة .

وفى الحكم : ربما استحيا العارف أن يرفع حاجته إلى مولاه اكتفاء بمشيئته ، فكيف لا يستحى أن يرفعها لخليقته .

وقوله : « ثم أباحوه لأهل جنسه » يعنى أنهم أباحوا السؤال لإخوانه المحتاجين ، وهم أهل جنسه ، لأن الفقراء جنس ، والعوام جنس ، وهذا مندوب ، ولم يعدوا هذا من السؤال وإنما هو من التعاون على البر والتقوى ، وقد فعله عليه الصلاة والسلام لأصحابه حين قدموا عليه عراة فخطب على الناس ، وقال : يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة الآية ، ثم قال تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من صاع بره ، ثم من صاع تمره ، اتقوا النار ولو بشق تمرة[3] » .

وكقوله للنساء يا معشر النساء تصدقن ، ولو من حليكن[4] » .

---

(1) هذا هو التصوف الصحيح: أن يكون غناك بالله ، ولا تمدن يداً إلى غيره .

(2) الغرة بضم الغين: بياض فى جبهة الفرس، وغرة كل شيء أوله وأكرمه، والمقصود به هنا : الوجه .

(3) رواه مسلم ،والإمام أحمد،والنسائى ،وابن ماجه عن جرير .

(4) ولفظه - كما فى الفتح الكبير - « يا معشر النساء تصدقن ولو من حليكن ، =

والكل منه عليه الصلاة والسلام للتشريع، وتحصيل الخير للسائل والمعطي، وليس على معنى المسألة (قاله الشيخ زروق رضى الله عنه) وإليه أشار بقوله : « إذا كان خير الخلق في أترابه » والأتراب بالتاء المثناة من فوق الأقران، فان أراد به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلعله اطلع على نقل، وأن الأنبياء كانوا يسألون لأصحابهم ، وإن أراد به غـــير ذلك فلا تحمله اللغة، إذ الأتراب لايطلق إلا على الأقران، والأقران هم المشاركون في الوصف، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر ضابط صحة السؤال ، فقال :

ولا تصف بصحة السؤال		من يؤثر الأخذ على الإبذال

قلت : لا يسلم حال السؤال للفقير ويوصف بصحة قصده فيه ، حتى يكون البذل والإخراج من يده أحسن عنده من القبض من الناس .

قال الجنيد رضى الله عنه : لا يصح السؤال إلا لمن العطاء أحب إليه من الأخذ اه .

وكذلك السلف الصالح : كان العدم أحب إليهم من التحصيل ، والمنع أحب إليهم من العطاء ، إذا أقبلت الدنيا . قالوا: ذنب عجلت عقوبته، وإذا أقبل الفقر، قالوا: مرحبا بشعار الصالحين ، إلى غير ذلك من حكاياتهم رضى الله عنهم .

ثم ختم الباب بمسألة التجريد ، فقال :

والشغل دون الكسب بالعباده		محض التوكل ، ورأى الساده
ثم السؤال آخر المكاسب		وهو بشرط الاضطرار واجب

قلت : الاشتغال بالعبادة والتجريد عن الأسباب من أعظم القرب عند ذوى الألباب ، إذ لا يصفو الباطن من الأغيار ويملأ بالمعارف والأسرار ، إلا إذا تخلص الظاهر من كثرة

= فإنكن أكثر أهل جهنم يوم القيامة ، رواه أحمد والترمذي والنسائي ، وابن حبان ، والحاكم ، وهو من باب الحض على التعاون ، لا السؤال ، وجل قدر النبي صلى الله عليه وسلم

الأكدار، ولايتخلص من الأكدار إلا إذا تجرد من الأسباب، واتكل على الملك الوهاب(١) قال تعالى — ومن يتوكل على الله فهو حسبه(٢) — وقال تعالى — ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب(٣) — وقال صلى الله عليه وسلم « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير، تغدو خماصا وتروح بطانا(٤) » ، فصفاء الباطن من صفاء الظاهر ، وتشعب الباطن من تشعب الظاهر ، فالاشتغال بالعبادة دون الاكتساب هو محض التوكل على مسبب الأسباب عند السادات أولى الألباب .

وقد تكلم الناس على درجات التوكل ، وأحسن ما فى ذلك ما قاله أبو حامد الغزالى رضى الله عنه ، قال فى « الإحياء » التوكل مشتق من الوكالة ، يقال وكل أمره إلى فلان أى فوضه إليه واعتمد عليه ، ويسمى الموكل إليه وكيلا ، ثم قال : فالتوكل عبارة عن اعتماد

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من نزل به حاجة فأنزلها بالناس كان قمنا ألا تسهل حاجته ، ومن أنزلها بالله تعالى أتاه الله برزق عاجل أو بموت آجل » رواه الإمام أحمد .

وروى ابن أبى حاتم عنه صلى الله عليه وسلم ، قال :

« من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع للدنيا وكله إليها » . والاشتغال بالعبادة دون الكسب ليس من التوكل ، بدليل قول النبى صلى الله عليه وسلم فى حق رجل انقطع للعبادة : « من أين يأكل ؟ قالوا : يطعمه أخوه ، قال : « أخوه أعبد منه » اه . بمعناه ، وقال عليه الصلاة والسلام : من فتح على نفسه بابا من السؤال فتح الله عليه سبعين بابا من الفقر ، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجرون فى البر والبحر ويعملون فى نخيلهم . وهم القدوة ، ولقى الأوزاعى إبراهيم بن أدهم رحمه الله وعلى عنقه حزمة حطب فقال : يا أبا إسحق ، إلى متى هذا ، إخوانك يكفونك ، فقال : دعنى من هذا يا أبا عمرو ، فإنه بلغنى أنه من وقف موقف مذلة فى طلب الحلال وجبت له الجنة » . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

(٢و٣) سورة الطلاق ، الآية : ٣ و ٤ .

القلب على الوكيل وحده، ثم قال : فإن ثبت فى نفسك بكشف أو اعتقاد جازم أنه لا فاعل إلا الله ، واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ، ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد ، وأنه ليس وراء قدرته قدرة ، ولا وراء منتهى علمه علم، ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة ، اتكل لا محالة قلبك عليه وحده، ولم يلتفت إلى غيره بوجه، ولا إلى نفسه وحوله وقوته، فانه لا حول ولا قوة إلا بالله، فإن الحول عبارة عن القدرة، فإن كنت لا تجدهذه الحالة من نفسك، فسببها أحد أمرين : إما ضعف اليقين، وإما ضعف القلب ومرضه ، باستيلاء الجبن عليه ، ثم قال : فاذن لا يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً ، إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته ، ثم قال : وإذا انكشف لك معنى التوكل ، وعلمت الحالة التى سميت توكلا ، فاعلم أن تلك الحالة لها فى القوة والضعف ثلاث درجات :

الأولى : ما ذكرناه، وهو أن يكون حاله فى حق الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته كحاله بالثقة بالوكيل .

الدرجة الثانية : وهى أقوى : أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه ، فإنه لا يعرف غيرها ، ولا يفزع إلى سواها ، ولا يعتمد إلا إياها ، فإن رآها تعلق بكل حال بذيلها ، وإن نابه أمر فى غيبتها كان أول سابق إلى لسانه : يا أماه ، وأول خاطر يخطر على قلبه أمه فإنها مفزعه ، لأنه قد وثق بكفالتها وشفقتها ثقة منه أنها ليست بتاركته ، ثم قال : والفرق بين هـــذا وبين الأول ، أن هذا قد فنى فى توكله عن توكله ، إذ ليس يلتفت فيه إلى التوكل وحقيقته ، بل إلى المتوكل عليه فقط ، فلا مجال فى قلبه لغير المتوكل عليه ، وأما الأول فتوكل بالتكلف والكسب ، وليس فانياً عن توكله ، ثم قال :

الدرجة الثالثة : وهى أعلاها أن يكون بين يدى الله تعالى مثل الميت بين يدى الغاسل لا يفارقه إلا فى أنه يرى نفسه ميتا تحركه ، القدرة الأزلية كما تحرك يد الغاسل الميت ، وهو الذى قوى يقينه بأنه يجرى الحركة والقدرة، والإرادة وسائر الصفات ، فيكون عند الانتظار لما يجرى عليه كالمبهوت، ويفارق الصبي بأن الصبي يفزع إلى أمه ويصيح ويتعلق بذيلها ويعدو خلفها صياحا ، وهذا المقام فى التوكل يصحح منه ترك الدعاء والسؤال ثقة منه بكرمه وعنايته فانه يعطى ابتداء أفضل مما يسئل ، والمقام الثانى لا يقتضى ترك الدعاء والسؤال، إنما يقتضى

فإن قلت : هل يبقى مع العبد تدبير وتعلق بالأسباب فى هذه الأحوال، فاعلم أن المقام الثالث ينفى التدبير رأساً ما دامت الحالة باقية ، بل يكون صاحبها كالمبهوت والمقام الثانى ينفى كل تدبير من الآن حيث المفزع إلى الله لكن بالدعاء والابتهال ، كتدبير الطفل فى التعلق بأمه فقط ، والمقام الأول لا ينفى أصل التدبير والاختيار ، ولكن ينفى بعض التدبيرات ، كالتوكل على وكيله فى الخصومة ، فإنه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل ، ولكن لا يترك التدبير الذى أشار إليه وكيله به ، أو التدبير الذى عرفه من عادته وسنته ، دون صريح إشارته . انتهى المقصود منه مختصراً .

والمختار فى مسألة التجريد : ما أشار إليه ابن عطاء الله بقوله : (إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك فى الأسباب من الشهوة الخفية ، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك فى التجريد انحطاط عن الهمة العلية) وقال فى موضع آخر (من علامة إقامة الله إياك فى الشىء تيسره لك مع حصول النتائج) اه

وهذا كله مع عدم الشيخ ، وأما من ظفر بالشيخ فهو الذى يقوم به تجريداً وأسبابا .

وقوله: « ثم السؤال » الخ أشار به إلى الحديث « . . . والمسألة آخر كسب الرجل » وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم فى ذم كثرة السؤال « إن الله ينهاكم عن وأد البنات ، وعقوق الأمهات ، ومنع وهات ، وكره لكم : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » انتهى(١) .

وهذا آخر الفصل الثامن ، وهذه الفصول الثمانية كلها مقدمة لما يذكره فى هذا الفصل التاسع الذى أشار إليه بقوله :

---

(١) متفق عليه من البخارى ومسلم ، ولفظه : « إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات » الى آخره وفى ختام هذا الفصل نقول : قال عليه الصلاة والسلام : « إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : لذى دم موجع ، أو لذى غرم مفظع ، أو فقر مدقع » رواه أحمد والأربعة . وروى الترمذى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن المسألة لا تحل لغنى ، ولا لذى مرة سوى ، إلا لذى فقر مدقع ، أو غرم مفظع ، ومن سأل ليثرى به ماله كان خموشاً فى وجهه يوم القيامة ورضفاً يأكله من جهنم ، فمن شاء فليقل ومن شاء فليكثر » وقال عليه الصلاة والسلام : « عز المؤمن استغناؤه عن الناس =

التاسع فى « حكم المريد ، ومعنى الإرادة . وفائدة الشيخ ، وتدريج المريد إلى أن يصير شيخاً » .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : وهـــذا الفصل هو لباب الكتاب ، وسر الطريق ومدارها ، وكل ما قبله أو بعده دائر عليه ، وذكر فيه أربعة مواقف ، لكل موقف معاقل ومعاهد يطول شرحها .

قلت : أما حكم المريد ، فالمراد ما يلزمه فى بدايته من العلم الضرورى ، ثم المجاهدة فى الأعمال الظاهرة ، والاستقامة الكاملة ، وما يلزمه فى وسطه من الرياضات الباطنية ، ومقاساة الأحوال السنية ، ثم ما يلزمه فى نهايته من الاستغراق فى الشهود ، والفناء فى ذات المعبود ، ثم الرجوع إلى البقاء بنظره إلى الحكمة والقدرة ، وسيأتى تفسير المريد ، ولماذا سمى المريد مريداً .

وأما معنى الإرادة فهو : طلب السلوك إلى ملك الملوك ، أو تقول : هى صدق الوجهة إلى الله بإفراد القصد إلى حضرة مولاه ، فالمريد سالك ، والمراد مجذوب، المريد محب، والمراد محبوب(١) :

وأما فائدة الشيخ ، فهو جمع القلب لحضرة الرب ، أو رفع حجاب الوهم بتحصيل حقيقة العلم ، أو تدريج المريد فى مقامات الإنزال وتبعيده عن القواطع والأشغال .

وأما تدريج المريد فهو : نقله من شهود الحكمة إلى شهود القدرة ، ومن شهود القدرة إلى شهود الحضرة ، وهى شهود الذات ، أو تقول : تدريجه هو نقله من شهود الأسماء إلى شهود الصفات ، ومن شهود الصفات إلى شهود الذات ، ثم من شهود الذات يرد إلى أثر الصفات ، هذه طريقة السلوك .

= رواه الطبرانى ، وأبو نعيم فى الحلية من قول جبريل عليه الصلاة والسلام . ورواه القضاعى عن النبى صلى الله عليه وسلم .

« ولا التفات بعد ذلك إلى كلام أحد من الناس مهما كان أمره وخطره ورفيع كلامه » .

(١) هناك مريد لله ، ومراد من الله ، وطالب لله ومطلوب من الله . والطالب محب لله ، والمطلوب محبوب من الله ، والله أعلم .

وأما طريق الجذب فهو : شهود الذات أولا ، ثم شهود الصفات ، ثم شهود الحكمة عين القدرة ، والله تعالى أعلم .

ثم اعلم أن الناس على ثلاثة أقسام : طالبون ، ومريدون ، ومرادون ، فالطالبون هم الذين يطلبون الشيخ ويتعطشون إليه ، أو هم الذين يطلبون الطريق إلى عالم التحقيق ، ولا يعرف الطريق الا من سلكها ، فإن علم الله صدقهم وصلهم إليه ، والمريدون هم الذين اتصلوا بالشيخ واشتغلوا بالسير ، وهو السلوك، والمرادون هم : الذين انجذبوا الى الحضرة إما بعد السلوك وهم الكمل ، أو قبله .

فأشار الناظم الى القسم الأول ، وهو الطالب فقال :

فإن أتى القوم أخو فتون وقال : ياقوم أتقبلون ؟
تقبلوه صادقا أو كاذبا إذ كان حتوما عليهم واجباً

قلت : الفتون : جمع فتنة ، وهى ما يقطع عن الله : ويشغل القلب عن الحضور مع مولاه وأخوها هو : الملتبس بها ، والمنهمك فيها سواء كانت هذه الفتون ذنوبا أو عيوبا أو أشغالا أو أموالا أو أغياراً أو أكداراً ، فإذا أراد الله أن يخلصه من تلك الفتن ، سواء كانت ظاهرة أو باطنة ، ألقى فى قلبه الاضطرار إلى الله ، وحسن الظن بعباد الله ، فإذا أطلعه على سر ولى من أوليائه وأتى إليه ، وقال له :جئتك لتقبلنى وتأخذ بيدى ، وجب عليه قبوله والأخذ بيده ، لأن رده نوع من كتم العلم ، وقد قال الله تعالى — إن الذين يكتمون ما أنزلنا(١) — الآية .

وأيضاً رده إلى ما كان عليه فيه إعانة له على الدوام فيما هو فيه ، والإعانة على المعصية معصية ، هذا إن كان صادقا فى إرادته ، وأما إن كان كاذبا فلما فيه من تقليل المفاسد ، وتعريضه لنفحة رحمة الله بالوقوف ببابه ومخالطة أوليائه ، وهم قوم لا يشقى جليسهم(٢) ولعل الله أن يفتح عليه بمثل ما فتح عليهم ،إذ كل من تحلى بحالة لا يخلوا حاضروه منها ،

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٥٩ .

(٢) هذا لفظ حديث طويل رواه الترمذى والحديث فى الصحيحين .

فمن جالس العطار طاب بطيبه . ولله رجال من نظر إليهم نظرة سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، ولله رجال إذ نظروا أغنو غنى لا فقر بعده أبداً ، رضى الله عنهم ، وخرطنا فى سلكهم آمين .

ثم ذكر ما يؤمر به بعد الدخول ، فقال :

وحذروه من ركوب الإثم ... وأمروه باقتباس العلم
وأمروه بلزوم الطاعه ... والماء والقبلة والجماعه
وقرروا فيه شروط التوبه ... وأمروه بلزوم الصحبه
ثم أمـــدوه بعلم الظاهر ... حتى استقامت عنده السرائر

قلت : اذا أتى الفقير إلى الشيخ ليأخذ بيده ، فأول ما يلقنه الورد ، فإن التلقين فيه بركة عظيمة . وقل أن ينهض الإنسان قبل التلقين ، والتلقين سلسلة مروية عن السادات إلى سيدنا على كرم الله وجهه ، إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم يأمره بالتوبة ورد المظالم ، وقضاء الدين بقدر الاستطاعة ، ويحذره من الرجوع إلى ما كان عليه .

ثم يعلمه ما يلزمه فى دينه من طهارة وصلاة وما يتعلق بذلك إن كان جاهلا ، وما تيسر من علم التوحيد خاليا عن الدليل(١)، فان كان الشيخ ليس من شأنه ذلك دفعه إلى من يعلمه .

ثم يأمره بلزوم الطاعة من : صلاة ، وصيام ، وذكر ، وغير ذلك ، كل واحد ما يليق به ، لأن الشيخ تقدم أنه يكون طبيباً ماهراً .

ثم يأمره بالصحبة ولزوم مجالسة الشيخ ، والاجتماع مع الإخوان ، فطريق التربية ليست طريق الانفراد ، وإنما هى طريق الاجتماع والاستماع والاتباع ، فمهما انفرد المريد عن الإخوان ، لم يكن منه شىء ، فإن تعذر إقامته مع الشيخ أمره بالزيارة والوصول ، فمدد الشيخ جار إلى المريد ، كالساقية أو القادوس ، فإن كان يتعاهدها ويمشى معها بقى الماء جاريا وإن غفل عنها تخرم الماء وانقلب مع غيره .

وأيضاً : الوصول إلى الشيخ يدل على المحبـــة ، والانقطاع يدل على نقضها ، كما قال المجذوب رضى الله عنه :

---

(١) يعنى يعلمه التوحيد المجرد ، وليس القائم على الاستدلالات وكلام أهل العلم .

لا محب إلا بوصول ولا وصول إلا غالى
لا شراب إلا مختوم ولا مقام إلا عالى

ثم يذكره أولا بما يصلح جوارحه الظاهرة ، وهى : التقوى ، والاستقامة ، فإذا صلحت جوارحه الظاهرة، أمره بالعزلة والصمت والجوع المتوسط ، وفراغ القلب والفناء فى الإسم المفرد ، فإذا رآه تحقق فناؤه وكثر تعطشه ، فتح له شيئاً من علم الحقائق ، وأمره بالتفرغ التام وقطع العلائق وازهد فى الكونين ، فإذا رآه أخذته حيرة أو دهشة دفع له علم الحقيقة ، وأمره بتقليل ذكر اللسان وعمل الجوارح ، وشغله بالفكرة، فإذا رآه لم يقدر على علم الحقيقة ، أو رآه قنع بالعلم دون الذوق ، أمره بتخريب الظاهر والتجريد التام ، فإذا تمكن من الحقيقة ورسخت فيه ذوقا وتحقيقاً ، أمره بارشاد الناس إن رآه أهلا ، هذا الذى أخذنا به وفهمناه من طريق أشياخنا .

والناظم رحمه الله قدم وأخر فى هذا الترتيب ، فذكر أنه أول ما يأمره بترك الآثام ، ويحذره من ركوب الجرائم ، وهذا هو المقصود من صحبة المشايخ وأخذ العهد عنهم ، إذ لم يلتجىء لصحبة الأشياخ إلا بقصد الحفظ ببركة صحبتهم ، وذلك محقق بفضل الله لمن صح صدقه وقويت نورانية شيخه .

وأصل هذا العهد من السنة حديث عبادة بن الصامت قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيعة العقبة . بايعونى على : ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصونى فى معروف . الحديث .

ثم يأمره باقتباس العلم ، فان كان هو أهلا أمره بلزوم صحبته ليعلمه، وإلا دفعه إلى غيره كما تقدم ، فلا بد المريد بعد عقد التوبة من طلب العلم ، إذ لا يجوز لأحد أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه، لقوله تعالى - ولا تقف ما ليس لك به علم(١) - وقال تعالى - فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون(٢) - .

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٣٦ .
(٢) سورة النحل ، الآية : ٤٣ .

ولا يجب عليه التوسع فى العلم لما فوق حاله ، لأن ذلك فرض كفاية ، ومتى نزلت به نازلة لزمه طلب علمها .

ثم يأمره بلزوم الطاعة والقبلة والجماعة، يعنى : الصلاة مع الجماعة ، لأن الأمر الخاص لا يصح إلا بعد إحكام الأمر العام، لأن من لا يصلح أن يكون من عوام المتقين، لا يصلح أن يكون من خواص المقربين ، فالشريعة باب ، والحقيقة دخول مع الأحباب ، قال تعالى — وائتو البيوت من أبوابها(١) — .

ثم يأمره بالتوبة وتحقيق شروطها .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : شروط التوبة ثلاثة أقسام ، شروط صحة ، وهى ثلاثة : الندم على ما فات ، والإقلاع فى الحال ، والنية ألا يعود أبداً .

وشروط تحقيق ، وهى ثلاثة : تصميم القصد ، لأن التوبة وإن صحت من بعض الذنب مع البقاء على ذنب آخر فصاحبها ناقص ، وقل أن يسلم من العودة لما عنده من أصل المخالفة وأداء الحقوق الواجبة له من : الصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والكفارات ، وغيرها ، ورد المظالم المالية باتفاق ، والعرضية على المشهور .

وشروط كمال، وهى ثلاثة : التشمير فى المستأنف، بدلا من التقصير فى السالف، والفرار من موارد الفتن بكل وجه أمكن ، والحرص على تحصيل الكمال له بأى وجه كان ، فمن فاته شروط الصحة فلا توبة له، ومن فاته شروط التحقيق فهو عاص، وقل أن يسلم من آفات الانقلاب ، ومن فاته شروط الكمال لم يجد لتوبته لذة ، ولا يدرك لها نتيجة ، وكل واحدة لا تصح إلا بعد تحقيق ما قبلها .

وقوله : «وقرروا فيه شروط التوبة» المراد بالتقرير هو الأمر بها والحض عليها : المرة بعد المرة ، والتنبيه عليها تفصيلا وإجمالا .

ثم يأمره بلزوم الصحبة ، يعنى إن تأتى له ذلك ، وإلا أمره بالوصول المرة بعد المرة كما تقدم ، وفائدة الصحبة ثلاثة أمور .

أحدها : أنها حصن من الانقلاب والرجوع ، فإن رؤية الشيخ والجلوس معه ترياق مجرب ، فلا تميل نفسه إلى الفضول أبداً ما دام مع الشيخ .

وقال شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه : الجلوس مع العارفين أفضل من العزلة ، والعزلة أفضل من الجلوس مع الصوام ، والجلوس مع العوام أفضل من الجلوس مع المتفقرة الجاهلين .

قلت : والجلوس مع علماء الظاهر أقبح فى حق الفقير من جميع ما تقدم ، والله ما رأيت فقيراً صحبهم فأفلح فى طريق القوم أبداً ، فلا قاطع أعظم منهم ، إلا من عرف بالتسليم لأهل النسبة ، وقليل ما هم(١) .

الثانى : أن علم القلوب إنما يقوى مدده بالصحبة ، فمن تحقق بحالة لا يخلو حاضروه منها ، والطبع يسرق من الطبع من حيث لا يعلم ، « والمرء على دين خليله(٢) » ، « والمؤمن مرآة أخيه(٣) » ، وما كان فى المرآة انطبع فى المرآة المقابلة لها .

الثالث : أن الإنسان مبتلى بنفسه ، فإذا انفرد وحده ظهر له أنه على شىء ، وليس كذلك ، وقد تقدم هذا فى فائدة الاجتماع ، وربما ظفر به الشيطان ، لأن الشاة المنفردة من سهم الذئاب ، وفى الحديث « الشيطان يهم بالواحد والاثنين ولا يهم بالجماعة(٤) » أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، فلا بد من صحبة أخ صالح أو شيخ ناصح لتحصل السلامة من الرعونات وغيرها ولا يتأدب الفقير وحده أبداً ، وإنما يتأدب إذا صحب أهل الأدب ،

---

(١) صدق الشيخ رحمه الله ، وها نحن الآن نعانى منهم البـــلاء ، كفانا الله شرهم فى الدنيا والآخرة .

(٢) هذا لفظ حديث شريف رواه أبو داود والترمذى، وقال : حديث حسن والبيهقى والقضاعى ، والعسكرى ، وابن عدى فى الكامل .

(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط ، والضياء المقدسى عن أنس .

(٤) ولفظ الحديث : « الشيطان يهم بالواحد والاثنين ، فإذا كانوا ثلاثة لم يهم بهم » رواه البزار عن أبى هريرة .

فان صحبهم تأدب أحب أم كره ، وأيضاً النفس الحية لا تموت ما دامت مع الأحياء، وإنما تموت إذا صحبت الأموات كما قال شيخنا البزيدى رضى الله عنه .

ثم بعده بالعلم الظاهر ، ومعناه أنه يذكره بعلم الشريعة وعلم الطريقة دون علم الحقيقة حتى إذا تهذب ظاهره وباطنه صلح لعلم الحقائق، ولا بد من الترتيب ، فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته ، ومن لا بداية له لا نهاية له .

وقد قالوا : من قـــدم الباطن على الظاهر فاته الباطن والظاهر ، ومن طلب الباطن بالظاهر حصل له الباطن والظاهر ، ومن طلب الباطن والظاهر تحير فى الباطن والظاهر ، والظاهر رأس مال ، وما عداه ربح ، ولذلك أمر به أئمة العلم والدين مجرداً .

وقد قال عليه الصلاة والسلام لمن سأله أن يعلمه من غرائب العلم « ما فعلت فى كذا وفى كذا » فى أمور فى أحكام الظواهر ، ثم قال عليه الصلاة والسلام « اذهب فأحكم ما هنالك وتعال أعلمك غرائب العلم(١) » .

ثم من أصلح ظاهره على لسان الصدق فتح الله بصيرته برؤية الحق ، اه .

قال : الشيخ زروق رضى الله عنه : ولما ذكر ما يتعلق بالبداية، ذكر مايتعلق بالوسط من المجاهدات والرياضات ، فقال :

حتى إذا انقاد مع الإفاده وكاد أن يصلح للإراده
إذ للمريد عندهم حدود لأجلها قيل له مريد
فعندها رد إلى الأوراد كالصمت والصوم مع السهاد
وعامـــلوه بالمعـــاملات إذ عالجوا مختلف العلات

قلت : أما الانقياد إلى طلب الإفادة ، فيكـون بثلاثة أمور : بالزهد فى : نفسه، وفلسه ، وجنسه .

---

(١) ونص الحديث : « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : علمنى من غرائب العلم . فقال له : ما صنعت فى رأس العلم ؟ فقـال : وما رأس العلم ؟ قال صلى الله عليه وسلم : هل عرفت الرب تعالى ؟ قال : نعم ، قال : فما صنعت فى حقه ؟ قال : ما شاء الله ، فقال صلى الله عليه وسلم ، هل عرفت الموت ؟ قال : نعم ، قال : فما أعددت له؟ قال : ما شاء الله ، قال صلى الله عليه وسلم : اذهب فأحـكم ما هناك ثم تعال اعلمك من غرائب العلم » رواه ابن السنى ، وأبو نعيم فى كتاب الرياضة ، وابن عبد البر .

فالزهد فى النفس بالإطلاق منها والغيبة عنها وإسلامها إسلاما كلياً حتى يكون كالميت بين يدى الغاسل ، والزهد فى الناس بالبذل والإيثار فى الحاصل ، وعدم التشوف إلى غير الحاصل .

والزهد فى الجنس بالإنكار لمن يعرف ، وعدم التعرف لمن لا يعرف .

فاذا حصل هذه الثلاث استحق الإفادة وصلح للإرادة ، والمراد بالإفادة إفادة العلوم الباطنية والأسرار الربانية ، لكن بعد تحقيق التخلية والتحلية ، وسيأتى عند قوله « ألقوا إليها من صفات النفس » إلخ .

وأما حدود المريد فثلاثة : مجاهدة ، ثم مكابدة ، ثم مشاهدة .

فالمجاهدة فى تقديم الظاهر ، والمكابدة فى تقديم الباطن ، والمشاهدة ثمرة المكابدة .

أو تقول : حدود الإرادة : قطع العلائق ، وخرق العوائد ، واكتساب الفوائد .

فإذا تحققت فيه هذه الأمور سمى مريدا لتحقق إرادته بمعرفة سيده ، لأنه لما حصر الإرادة فى إرادة واحدة ، ولم يبق له مراد إلا محبة سيده سمى لذلك مريداً ، وقيل غير ذلك لجواب « إذا » الذى هو عامل فيها هو قوله « رد إلى الأوراد » وما بينهما معترض ، والتقدير إذا صلح للإفادة والإرادة رد عند ذلك إلى الأوراد ، وباعتبار السبك رد وقت صلاحيته الإفادة إلى الأوراد ، ثم فسر تلك الأوراد التى يرد إليها بعد إصلاح ظاهره ، فقال : كالصمت ، وفيه سبعة آلاف حكمة ، جمعت فى سبعة : عبادة من غير تعب ، حصن من غير حائط ، هيبة من غير سلطان ، راحة الكرام الكاتبين ، ستر للجاهل ، زين للعالم ، قلة الاعتذار .

ومن خواصه أنه : يلقح الفكرة ، ويجلب الحكمة اذا كان مع الفكرة ، والا فهو سهو ، كما قال بعضهم : كل كلام بغير ذكر فهو لغو ، وكل صمت بغير فكر فهو سهو ، وكل نظر بغير عبرة فهو لهو[1] ، فالصمت الذى يصحبه الخواطر والوساوس هو بمنزلة الكلام ، وأما الصوم فهو يعين على الجوع ، وقد تقدم فوائد الجوع وأسراره ، الا أنه لا ينبغى الإفراط فيه ، فخير الأمور أوسطها .

---

(١) مأخوذ من قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله أمرنى أن يكون نطقى ذكراً ، وصمتى فكراً ، ونظرى عبرة » رواه العلائى (محمد بن زكريا) .

« والسهاد » هو : السهر والمراد ، قلة النوم ، حتى لا يزيد على القدر المحتاج .

قال أحمد بن عامر رضى الله عنه : أعداؤك أربعة : الشيطان ، وسلاحه الشبع ، وسجنه الجوع ، والهوى ، وسلاحه الكلام ، وسجنه الصمت ، والدنيا ، وسلاحها ، لقاء الخلق، وسجنها الخلوة ، والنفس ، وسلاحها النوم . وسجنها السهر .

ثم المطلوب من هذه الأربع الوسط والأخذ بالأهم، فن كان الجوع أحب إليه من الشبع لم يأكل فوق حاجته ، ومن كان الصمت أهم إليه من الكلام لم يتكلم إلا فيما يعنيه ، ومن كان الخلوة أهم إليه من المخالطة لم يرتح للقاء الناس ، بل يستوحش منهم ، ومن كان السهر أحب إليه من النوم لم ينم فوق الحاجة ، والإفراط مضر فى كل شىء ، فمن الجوع مضر بالفكرة ومن الصمت مضر بالحكمة . ومن السهر : يؤدى إلى الحمق ، ومن الخلوة : يؤدى إلى الملل ، قاله الشيخ زروق رضى الله عنه .

وقوله « وعاملوه بالمعاملات ، أى بالمعاملات التى فيها دوازه ، فن تليق به العزلة عاملوه بها ودلوه عليها ، ومن تليق به الخلطة دلوه عليها ، وهكذا ، إذ ليست معاملة أهل البداية كمعاملة أهل النهاية ، وليست معاملة السائرين كمعاملة الواصلين .

وقوله : « إذ علوا » الخ يعنى أنهم إنما عاملوا المريدين بمعاملات مختلفة ، لأجل ما علوا فيهم من العلات المختلفة ، فعاملوا كل واحد بما فيه دوازه .

وفى بعض النسخ « كقرب نفسه من الغلات » وهو إشارة إلى العزلة .

وفى الحكم : ما نفع القلب شىء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة .

وقد أشبعنا الكلام عليها فى شرح الحكم ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر سر دلالته على الأعمال دون الحقائق ، فقال :

ولم يحيلوه على الحقيقه ... إذ لم يكن مستوفى الطريقه
لكن أحالوه على الأعمال ... لأجل ما فيها من النوال
إذ الطريق إلى العلم ثم العمل ... ثم هبات بعدها تؤمل

قلت : الحقيقة شهود القدس وإنما لم يحيلوه على الحقيقه، أى لم يطلعوه عليها قبل استيفائه الطريقة ، لأن الحقيقة أمرها هائل لا ينالها إلا الشجاع الصائل ، وفى ذلك يقول الشيخ الجيلانى (كذا فى عينيته)

وإياك جزعا لا يهولك أمرها ... فما نالها إلا الشجاع المقارع

فلا تطاق إلا بعد موت النفوس وحط الرءوس وتصفية البواطن من الأغيار وتحليتها بالأنوار ، فمن اطلع عليها قبل ذلك خيف عليه التزندق ، لأن الحقيقة لا تدرك بالعلم ، وإنما هي أذواق ووجدان ، نعم : قد تكون علما ، ثم تصير ذوقا ، لمن راض نفسه بالشريعة ، وعظم صدقه ، فإنه يأخذها علما وتصير ذوقا .

وأيضاً اطلاعه على الحقيقة قبل كمال الطريقة توجب له التقصير فى الأعمال والتفتر فى الخدمة ، فإن الحقيقة حلوة قد يشتغل بهـــا ويهمل الشريعة ، ولذلك قيل : من تصوف ولم يتشرع فقد تزندق لتعرية الحقيقة عن الشريعة ، وهذا معنى قوله « ولم يحيلوه على الحقيقة إذلم يكن » أى حيث لم يكن ، أى حيث لم يكن مستوفيا لعمل الطريقة ، لكن أحالوه على الأعمال ، والمراد بالأعمال هنا : العمل الظاهر ، كالصلاة والصوم والصمت والعزلة وذكر الله ، ويكون ذكرا واحداً ، وهو الإسم المفرد الذى هو اسم الله الأعظم ، وسلطان الأسماء .

هذه طريقة الشاذلية ، وسيأتى للناظم التنبيه عليه ، وإنما أحالوه على الأعمال لما فيها من النوال ، أى العطـــاء ، والمراد به نتائجه ، فكل ذكر له نتيجة وثمرة تخصه ، كما ذكره ابن جزى فى تفسيره عند قوله تعالى ـ فاذكرونى أذكركم ـ قال : واسم الجلالة وهو « الله » جامع لتلك الثمرات كلها .

وفى بعض النسخ « لأجل ما فيها من المنال » أى نيل مايقصده الذاكر ويتمناه ، ثم ذكر علة تقديم العمل على علم التحقيق ، فقال : « إذ الطريق العلم ، ثم العمل ، ثم هبات » وهى مواهب الأسرار ، فبعد العلم العمل ، ثم الحال ، ثم الذوق ، ثم الشرب ، ثم الرى ، ثم السكر ، ثم الصحو ، ثم شهود وعيان ، والعمل حينئذ فكرة ونظرة وآداب مع الحضرة ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر كيفية انتقال العمل إلى الباطن ، فقال :

حتى إذا أحكم علم الظاهر   وأبصروا القبول فيه ظاهر
ألقوا إليه من صفات النفس   ما كان فيها قبل ذا من لبس
وهى إذ أنكرتها فلتعرف   إحدى وتسعين ، وقيل نيف

قلت : ثم لا يزال الشيخ يأمر المريد بعمل الظاهر ، كصلاة وصيام وعزلة وصمت وذكر لسان ، حتى إذا رآه أتقن علم الظاهر وذاق سره وحلاوته ، فيكون قد ذاق حلاوة

الصلاة والصيام ، وحلاوة العزلة والصمت ، حتى تكون العزلة عنده أشهى من الخلطة ، والصمت عنده أحلى من الكلام ، وذكر الله قد امتزج معـــه ، حتى لو أراد أن يسكت ما سكت ، فهذا علامة اتقان أحكام الظاهر ، وصار قبوله لعلم الباطن ظاهراً ، فحينئذ يلتى إليه من صفات نفسه ما كان ملتبساً عليه ، كحب الجاه أو الرياسة ، أو حب المال ، أو الغضب أو القلق أو غير ذلك من أوصاف النفس التى يتعذر حصرها ، حتى قال بعضهم : « للنفس من النقائص ما لله من الكمالات(١) » وقال الناظم : انها تزيد على تسعين ، بتقديم التاء .

وقد ذكر السلمى نبذة صالحة ، فلنذكره بنصه ، لأن عادة الناظم النسج على منواله ، فقال رضى الله عنه :

وأما أخلاق النفس ، فنهـا : الكبر ، والعجب ، والفخر ، والخيلاء ، والغل ، والغش ، والبغض ، والحرص ، والأمل ، والحقـــد ، والحسد ، والضجر ، والجزع ، والهلع ، والطمع ، والجمع ، والمنع ، والجبن ، والجهل ، والكسل ، والبذاء ، والجفا ، واتباع الهوى والازدراء ، والاستهزاء ، والتمنى ، والترفـع ، والحدة ، والسفه ، والطيش ، والمراء ، والتحكم ، والظلم ، والعـــداوة ، والمنازعة ، والمعاندة ، والمخالفة ، والمغالبة ، والمزاحمة والغيبة ، والبهتان ، والكذب ، والنميمة ، والتهويس ، وسوء الظن ، والمهاجرة ، واللوم ، والوقاحة ، والغدر ، والخيانة ، والفجور ، والشماتة ، إلى غير ذلك مما يكثر تعداده .

فيجب على المريد معرفتها ومجانبتها ، والمجاهدة فى تبديلها بأحسن منها ، فمن لم يعرف ذلك لم يزدد مع مرور الأيام الا ادباراً ، فيبدل الكبر بالتواضع ، والحدة بالتؤدة ، والكذب بالصدق ، وبالله التوفيق ، انتهى .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه : وأصول الأخلاق المذمومة ثلاثة : الرضى عن النفس ، وخوف الخلق ، وهم الرزق ، فيتولد من الأول : الشهوة ، والغفلة ، والمعصية .

ومن الثانى : الغضب ، والحقد ، والحسد .

---

(١) إن كمالات الله لا تنتهى حقيقة إلى حد ، ونقائص النفس كثيرة جداً تنتهى الى حد ، ولكن يتعذر عدها ، وهو كلام يقصد به أن طبيعة النفس مجبولة على النقص ، فهو من باب ضرب المثل للتعريف بحقيقة النفس وجهالاتها ونقصها . والله تعالى أعلم .

ومن الثالث : الحرص ، والطمع ، والبخل .

ثم قال : لكن التزام أصل واحد ينفي جميعها ، وهو عدم الرضى عن النفس في جميع الأحوال ، والحذر منها في كل الأوقات .

قال في الحكم : أصل كل معصية وشهوة وغفلة : الرضى عن النفس ، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة ، عدم الرضى منك عنها ، ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه ، خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه .

فأي علم لعالم يرضى عن نفسه ، وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه اهـ ،

قوله « حتى اذا أحكم علم الظاهر » هو على حذف مضاف ، أي أتقن عمل علم الظاهر لأن الإتقان انما هو العمل ، اذ هو الذي أمره به ، وهي فائدة صحبة الشيخ كما تقدم في الاجتماع ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر كيفية موت النفس ، فقال :

جرعوها أكؤس المنون وهي تنادي : كيف تقتلوني

قلت : التجرع هو تكلف الشرب ، يعني أن المريدين اذا أراد الشيخ أن ينقلهم الى عمل الباطن ، أمرهم بقتل نفوسهم ليكون ذلك سبباً في حياة أرواحهم ، كما قال ابن الفارض :

فالموت فيه حياتي وفي حياتي قتلي

«جرعوها» أي سقوها كرهاً «أكؤس المنون» جمع كأس ، على وزن فعل ، والمنون : الموت ، يعني أنهم تجرعوا في قتل نفوسهم مرارة الموت ، وذلك بخرق عوائدها وردها عن شهواتها ، وأعظم العوائد : العز ، والجاه ، فلا تنتقل الى الذل والهوان والخمول الا بعد جهد جهيد ، وقتل شديد ، فإذا صار عندها الذل والعز والخمول والظهور سواء ، فقد تحقق موتها .

قال محمد بن خفيف رضي الله عنه : لا يكمل الرجل حتى يستوي قلبه في أربعة أشياء : في المنع ، والعطاء ، والعز ، والذل .

وقال الشيخ أبو مدين : من لم يمت لم ير الحق تعالى(١) .

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه : لا دخول على الله إلا من بابين : إما بالفناء الأكبر الذي هو الموت الطبيعي ، أو بالفناء الأصغر الذي تعنيه هذه الطائفة .

وقال بعضهم : لا يدخل على الله حتى يموت أربع موتات : الموت الأحمر ، وهو : مخالفة النفس، والموت الأسود ، وهو : احتمال الأذى من الخلق ، والموت الأبيض وهو : الجوع ، والموت الأخضر ، وهو : لبس المرقعات

وفي رواية وهو : طرح الرقع بعضها على بعض اهـ .

وقال الشيخ زروق رضي الله عنه : موت النفس لا يكون إلا بثلاث : عزلها عن مواردها ، بحيث لا يتحرك ولا يسكن إلا بتحقيق نية توافق العلم من غير هوى ، ثم الإعراض عن كل ما تلتذ به في عالم الأجسام والطباع والعلوم والأعمال والمعاني والمباني والحقائق، ثم ترك الإنسان ما تميل إليه من ذلك أو من غيره، ولذلك قال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه : ولن يصل الولي إلى الله تعالى حتى تنقطع عن نفسه شهوة الوصول ، يعني انقطاع أدب واستسلام ، لا انقطاع ملل ، كذا قال ابن عطاء الله رحمه الله ، ومن هذا القبيل دعاء الشيخ أبي محمد عبد السلام بن مشيش حيث قال : اللهم إني أعوذ بك من برد الرضى والتسليم ، كما يستعيذ بك أقوام من حر المعصية والتدبير » .

ومنه قول الواسطي رحمه الله : استحلاء الطاعة سم قاتل اهـ .

قوله « وهي تنادي » الخ نداؤها بلسان حالها القريب من لسان المقال ، وقد يسمع ذلك الإنسان من باطن النفس كأنه حسي مقالي ، وقد تتمنى الموت الحسي اختياراً ، فلا تزال كذلك حتى ترتاض وتتهذب ، وهي علامة موتها ، والله تعالى أعلم .

ثم أشار إلى عمل أهل الاستشراف فقال :

فعند ما مالت إلى الزوال	ادخل في خلوة الاعتزال
وقيل : قل على الدوام : الله	واحذر كطرف العين أن تنساه

---

(١) يبدو أن الشيخ أبا مدين رحمه الله أخذ هذه الحكمة من قول رسول الله ﷺ : « إنكم لن تروا ربكم عز وجل حتى تموتوا » رواه الطبراني في السنة عن أبي أمامة ، فموت النفس يعقبه التجلي ، وموت المؤمن يعقبه رؤية الله تبارك وتعالى في الجنة إن شاء الله تبارك وتعالى جعلنا الله من أهلها بمنه وكرمه آمين .

قلت : ميل النفس إلى الزوال هو : إعطاؤها الطوع من نفسها ، بحيث يتصرف فيها صاحبها بلا نزاع منها ، فهي حينئذ قريبة للموت ، مشرفة على الزوال ، فعند ذلك يدخله الخلوة ، أي يأمره بها ، ويحضه على ذكر الاسم المفرد(١) ، حتى لا يفتر عنه ساعة .

قلت : وهذا التدريج الذي ذكره الناظم ليس بلازم لكل الشيوخ ، ولا لكل المريدين أن يسلكوه ، بل من الشيوخ من يلقن الإسم من أول مرة إذا رأى الفقير أهلا له ، ويأمره بقتل نفسه مع ذكر ربه ، بحيث يجعل له وقتا يذكر فيه ربه ، ووقتاً يقتل فيه نفسه ، وهذا الذي أدركنا عليه أشياخنا بأمر الفقير بالخلوة في أول النهار إلى وقت العصر ، ثم يخرج إلى السوق ويعمل من الأحوال الصافية ما تموت به نفسه ، فيكمل فناؤه في الإسم مع موت نفسه . فيقرب وقت فتحه ، ومن المريدين من لا يحتاج إلى خلوة ، بل يأمره بالخلطة من أول مرة ، والناس معادن وطبائع ، والملل متفاوتة ، والفتح من الله من غير توقف على الأسباب ، إلا أن الحكمة جارية مع القدرة ، والله تعالى أعلم .

قال الشيخ أبو حامد الغزالي رضي الله عنه : ولقد أردت في بداية أمري سلوك هذا الطريق بكثرة الأوراد والصوم والصلاة فلما علم الله صدق نيتي قيض لي وليا من أوليائه ، قال لي : يابني اقطع من قلبك كل علاقة إلا الله وحده ، واخل بنفسك ، واجمع همتك وقل « الله ، الله ، الله » ، ولا تزد على ما فرض الله عليك شيئاً إلا الرواتب ، وقل هـذا الإسم بلسانك وقلبك وسرك ، وأحضر قلبك ، واجمع خاطرك ، ومهما قالت نفسك : ما معنى هذا ، فقل لها : لست مطلوبا بمعناه ، وإنما قال تعالى — واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا(٢) — .

ثم ذكر ما يفعل في حال خلوته مع الذكر ، فقال :

ووكل الشيخ به خديماً	يلقى إليه القول والتعليما
وقيل : إن تكتم من الأحوال	شيئا سلكت سبل الضلال
فليس عند النوم باللبيب	من لم يصف شكواه الطبيب

قلت : أما توكيل الشيخ بالفقير الخديم ، فلأنه كان في الزمان القديم ، فكان الشيخ إذا

---

(١) الاسم المفرد « الله » جل جلاله .

(٢) الآية : ٨ من سورة المزمل .

أتى إليه الفقير وعلمه ما يلزمه فى حال نفسه أدخله الخلوة وأمره بالذكر ، ووكل به الخديم يلقى إليه القول الذى يأمره به الشيخ من الأذكار التى تليق به ، ويعلمه ما يحتاج إليه فى سيره ويشترط فى الخديم أن يكون أعلى منه علما وحالا وذوقاً .

قلت : وهذه الكيفية قد انقطعت اليوم ، ولعلها هى التى قصد الشيخ الحضرى : نعم بقى اليوم عوض الخديم : تذكير الفقراء بعضهم بعضاً ، فيأمر الشيخ من يراه أهلا للتذكير ، فيدور على الفقراء أينما كانوا يذكرهم وينبههم ويزيد بهم إلى الله كما يزيدون به ، ولذلك كانت السياحة للفقير فى بدايته أمراً كبيراً ، وزيارة الشيوخ : سبب فى التمكين والرسوخ فهذه الحالة اليوم أغنت عن الخديم والخلوة ، ولا ينبغى للفقير أن يكتم شيئاً من أحواله عن الشيخ ، قلت أو جلت ، لأن الشىء اليسير يورث الشىء الكثير ، فليس بالبيب من لم يصف داءه للطبيب ، فإن تعذر عليه الوصول إلى الشيخ وقد عرض له مرض أو أمر فليشخص شيخه بين عينيه بصفته وهيئته ، ويشكو له فإنه يبرأ منه بإذن الله ، وإن كان مع جماعة واستحيا فليشتك إليه فى قلبه(١) وإن كتم ذلك فهو حسن ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر نتائج الذكر ونهايته ، فقال :

فلم يزل مستعملا للذكر	فيصمت اللسان وهو يجرى
وقـــدر ما تجوهر اللسان	بالاسم يستثبته الجنان
ثم جرى معناه فى الفؤاد	جرى الغذا فى جملة الأجساد
فعندها حاذى مراة(٢) القلب	لوح الغيوب وهو غير محب
فأدرك المعلوم والمجهولا	حيث اقتضى لتركها قبولا

قلت : فإذا دخـــل الفقير الخلوة فينبغى أن يستعمل معها العزلة ، وهى عزلة القلب فالخلوة للأشباح ، والعزلة للقلوب ، فلا بد فيها من التفرغ الكلى ، وإلا لم ينتفع بها .

وفى الحكم : ما نفع القلب شىء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة :

فالمقصود من الخلوة هو دواء القلب ، ولا يشفى القلب إلا إذا تفرغ من الأخلاط الردية

---

(١) على سبيل الاستحضار كما قال أولا . والله تعالى أعلم .

(٢) « مرآة » حذفت همزة المد للتسهيل مراعاة لوزن البيت .

فإن القلب كالمعدة كلما كثرت عليه الأخلاط مرض، وهى الخواطر والشواغب، فاذا تفرغ القلب نفعه الذكر، وإلا فلا، ثم لا يزال مستعملا للذكر لهجا به، حتى يصمت اللسان، ويبقى الجنان ذاكراً، وينبغى أن يستثبت الجنان ما يذكره اللسان، فان ذكر اللسان بلا جنان قليل النهوض إلى حضرة العيان، ثم لا يزال يذكر بلسانه ويستثبه بجنانه حتى يجرى معناه فى فؤاده، وتتمكن نوره فى قلبـــه، ثم يجرى ذلك فى جميع أعضائه كما يجرى الدم فى سائر جسده، وكما يجرى الماء فى الأغصان الرطبة، فيكون البدن كله يتحرك بذكر الله .

ولقد سمعت شيخ شيخنا مولاى العربى رضى الله عنه يقول : بقيت أربع سنين تذكر الاسم المفرد، حتى كان البدن كله يتحرك بالذكر، فكنت إذا وضعت يدى على فخذى لسكنه تحرك الفخذ الآخر، وإذا وضعت يدى على الفخذ الآخر تحرك الفخذ الآخر اه .

فاذا صفت مرآة القلوب وتجوهرت، فعند ذلك يحاذيها لوائح الغيوب، وهى أنوار المواجهة تقدمة لأنوار المشاهدة، لأن المشاهدة تكون لوائح، ثم طوالع، ثم تشرق شمس العرفان، فما لها غروب عن العيان، فعند ذلك يكاشف بحقائق الأشياء، فيدرك سر كل موجود، ويعلم حقيقة كل معلوم، وكل مجهول، يعنى ما كان مجهولا صار عنده معلوما، وما كان معلوما أدرك سره وحكمته، وهنا يطلع على سر المتشابهات وحقائق المشكلات، فتتسع عليه دائرة العلوم، وتخرق له مخازن الفهوم، ويخرج إلى فضاء الشهود ويصير حاكما بسره على الوجود، فلا تقله أرض، ولا تظله سماء، قد فتحت له ميادين الغيوب، وتطهر من جميع المساوىء والعيوب — فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون(١) — .

فقوله « فيصمت اللسان وهو يجرى » يعنى أنه ينطبع الذكر فى القلب انطباعاً كليا، حتى يجرى الذكر على القلب، ولو سكت اللسان، وهذا هو المقصود من الذكر، وقوله « وقدر ما تجوهر » الخ . يحتمل أن يكون إنشاء، ومعناه الأمر باستثبات القلب عند ذكر اللسان أى ويستثبت الجنان ما ذكره اللسان، فيكون بقدر ما تجوهر اللسان يستثبته، ويحتمل أن يكون إخباراً، ومعناه : وبقدر ما يتجوهر اللسان بالذكر يدخل فى القلب فيستثبته

(١) الآية : ١٧ من سورة السجدة .

فيكون فيه الحض على ذكر اللسان ، لعله يدخل الجنان ، والاحتمال الأول فيه الحض على الحضور عند ذكر اللسان ، وهو أولى ، لأن ذكر اللسان إذ لم تصحبه مجاهدة لا يفضى إلى القلب ، ولو كثر .

وقوله : « ثم جرى معناه فى الفؤاد » يعنى أنه ينصبغ القلب بمعنى الذكر حتى لا ينفك عنه ، وهى الطمأنينة بذكر الله .

وقوله : « فعند ما حاذى مرآة القلب » أى فعند انصباغ القلب بالذكر وطمأنينته به ، يحاذى مرآة قلبه الصافية المجلوة أنوار الغيوب ، وهو الذى أراد بقوله «لوح الغيوب» وتسمى اللوائح ، وإنما قصره الوزن ، فاذا اطلعت له لوائح الغيوب ظهر ما كان مختبئاً ، أى خفياً من أنوار الشهود ، فانطوى عند ذلك وجود كل موجود ، وفى ذلك يقول الششترى :

لقـــد تجلى ما كان يخفى   والـكون كل طويت طى
منى على دارت كئوسى   من بعد موتى ترانى حى

وفى بعض النسخ « فعند ما حاذى أمير القلب » أى وهو من إضافه الصفة إلى الموصوف أى فعند جرى الذكر فى الفؤاد حاذى القلب الذى هو سلطان الجسد ، لوائح الغيوب ، وفى بعض النسخ بلفظ « ما » المصدرية بعد « عند(1) » والعامل فى الظرف « فأدرك » أى : فأدرك عند محاذاة لوح الغيوب سلطان القلب المعلوم والمجهول .

وقوله : فأدرك المعلوم والمجهول ، يعنى : أنه لما طلعت عليه شمس المعارف أدرك سر ما كان مجهولا ، حيث عرف سر وجوده ، وغاب عن شهوده بشهود معبوده .

وقوله : «حيث اقتنى لسركه قبولا» يعنى أنه لايدرك سر المعلومات والمجهولات ، إلا إذا اقتنى ، أى ادخر لذلك قوة باستعداده لذلك ، وهو التفرغ التام ، فبقدر تفرغه من الأشياء يكشف لك عن شهود المكون ، أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون ، فاذا شهدته كانت الأكوان معك ، ومحال أن ترتبط مع الأكوان وتطلع على أسرار مكونها فيها ، والله تعالى أعلم .

---

(1) فتكون الكلمة « فعندما حاذى مرآة القلب » بدل « فعندما حاذى مرآة القلب » والله تعالى أعلم

م ذكر مخاطبات الحق له على ألسنة الهواتف ، فقال :

حتى إذا جاء بطور القلب خوطب اذذاك بكل خطب

فقيل لو عرفتنى بكونى قيل:اذن فاخلع نعال الكون

قلت إذا وصل النور من ناحية المذكور إلى جبل الطور ، وهـــو قلبك المستور ، بحجاب هيبة المذكور ، رفع عنه الستور ، وخاطبه حينئذ بكل أمر جميل ، فلا تعلم نفس ما خصص به من المسارة والمصافة والمصافاة والمكالمة والمناجاة ، فيناديه لسان الملكوت مترجماً على عالم الجبروت ، يا أيها العبد الشائق إلى حضرتى لتعاين سر قدرتى ، هلا عرفتنى بكونى ، وقنعت بذلك منى ، فيقول العبد المشتاق إلى حضرة التلاق لا أريد إلا وجهـــك الكريم ، ومشاهدة سرك العظيم ؛ فيقول له الحق جل جلاله : إن أردت هـــذا الخطب الجسيم ، والأمر العظيم فاخلع عنك نعال الكونين ، وتخط بقدم همتك نعيم الدارين ، فإذا خلعت عنك الحظوظ والهوى ، فأنت بالوادى المقدس طوى ، وأنشدوا :

واخلع النعلين إن جئت إلى ذلك الحى ففيه قدسنا

وعن الكونين كن منخلعاً وأزل ما بيننا من بيننا

وإذا قيل :لمن تهوى ؟ فقل أنا من أهوى ، ومن أهوى أنا

فهذه مسايرة كلام الناظم ، ولنرجع إلى تفسير ألفاظه ، فنقول « حتى إذا جاء ذلك اللائح الذى عبر عنه بلوح الغيوب ، وهو النور الذى أثمره الذكر ، حاذى مرآة القلب » أى وصل لطور القلب الذى هو محل المناجاة ، ومعدن المصافاة ، فهو كجبل الطور الذى وقعت عليه مناجاة الكليم عليه السلام ، فإذا وصل إليه ذلك النور ، ورفعت عنه الحجب والستور ، « خوطب إذ ذاك » أى حين وصل النور إلى القلب « بكل خطب » له أمر جليل ، وهذه المخاطبات تكون هواتف من ناحية القلب ، فيجب تصديقها حيث انقطعت الخواطر الردية عنه ، وتكون أيضاً مخاطبات على ألسنة الهواتف الكونية ، فيسمع العارف منها كل ما يحتاج إليه ، وهذا أمر مجرب لمن ذاق الفهم عن الله ، وفى ذلك يقول الششترى :

أنا بالله أنطق ومن الله أسمع

وقال أيضاً :

اسمع كلامى وافهم إن كنت تفهم

لأن كنزك قد أعرى عن كل طلسم

من هو المكلم الكليم على طور الإفهام

والحاصل أن هذه الخطابات الهواتفية والكونية لا تكون إلا لمن صفت مرآة قلبه

من الأغيار ، ولم يشاهد إلا الأنوار والأسرار ، فحينئذ يخاطب من كل ناحية ، ويسمع التأييدات من كل جانب .

ولقد كنا فى بعض أسفارنا لا ننفذ من موضع إلا بإذن من الله ، ولا نقيم إلا كذلك ، وما ذلك إلا ببركة صحبة العارفين بالله .

وقوله « فقيل لو عرفتنى بكونى » يعنى أن السالك إذا أشرقت عليه لوائح الوصول ، وهب عليه نسيم القبول ، وجد فى طلب بلوغ المأمول ، يقول له الحق تعالى اختباراً لصدقه : يا عبدى هلا قنعت بمعرفة الدليل فتعرفنى بنظرك لكونى ، فيقول العبد : يارب لا أريد إلا معرفة ذاتك ، فإذا قال له ذلك يقول له الحق جل جلاله : إن أردت ذلك فاخلع عنك نعال الكونين ، وتحقق بالزهد فى الدارين ، تحصل لك مناظرة للعين .

قال) بعض العارفين : قيل أول ما يقول الله العبد : اطلب العافية والجنة والأعمال وغير ذلك ، فإن قال : لا ، ما أريد إلا أنت ، قال له : من دخل هذا معى ؛ فإنما يدخل بإسقاط الحظوظ ، ورفع الحدوث ، وإثبات القدم ، وذلك يوجب لك الندم ، وأنشدوا :

من لم يكن فيك فانياً عن حظه   وعن الغنا والأنس بالأحباب
فلأنه بين المنازل واقف   لمنال حظ أو لحسن مآب

والله تعالى أعلم

ثم ذكر ثمرة الزهد وخلع النعل ، فقال :

ثم فنى عن رؤية العوالم   ولم ير فى الكون غير العالم
ثم انتهى لفلك الحقيقه   فقيل : هذا غاية الطريقه

قلت : إذا تحقق زهد المريد فى الكونين ، وغاب عن حظه فى الدارين ، أشرق عليه نور الإيقان ، فغطى وجود الأكوان ، فما حجب العباد عن الله إلا تعلق القلب بالحظوظ والعمل على الحروف ، فلو تحرروا من رق الحظوظ ، وعملوا على نعت العبودية والقيام بوظائف الربوبية ، لأشرقت عليهم الأنوار ، وغابوا عن شهود الآثار ، فتعلق القلب بالحظوظ النفسانية ، يمنع من مقام المراقبة ، وتعلقه بالحروف الروحانية يمنع من مقام المشاهدة ، فالحروف الروحانية تمنع من مقام المشاهدة ، والحروف الظلمانية تمنع القرب

من القريب ، والحروف الروحانية تمنع شهود الحبيب ، فالحروف الظلمانية هى الشهوات الحسية ، والحروف الروحانية هى الشهوات المعنوية ، كطلب الخصوصية والكرامة والمعرفة فلا تدرك المقامات إلا بالزهد فيها .

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : «ولن يصل الولى إلى الله ومعه شهوة من شهواته أو تدبير من تدبيراته ، أو اختيار من اختياراته .

وتقدم قول الشيخ أبى العباس رضى الله عنه : لن يصل الولى إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول ، أى حتى يزهد فيه أدبا واكتفاء بعلم الله .

واعلم أن هذه الحظوظ القاطعة عن الله هى التى يسميها شعراء الصوفية فى تغزلاتهم : «عواذل ورقباء» كما قال الششترى رضى الله عنه :

يا أخى افن تشهد كل سر عجيب ... وتجول فى المشاهد حين قرب الحبيب
حيث لائم حاسد ... أو عذول أو رقيب

قوله : ثم فنى عن رؤية العوالم ، أى ثم بعد تحقيق الخلع عن الكونين يفنى عن رؤية العوالم حين تتلطف وتصير معانى .

أو تقول حين تنقلب أنواراً ملكوتية بعد أن كانت ظلمات ملكية ، فإذا غابت العوالم بقى الخبير العالم .

أو تقول : فإذا غابت الأوانى بقيت المعانى .

أو تقول : فإذا غاب الكون بقى المكوّن ، وفى ذلك يقول الششترى رضى الله عنه :

جميع العوالم رفعت عنى ... وضوء قلبى قد استفاق
ترانى غائبا عن كل أين ... كاس المعانى حلو المذاق

وقوله : «ثم انتهى لفلك الحقيقة» هو مرتب على ما قبله ، فمهما غاب عن العوالم انتهى لفلك الحقيقة ، والحقيقة هى شهود العظمة بالعظمة ، أو شهود حق بحق ، وتقدم قريباً تفسيرها أيضاً بتفسير آخر ، وفلكها أنوارها المحيطة بالأكوان المغيبة لها .

قال فى الحكم : «محقت الآثار بالآثار ، ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار» .

وفلك الحقيقة هو عالم الجبروت الأصلى ، فإذا انتهى المريد إلى ذلك وتمكن فيه ، فقد

انتهى سيره ، وذلك غاية الطريق إلى عين التحقيق ، قال تعالى ـ وأن إلى ربك المنتهى(١) ـ وبالله التوفيق .

ثم ذكر مقام الشهود ، فقال :

ثم امتحى فى غيبة الشهود فأطلق القول : أنا معبودى
حتى إذا رد عليه منه أثبت فرقا حيث لم يكنه

قلت : العبد فى حال غفلته يكون مبتلى برؤية نفسه ، واقفا مع شهود حسه ، مسجونا بمحيطاته ، محصوراً فى هيكل ذاته ، فإذا أراد الله تعالى أن يرفع عنه الحجاب ، ويدخله فى حضرة الأحباب ، ألقاه إلى ولى من أوليائه ، وعرفه سر خصوصيته واصطفائه، فلا يزال يسير به ويحاذيه ، ويخرق عليه عوائد نفسه ويغيبه عنها ، ويزهده فى فلسه وجنسه فاذا رآه الشيخ قدرق فى حقه الحجاب ، واستحق الانخراط فى سلك الأحباب ، فتح له الباب . وقال له : ها أنت وربك ، فاذا زج فى حضرة النور ، ورفعت عنه الستور ، أنكر الوجود بأسره ، وأنكر وجود نفسه ، فامتحق وجوده فى وجود محبوبه ، وانطوى شهوده فى شهود معبوده ، فأنشأ يقول : . أنا من أهوى ومن أهوى أنا . أنا المحب والحبيب ، ليس ثم ثانى . فاذا تمكن فى الشهود ، وتحقق برؤية نور الملك المعبود رد عليه صحوه ورجع إليه سلوكه ، فأثبت فرقا فى عين الجمع قياما بوظائف الحكمة فى عين شهود القدرة ، فيكون الجمع فى باطنه مشهوداً ، والفرق على ظاهره موجوداً ، فرقاً لفظيا لا حقيقياً ، أدباً مع الربوبية ، وقياما بوظائف العبودية ، فلا تبتهج رياض الملكوت إلا بزهر جمال الشريعة المحمدية .

وقد قلت : فى قصيدة سايرت بها تصلية ابن مشيش رضى الله عنه فى مدح النبي صلى الله عليه وسلم :

رياض بساتين المعارف بهجت بزهر جمال من شريعة أحمد
كذاك بحار الجبروت تدفقت بأنواره فى كل غيب ومشهد

قوله : « ثم امتحى فى غيبة الشهود » أى امتحى وجوده فى وجود الحق .

---

(١) الآيه : ٤٢ من سورة النجم .

قال فى الحكم : الأكوان ثابتة باثباته ممحوة بأحدية ذاته .

وقال أيضاً — فى الكلام على الإشارة — بل العارف من لاإشارة له ، لفنائه فى وجوده وانطوائه فى شهوده .

وقوله : « فأطلق القول أنا معبودى ، إطلاق هذا القول لا يسلم له ، إلا فى حالة القوة والجذب ، وإلا فقد علمت ما وقع للحلاج ، وهو ولى الله حقا ، وفى معنى ذلك قيل :

ومن شهد الحقيقة فليصنها وإلا سوف يقتل بالسنان
كحلاج المحبة إذ تبدت له شمس الحقيقة بالتدان

وقال آخر :

بالسر إن باحوا تباح دماؤهم وكذا دماء البائحين تباح

قال ابن خلدون : قتل الحلاج بفتوى أهل الظاهر ، وأهل الباطن : أهل الشريعة وأهل الحقيقة . لأنه باح بالسر ، فوجبت عقوبته اهـ(1) .

وممن أفتى بقتله : الجنيد ، والشبلى : غيرة على السر أن يفشى لغير أهله ، فالواجب كتم الأسرار ، وإظهار شريعة النبى المختار ، ولله در الششترى حيث يقول :

شق ثوب الوهم شقه ترتفع عنك المشقه
إن منك اليوم شوق فافن عن ذاتك وترق

فاذا حققت ذاتك ، وانتهى بادى صفاتك ، قف على طور سيناتك ، واجعل الوجد حيالك . وافن به حتى تمكن ، إياك أن تقول : أناه . واحذر أن تكون سواه .

وقوله : « حتى إذا رد عليه منه » هو على حذف مضاف ، أى حتى إذا رد عليه من شهود نفسه ، أى بره ، فحينئذ أثبت فرقاً لتظهر العبودية فى مظاهر الربوبية ، سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور وصف البشرية ، وظهر بعظمة الربوبية فى مظاهر العبودية ، فربوبيه بلا عبودية نقص ، وعبودية بلا ربوبية محال ، وبهذا الفرق ثبت التكليف .

قال شيخ شيوخنا سيدى على العمرانى رضى الله عنه فى كتابه : اعلم أن الكاف صفة من

(1) وقد روى عنه أنه قال رضى الله عنه : « إذا قتلتمونى فأنتم مجاهدون وأنا شهيد » .

أوصاف الفرق ، وعدم الكلف صفة من أوصاف الجمع ، والفرق عبودية ، وهو حق ، والجمع ربوبية وهو حق أيضاً ، صار الحق هو القائل وهو المستمع لما قال ، لأجل هذا المعنى تجد هؤلاء المتوجهين إلى الله تعالى : من غلب عليه شهود الجمع ، تجده فى غاية البسط والراحة من الكلف ، ومن غلب عليه شهود الفرق ، تجده فى غاية القبض والتعب والكلف ويرحم الله القائل :

الرب حق ، والعبد حق ياليت شعرى : من المكلف ؟
إن قيل : عبد ، فالعبد ميت أو قيل رب : أنى يكلف ؟!

وقد أجابه سيدى عبد الرحمن الفاسى ، نفعنا الله بالجميع بقوله :

نعم يحق إثبات عبد بنعت فرق به يكلف
والعبد ميت بغير رب لسرعون منه يكلف

وقوله : « أدرك فرقاً حيث لم يكنه ، ومعناه أى أدرك فرقا حيث لم يكن فرق ، وإنما أثبتته الحكمة ، فوجب إثباته بالله ، فالشريعة أدب منه إليه ، والطريقة سير منه إليه ، والحقيقة : وصول منه إليه ، وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه .

سمع بعض العارفين هاتف الحق يقول : أنا الله سبحانى ما أعظم شأنى ، ظهرت لخفائها صفاتى ، وخفيت لظهورها ذاتى ، فشهدت صفاتى بوحدانية ذاتى ، وأحاطت ذاتى بجميع صفاتى ، فاضمحلت الصفات فى الذات ، وغابت الذات فى الصفات ، فنىّ إلىّ قربى تنزها وتقديساً عن مثلى ، لا إله إلا أنا الملك الحق المبين ، كل شىء هالك إلا وجهى (آلم كهيعص طسم حم عسق) لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار ؛ والله تعالى أعلم .

ثم أشار إلى مقام البقاء فقال :

فرد نحو عالم التحويل وعبروا عن ذاك بالنزل
ورده بالحق نحو الخلق كى ما يؤدى واجبات الرق

قلت : إذا تمكن المريد فى الجذب ، وتحقق من شهود الرب ، وأتقن صناعة السباحة

فى البحر ، رد إلى شهود جزيرة البر ، ليكون ماشيا بين بر وبحر ، وهو مقام الكمال ، كما قال ابن عطاء الله بعد الكلام على مقام الجذب والحيرة : « وأكمل منه عبد شرب فازداد محوا ، وغاب فازداد حضوراً ، فلا جمعه يحجبه عن فرقه ، ولا فرقه يحجبه عن جمعه ، يعطى كل ذى حق حقه ، ويوفى كل ذى قسط قسطه ، انتهى .

ويسمى هذا مقام البقاء ، لأنه أبقى ما كان نفاه أول مرة فى حال جذبه ، فلما صحا من سكرته وجد ما كان نفاه باقياً على حاله ، وإنما نفى الوهم فقط ، وفى ذلك يقول الجيلى فى عينيته :

فأفنيتها حتى فنت، وهى لم تكن ولكننى بالوهم كنت أطالع

وقال الششترى :

أفن من لم يكن يبق من لم يزل

فمقام البقاء مقام شريف ، وحال منيف ، وهو مقام الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وهو معنى قول الشيخ أبى يزيد : «خضنا بحـــراً وقفت الأنبياء بساحله»(١) لأن الأنبياء عليهم السلام لما خاضوا البحر من القدم الأول ، رجعوا إلى ساحل البحر ليسيروا الناس فى البر والبحر ، ولو بقوا فى البحر ما أمكنهم أن يسيروا أحداً فى البر ، فتبطل حكمة الإله فى إرساله لهم ، ولعل الشيخ أبا يزيد قال هذه المقالة قبل رجوعه للبقاء والسكر غالب عليه .

قوله : « فرد » أى رده الشيخ « نحو عالم التحويل » بالحاء المهملة ، أى التصديق ، وهو محل ظهور تصرفات الأسماء والصفات ، وهو عالم الخلق ، وقد كان فى حالة الجذب فى عالم الأمر .

وفى بعض النسخ بالمعجمة(٢) أى محل ظهور إنعام الله على خلقه ، وما خولهم به من كرمه وجوده .

وقوله : « وعبروا عن ذلك بالنزول » لأن الحرية ارتفاع ، والعبودية نزول .

---

(١) وهناك معنى آخر هو : أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقفوا على ساحل البحر يدعون الناس إليهم ، فالخائض هنا ذاهب إلى مكان الداعى ، وهم الأنبياء يدعون الخلق إلى الله. وهو المعنى القريب إلى فهم العامة فى مثل هذا المقام ، وأول الخلق وأولاهم بإجابة الدعوة هم الأولياء ، والله تعالى أعلم .

(٢) أى بالخاء المعجمة : أى المنقوطة فتكون الكلمة « نحو عالم التخويل » بدل « التحويل » من خوّله الشيء إذا كلفه به .

وقال فى الحكم — بعد ما تكلم على الحضرة — فإن نزلوا إلى سماء الحقوق ، أو أرض الحظوظ ، فبالإذن والتمكين ، والرسوخ فى اليقين .

وقوله : « ورده بالحق نحو الخلق » أى رده بالله نحو عالم الخلق ، لأجل أن يؤدى ما وجب عليه من حقوق الرق ، وهى العبودية ، وهى عند الله أشرف المقامات وأسنى الكرامات ، وما خاطب الله أنبياءه ورسله إلا بالعبودية ، قال تعالى — سبحان الذى أسرى بعبده ليلا(١) — وقال تعالى — واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب(٢) واذكر عبدنا أيوب(٣) — إلى غير ذلك .

وقد قلت فى قصيدتى العينية فى هذا المعنى :

تمسك بمنهاج الشريعة إنها ... أمان من كل هول للظهر قاطع
فشد لها يد الضنين فنتهى ... كمال الكمال منك هو الشرائع

وقال سيدى على رضى الله عنه فى كتابه : اعلم أن مقام البقاء هو مقام الملك بالله ، وهو مقام خاصة الخاصة ، وهو مقام الراحة بعد الشقاء ، والربح بعد الخسران ، وهو مقام العبودية لله بلا علة ، والنظر اليه بلا واسطة ، وهو مقام التفريق بعد الاجتماع ، والتواضع بعد الارتفاع ، والعجز بعد القدرة ، والأدب لله بالله بعد التمكين فى الحضرة الإلهية ، صاحب هذا المقام راسخ فى العلم والعمل ، راتع فى شهود الحق فى الجلال والجمال ، لتحقيق المقامات والأحوال .

قال أبو المواهب التونسى فى قوانينه : من وصل البقاء أمن الشقاء .

ثم أشار إلى ما يفعل بعد ترشيده وإطلاق يده من التحجير ، فقال :

فكلم الناس بكل رمز ... والغز التعبير أى لغز
وعندما أسلكه المسالك ... أقامه شيخا لكل سالك

---

(١) أول سورة الإسراء .
(٢) سورة ص ، الآية : ٤٥ .
(٣) سورة ص ، الآية : ٤١ .

قلت : الفقير إذا كان فى مقام الاستشراف ، ولم يتمكن من علم التحقيق ، تجده يعبر عن الحقيقة بعبارة واضحة عارية من الكسوة ، وذلك لضيق عطنه(١) وعدم فروسيته ، فإذا تمكن فى العرفان ، ورسخ فى الشهود والعيان ، استحق حينئذ دخول الميدان ، وجال مع الفرسان ، فإذا جال بفرسه بين الناس لا يسبق ولا يضر أحداً من الخلق .

أو تقول: كل من لم يتحقق بالوصول لايقدر أن يرقق الغزول(٢) ولله در الغزّالى حيث قال:

غزلت لهم غزلا رقيقاً فلم أجد لغزلى نساجا فكسرت مغزلى

فإذا رد المريد إلى مقام البقاء وسلك تلك المسالك المتقدمة من جذب وفناء وتخلية وتحلية أمره الشيخ بتذكير الناس وإرشادهم إلى ربهم ، فاستحق أن يكون شيخاً مربياً ، وهذا حاصل البيتين ، والرمز أدق وأخفى من اللغز ، لأن الرمز إشارات وتلويحات ، واللغز كلام يراد به غير ظاهره ، يفهمه من عرف اصطلاحه أو قرينته .

وكان حق الناظم أن يقدم البيت الثانى على الأول ، لأن تعبير المريد ناشىء عن تذكيره ، وتذكيره ناشىء عن تقديمه لذلك ، وتقديمه هو إقامته للشيخوخة ، فإذا أقامه لذلك أمكن أن يأتى بالرمز أو باللغــز ، والأمر فى ذلك قريب ، والله تعالى أعلم .

ثم أشار إلى أن هذا العلم ليس هو أقوالا باللسان ، وإنما هو أذواق بالجنان ، فقال :

فهذه أحوال ذى الأحوال تدرك بالأفعال لا الأقوال

قلت : الإشارة تعود إلى ما قدمه من أول الباب إلى هنا ، وأن تدريج السالك فى هذه الأحوال والمقامات هى أحوال أهل الأذواق والوجدان من أرباب الأحوال ، وهى إنما تدرك بالأعمال : بمجاهدة ومكابدة ، ثم مشاهدة .

قال الجنيد رضى الله عنه : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، والمراء والجدال ، وإنما أخذناه عن الجوع والسهر ، وكثرة الأعمال .

---

(١) العطن : مبارك الإبل عند الماء .

(٢) أى الغزل ، لأنه ترقيق يحتاج إلى دقة وعناية .

وأنشدوا فى معنى ذلك :

يا من يريد منازل الأبدال ... من غير قصد منه للأعمال
لا تطمعن فيها فلست من اهلها ... ما لم تزاحمهم على الاعمال
بيت الولاية قسمت أركانه ... ساداتنا فيه من الأبدال
ما بين صمت واعتزال دائم ... والجوع والسهر النزيه العالى

ثم بين أن ما ذكره هو طريق السلف المتقدمين من الجهابذة المتمكنين ، وأنه لا يزال الخصام فى وجودها أبداً ، فقال :

فهكذا كان طريق القوم ... ولم يزل يخصم كل خصم

قلت : الإنكار على الاولياء سنة ماضية(١) ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، قال تعالى :

وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين(٢) وما قيل فى النبي يقال فى الولى ، لأنه على قدمه ، لكن حجة الأنبياء غالبة واضحة ، وحجة المنكرين عليهم واهية داحضة ، وكذلك حجة الأولياء على الأغوياء ، لاتزال قائمة غالبة ، لأنها هى الطائفة الظاهرة إلى يوم القيامة ، وهذا معنى قوله «ولم يزل يخصم كل خصم» ، أى يغلب كل من يخاصمه ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

(تنبيه : قوله «فهكذا» الإشارة تعود إلى تدريج المريد وتربيته بالكيفية التى تقدمت ، وهل هذه التربية تجرى فى كل زمان ؟ أو لكل زمان تربية مخصوصة ؟ الظاهر أن كل زمان تحدث له تربية مخصوصة ، لأن الأولياء على قدم الرسل ، فكما أن الحق تعالى لم يكتف برسول واحد لجميع بنى آدم لاختلاف المصالح والعوائد ، فكل زمان بعث الله فيه رسولا يخرج أهله من عوائدهم التى حجبتهم عن الله ، وكذلك الأولياء يبعثهم الله فى كل زمان بخرق عوائده .

وقد قال عمر بن عبد العزيز : تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور .

ويقال فى قياسه : تحدث للناس تربية بقدر ما تعودوا من الامور ، والله تعالى أعلم .

---

(١) أى هذا مفروغ من وجوده ، ولا بد منه ، ولكن :

لولا اشتعال النار فى ما حولها ... ما كان يعرف طيب عرف العود

(٢) سورة الفرقان ، الآية : ٣١ .

ثم إن هذه الطريق ميراث نبوى ، أخذه وارث عن وارث إلى خير وارث ، وهي مستمرة حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، وإلى ذلك أشار بقوله :

وهى إذا ما حققت موارث عن خير مبعوث وخير وارث

قلت : هذه الطريقة موروثة ، أخذها عارف عن عارف إلى سيد العارفين ﷺ ولنذكر سلسلتنا تبركا واقتداء بمن ذكر ذلك ، فنقول :

أخذنا الطريق وعلم التحقيق عن شيخنا الواصل المحقق الكامل مربى السالكين ومرشد الطالبين سيدى : محمد البزيدى الحسنى ، عن شيخه القطب العارف شيخ المشايخ مولاى العربى الدرقاوى الحسنى ، عن شيخه : سيدى على ، عن شيخه سيدى : العربى ، عن شيخه سيدى : أحمد بن عبد الله ، عن شيخه سيدى : قاسم الخصاصى ، عن شيخه سيدى : محمد بن عبد الله الكبير ، عن شيخه سيدى : عبد الرحمن الفاسى ، عن شيخه سيدى : يوسف الفاسى ، عن شيخه سيدى : عبد الرحمن المجذوب ، عن شيخه سيدى : على الصنهاجى المشهور بالدوار ، عن شيخه سيدى : إبراهيم الخام ، عن شيخه سيدى : أحمد زروق ، عن شيخه سيدى : أحمد بن عقبة الحضرمى ، عن شيخه سيدى : يحيى القادرى ، عن شيخه سيدى : على بن وفا ، عن أبيه سيدى : محمد بحر الصفا ، عن شيخه سيدى : داوود الباخلى ، عن شيخه سيدى : أحمد ابن عطاء الله ، عن شيخه سيدى : أبى العباس المرسى ، عن شيخه سيدى : أبى الحسن الشاذلى عن شيخه القطب سيدى : عبد السلام بن مشيش ، عن شيخه سيدى : عبد الرحمن المدنى ، عن شيخه القطب : تقى الدين الفقير (بالتصغير فيهما) ، عن شيخه القطب : فخر الدين ، عن شيخه القطب : نور الدين عن شيخه القطب : تاج الدين ، عن شيخه القطب : شمس الدين ، عن شيخه القطب زين الدين القزوينى ، عن شيخه القطب سيدى : إبراهيم البصرى ، عن شيخه القطب سيدى : أحمد المروانى ، عن شيخه القطب سيدى : سعيد ، عن شيخه القطب سيدى : سعد ، عن شيخه القطب : فتح السعود ، عن شيخه القطب سيدى : سعيد الغزوانى ، عن شيخه القطب أبى محمد : جابر ، عن أول الأقطاب سيدنا : الحسن سبط رسول الله ﷺ ، عن والده أمير المؤمنين سيدنا : على كرم الله وجهه الذى هو « باب مدينة العلم[1] » (عن نخبة

---

(١) الحديث الصحيح الذى رواه الحاكم «فى المناقب» من مستدركه ، والطبرانى فى « معجمه الكبير » ، وأبو الشيخ ابن حبان فى « السنة » (له) ورواه أيضاً العقيلى وابن عدى ولفظه =

(الوجود) ومادة عين الرحمة والجود ، سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا ومولانا : محمد رسول الله ﷺ عن سيدنا جبريل ، عن الرب الجليل جل جلاله وتقدست صفاته وأسماؤه .

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي : طريقتنا هذه مروية مسلسلة ، قطب عن قطب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فمن لم يكن له سلسلة أشياخه فهو مقطوع ، لا يصح الاقتداء به ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر أن ما سلكه التلميذ المتقدم من المقامات والأحوال هكذا يكون سلكها شيخه ، فقال :

وهكذا الشيخ على التحقيق إذ كان مثل سالك الطريق

قلت : الإشارة تعود إلى التربية المتقدمة ، يعني أن الشيخ المحقق كان سالك الطريق مثل ما سلكها المريد ، وهذا إخبار بمعلوم ، إذ لو لم يسلكها شيخه قبله ما سلكها هو ، وقد تقدم في شروط الشيخ ذلك كله ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

فمن يكن بهذه الأوصاف شيخا وتلميذاً فمن إنصاف

قلت : يريد أن من اتصف بهذه الأوصاف المتقدمة ، بأن كان جامعاً بين حقيقة وشريعة بين جذب وسلوك ، زاهداً في الدنيا ، رافعاً همته عن الأكوان بأسرها فهو مستحق بأن

= وأنا مدينة العلم وعلي بابها ، فمن أراد العلم فليأت الباب » ورواه أيضا الترمذي في جامعه ، وأبو نعيم في الحلية ، وقد خرجه تخريجاً جيداً السيد / أبو الفيض الغماري في كتابه « فتح الملك العلي بصحة حديث باب مدينة العلم علي » وقال الحافظ السخاوي في كتابه : « المقاصد الحسنة » بعد إيراده الأقاويل التي وردت فيه : وأورد قول الحافظ العلائي « فمن حكم على الحديث مع ذلك بالكذب فقد أخطأ ، قال : وليس هو من الألفاظ المنكرة التي تأباها العقول » اهـ . بتصرف . وعلى هذا فجرأة بعض الناس على تكذيب هذا الحديث جريمة كبرى ، خصوصا ممن لا علم عنده ، ولا دراية له بفن الحديث .

يكون شيخاً ، ومن كان على قدمه من أتباعه ، استحق أن يكون تلميذاً على نعت الحق والإنصاف ، وإلا فلا .

ثم ختم الفصل بقوله إنه ليس تحتها حكم يتعلق بالفن ، فقال :

فهذه لوازم الأحكام جئنا بها تترى على نظام
وما ذكرنا فهو كالقليل إذ اختصرنا خشية التطويل

قلت : يعني أن هذه الأحكام التي ذكرها في هذا الفصل من تدريج المريد إلى أن يصير شيخا ، هي الأحكام التي تلزم المريد الذي يطلب الوصول، ولوازم الأحكام، من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أي فهذه الأحكام اللوازم ، أي اللازمة للمريد الصديق جئنا بها تترى ، أي يتبع بعضها بعضاً ، وإنما ذكر القليل دون الكثير ، لأن كثرة التطويل موجب للملل ، ومقلل للتحصيل .

وقد قالوا : التحجر مفتاح التحير .

وكان الزهري يقول : إذا طال المجلس حضره الشيطان ، لأنه موجب لكثرة الكلام فيوقع في التحير ، والله تعالى أعلم .

خاتمة : قال الشيخ زروق رضي الله عنه : فإن قلت : هل يصح دخول الخلوة والسلوك على هذا الأسلوب بغير شيخ ؟ قلنا : نعم ، ولكن يتعذر النجاح لقوة العوارض وكثرتها ، فلذلك قيل : إن الشيخ واجب في هذه المجاهدة دون مجاهدة التقوى والاستقامة ، وقد تقوى همة مريد في ذلك ولا يجد شيخاً ، فيهجم على ذلك ويتوقف في الثبات والانزلاك على رأي أخ صالح ذي بصيرة سليمة ، ثم يقوم مستعيناً بالله ، فإن الله سبحانه يمنحه على قدر همته بفضله، وأما الرياضات والخلوات الاصطلاحية التي يذكرها أبو العباس البوني وغيره ، فأصلها ما يتعلق بالذكر المجرد ، وقد قربه في كتابه والتبس، وذكره من غير تقييد بأكل ولا صوم ولا كيفية ولا سبب ، فاعمل به إن شئت بعد تحقيق علم ، وبالله التوفيق ، انتهى .

قلت : طريقة الأسماء لا تخلو من حروف وحظوظ ، الفتح فيها بعيد ، والإخلاص فيها معدوم ، وطريق الذكر المجرد إن كان بالشيخ نوعش من ساعته ، وإن كان بغير شيخ ، فإن كان مراده الأجور أخــذه وافراً ، وإن كان مراده الوصول فغاية ما يصل إليه الفناء

فى الصفات ، وأما الفناء فى الذات فلا يمكن بغير شيخ ، هذا ما جرت به العادة ، وإن خرقت العادة فى فرد فلا يقاس عليه ، والله تعالى أعلم ، وبالله التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ثم شرع فى الفصل الرابع ، فقال :

الفصل الرابع فى الرد على من رده　　　وليس يدرى شأنه وقصده

قلت : مضمن هذا الفصل : تقبيح من أنكر هذا الطريق ، وتوبيخ من رد على أهلها وتزييف رأيه وتحقير شأنه ، حيث أنكر ما لم يحط به علما ، ولم يدرك له شأناً ولا قصداً إذ لو عرف شأنه لعظمه ، ولو أدرك المقصود منه سارع إليه ، ولكن كما قال القائل : « من جهل شيئاً عاداه » وقال تعالى ـ وإذ لم يهتدوا به فسيقولوا هذا إفك قديم(١) ـ وقال الشاعر :

وكم عائب ليلى ولم ير وجهها　　　فقال له الحرمان : حسبك ما فات

وقد تقدم أول الكتاب « فصل الاجتماع » على ترجيح مذهب الصوفية على غيرهم ، وذكر هنا الاحتجاج على ترجيح علومهم على علوم غيرهم ، ومن أين نشأ الإنكار عليهم وذم المنكر عليهم ، فأشار إلى الأول بقوله :

هذا الطريق من أجل الطرق　　　فافهم هديت وافتده بنطق

قلت : إنما كان من أجل الطرق ، لأنه يدل على الله من أول قدم ، وخصوصاً طريق الشاذلية ، بخلاف غـــيره من الطرق ، فإن منها ما يدل على العمل ، ومنها ما يدل على العلم بالأحكام .

وقد قال الشيخ القطب ابن مشيش : « من دلك على العمل فقد أتعبك ، ومن دلك على الدنيا فقد غشك ، ومن دلك على الله فقد نصحك » .

والدلالة على الله هى الفناء فيه بالغيبة عما سواه .

ولقد سمعت شيخ شيخنا رضى الله عنه يقول : صاحبنا أول قدم ندخله فى الفناء فى الذات ، ولا يحتاج إلى مجاهدة عمل ، إذا صدق فى صحبته .

---

(١) الآية : ١١ من سورة الأحقاف .

وإن شئت قلت : إنما كان من أجل الطرق لأن شرف العلم على قدر شرف متعلقه ، ومتعلق هذا العلم أشرف المتعلقات، لأن مبدأه صدق التوجه إلى الله . ومنتهاه إفراد القلب والقالب إلى الله على وجه تحقيق اليقين ، حتى يصير فى معد الشهود والعيان .

أو تقول : أوله داع إلى محبة الله ، وأوسطه داع إلى السير إلى الله ، ونهايته الوصول إلى معرفة الله .

وقالوا فى شأن المحبة : أولها جنون ، وأوسطها فنون ، وآخرها سكون .

وقال الجنيد رضى الله عنه : لو أعلم أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذى نتكلم فيه مع أصحابنا لسعيت إليه .

وقال الشيخ الصقلى رضى الله عنه : كل من صدق بهذا العلم فهو من الخاصة ، وكل من فهمه فهو من خاصة الخاصة ، وكل من عبر عنه وتكلم فيه فهو النجم الذى لا يدرك والبحر الذى لايترق(١) .

وقوله : « فافهم هديت » الخ : الجملة دعائية معترضة بين المعطوفين ، أى فافهم واقتد بما نقول لك ، هداك الله لطريق الحق ، وأبان لك معالم التحقيق .
وأثبت هاء السكت فى الوصل على حد قوله تعالى – فبهداهم اقتده(٢) – فيمن قرأ بها .

ثم ذكر وجه ترجيحها على سائر الطرق ، فقال :

إن العلوم كلها المعلومه فنونها فى هذه متهومه

قلت : إنما كانت العلوم المعلومة عند الناس « فنونها » أى فروعها فى جانب هذه الطريقة « متهومة » أى مشكوكة ، لأن غايتها لا يحصل إلا غالب الظن الراجح ، وقد يحصل الجزم المطابق عن دليل ، لكن لا يسلم من اختلاج الوهم لعدم الجزم بصحة الدليل .

---

(١) هكذا بالأصل الذى راجعنا عليه،ولعله والذى لايترقى،فحذفت الياء للسكت ، والمعنى أنه لا يرتقى متنه لتلاطم أمواجه وشدتها ، والله أعلم .

(٢) الآية : ٩٠ من سورة الأنعام .

فقد قال بعضهم : إيمان أهل علم الكلام كالخيط المعلق فى الهوى ، يميل مع كل ريح ، أو كريشة تتقلب مع كل ريح[1] ، بخلاف علم التصوف ، فإن غايته الطمأنينة والتحقيق ذوقاً وكشفاً وشهوداً ، فالعلوم كلها تحصل علم اليقين ، والتصوف يحصل عين اليقين وحق اليقين .

العلوم كلها : استدلالية وبرهانية ، وعلوم القوم : ذوقية وعيانية .

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : أهل الدليل والبرهان عموم عند أهــل الشهود والعيان .

وقال الشبلى رضى الله عنه : ما ظنك بعلم : علم العلماء فيه تهمة ، يعنى أنه فى محــل العيان ، وغيره فى محل التهمة ، إذ لا يخلو صاحبه من خاطر ريب وتهمة ، إذ لا تنقطع الخواطر عن القلب ، إلا إذا حصلت فيه الطمأنينة بالله ، ولا تحصل الطمأنينة إلا بصحبة أهل الطمأنينة.

وفى بعض الأحاديث « تعلموا اليقين بمجالسة أهل اليقين ، والله ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح[2] » .

قلت : ومـــا يرجع أيضاً ما قاله الناظم : أن طالب العلم الظاهر لا تجـــد قصده إلا معلولا ، إذ غالب طلبة العلم فساد قصدهم فيه بطلب الحظوظ والحروف ، بخلاف طالب علم الباطن ، فلا تجد نيته إلا صحيحة ، لأنه مبنى على قتل النفوس وطرح الحظوظ ، فلا ينال منه شيئاً إلا من ترك حظوظه وشهواته .

ثم بين الشيخ وجه دخول التهمة فى العلوم الرسمية فقال :

إذ العلوم فى مقـام البحث ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ وإن هذا فى مقام الإرث

قلت : العلوم الرسمية كلها كسبية ، تدرك بالبحث عليها بالدلائل والبراهين ، فنهايتها الظن القوى ، وهذا شأن الفروع الفقهية ، لأن جلها ظنية وأما أصول الدين فنهايتها الجزم المطابق عن دليل ، فغايتها الإيمان بالغيب ، بخلاف علوم القوم ، فإنها مواهب وأسرار وكشوفات وأذواق تورث عن أربابها بالصحبة والمحبة والخدمة ، حتى يدرى ما فى باطن

---

(١) وقد روى أن بعض أهل علم الكلام (التوحيد) رؤى عند النزع يبكى ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : خرج الناس بأعمالهم وخرجنا نحن بقيل وقالوا .

(٢) رواه أبو نعيم مرسلا ، وهو حديث معضل .

الشيخ إلى باطن التلميذ فيتنور الباطن بنور اليقين ، ثم يغيب فى شهود رب العالمين ، حتى يصير ما كان غيبا شهادة ، وما كان علما ذوقا وحالا ، وما كان دليلا مدلولا ، وما كان نظريا يصير ضروريا ، كما قال شيخ شيوخنا المجذوب رضى الله عنه :

طلع النهار على قلبى حتى نظرت بعنيا
أنت دليل يارب أنت أولى منى بيا

غيبت نظر فى نظرى وأفنيت عن كل فانى
حققت ما وجدت غير وأمسيت فى الحال هانى

وفرق كبير بين من يكون مع الأحباب داخل الحجاب، وبين من يكون يأخذ أجرته من وراء الباب - هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون - قوم أقامهم لخدمته، وقوم اختصهم بمحبته - كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا .

وفى نوازل المعيار: سئل ابن رشد رحمه الله عن قول الإمام أبى حامد الغزالى الإحياء فى لما ذكر معرفة الله تعالى والعلم به قال: والرتبة العليا فى ذلك للأنبياء ، ثم الأولياء العارفين ، ثم العلماء الراسخين ، ثم الصالحين ، فقدم الأولياء على العلماء ، وفضلهم عليهم .

وقال الأستاذ القشيرى فى أول رسالته : فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه ، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه ، فهل هذا نحو قول أبى حامد ، وهل هذا المذهب صحيح أم لا ، فقد قال بعض الناس : لا يفضل الولى على العالم ، لأن تفضل الشخص على الآخر إنما هو برفع درجاته عليه لكثرة ثوابه المرتب على عمله ، ولا فضل إلا بتفاوت الأعمال ، وقد ثبت أن العلم أفضل من العمل ، لأنه متعد والعمل قاصر(1) ، والمتعدى خير من القاصر ، فثوابه أكثر ، وصاحبه أفضل

فأجاب : أما تفضيل العارفين بالله على العارفين بأحكام الله ، فقول الأستاذ وأبى حامد به متفق ، ولا يشك عاقل أن العارفين بما يجب لله من أوصاف الجلال ونعوت الكمال ، وبما يستحيل عليه من العيب والنقصان أفضل من العارفين بالأحكام ، بل العارفون بالله أفضل من أهل الأصول والفروع ، لأن العلم يشرف بشرف المعلوم وثمراته،

(1) يعنى أن العلم يتنفع به الناس ، والعمل قاصر على صاحبه ، فالعلم من هذه الناحية أفضل.

فالعلم بالله وصفاته أشرف من العلم بكل معلوم ، من جهة أن متعلقة أشرف المعلومات وأكملها ، لأن ثماره أفضل الثمرات ، ثم قال بعد ذكر ثمرات المعرفة بالله من الاتصاف بالأخلاق السنية بعد التطهير من الأوصاف الدنية : ولا شك أن معرفة الأحكام لا تورث شيئاً من هذه الأحوال ويدل على ذلك الوقوع ، فان الفسق فاش فى كثير من علماء الأحكام ، بل أكثرهم مجانبون للطاعة والاستقامة ، بل قد اشتغل بعضهم بأقوال الفلاسفة فى النبوات والإلهيات ، ومنهم من خرج عن الدين ، ومنهم من شك فتارة يترجح عنده الشك وتارة يترجح عنده البطلان ، ثم قال : فكيف يساوى بين العارفين وبين الفقهاء ، والعارفون أفضل الخلق وأتقاهم لله سبحانه وتعالى ، والله سبحانه يقول — إن أكرمكم عند الله أتقاكم(١) — .

وأما قوله تعالى — إنما يخشى الله من عباده العلماء(٢) — فإنما أراد العارفين به وبصفاته وأفعاله ، دون العارفين بأحكامه ، ولا يجوز حمله على علماء الأحكام ، لأن الغالب عليهم عدم الخشية ، وكلام الله صدق ، فلا يحمل إلا على من عرفه وخشيه .

وقد روى هذا عن ابن عباس رضى الله عنه ، وهو ترجمان القرآن ، فإن كان عالماً بالله تعالى وبأحكامه ، فهذا من السعداء ، وإن كان من أهل الأحوال العارفين بالله ، فهذا من أفضل العارفين ، اذ قد حاز ما حازوا وفضل عليهم بمعرفة الأحكام .

وأما قول من قال : إن للعمل المتعدى خير من القاصر ، فانه جاهل بأحكام الله تعالى بل للعمل القاصر أحوال : احداها أن يكون أفضل من المتعدى ، كالتوحيد ، والإسلام والإيمان ، وكذلك التسبيح عقب الصلوات فان رسول الله صلى الله عليه وسلم فضله على التصدق(٣) ، ثم قال : فان كانت مصلحة القاصر أفضل من مصلحة المتعدى قدمت على المتعدى

---

(١) الآية : ١٣ من سورة الحجرات .

(٢) الآية : ٢٨ من سورة فاطر .

(٣) وردت فى هذا الباب جملة أحاديث ، منها قوله عليه الصلاة والسلام : « الا احدثكم بأمر إن أخذتم به أدركتم من قبلكم ولم يدرككم من بعدكم ، وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه ، إلا من عمل مثله : تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثا وثلاثين » رواه البخارى ومسلم .

وإن كانت مصلحة المتعدى أرجح قدمت على القاصر ، فتارة تقف على الرجحان فتقـــدم الراجح ، وتارة ينص الشارع على تفضيل أحد العلمين فتقدمه وإن لم تقف على رجحانه ، وتارة لا تقف على الرجحان ولا تجد نصاً يدل على التفضيل ، فليس لنا أن نجعل القاصر أفضل من المتعدى ، ولا المتعدى أفضل من القاصر ، لأن ذلك موقوف على الأدلة الشرعية فإذا لم يظهر شيء من الأدلة الشرعية لم يجز أن نقول على الله مالا نعلمه ، أو نظنه بلا أدلة شرعية ، ثم ذكر قوله ﷺ فى أبى بكر ـ ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ، ولكن بشيء وقر فى صدره(١) ، انظر بقية كلامه ذكره فى الجنائز ، والتفضيل عند المحققين إنما هو بقوة اليقين ، فن قوى يقينه أ كثر كان عند الله أ كبر ، وهو الذى وقر فى صدر أبى بكر ، فسبق به ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر المنكر لهذا العلم ومنشأ إنكاره ، فأشار إلى الأول بقوله :

وأنكروه ملأ عوام لم يفهموا مقصوده فهاموا

قلت : الملأ فى أصل اللغة هم أشراف القوم وعظماؤهم ، لأنهم تملأ العين بالنظر إليهم ثم صار يطلق على مطلق الجماعة ، والعوام ضد الخواص ، فالعوام هم أهل اليمين ، والخواص هم السابقون من المقربين ، فكل من حجب بسحب الآثار عن رؤية الأعمال فهو من العوام ، وكل من نفذ إلى شهود الأنوار قبل الكون أو معه أو عنده فهو من خواص المقربين ، وكل علم وفن له عوام وخواص فيه ، يعنى أن جماعة من العوام أنكروا علم الباطن ، وقالوا ليس إلا علم الشريعة الذى هو العلم الظاهر ، وأما علم الباطن فلم ينزل به كتاب ولا سنة .

قلنا : يرد عليهم بقوله تعالى فى قضية سيدنا موسى مع الخضر عليهما السلام ـ آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما(٢) ـ فالعلم اللدنى هو العلم الموهوب ، وهو على قسمين : قسم يكشف عن سر الوجود ومعرفة الملك المعبود ، وقسم يكشف عن سر القدر وما يقع من الحوادث ، والمعتبر عند المحققين هو القسم الأول .

---

(١) قال السخاوى فى المقاصد الحسنة ، ذكره الغزالى ، وقال العراقى : لم أجده مرفوعا، وهو عند الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول من قول أبى بكر بن عبد الله المزنى .
(٢) الآية : ٦٥ من سورة الكهف .

وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم مقام الإحسان بقوله — أن تعبد الله كأنك تراه(١)، ولا يمكن أن يعبد الله كأنه يراه ، وهو محجوب بظلمة الآثار .

وقال أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه : كنت أدخل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو وأبو بكر يتكلمان فى علم التوحيد ، فأجلس بينهما كأنى زنجى لا أعلم ما يقولان(٢) ، فهذا التوحيد الذى كان يتكلم فيه النبي صلى الله عليه وسلم مع الصديق هو التوحيد الخاص ، وهو غوامضه وأسراره التى لا تفشى إلا لأهله ، وهو المسمى عندنا بعلم الباطن ، ويسمى أيضاً بعلم الحقيقة ، وسيأتى زيادة بيان لهذا الأمر عند قوله « هل ظاهر الشرع مع الحقيقة : إلا كأصل الفرع فى الحديقة » .

قوله : « وأنكروه ملا » هو على حد قوله تعالى — وأسروا النجوى الذين ظلموا(٣) .

وقوله : فهاموا ، أى تحيروا أو تلفوا وضلوا عن سلوك طريق التحقيق . وبالله التوفيق .

ثم بين منشأ الإنكار وسببه فقال :

وكل من أنكر منه شيئاً فإنما ذاك لسبع أشيا
لجهله لنفسه الشريفه وكونها فى أرضها خليفه
وجهلها بالعلم المعقول وشغله بظاهر المنقول
وسهوه عن عمل القلوب والخوض فى المكروه والمندوب
والجهل بالحلال والحرام والميل عن مواهب الإلهام

قلت : ذكر سبعة أشياء هى الموجبة لإنكار العوام على الخواص ، وهم أهل الباطن ، الأول : جهلهم بحقيقة نفسهم وشرفها ، وهو الروح فى أصل نشأتها . فلما حجبت وظلمت سميت نفساً ، ولا شك أن الروح التى قامت بهذا البدن : أصلها لطيفة نورانية ملكوتية جبروتية ، عالمة بما كان وما يكون(٤) ، وما حجبها عن هذا العلم إلا شغلها بتدبير البدن

---

(١) رواه البخارى ومسلم ، وأغلب كتب الحديث ، وهو حديث جبريل المشهور .
(٢) خرجه الملا فى سيرته (انظر الرياض النضرة) للطبرى .
(٣) سورة الأنبياء الآية : ٣ . والمقصود أنه قدم الفعل على الفاعل .
(٤) أى أعلمها الله بما كان وما يكون من أمرها خاصة ، وأما على العموم ، فلا :

وتحصيل أغراضه وشهواته ، فكلما جاهدها وخرق عوائدها رجعت إلى أصلها، فأدركت العلوم اللدنية والأسرار الربانية ، وهو علم الباطن ، فلو علم الإنسان أصل نفسه وشرفها ، وعرف السبب الذي حجبها عن أصلها لاحتال عليها حتى يردها لأصلها ، لكن جهله بأصله تركه محجوبا بها حتى أنكر خصوصيتها ، ولذلك قال يحيي بن معاذ الرازي : « من عرف نفسه عرف ربه ، قيل من عرف نفسه كيف كانت فاحتال عليها حتى ردها لأصلها فقد عرف ربه ، وقيل : معناه من عرف حقيقة نفسه ، فقد عرف ربه ، لأنه حصل مقام الجمع وحجب به عن الفرق ، والله تعالى أعلم .

الأمر الثاني : جهل كون نفسه خليفة عن الله في أرضه ، قال تعالى في شأن آدم — إني جاعل في الأرض خليفة(١) — ولا شك أن الحق سبحانه ركب هذا الروح اللطيف في هذا الظاهر الإنساني الكثيف ، وجعله يتصرف في الكون كيف شاء ، قال تعالى — هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً(٢) — وقال تعالى — وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه(٣) — وقال في الحكم « جعلك في العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته ، وأنك جوهرة تنطوي عليك أصداف مكوناته ، وسعك الكون من حيث جثمانيتك ، ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك ، فالإنسان في أصل نشأته خليفة الله في وجوده من عرشه إلى فرشه ، لكن الإنسان لما جهل نفسه أشغلها بخدمة الأكوان ، فسقطت عن رتبة الخلافة حين صارت مملوكة في أيدي المماليك ، ولا يصلح للخلافة إلا من كان حراً عن الملوك والمماليك .

قال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه : الأكوان كلها عبيد مسخرة ، وأنت عبد الحضرة .

وفي بعض الأخبار المروية عن الله عز وجل :

« يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك ، وخلقتك من أجلي ، فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له » .

---

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٣٠ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٩ .

(٤) سورة الجاثية الآية : ١٣ .

فكل من تحرر من رق الأكوان ورفع همته عنها ملكها بأسرها واستولت روحه على الوجود بأسره ، فصار خليفة الله فى كونه ، وأما من بقى مملوكا فى يدها فلا خلافة له .

الأمر الثالث : جهل النفس بالعالم المعقول ، والمراد به العالم الروحانى ، وهو عالم المعانى لأنه لايدرك بالنقل ، وإنما يدرك بتصفية العقل وجوهريته، حتى يصير سراً من أسرار الله فحينئذ يدرك عالم المعانى ، ويغيب عن عالم الأوانى ، وهو عالم الحس .

فتحصل أن من اشتغل بعالم الأشباح ، وهو عالم الحس ، وعالم الحكمة لا يدرك علم الأرواح ، وهو عالم المعانى ، وعالم القدرة ، وأنكر على من ادعى إدراك شىء من ذلك فهو معذور كمن أنكر طلوع الشمس وهو أرمد ، كما قال البوصيرى .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد   وينكر الفم طعم الماء من سقم

وسبب حجابهم عن عالم المعانى ، وهو عالم القدرة : اشتغالهم بعلم عالم الحس ، وهو عالم الحكمة . فاشتغلوا بعلم المنقول والاطلاع على الأقوال الغريبة وتحرير المسائل الفروعية والتغلغل فيها ، وهو سبب حجاب علماء الظاهر : تجمدو على ظاهر الشريعة وادعوا الإحاطة بها ، وأنكروا على أهل علم الحقيقة ، فضلوا وأضلوا عن طريق الخصوص ، وقد قال تعالى ـ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا(١) ـ ولو تأملوا فى سر الشريعة لوجدوها تدل على الطريقة والطريقة توصل إلى الحقيقة ، ولكن سنة الله لا تنخرم ، فلا بد من قوم يتجردون لعلم الشريعة ويحملون لواءه ، وإلا ضاعت الطريقة والحقيقة ، إذ لو ذاقوا هذا العلم زهدوا فى سائر العلوم ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

الأمر الرابع : الاشتغال بعمل الجوارح الظاهرة ، والتعمق فيه، والغفلة عن عمل القلوب وتصفيتها ، وهو سبب حجاب العباد والزهاد ، وحبستهم حلاوة عبادتهم عن شهود معبودهم وحلاوة زهدهم عن معرفة خالقهم ، فاستوحشوا من كل شىء لغيبتهم عن الله فى كل شىء ، فهم ينكرون الخصوصية لغيرهم ، ويثبتونها لنفوسهم ، وهو الجهل المركب . وهذا مع ما قبله أشد الحجاب عن الله ، ولذلك قال بعضهم : أشد حجابا عن الله العلماء ثم العباد ثم الزهاد .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٨٥ .

الأمر الخامس : الخوض فيما يحسنه العقل ويقبحه، فما استحسنه العقل أحبوه واعتقدوه وما قبحه العقل كرهوه وأنكروه ، فوقفوا مع عقولهم فانعقلوا عن مراتب الكمال ، وحجبوا عن مدارك الرجال ، فالعقل معقول ، لا يدرك من أمر التوحيد إلا افتقار الصنعة إلى صانعها ، وأما أسرار التوحيد وغوامضه ، فهو خارج عن دائرته كما قال ابن الفارض رضي الله عنه :

فثم وراء النقل علم يدق عن   مدارك غايات العقول السليمة

وهذا سبب حجاب أهل علم الكلام وقفوا مع الدليل، وحجبوا عن المدلول ، ارتبطوا مع الدليل والبرهان ، وأنكروا الشهود والعيان ، هذا معنى قوله « والخوض في المكروه والمحبوب » ويحتمل أن يريد الخوض في الدنيا بالاشتغال في تحصيل محبوبها ، كالعز والجاه والمال ، والبعد عن مكروهها كالذل والفقر وغير ذلك مما تكرهه النفوس ، فإن الاشتغال بذلك حجاب عظيم عن سر التوحيد ، والله تعالى أعلم .

الأمر السادس : جهل الإنسان بما يحل له الخوض فيه وما يحرم عليه ، إذ لو تحقق ذلك وعلم ما فيه من العقوبة لا نزجر وانكف عن الخوض فيما لا علم له به ، وأشغله عيبه عن عيوب غيره ، لكن لما جهل ما يضره وما ينفعه أطلق لسانه في الإنكار على أولياء الله من غير احترام ولا احتشام ، فلا جرم أنه إن لم يتداركه اللطف يخاف عليه سوء الخاتمة .

وفي الحديث القدسي : « من عادى لي وليا فقد آذنني بالحرب(١) » أو كما قال .

وفي حديث آخر : « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه(٢) » ولا تغتر بمن يدعي مرتبة العلم ثم يطلق لسانه في أولياء الله فإنه جاهل على الحقيقة لأن ذلك سببه الرضى عن نفسه ، وأي علم لعالم يرضى عن نفسه ، وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه ، عصمنا الله من ذلك بمنه وكرمه .

---

(١) رواه أحمد ، والحكيم ، وأبو يعلى ، والطبراني ، وأبو نعيم ، وابن عساكر ، وهو حديث فيه طول .

(٢) رواه الترمذي ، وابن ماجه عن أبي هريرة ، وأحمد والطبراني عن سيدنا الإمام الحسين بن علي ، والحاكم في الكنى ، وفي التاريخ ، وفي الأوسط ، وابن عساكر .

الأمر السابع : الميل عن المواهب الإلهامية والعلوم اللدنية ، وعـــدم التعريج عليها والتصديق بها ، ولا شك من لم يعرج عليها ولا يصدق بوجودها لايتشوف إليها ولا يطلبها وعلم الباطن كله مواهب وكشوفات ، فن لم يصدق به لا يناله أبداً ما دام منكراً له ، وقد قالوا : أول الطريق تصديق ، ووسطه توفيق ، وآخره تحقيق ، فن لا تصديق له لا توفيق له ، ومن لا توفيق له لا وصول له لعين التحقيق ، ولذلك قالوا : التصديق بطريقتنا ولاية أى لأنها سبب الولاية ، والله تعالى أعلم .

هذا آخر الأسباب الموجبة للإنكار على طريق الخصوص، فن سلم من هذه الأسباب فتح له الباب ورفع عنه الحجاب ومنح مشاهدة الأحباب بمنة الكريم الوهاب ، وإلا بقى مع عصبة الجهال فى الحيرة والضلال ، كما أبان ذلك بقوله :

واعلم بأن عصبة الجهال بهائم فى صورة الرجال

قلت : إنما كان الجهال بهائم فى صورة الرجال ، لأن المزية التى شرف بها الإنسان على البهائم هو العقل ، والعقل نور يميز به صاحبه ما يضره وما ينفعه، فإذا صار الإنسان يتعاطى أموراً تضره فى دينه ، وتحجبه عن ربه ، ويترك أموراً تقربه إلى ربه، وتوصله إلى حضرة قدسه ، فقد انطمس نور عقله وصار كالبهيمة أو أضل ، قال تعالى فى شأن الكفار — إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا(١) — .

وقال بعض الحكماء : من غلب عقله على شهوته كان كالملائكة أو أفضل ، ومن غلبت شهوته على عقله كان كالبهائم أو أضل ، والمراد بالجهل فى كلام الناظم الجهل بالنفس وشرفها ومن جهل نفسه جهل ربه ، ومن جهل ربه كان كالبهيمة ، فهو راجع إلى السبب الأول من الأسباب السبعة .

ثم أشار إلى تقرير السبب الثانى ، وهو جهله بكونها خليفة ، ولا تكون خليفة حتى تتحرر من رق الهوى فقال :

ومن أباح النفس ما تهواه فإنما معبوده هواه

قلت : أصل الروح فى أول نشأتها الطهارة والنزاهة ، لأنها من عالم القدس ، فتميمها

---

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٤٤ .

إنما هو ذكر ربها وشهوده ، والقرب من حضرة قدسه ، فلما ركبت فى هذا القالب إظهاراً لقدرته وحكمته مال بها إلى أصله الطينى ، فانقلب نعيمها إلى النعيم الجسمانى وهو الشهوات الجسمانية الحسية ، فانحجبت بذلك عن أصلها، فمن أراد الله سعادته وفقه لمخالفتها ومجاهدتها بقطع مألوفاتها وهواها ، حتى ترجع الى أصلها فيصير نعيمها فى ذكر مولاها وشهوده ، فيعظم قدرها ويشرف علها ، فحينئذ تستحق الخلافة وتتحقق بالنيابة ، فتحكم همتها على المكون ، وتتصرف فى الوجود بأسره : أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون، فإذا شهدت المكون كانت الأكوان معك .

ومن أراد الله خذلانه وهوانه بعدله ، أشغله بشهواته الفانية ومألوفاته الجسمانية ، فاتخذ إلهه هواه ، وحجب بذلك عن مشاهدة مولاه ، فسقط فى أسفل سافلين ، وطرد عن ساحة رب العالمين ، فمن أباح نفسه وأعطاها كل ما تهواه فإنما محبوبه ومعبوده هواه ، وضل بذلك عن طريق الوصول إلى مولاه ، قال تعالى — أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله(١) — فاتباع الهوى يصد عن سبيل الهدى قال تعالى — ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله(٢) — ويخمد نور السريرة ، ويطمس شعاع البصيرة .

قال الشاعر :

إنارة للعقل مكسوف بطوع هوى وعقل عاصى الهوى يزداد تنويرا

وهو أيضاً سبب الذل والهوان والالتحاق بحزب الشيطان .

قال الشاعر :

لا تتبع النفس فى هواها إن اتباع الهوى هوان

وقال بعضهم : « الهوى شرك الردى ، أى شبكته ومصيدته ، وبالله التوفيق .

ثم أشار إلى تقرير السبب الثالث ، وهو الجهل بالعالم المعقول فقال :

تالله ما يجهل باللبيب جهل البعيد منه والقريب

---

(١) الآية : ٢٣ من سورة الجاثية .

(٢) سورة ص ، الآية : ٢٦ .

قلت : اللبيب هو الكامل العقل ، والبعيد منه هو ظلمة الحس ، والقريب منه هو نور المعانى ، الذى هو أصله وفصله .

أو تقول : البعيد من الإنسان هو ظلمة الأوانى . والقريب منه هو نور المعانى المقتبسة للأوانى .

أو تقول : البعيد منه التجليات المنفصلة عنه فى الحس ، كالسموات والأرضين ، وما بينهما ، والقريب منه جسمه المتصل به ، والكل متصل فى المعنى ، كما قال الششترى فيه .

« متحد المعنى فى كل حى »

فينبغى أن يعرف فى الجميع فلا يجهل .

أى يحسن باللبيب أن يجهل ما هو بعيد منه من ظلمة الحس ، وما هو قريب منه من نور المعانى ، فنور روحك أقرب إليك من ظلمة حسك ، لكن لما انطمست البصيرة اشتغلت الروح بتدبير هذا الجسم وتحصيل شهواته وأغراضه . فسقطت فى أسفل سافلين ، وبعدت من حضرة رب العالمين ، فتركت ما هو قريب من نور حضرة الحبيب ، واشتغلت بما هو بعيد من ظلمة الجسم : فى تحصيل أغراضه وتوفير شهواته ، فارتبطت فى عالم الأشباح ولم ترجع إلى عالم الأرواح ، وهو عالم المعانى ، بل أنكرته بالكلية ، ولو انفتحت البصيرة لشاهدت الأنوار الحاجبة الماحية للأغيار أقرب إليها من كل قريب ، قال فى الحكم :

« شعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك ، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده، وحق البصيرة يشهدك وجوده : لا عدمك ولا وجودك . كان الله ولا شىء معه ، وهو الآن على ما عليه كان(١) » .

وراجع الشرح ففيه تفسير هذه المعانى . والله تعالى أعلم .

ثم ذكر تقرير السبب الرابع ، وهو الغفلة عن عمل القلوب ، فقال :

كيف يرى فى جملة السباق   من حظه مع الحظوظ باق

قلت : السباق جمع سابق ، والحظوظ هى الشئون والشواغل : جمع حظ .

أعلم أن الناس على قسمين : أهل اليمين ، والسابقون ، فأهل اليمين هم المشتغلون بإصلاح الظواهر وتدبير شئونها ، وما يصلح بها جلباً ودفعاً عاجلا وآجلا ، والسابقون هم

---

(١) هذا حديث شريف لفظه ـ كما فى ابن كثير جـ٢ ص ٤٣٧ : «كان الله ولا شىء قبله وفى لفظ ، ولا شىء غيره ، وفى لفظ ، ولا شىء معه ، وذكر أنه مخرج فى الصحيحين .

المشتغلون بإصلاح القلوب والسرائر ، وهم المقربون الغائبون عن رؤية أنفسهم ، الباقون بشهود ربهم ، فكل من اعتنى بإصلاح ظاهره فاته إصلاح باطنه ، وكان من أهل اليمين ، وكل من اعتنى بإصلاح باطنه كان من السباق ، وحشر فى زمرة المقربين .

قال الشيخ أبو الحسن : « غب عن إصلاح ظاهرك إن أردت فتح باطنك » فكيف يرى الإنسان ويظهر فى جملة السباق ، ويلتحق بأهل الجد والاستباق . وحظه منصرف لتحصيل حظوظه وشئون ظاهره الحسية ، وهمته واقفة مع عوائده وشهواته الوهمية ، كيف تخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد .

ولا بد من صحبة شيخ عارف ، ينقلك من العمل الظاهر إلى عمل الباطن . وإلا بقيت مع عوام المسلمين من أصحاب اليمين تنكر مقامات المقربين .

وبين عمل القلوب وعمل الجوارح ما بين عمل السر والعلانية .

وقال بعضهم : الذرة من أعمال القلوب ، أفضل من أمثال الجبال من عمل الجوارح ، والله تعالى أعلم .

ثم قرر السبب الخامس ، وهو الخوض فى المكروه والمحبوب ، فقال :

متى يجد جواهر المعانى   من قلبه على الدوام عانى

قلت العانى هو : الأسير ، وفى الحديث « فكوا العانى وأطعموا[1] الجائع » وجواهر المعانى هى أسرار الذات فى أنوار الصفات .

أو تقول : هى أسرار الجبروت وأنوار الملكوت .

أو تقول : هى : المعانى اللطيفة القائمة بالأوانى الكثيفة ، فإذا ظهرت المعانى تلطفت الأوانى ، وفى ذلك يقول ابن الفارض رضى الله عنه :

ولطف الأوانى فى الحقيقة تابع   لطف المعانى ، والمعانى بها تسموا

وقال : فى الحكم « لولا ظهوره فى المكونات ما وقع عليها وجود أبصار ، لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته .

---

(١) الحديث بنصه : « فكوا العانى ، وأجيبوا الداعى ، وأطعموا الجائع ، وعودوا المريض » رواه أحمد والبخارى .

فالصفات معانى والأكوان أوانى : لاتنظر إلى الأوانى . وخض بحر المعانى لعلك تراني .

وقال أيضاً : أباح لك أن تنظر فى المكونات ، وما أذن لك أن تقف مع ذات المكونات — قل انظروا ماذا فى السموات(١) — فتح لك باب الأفهام ولم يقل انظروا السموات، لئلا يدلك على وجود الأجرام، فالأجرام كالصدف ليواقيت المعانى، فمن وقف مع الصدف الظاهر حجب عن جمال اليواقيت الباطنة، فمن كان قلبه مصروفاً إلى ظواهر الأجرام مشغوفا بحبها أسيراً فى يدها معموراً بصور خيالها ، لا يطمع أن يذوق حلاوة المعانى ، ولا تشرق عليه أنوارها :

« كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته .

أم كيف يدخل إلى الله وهو مكبل بشهواته .

أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته .

أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته » .

فتى يجد فى قلبه بهجة جواهر المعانى من قلبه على الدوام عانى (أى أسير) فى قيد هواه الجسمانى ، متعوب فى خدمة الأوانى ، يقرب هذا ويبعد هذا ، يحب هذا ويبغض هذا ، يقبح هذا ويحسن هذا ، يصغر هذا ويكبر هذا ، فما دام هذا شأنه لا يطمع أن يطلع على بهجة المعانى ، ولا يترقى إلى العالم الروحانى ، وإنما وطنه العالم الجسمانى منكراً على أهل المعانى إلا أن يتداركه الله بلطف ربانى ، فينهض بخوف مزعج أو شوق مقلق ، وما ذلك على الله بعزيز .

ثم قرر السبب السادس من أسباب الإنكار ، وعنه ينشأ تضييع العمر والاشتغال بالفضول ، فقال :

لم يتصل بالعالم الروحانى　　　　من عمره على الفضول حانى

قلت : الحانى على الشىء هو المنكب عليه والمنهمك فى محبته بكليته ، والعالم الروحانى هو ضد العالم الجسمانى ، فالعالم الروحانى هو عالم الملكوت ، والعالم الجسمانى هو عالم الملك

---

(١) الآية : ١٠١ سورة يونس .

أو تقول العالم الروحانى هو عالم التلطيف ، والعالم الجسمانى هو عالم التكثيف ، فالتلطيف محل التعريف ، والتكثيف محل التكاليف ، أو تقول العالم الروحانى هو عالم الأرواح ، والعالم الجسمانى هو عالم الأشباح ، أو تقول : العالم الروحانى هو عالم القدرة ، والعالم الجسمانى هو عالم الحكمة ، أو تقول : العالم الروحانى هو عالم الجمع ، والعالم الجسمانى هو عالم الفرق ، أو تقول : العالم الروحانى هو عالم شهود الربوبية ، والعالم الجسمانى هو محل ظهور العبودية ، وهذه التفاسير معناها واحد ، وإنما ذكرتها للإيضاح ، واعلم أن محل عالم الأرواح وعالم الأشباح واحد عند أهل التحقيق إذ الأرواح لا تظهر بغير أشباح ، والأشباح لا تقوم بغير أرواح لكن قوم غلبت بشريتهم على روحانيتهم ، وظلمتهم على نورهم ، وملكهم على ملكوتهم ، فلم يروا إلا الأشباح تظهر وتعدم ، وهم أهل الحجاب من أهل السلوك .

وقوم غلبت روحانيتهم على بشريتهم ، ونورهم على ظلمتهم ، وملكوتهم على ملكهم ، فلم يروا إلا الأرواح تظهر وتبطن .

وإن شئت قلت : لم يروا إلا الأنوار تكثفت وتدفقت من بحار الجبروت إلى رياض الملكوت ، وهم أهل العرفان من أهل الشهود والعيان .

أو تقول : هم أهل الجذب والفناء ، فهم غرقى فى بحار الأنوار ، مطموس عليهم الآثار ، فإن فاقوا من سكرتهم وصحوا ميزوا بين الأشباح والأرواح ، وبين القدرة والحكمة ، فأعطوا كل ذى حق حقه ، ووفوا كل ذى قسط قسطه ، ولم يحجبوا بجمعهم عن فرقهم ، ولا بفرقهم عن جمعهم ، وهم الكمل رضى الله عنهم ، وإنما سمى عالم المعانى بالعالم الروحانى لأن من عرفه وكوشف به لا يرى إلا الأرواح تكثفت بالقدرة واحتجبت بالحكمة كما قال ابن الفارض :

وقامت بها الأشياء ثم لحكمة ... بها احتجبت عن كل من لاله فهم

والضمير على الخمرة الأزلية ، ثم قال :

وهامت بها روحى بحيث تمازجا اتـ ... حاداً ، ولا جرم تخلله جرم(1)

---

(1) وفى هذا رد منه على عمى البصيرة الذين اتهموا الرجل بالاتحاد والحلول ، وهو برىء مما قالوا ، لأن قوله «ولا جرم تخلله جرم» يفيد أن الاتحاد هنا أمر معنوى ، كما تقول : هذا الرجلان رأسان فى عمامة ، أى هما متطاوعان فى كل شىء فالأمر إذن واضح ، ولكن عمى البصائر هو مصيبة هذا الزمن ، ونسأل العافية والسلامة من تكفير المسلمين ، فما بالك بالأولياء والعارفين .

فأهل عالم الأرواح لا يرون الأجرام ولا الأشباح ، وإنما يرون الأرواح تتكشف في تماثيل الأشباح ، وإذا ردوا إلى رؤيتها رأوها قائمة بالله . ومن الله ، وإلى الله، ولا شيء سواه ، رأوها أوانى حاملة للمعانى .

أو تقول : رأوها مغارف يسقى منها شارب المعارف ، ولا يسقى من هذه الأوانى خمـــرة المعانى إلا من هو عن حظوظه فانى ، لا يتصل بالعالم الروحانى : من هو مع العالم الجسمانى ، لا يترقى إلى العالم الروحانى ، من كان فى أيام عمره على الفضول حانى ، وأنشدوا :

بقدر الكد تكتسب المعالى ... ينال العز من سهر الليالى
تريد العز ثم تنام ليلا ... يغوص البحر من طلب اللآلى

وكل ما يشغل العبد عن الترقى إلى الحضرة فهو فضول ، سواء كان عملا حسياً أو عملا وهمياً أو غير ذلك مما لا يحصى ، والله تعالى أعلم .

ثم قرر السبب السابع ، وهو الميل عن مواهب الإلهام ، فقال :

ليس يرى مع المعانى دانى ... من قلبه فى عالم الأبدان

قلت : الدانى هو القريب ، والمراد بالمعانى أسرار عظمة الربوبية وأنوار الألوهية ، وهى لطيفة شريفة رفيعة منيفة ، رفيعة المدارك دقيقة المسالك ، لا ينالها إلا قلب سماوى ، أو روح عرشى ، أو سر جبروتى ، قد ارتفعت همته عن سائر الأكوان ورحلت روحه عن عالم الأبدان ، إلى طلب الشهود والعيان ، فنى عن وجوده فى شهود معبوده ، فرغ قلبك من الأغيار تملأه بالمعارف والأسرار ، فليس يقرب من ساحة المعانى من كان قلبه فى العالم الجسمانى ، من اشتغـــل بخدمة الأشباح لا يترقى أبداً إلى عالم الأرواح ، من اعتنى بخدمة جسمه مات فى سجن غمه وهمه .

سأل سهل رضى الله عنه عن القوت ، فقال : هو الحى الذى لا يموت ، فقال : إنما سألتك عن القوام ، فقال : القوام هو العلم ، قيل : سألناك عن الغذاء ، فقال : الغذاء هو الذكر ، قيـــل : إنما سألناك عن طعم الجسد ، فقال : مالك والجسد ، دع من تولاه أو لا يتولاه آخراً ، إذا دخلت عليه علة رده إلى صانعه ، أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردوها إلى صانعها حتى يصلحها ، وأنشدوا :

كمل حقيقتك التي لم تكمل ... والجسم دعه في الحضيض الأسفل
أتكمل الفاني وتترك باقياً ... هملا ، وأنت بأمره لم تحفل
فالجسم للنفس النفيسة آلة ... ما لم تحصله به لم يحصل
يفنى ، وتبقى دائماً في غبطة ... أو شقوة وندامة لا تنجلي
أعطيت جسمك خادماً فخدمته ... أتملك المفضول رق الأفضل
شرك كثيف أنت في حبلاته ... ما دام يمكنك الخلاص فعجل
من يستطيع بلوغ أعلى منزل ... ما باله يرضى بأدنى منزل

وقال آخر :

ياخادم الجسم كم تشقى بخدمته ... أتطلب الربح مما فيه خسران ؟
عليك بالنفس فاستكمل فضيلتها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

قلت : وتكميل فضيلة النفس هو تطهيرها وتهذيبها وتقريبها من حضرة ربها ، فمن يطهرها ولم يهذبها فقــد بخسها وتقصها ، قال تعالى ـ قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها(١) ـ .

وفي الحكم « أخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك لتكون لنداء الحق مجيباً ومن حضرته قريباً » .

فإذا خرج العبد من أوصاف بشريته ترقى إلى مقام الروحانيين ، فيشاهد حينئذ أنوار ربه ، ويحظى بمؤانسته وقربه ، ولذلك زاد في الحكم بعد هذه الحكمة متصلا به « الحق ليس بمحجوب عنك ، وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه » إلخ .

كأنه يقول : ما حجبك عنه إلا أوصاف البشرية التي أنت محجوب بها ، فإذا زالت عنك زال حجابك واتصلت بمرتبة الشهود وعرفت الملك المعبود ، وبالله التوفيق وهو الهادي الى سواء الطريق .

وإلى هذا في الجملة أشار بقوله :

مهما ترقى مادة الموضوع ... يأخذ نجم الدرك في الطلوع

(١) الآيتان : ٩ و ١٠ من سورة الشمس .

قلت : الموضوع هنا هو الجسم الموضوع لظهور الروح وقيامها به ، فهو كالقالب لها أو كالصدف ، ومادته ما يقوم به فى العادة كالأكل والشرب واللباس ، ويدخل فيه ما يقوم به معناه كالعز والجاه والمال وغير ذلك من مكملاته ، فما دامت النفس مشتغلة بتحصيل هذه المادة جلباً ودفعاً ، تحصيلا وتكميلا ، فهى مرتهنة به ، محبوسة معه ، كيف يرحل القلب إلى الله وهو مكبل بشهواته .

والششترى رضى الله عنه :

فارفض الخلق وارقا ترتق عن ظلالك
واسبق الخلق سبقا ثم غب عن فعالك
وافن فى الحب عشقاً فالمراد فى زوالك

فما دام العبد مقبلا على دنياه ، مشتغلا بتحصيل حظوظه وهواه ، لا يطمع فى الرحيل إلى حضرة مولاه ، فإذا غاب عن مادة حسه ، وزهد فى نفسه وفلسه وجنسه ، يأخذ نجم إدراكه فى الترقى إلى حضرة قدسه ، فلا يزال يمشى فى نور نجم توحيد الأفعال ، إلى أن يطلع عليه قمر توحيد الصفات ، ثم تشرق عليه شمس توحيد الذات ، فيقول بلسان حاله :

طلعت شمس من أحب بليل فاستضاءت ، فمالها غروب
إن شمس النهار تغرب بليل وشمس القلوب ليست تغيب

وقال آخر :

ليلى بوجهك مشرق وظلامه فى الناس سارى
الناس فى سدف الظلا م ونحن فى ضوء النهار

وقال سيدى عبد الرحمن المجذوب :

طلع النهار على الأقمار ولا ابقى إلا ربى
الناس زارت محمد وانا اسكن لى فى قلبى

وقلت فى عينيتى :

تبدت لنا شمس النهار وأشرقت فلم يبق ضوء النجم والشمس طالع
تنحى رداء الصون عن كون ربنا فصرنا إلى نور الحبيب نسارع

ثم تأسف الناظم على قلة من يساعده فى وقته على حاله ، فقال :

يا حسرتى إذلا نجد راكب   يصحبنا فى هذه المواكب

قلت : الموكب هو : الجماعة ركباناً ومشاة والجمع مواكب ، وكأنه رضى الله عنه لم يجد فى زمانه من يساعده على هذا العلم لأنه عزيز وأهله أعز من كل عزيز ، وغالب الناس إما مشغول بدنيا ، أو مفتون بدعوى ، أو مبتلى بهوى ، وإن كان الزمان لا يخلو منهم فهم أقل من القليل ، وأعز من العزيز ، وأغرب من عنقاء مغرب ، لكن لا ينسحب ذلك على كل زمان فإن النور النبوى تارة ينبع ويظهر فيظهر أهله لصلاح ذلك الزمان ، وتارة يخفى مع وجوده ، فيخفى أهله لفساد ذلك الزمان ، فالمدد لا ينقطع ، لكن تارة يريد الله تعالى إظهار أوليائه كزماننا هذا ، والحمد لله ، وتارة يريد الحق تعالى إخفاءهم لحكمة أرادها الله تعالى ، والله يحكم لا معقب لحكمه ، والله تعالى أعلم .

ثم تأسف ثانياً على قلة من يبحث معه فى هذا العلم فقال :

يا معشر الإخوان هل من سائل   أخبره عن هذه المسائل

قلت : المذاكرة فى هذا الفن من الأمور المؤكدة ، فلا بد من صحبة إخوان يخوض معهم فى هذا الفن . وقد قالوا : فهم سطرين أفضل من حفظ سفرين ، ومذاكرة اثنين أفضل من حفظ وقرين . وكما أن الذكر اللسانى الجماعة فيه أفضل ، كذلك الذكر القلبى ، وهى الفكرة الجماعة فيه أفضل من الانفراد ، والجماعة فى الفكرة هى المذاكرة مع أرباب الفن ، فإن إدراك فكرات متعددة أحسن من إدراك فكرة واحدة ، وهذا كله مع من دخل بلاد المعانى ، وإلا فاستعمال فكرة واحدة أفضل من الاجتماع مع غيره . وقال سيدى على العمرانى : والجلوس مع العارف أفضل من العزلة والعزلة أفضل من الجلوس مع العامة ، وفضل الصحبة أمر شهير لما فيه من التعاون ، قال تعالى — وتعاونوا على البر والتقوى[1] .

وأوحى الله إلى داود عليه السلام : يا داود كن يقظانا وارتد لنفسك إخواناً ، وكل أخ أو صاحب لا يوافق على مسرتى فارفضه ، فإنه لك عدو ، أو كما قال .

وقال ابن عباد رضى الله عنه فى نظم الحكم :

---

(١) الآية : ٢ من سورة المائدة .

إن التواخى فضله لا ينكر　　وإن خلا شرطه لا يشكر
والشرط فيه أن تواخى العارفا　　عن الحظوظ والحوظ صارفا
مقاله وحاله سيان　　ما دعوا إلا إلى الرحمن
أنواره دائمة السرايه　　فيك ، وقد حفت بك الرعايه
وفاصد لفاقد هذا الشرطا　　بصحبة يعقدها قد أخطا
لأنه يرى بها محاسنه　　فنفسه ذات اغترار آمنه

وهو نظم لقوله « لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله ، ربما كنت مسيئاً فأراك الإحسان منك صحبتك إلى من هو أسوء حالا منك » ، وهذه النصيحة تصدق بصحبة الشيخ والإخوان ، وإن كان ابن عطاء الله إنما قصد بها الشيخ ، والله تعالى أعلم .

ثم تأسف على ذهابهم وانقراضهم فى زمانه ، فقال :

وا أسفاً يا فتية الوصول　　على انصرام حبلها الموصول

قلت : الأسف هو التحسر ، والفتية جمع فتى ، والفتى هو من كسر صنم نفسه ، قال تعالى فى شأن الخليل — قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم(١) .

وفتية الوصول : هم العارفون بالله ، لأنهم أهل الوصول والتمكين . والانصرام هو الانقطاع وكأن طريق العارفين كانت فيما سلف موصولة بحياة أربابها ، مرتبطة بتحصين، ثم انصرمت وانقطعت بموت أربابها وانقطاع موادها وأسبابها ، وهذا كما قال القائل :

أهل التصوف قد مضوا　　صار التصوف مخرقه
صار التصوف ركوة　　وسجادة مزوقه
صار التصوف سبحة　　وتواجداً ومنطقه
كذبتك نفسك ليس ذى　　سنن الطريق الملحقه(٢)

فتأسف الشيخ وتحسر على انقطاع هذا الطريق بانقطاع أهلها وناداهم وإن كانوا غائبين زيادة فى التحسر ، فكأنه يقول يا أسفى يا أولياء الله على انقطاع طريقكم بعد وصلها ،

---

(١) الآية : ٦٠ من سورة الأنبياء .

(٢) هذا فى زمانه ، فكيف بزماننا الذى استباحوا فيه المساجد ودور العبادة بشرب الدخان وتنباك والمزمار والطبل والرقص والفجور بدون حياء ولا أدب .

بمراسها بعد ظهورها ، وقد تقدم له(١) هذا المعنى فى أول الكتاب .

ثم شوق إلى اللحوق بهم ومشاركتهم فى مقاماتهم ، فقال :

لو أبصر الشخص اللبيب العاقل   لم يعتقل عن هذه المعاقل

قلت : الاعتقال هو : الربط والحبس ، ومنه عقال البعير ، والمعاقل هى المـراتع التى يعقل فيها الخيل لترتع ، ولا يكون إلا خصبا ، كالروض ونحوه .

يقول رضى الله عنه : لو أبصر العاقل بنور بصيرته ونظر ما خص الله أولياءه من كراماته ، وما متعهم به من النزهة فى معرفته ، لم يعتقل ويجلس عن هذه الرياضات ، والمراتع التى ترتع فيها الذاكرون وتتنزه فى رياضها العارفون ، ولم يقنع بخيالات الدنيا التى لا حقيقة لها ، وشهواتها الفانية التى لا بقاء لها ، قال تعالى :

أفرأيت إن متعناهم سنين . ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون(٢) .

قال فى التنبيه : وحاصل الدنيا أمور وهمية انقادت طباع الناس إليها ، وهى لا تفى بجميع مطالبهم لضيقها وقلتها وسرعة تقضيها ، فتجاذبوها بينهم ، فتكدر عيشتهم ، ولم يحصلوا على كلية أغراضهم ، كما قيل :

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها   على أنهم فيها عراة وجوع
أراها وإن كانت قليلا كأنها   سحابة صيف عن قريب تقشع

وقال سهل رضى الله عنه للعقل ألف اسم ، ولكل اسم منه ألف اسم ، وأول اسم منه ترك الدنيا .

قال الحسن رضى الله عنه : كيف يسمى عاقلا وهو يصبح ويمسى فى الدنيا ومباهاة أهلها فى المطاعم والمشارب والملابس والمراكب ، أولئك هم الخاسرون ، أولئك هم الغافلون ، أولئك هم الجاهلون

قلت : ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام فى بعض مواعظه « إن من علامات العقل التجافى

(١) قوله « له » أى الشيخ رحمه الله .
(٢) الآيات من ٢٠٥ – ٢٠٧ من سورة الشعراء .

عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والتزود لسكنى القبور ، والتأهب ليوم النشور(١) .

وقال أبو على الثقفى رضى الله عنه أف من أشغال الدنيا إذا أقبلت وأف من حسراتها إذا أدبرت ، والعاقل من لا يركن إلى شىء إذا أقبل كان شغلا وإذا أدبر كان حسرة ، وقد قيل فى معناه :

ومن يحمد الدنيا لشىء يسره فسوف لعمرى عن قريب يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

وقيل لأبى القاسم الجنيد رضى الله عنه : متى يكون الرجل موصوفاً بالعقل ؟ فقال: « إذا كان للأمور مميزاً ولها متصفحاً ، وعما يوجبه عليه العقل باحثاً ، يلتمس بذلك طلب الذى هو أولى ليعمل به ، ويؤثره على سواه ، فإذا كان كذلك فمن صفة العقلاء ركوب الفضل فى كل أحواله بعد إحكام العلم بما فرض عليه ، وليس من صفة العقلاء إغفال النظر لما هو أحق وأولى ، ولا من صفتهم الرضى بالنقص والتقصير ، فمن كانت هذه صفته بعد إحكامه لما يجب عليه من عمله ترك التشاغل بما يزول ، وترك العمل عما يفنى وينقضى ، وذلك وظيفة كل ما سورت عليه الدنيا ، وكذلك لا يرضى أن يشغل نفسه بقليل زائل ويسير حائل ، يصده التشاغل به والعمل به عن أمور الآخرة التى يدوم نعيمها ونفعها ويتأبد سرورها ، ويتصل بقاؤها ، وذلك أن الدين يدوم نفعه ، ويبقى على العامل حظه ، وما سوى ذلك زائل مردود ، مفارق موروث ، يخاف مع تركه سوء العاقبة فيه ، ومحاسبة الله عليه ، وكذلك من صفة العاقل تصفحه للأمور بعقله ، والأخذ منها بأوفره ، قال الله تعالى — الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب(٢) —

---

(١) وفى لفظ آخر رواه مسلم وابن أبى الدنيا فى قصر الأمل ، قال ابن مسعود : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم — فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام — فقال : إن النور إذا دخل الصدر انفسح فقيل : يارسول الله هل لذلك من علامة تعرف ؟ قال : نعم : التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله ،

بذلك وصفهم الله تعالى ، وذوو الألباب هم ذوو العقول ، وإنما وقع الثناء عليهم بما وصفهم الله به للأخذ بأحسن الأمور عند استماعها ، وأحسن الأمور هو أفضلها وأبقاها على أهلها نفعا فى العاجل والآجل ، وإلى ذلك ندب الله من عقل فى كتابه » .

انتهى كلام الجنيد رضى الله عنه ، وهو فى غاية الحسن لتفسير العاقل ، من الله علينا باستعماله آمين :

وإلى هذا العاقل وجه الناظم الخطاب بقوله :

يا صاحب العقل الحصيف الوافر إياك أن تصدمك الحوافر

قلت : الحصيف بالمهملة والفاء المروسة هو : المحكم المتقن ، وثوب حصيف أى محكم النسج ، وهو ضد الخفيف ، والصدم هو الزطم بلغتنا .

يقول رضى الله عنه : يا صاحب العقل الكامل لا ترض لنفسك بالغفلة والتوانى والتقاعد عن مراتب الرجال أهل المعانى ، فتقعد فى طريق السير حتى توطم فيك الرجال ، ويسبقوك إلى رتبة الكمال ونيل كرامة الوصال ودخول جنة الكمال ، فتندم حيث لا ينفع ندم ، وقد زلت بك القدم ، وأنشدوا :

للسباق السباق قولا وفعلا حذر النفس حسرة المسبوق

وقال ابن الفارض رضى الله عنه :

وجد بسيف العزم سوف فإن تجد تجد نفساً فالنفس إن جدت جدت

والتنافس فى الطاعات ونيل المراتب محمود قال تعالى ـ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون(1) إلا أنه لا ينبغى أن يجعل الإنسان مجاهدته فى مقابلة هذا الحرف ، بل يجاهد نفسه فى تحقيق العبودية والقيام بوظائف الربوبية ، ولا يلتمس بذلك حظا ولا حرفاً ، فبذلك يتحقق الإخلاص ويلحق بدرجة الخواص ، والله تعالى أعلم .

(ثم) نبهك على ارتحال الدنيا عنك إن لم ترحل عنها بقلبك فقال :

لقد غدا الكون لديك سافر إن لم تكن فيه كما المسافر

قلت : غدا بمعنى : صار ، والسافر الخالي من الشيء ، وقد يراد به المسافر ، يقال سفر فلان فهو سافر ، ويجمع على سفر كراكب وركب .

يقول رضي الله عنه : لقد صار الكون مسافراً عنك بموتك إن لم تسافر عنه بهمتك .

قال صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل(١) » وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنه يقول : « إذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح(٢) » .

يقول لقد صار الكون خالياً عندك من الخير إن لم تزهد فيه وتسافر عنه بهمتك وتشتغل فيه بطاعة ربك .

والحاصل أن الإنسان والكون يتسابقان ويتصارعان ، فمن سبق الكون وغلبه برفع همته عنه والغيبة عما فيه ، والزهد فيما اشتمل عليه خدمه الكون بأسره ، وصار عوناً له على السير إلى ربه ، بل يصير عبداً له ، يتصرف فيه بهمته كيف شاء ، قال الشاعر :

لك الدهر طوع والأنام عبيد فعش : كل يوم من أيامك عيد

وقال ابن الفارض رضي الله عنه :

وفي سكرة منها ولو عمر ساعة ترى الدهر عبداً طائعاً ، ولك الحكم

وقال في الحكم (أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون ، فإذا شهدته كانت الأكوان معك) .

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى « يا دنيا اخدمي من خدمني وأتعبي من خدمك(٣) » .

---

(١) رواه البخاري عن عبدالله بن عمر ، وزاد أحمد والترمذي وابن ماجه . « وعد نفسك من أهل القبور » ، ورواه بتمامه أيضاً البيهقي في شعب الإيمان ، والعسكري .

(٢) هذا حديث رواه عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولفظه : « إذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وخذ من حياتك لموتك ومن صحتك لسقمك ، فإنك يا عبد الله لا تدري ما اسمك غدا » (رواه البخاري وابن حبان عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما) .

وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم : « الدنيا طالبة ومطلوبة، فمن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستكمل رزقه(١) ، ومن طلب الدنيا طلبته الآخرة حتى يأخذ الموت بعنقه(٢) » .

ومن سبقه الكون وغلبه بالرغبة فيه والحرص على ما اشتمل عليه ، بقى فى يده أسيراً ، وفى سجنه رهينا ، وعن ربه بعيداً ، فإذا مات صار فى قبره فريدا، وبسبب ذلك عدم الفهم والفهم وانقياده للحدس والوهم ، كما قال الششترى رضى الله عنه :

تقيدت بالأوهام لما تداخلت عليك ونور العقل أورثك السجنا

ولا يتخلص الإنسان من سجن الأكوان حتى يخلع نعله عن الكونين ، ويتخطى بهمته حظوظ الدارين ، كما قال القائل :

وعن الكونين كن منخلعاً وأزل ما بيننا من بيننا

وقال بعضهم : « طالب الدنيا أسير ، وطالب الآخرة أجير ، وطالب الحق أمير ، فإذا تحرر العبد من رق الحظوظ ، فقد تحقق سفره إلى ربه وظفر بوصله وقربه حققنا الله بذلك بمنه وكرمه و إلا بقى موثقاً بحبل هواه ، مكبلا فى قيد حظوظه ومناه ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

ياموثقاً فى موثق الممالك تزهو أراك اليوم زهو المالك

قلت الموثق : المحبوس ، والوثائق ما يحبس به ، والزهو الترفع والتكبر .

يقول رضى الله عنه : يا محبوساً فى وثاق شهواته وحظوظ نفسه ، لقد كنت حراً وهى مملوكة لك ، لو غبت عنها فى محبة خالقها لخدمتك ، فلما شغفت بحبها وخدمة نفسك فى طلبها صرت مملوكا لها أسيراً فى يدها ، فابك على نفسك بكاء الثكلى ، واضرع فى فكاك نفسك للمولى ، فعسى أن يفك أسرك ويصلح أمرك ويردك إلى أصلك ، فتصير مالكا والهوى مملوكا ، وتصير مخدوماً والهوى خادمك ، كما قال الشاعر :

كنت عبداً والهوى مالكى فصرت حراً والهوى خادمى

وقال آخر :

العبد حر ما عصى طمعاً والحر مهما طاعه عـــبد

(١) لأن من كان فى خدمة الله سخر الله له الدنيا وكل شىء فيها .

(٢) لأنه صار عبداً للدنيا، فهو خادمها إلى أن يخنقه الموت ، لا هو عمل لله ، ولا الدنيا بقيت له ، ونسأل الله السلامة .

وفى الحكم :

أنت حر مما أنت عنه آيس وعبد لما أنت له طامع .

وقال أيضاً : ما أحببت شيئاً إلا كنت له عبداً ، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبداً .

وقال بعض الملوك لبعض الأولياء : اطلب منى شيئاً نعطك ؟ فقال له وكيف أطلب منك وأنت عبد لعبدى ، فقال له : وكيف ذلك ؟ فقال له : أنا زهدت فى الأشياء فخدمتنى وأنت أحببت الأشياء فملكتك ، أو كلاماً هذا معناه لطول العهد به .

وإذا كنت أيها الراغب فى الدنيا أسيراً فى يدها ، كيف يمكنك أن تزهو وتترفع على غيرك زهو المالك ، وإنما أنت مملوك ، فتنبه لمصيبتك واعرف قدرك ، ولا تتعد طورك ، واسأل الله تعالى أن يفك أسرك ، وبالله التوفيق .

ثم وبخ المخاطب على قلة الاستماع ، فقال :

يا من أعاتبه على الدوام حتى م أجفان الدوا دوام

قلت : المعاتبة : اللوم والتقريع و « حتى » بمعنى « إلى » الغائية ، وما ، نافية حذف ألفها للوزن ، وأجفان الدوا مبتدأ ، ودوام : خبره مخصوص مقدر رفعه ، ودوام جمع دامية : أى سائلة بالدم ، والمجرور بحتى محذوف ، والتقدير إلى أى زمان تستمر مريضاً ، وليس أجفان عينك التى فى بكائها شفاؤك سائلة بالدم .

يقول رضى الله عنه : « يا من نعاتبه على الدوام ، وهو يسمع عتابى ويفهم خطابى ، ومع ذلك لم ينكف عن العناد ولم يرجع عن الانتقاد ، إلى متى تبقى عليلا ، وقد أمكنك الدواء ، فكيف لا تبكى على نفسك وقد تنشب فى باطنك داء الهوى ، فإذا كان الدواء فى سكب دمعك ، فكيف لا تبكى الدم فى طلب شفاء نفسك ، وفى الحكم (تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضـــال ، لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق) اه .

فلا يخرج الداء من القلب إلا وارد قوى يأتى من حضرة قهار لا يصادم شيئاً إلا دمغه إما بنفحة إلهية أو بسبب واسطة شيخ كامل عارف محقق .

والغالب أن من صدق فى الطلب يبلغه الله ما طلب ، كن طالبا تجد مرشداً ، فمن طلب وجده وأنجز بالوفاء وعده ، فإذا تضرع وبكى على نفسه كما قال الناظم ، أخذ الله بيده وأظله على ولى من أوليائه حتى يوصله إلى ربه ، والله أكرم من أن يلتجىء العبد إليه ولا يضمه إليه ، وبالله التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وفى بعض النسخ :

يا من أعاتبه على الدوام حتى متى جفنك فى منام

وهو يشير إلى قوله عليه الصلاة والسلام « الناس نيام فإذا ماتوا استيقظوا[1] » .

وقال بعض الشعراء :

إلى كم تمادى فى غرور وغفلة وكم هكذا نوم إلى غير يقظة
لقد ضاع عمر ساعة منه تشترى بملء السما والأرض أية ضيعة
أتنفق هذا فى هوى هذه التى أبى الله أن تسوى جناح بعوضة[2] ؟
وترضى من العيش السعيد بعيشة مع الملأ الأعلى بعيش البهيمة

ثم ذكر سبب إعراض المعاتب وعدم انزجاره ، وهو البلادة والجهل ، فقال :

كم أنت ذو وسائد عراض لاه عن الجوهر بالأعراض ؟

قلت : « كم » اسم استفهام ، يستفهم بها عن العدد ، وهى هنا الأزمنة والأوقات ، ووسائد جمع وساده ، وصرفا للوزن ، والمراد به هنا : الكناية عن علم الفهم ، يقال « فلان عريض الوسادة » وعريض القفا ، إذا لم يفهم ولم يفطن ، وقد قال عليه الصلاة والسلام لعدى بن حاتم حيث لم يفهم قوله تعالى — وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر — فحمله على ظاهره فجعل خيطين تحت وسادته وجعل ينظر إليهما ويأكل حتى تبين أحدهما من الآخر ، فلما قال ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنك لعريض القفا » وفى رواية « إن وسادك إذن لعريض » على بعض التأويلات ، والجوهر

(١) فى المقاصد الحسنة : أنه من قول الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

(٢) إشارة إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » رواه الترمذى والضياء عن سهل بن سعد .

هنا كناية عما يبق، والأعراض كناية عما يبق، والأعراض كناية عما يفنى، لأن المرض لا يبق زمانين ، يقول رضي الله عنه : كم تمكث أيها المعاند من السنين والأوقات ، وأنت في سكرة الغفلات غبي جاهل ، لا تسمع الخطاب ولا ينفع فيك العتاب، مشتغل بالمرض الفاني عن النعيم المقيم أما تسمع قوله تعالى - يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم[1] - إلى كم تبق غليظ الطبع عريض القفا معتنياً بإصلاح جسمك الذي هو مرض الفناء ، لاهياً عن إصلاح جوهر روحك وقلبك الذي هو سبب النعيم على الدوام والبقاء ، فبادر أيها الجاهل إلى دواء قلبك قبل أن يهجم عليك الحمام ، وأنت على حالك من الأمراض والسقام ، فانهض أيها الغافل إلى خلاص نفسك بالتوبة والندم قبل أن تندم ولا ينفعك الندم ، وقد زلت بك القدم ، وأنشدوا :

أما آن للنفس أن تخشعا أما آن للقلب أن يقلعا
تقضى الزمان ولا مطمع لما قد مضى منه أن يرجعا
تقضى الزمان فيا حسرتا لما فات منه وما ضيعاً

وقال آخر :

وما هي الا ليلة ثم يومها ويوم الى يوم ، وشهر إلى شهر
مطايا يقربن الجديد إلى البلا ويدنين أشلاء الصحيح إلى القبر
ويتركن أزواج الغيور لغيره ويقسمن ما يحوى الشحيح من الوفر

وقال في الحكم (العجب كل العجب عن يهرب مما لا انفكاك له عنه ، ويطلب ما لا بقاء له معه ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) .

والذي لا بقاء له معه هو شهواته وحظوظه الفانية ، والذي لا انفكاك له عنه هو قدر الله وقضاؤه ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر سبب حجاب الناس عن الله ، فقال :

مهما تعديت عن الأجسام أبصرت نور الحق ذا ابتسام

---

(١) الآيتان : ٨٨ - ٨٩ من سورة الشعراء .

قلت : قد تقدم قريباً عند قوله ، لم يتصل بالعالم الروحانى ، الخ .

الفرق بين العالم الروحانى والعالم الجسمانى ، فالعالم الجسمانى هو محل ظهور حكمته تعالى، لأن من أسمائه تعالى الحكيم ، وهو أيضاً محل لظهور آثار تصرفات الأسماء والصفات ، من إعزاز وإذلال ، وقبض وبسط ، وإحياء وإماتة ، وغير ذلك من اختلاف الآثار ، وهو أيضاً محل لظهور العبودية التى بها كمال سر الربوبية ، ومن مقتضى العبودية : الفقـــر والذل ، والعجز ، والضعف ، والجهل ، وهو أيضا محل ارتباط الأسباب بمسبباتها واقتران العلل بمعلولاتها ، وبهذا وقع الحجاب عن شهود مسبب الأسباب ، فوقف الناس مـــع الأسباب والعوائد ، ومنعوا عن تحصيل المواهب والفوائد ، وانهمكوا فى طلب تحصيل هذه الأسباب لتحصيل مسبباتها ، وارتبطوا معها حتى ظن أهل الجهل أنه لا بد منها ، قد خلهم بذلك هم الرزق وخوف الخلق لضعف إيمانهم وحجابهم عن ربهم فمن أراد الله عنايته رفع الحجاب عن قلبه ، فأعرض عن هذا العالم بأسره . ورفع همته إلى ربه، فلاحت له الأسرار، وضحكت فى وجهه الأنوار ، فمهما تعديت أيها الإنسان بهمتك عن عالم الأجسام، وحصلت لك الغيبة عنه على التمام ، أبصرت نور الحق فى وجه سرك ذا ابتسام ، وهى أنوار الملكوت وأسرار الجبروت ، وما حجبك عنها إلا شغل قلبك بأمر نفسك ، فلو بعتها لربك يعوضك منها شهود أنوار قدسه ، وما حجبك أيضا عن شهود تلك الأنوار إلا وقوفك مع خيال الحس ورؤية الأغيار ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

مهما ارتقيت عن قبيل الحس   أدركت فى نفسك معنى النفس

قلت : من اصطلاحات الصوفية أنهم يعبرون بالحس عما يدركه البصر من الأجسام الكثيفة ، وبالمعنى عما يدرك بالبصيرة من المعانى اللطيفة القائمة : بالأجسام ، وهى أسرار الذات ومعانى الصفات ، فالوجود كله دائر بين حس ومعنى : الحس ظاهر ، والمعنى باطن ، فالحس كأنه ظرف والمعنى مظروف ، والحس لا ينفك عن المعنى ، ومثال ذلك الثلجة : ظاهرها ثلجة وباطنها ماء ، فالظاهر الجامد حس ، والباطن المائى معنى ، فالكون كله كالثلجة ظاهره كثيف ويسمى حسا ، وباطنه لطيف ويسمى معنى ، وفيه قال الجيلى رضى الله عنه :

وما الكون فى التمثال إلا كثلجة   وأنت لها الماء الذى هو نابع

فما الثلج فى تحقيقنا غير مائه   وغير أن فى حكم دعته الشرائع

ثم ان الحق سبحانه جعل أحكام الحس مضادة لأحكام المعنى مع تلازمهما ، فأحكام

الحس أحكام العبودية ، وهى النقائص ، وأحكام المعنى أحكام الربوبية وهى الكمالات ، فمن أراد أن يظفر بالمعنى بتمامها فليغب عن الحس وأحكامه ، وهذا معنى قوله « مهما ارتقيت عن قبيل الحس أدركت فى نفسك معنى النفس ، أى أدركت فى ذاتك معنى الروح ، والروح لطيفة نورانية قائمة بالبدن، وهى من قبيل المعانى «ومن عرف نفسه عرف ربه(١)» ولا يفرق بين روحانيته وبشريته الا من ترقى من عالم الحس الى عالم المعانى .

والحاصل : أن الحس ما أظهره الله تعالى إلا لتقبض منه المعنى ، وهى معرفة الحق سبحانه وتعالى ، فلولا ظهور الحس ما قبضت المعنى ، ولولا وجود المعنى ما قام الحس ، وهو معنى قول الشيخ أبى مدين رضى الله عنه « الحق مستبد ، والوجود مستمد ، والمادة من عين الجود ، فإذا انقطعت المادة انهد الوجود .

فالحق تعالى «مستبد(٢)، أى قائم بنفسه، والوجود، وهو الحس الظاهر «مستمد» من المعنى الباطنية ، فلو انقطعت مادة المعانى التى تمد الحس « انهد » الوجود أى اضمحل وتلاشى ، لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته ـ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ـ وهنا معانى تضيق عنها العبارة ، وعلمنا كله إشارة ، وفيما ذكرته كفاية ، والله تعالى أعلم .

ثم عاتب من وقف مع الحس ولم ينفذ إلى المعنى ، فقال :

يا من على القشر غدا يحوم   حتى عن اللب متى تصوم ؟

قلت : القشر هو ظاهر الشىء ، ويسمى الصوان بكسر الصاد ، لأنه يصون ما فى داخله ، واللب هو باطن الشىء وقلبه ، فالحس قشر والمعنى لب .

يقول رضى الله عنه : يامن وقف مع قشره الظاهر فاعتنى بإصلاح ظاهره وتدبير أمر بدنه أكلا وشربا وملبسا ومنكحا ومسكنا أو اعتنى برفعته وعزه وطلب رياسته وجاهه ، أو اعتنى بإصلاح جوارحه الظاهرة ولم ينفذ إلى إصلاح باطنه ، وغدا ، أى صار يحوم ويدور حول القشر الظاهر « متى ، تستمر صائما عن حلاوة المعانى الباطنية ، وهى

---

(١) الآية : ٤١ من سورة فاطر .

(٢) فى المختار : استبد بكذا : تفرد به قال أبو المظفر السمعانى فى « الكلام على التحسين والتقبيح من القواطع » إنه لا يعرف مرفوعاً ، وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ من قوله : ومعناه من عرف نفسه بالحدوث عرف ربه بالقدم ، ومن عرف نفسه بالفناء عرف ربه بالبقاء (انظر المقاصد الحسنة) .

حلاوة الشهود ولذة معرفة الملك المعبود ، ولم تذق منها ما ذاقت الرجال ، ولم تزاحمهم على مراتب الكمال .

قال إبراهيم بن أدهم أو مالك بن دينار : خرج الناس من الدنيا ولم يذوقوا شيئا ، قالوا : وما فاتهم ؟ قال : حلاوة المعرفة ، فكل من وقف مع الرسوم الظاهرة لا يطمع أن يذوق حلاوة المعانى الباطنية ، وكل من اشتغل بحلاوة الرسوم لا يذوق حلاوة شهود الحى القيوم ، وكل من اشتغل بحلاوة العبادة الحسية لا يذوق حلاوة المعانى القدسية ، ولله در الششترى حيث يقول :

جميع العوالم رفعت عنى وضوء قلبى قد استفاق
ترانى غائبا عن كل أين كاس المعانى حلو المذاق

وقال ابن الفارض رضى الله عنه :

ولوخطرت يوما على خاطر امرىء أقامت به الأفراح وارتحل الهم

والحاصل أن كل من اشتغل بالحس علما أو عملا لا يذوق حلاوة الشهود المعنى أبداً ، ولا يطمع أن ينتقل من شغل الحس إلى شهود المعنى إلا بصحبة أهل المعنى . وإلا بقى مغروبا فى عبادة الحس على الدوام ، منكراً على أهل المعانى على الدوام ، إلا من عصم الله ، والله تعالى أعلم .

والى هذا المعنى (أى دوام الإنكار بمن لم يصحب أهل المعانى) أشار بقوله :

يا من إذا قيـــل له تعال لمنهـــج التحقيق قال : لا لا

قلت : تعال فعل أمر بمعنى أقبل ، ومنهاج التحقيق هو طريق الوصول الى معرفه الحق معرفة حقيقية عيانية لا برهانية .

يقول : رضى الله عنه لهذا المنكر لطريق الخصوص : هلم إلى طريق التحقيق : طريق أهل العناية والتوفيق ، طريق أهل الجمع بين التشريع والتحقيق .

قال بعضهم فى تفسير قوله تعالى : ـ اهدنا الصراط المستقيم(١) ـ هو الجمع بين الشريعة والحقيقة المفهومة ، من قوله تعالى ـ إياك نعبدو اياك نستعين(٢) ـ فلما دعا هذا المنكر إلى

(١ و ٢) الإيتان : ٤ ، ٥ من سورة الفاتحة .

منهاج التحقيق أجاب بأنه ليس من أهل هذه الطريق، لأنها طريق الأبطال، لا يسلكها إلا فحول الرجال، فقال مستمراً على إنكاره لا، لا أجيبك إلى ما دعوتنى، إذ لا طريق أفضل مما أنا عليه، قال تعالى ـــ كل حزب بما لديهم فرحون(١) .

وسبب إنكار هذه الطريق مع أنها مؤسسة على التحقيق، أمران: أحدهما أنها مبنية على قتل النفوس وخرق العوائد، وهذا الأمر ثقيل على النفوس، لا يقبله إلا من أراد الله وصوله إليه، وأهلها ثقيلون على النفوس الحية، لأن الميت لا يأوى إليه إلا مثله.

الثانى: أن عمل أهلها خفى، جله باطنى، بين فكرة ونظرة، فكل من ينظر إلى أعمالهم الظاهرة استحقرها فى عينه، فلا يقنع بطريقتهم.

قال ابن ليون التجيبى رضى الله عنه: المنكرون على الفقراء ثلاثة أصناف: أرباب الدنيا وأتباعهم، والجامدون من الفروعية وأتباعهم، والمتعمقون فى الأعمال المتنمسون وأتباعهم(٢).

فأما أرباب الدنيا فلأن الفقراء أضداد لهم، لرثة ثيابهم وقلة جاههم، والضد يبغض ضده، والدنيا تورث القساوة وطول الأمل، وأتباعهم يمشون فى مرضاتهم.

وأما الجامدون من الفروعية (وهم علماء الظاهر) فإنهم يعتقدون الإحاطة بالشريعة، وينكرون على من ترك طريقهم، وتتبعهم العـــوام على ذلك، والإحاطة بالشريعة متعذر، ثم قال: وحقيقة الفقه ما أدى إلى ترك الدنيا وطلب الآخرة.

وأما المتعمقون فى الأعمال المتنمسون(٣) ففتنهم الشيطان برؤية الأعمال، وجعلهم يزيدون أعمالا قد نهوا عنها، فعظمهم الناس، فهم ينقصون الفقراء، لأن الفقراء لا يتصنعون، والفقير إذا رأى أعماله أشرك، وإذا رأى أنه قد أخلص احتاج إلى إخلاص يخلصه من شرك نفسه، ثم قال: وقد ذهب الفقراء والصوفية مذهب أهل القرآن والحديث، وعلومهم مكارم الأخلاق التى بعث بها النبى صلى الله عليه وسلم ليكملها ويتمها، وعامة الخلق مطلوبون بها، انتهى المراد منه.

ثم ضرب مثلا لمن جهل قدر نفسه وهى بين جنبيه، فقال:

يا جاهـــلا من داره سكناها وهو يؤدى أبداً كراها

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٥٣.

(٢و٣) فى المختار: الناموس: ما ينمس به الرجل من الاحتيال، والمقصود هنا ـ والله أعلم ـ هم أصحاب الحيل والمراوغة والمكر.

قلت : قد تقدم قوله :

ولم تزل كل نفوس الأحيا علامة دراكة للأشــياء

وأصل الروح قطعة نور جبروتى ، انظر قوله تعالى ـ ونفخت فيه من روحى[1] ـ فلما ركبت فى هذا الهيكل نسيت أصلها وجهلت أمرها بحكمة الحكيم العليم ، فجعلت التعشق إلى أصلها وتجتهد فى معرفة خالقها ومظهرها ، وتتعب نفسها فى الخدمة الحسية طلبا للوصول، فيقال لها إلى كم تتعبين نفسك والشىء أقرب إليك منك ، أعرفى أصلك تعرفى ربك .

قال يحيى بن معاذ الرازى : « من عرف نفسه عرف ربه[2] » فلما انكشف عنها حجاب الوهم وجدت نفسها فى الحضرة ، وهى الدار التى جهلت سكناها ، فاستراحت من تعبها ، ووجدت الدار التى كانت تسكن فيها ، كانت لها وهى لا تشعر ، فهى كانت مولاة الدار ، ولكن لم تشعر ، فهى بمثابة من كان يسكن داراً يظنها لغيره وهو يؤدى كراها ، فلما علم بحقيقة الأمر ترك الكراء ، كذلك الإنسان كان قبل الوصول : يظن أن المطلوب بعيد عنه ، فلما زال حجاب الوهم وجد نفسه فى الحضرة وهو لا يشعر .

وفى ذلك يقول بعض المشارقة :

قبل اليوم كنت مقيد بقيود البين

محجوب بالوهم نحسب مفردى اثنين

لما تبدى جمالك زال عنى الغين

شاهدت عينى بعينى وصرت عين العين

وقال : بعض التلامذة لشيخه : أين الله ؟ فقال له : أسحقك الله وأبعدك ، هل تطلب مع العين أين ؟ اهـ .

وقال الششترى : فى هذا المعنى .

أنا شىء عجيب لمن رآنى

أنا المحب والحبيب ليس ثم ثانى

(١) سورة ص ، الآية ٧٢ .

(٢) سبق تخريجه .

وقال غيره :

يا قاصداً عين الخبر غطـــاه أينك
الخبر الخبر منك والخبر والسر عندك
أرجع لذاك واعتبر ما ثم غيرك

وقال غيره :

كم ذا تموه بالشعبين والعلم والأمر أوضح من نار على علم
أراك تسئل عن نجدو أنت بها وعن تهامة ، هذا فعل متهم

وقال فى الحكم (وصولك إلى الله ، وصولك إلى العلم به ، وإلا لجل ربنا أن يتصل به شيء ، أو يتصل به بشيء) .

وقال أيضاً (لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك ، ولا قطعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك) .

فمن من قوله « من داره » ابتدائية ، وسكناها مفعول بجاهل ، والمراد بالدار ذاته الحسية ، والسكنى الخزة الأزلية التى قامت بها ، فهو ساكن فى الحضرة وهو لا يشعر ، أى يا جاهلا بسكنى الحضرة من ذاتها وهو يطلبها ويؤدى كراءها ، والله تعالى أعلم .

ثم وبخه على جهله بنفسه الذى كان سبباً فى جهله بربه ، فقال :

أتدرى من أنت ؟ وكيف تدرى وأنت قد عزلت والى الفكر

قلت : « والى الفكر » هو العقل ، لأنه هو الذى يلى الفكر ويستعمله ، عزله عن ذلك هو اشتغاله بحظوظه وهواه ، حتى بعد عن حضرة مولاه ، وهذا منه رحمه الله تنبيه وإيقاظ للغافل ، وتقريع وتوبيخ للجاهل ، يقول له : أتدرى من أنت أيها الإنسان ؟ ولماذا خلقت ؟ وما المراد منك ؟ أنت نخبة الأكوان ، وأنت فى الأصـــل قطب الزمان ، أنت المقصود الأعظم من هـــذا الكون ، فلو تفكرت فى أمر نفسك لعلمت عظمة ربك فسارعت إليه بجسمك وقلبك ، لكن عزلت عقلك عن الفكر والاعتبار ، وشغلت نفسك بالفضول والاغترار ، فلا جـــرم أنك هوت نفسك فى دار البوار ، فلو تفكرت فى عجائب نفسك لتحققت بمعرفة ربك ، قال تعالى ـــ وفى أنفسكم أفلا تبصرون(١) ـــ فتأمـــل فى أوله

(١) الآية : ٢١ من سورة الذاريات .

بآياتك، وفى تركيب صورتك : «فانظر رحمك الله إلى أصلك حين كنت نطفة مهينة فقلب الحق تعالى عرق دم الحيض مدداً لك فى رحم أمك، ثم صرت علقة، ثم مضغة، ثم فصل سبحانه تلك المضغة إلى العظم واللحم والعصب والعروق والدم والجسد والظفر والشعر، ووضع كل واحد منها لحكمة لولاها لاختل الجسد، بحسب العادة، فالعظام منها هى عمود الجسد، فضم بعضها إلى بعض بمفاصل وأقفال من العضلات والعصب، وربطت بها، ولم تكن عظماً واحداً لأنه إذ ذاك يكون مثل الحجر أو الخشبة، لا يتحرك ولايقوم ولايجلس ولا يركع ولايسجد لخالقه الحى القيوم، وجعل سبحانه العصب على مقدار مخصوص، ولو كان أقوى مما هو، لم تصح فى العادة حركة الجسم ولا تصرفه فى منافعه، ثم خلق تعالى إلخ.

فى العظام لين فى غاية الرطوبة ليرطب يبس العظام وشدتها، وتتقوى العظام برطوبته، ولولا ذلك لضعفت قوتها وانخرم نظام الجسد بحسب جرى العادة، ثم خلق سبحانه اللحم وأعفاه وعلاه على العظام، وسد به خلل الجسد كله، فصار مستوياً لحمة واحدة. واعتدلت هيئة الجسد واستوت، ثم خلق سبحانه العروق فى جميع الجسد جداول لجريان الغذاء فيها إلى أركان الجسد، لكل موضع من الجسد عدد معلوم من العروق صغاراً وكبارا، ليأخذ الصغير من الغذاء حاجته، والكبير حاجته، ولو كانت أكثر مما هى عليه أو أنقص أو على غير ما هى عليه من الترتيب ما صح شىء من الجسد عادة، ثم أجرى الدم فى العروق سيالا خاثراً(١) ولو كان يابساً أو أكثف مما هو عليه لم يجر فى العروق، ولو كان ألطف مما هو عليه لم تتغذ به الأعضاء، ثم كسى سبحانه اللحم بالجلد : ستره كله كالوعاء، ولولا ذلك لكان قشراً أحمر، وفى ذلك هلاكه عادة، ثم كساه الشعر وقاية للجلد، وزينة فى بعض المواضع وما لم يكن فيه شعر جعل له اللباس عوضاً منه، وجعل أصوله مغروزة فى اللحم ليتم الانتفاع به، ولين أصوله ولم يجعلها يابسة مثل رؤوس الإبر، إذ لو كانت كذلك لم يهنأ عيش، وجعل الحواجب والأشفار وقاية العينين ولولا ذلك لأهلكهما الغبار والسقيط(٢)، وجعلها سبحانه على وجه ليتمكن بسهولة من رفعها على الناظر عند قصد النظر، ومن إرخائها على جميع العين عند إرادة إمساك النظر إلى ما تؤذى رؤيته ديناً أو دنيا، وجعل شعرها صفاً واحداً لينظر من خللها، ثم خلق سبحانه شفتين ينطبقان على الفم يصونان الحلق والفم من

---

(١) الخثورة : ضد الرقة ؛ يقال لبن خاثر، يعنى غير مائع، والله أعلم.
(٢) السقيط : الثلج والجليد، اهـ. مختار، وفى الأصل والسقط، فأصلحناه إلى ما ترى.

الرياح والغبار ، وينفتحان بسهولة عند الحاجة إلى الانفتاح ، ولما فيهما أيضاً من كمال الزينة وغيرها ، ثم خلق سبحانه بعدهما الأسنان ليتمكن بها من قطع مأكوله وطحنه ، ولم يخلق له الأسنان من أول الخلقة لئلا يضر بأمه في حال رضاعه ، ولأنه لا يحتاج لها حينئذ لضعفه عما كثف من الأغذية ، فعوضه الله منها برأفته لبن أمه دافئا في الشتاء بارداً في الصيف ، فلما قوى وصلح للغذاء الخشن خلق له الأسنان ، لأن الطعام لو جعل في الفم وهو قطعة واحدة لم يتيسر ابتلاعه ، فيحتاج إلى طاحونة يطحن بها الطعام ، فخلق اللحيين من عظمين وركب منهما الأسنان وطبق الأضراس من العليا على السفلى ، لتطحن بهما الطعام طحنا ، ثم الطعام تارة يحتاج إلى الكسر ، وتارة يحتاج إلى القطع ، ثم يحتاج إلى الطحن بعد ذلك ، فجعل سبحانه الأسنان على ثلاثة أصناف : بعضها عريضة طواحن كالأضراس ، وبعضها حادة قواطع تصلح القطع كالرباعية ، وبعضها صلبة تصلح للكسر كالأنياب .

ثم جعل سبحانه مفصل اللحيين متخللا بحيث يتقدم الفك الأسفل ويتأخر ، حتى يكون على الفك الأعلى على ، دوران الرحا ، ولولاهما لم يتم اضراب أحدهما على الآخر ، مثل تصفيق اليدين ، ثم جعل الفك الأسفل يتحرك حركة دورية ، واللحى الأعلى ثابت لا يتحرك فانظر إلى عجيب صنع الله تعالى ، فإن رحى الخلق الأعلى يدور ، والأسفل ثابت ، ورحى الله تعالى معكوسة الأسفل يتحرك والأعلى ثابت ، ثم هب أنك وضعت الطعام في الفم فكيف يتحرك الطعام إلى ماتحت الأسنان ؟ وكيف تستجره الأسنان إلى نفسها ؟ وكيف يتصرف باليد في داخل الفم ؟ فانظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان يطوف في جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة ؟ كالمجرفة ترد الطعام إلى الرحا ، هذا مع ما فيه من فائدة الذوق وعجائب قـــوة النطق ، ثم هب أنك قطعت الطعام وطحنته وهو يابس فلا تقدر على ابتلاعه ، إلا بأن يزلق إلى الحلق بنوع رطوبة أنبع الله تعالى في الفم عينا نباعة على الدوام ، أحلى من كل حلو ، وأعذب من كل عذب ، فيحرك اللسان الغذاء ويمزجه بذلك الماء فيعود زلقا فينحدر في الحلق بلا مؤنه ، ولهذا إذا أعدم الله تلك العين من حلق المريض لم يمض على الحلق شيء ، وإن مضى فبمشقة عظيمة .

ومن عجب هذه العين أنها مع عدم انقطاعها لم يكن ماؤها يملأ الفم في كل وقت ، حتى يتكلف الإنسان طرحها ، بل جرت على وجه أنجت فيه أن تتعدى وجه منفعتها ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

ثم لما كنت تحتاج إلى مناولة الطعام، وجعله فى الفم خلق الله لك اليدين، ولم يجعلك كالبهيمة تأكل على فمك[1]، فأنعم عليك باليدين، وهما طويلتان فتمتدان إلى الأشياء مشتملتين على مفاصل كثيرة، لتتحرك فى الجهات فتمتد وتنثنى إليك، فلم تكن كالخشبة المنصوبة، ثم جعل رأس اليدين عريضاً نخلق الكف، ثم قسم رأس الكف بخمسة أقسام، هى: الأصابع، وجعلها فى صفين بحيث يكون الإبهام فى جانب يدور على الأربعة الباقية، ولو كانت مجتمعة لم يحصل بها تمام غرضك، ووضعها وضعاً إن بسطتها كانت مجرفة، وإن ضممتها وثنيتها كانت لك مغرفة، وإن جمعتها كانت آلة للضرب، وإن نشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة للقبض، ثم خلق الله سبحانه أظفاراً وأسند إليها رءوس الأصابع لتشتد بها أطرافها لكثرة حركتها والتصرف بها فى الأمور حتى لا تتفتت، وحتى تلتقط بها الأشياء الدقيقة التى لا تأخذها الأصابع، ولتحك بها جسدك، ولما كان الشعر والظفر مما يطول لما فى طولهما من المصلحة لبعض الناس، وفى بعض الأوقات، وكان جزهما مما يحتاج إليه فى بعض الأوقات، لم يجعلا كسائر الأعضاء فى تألم الإنسان بقطعهما، فانظر إلى دقائق هذه النعم، هل تحوم بحصرها.

ثم إذا نظرت إلى الطعام كيف تجذبه الحنجرة وتبلعه: ثم إلى المعدة كيف تطبخه بالحرارة التى فيها؟ ثم إذا طبخ كيف يأخذ القلب اللباب الذى صعد على وجه المعدة؟ ثم كيف يجرى فى العروق المتصلة به من قرنك إلى قدمك، ثم إلى نعمة الرجلين، كيف تمشى بهما إلى حاجتك؟ وجدت نفسك مغموراً بالنعم، قال تعالى — وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها[2] — هذه كلها نعم حسية، فكيف بالنعم الباطنية، كنعمة الإسلام والإيمان والمعرفة، والعلم، وغير ذلك مما لا يحصره العقل ولا يعده لعقل — فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون[3] — ولذلك كانت عبادة التفكر قدرها عند الله عظيماً، إذ لا يتوصل إلى هذه العجائب إلا بالتفكر.

---

(١) «على» هنا بمعنى الباء، إذ فى كثير من الأحيان ينوب حرف عن حرف.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٦٩.

فنى الحديث : « تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة(١) » .

وقال كعب : « من أراد شرف الدنيا والآخرة فليكثر من التفكر » .

وقال الجنيد : أفضل المجالس مجلس الفكرة فى ميدان التوحيد .

وقال فى الحكم « الفكرة سراج القلب ، فإذا ذهبت فلا إضاءة له » .

وفضائل التفكر كثيرة وقد شفى الغزالى فى « الإحياء » فيها الغليل ، والله تعالى أعلم ، ثم بين شرف الإنسان وعظيم قدره إن استقام مع ربه ، فقال :

يا سابقا فى موكب الإبداع ولا حقا فى جيش الاختراع

قلت : « الموكب » هو والجمع العظيم ، « والاختراع » هو الإيجاد ، أشار رحمه الله إلى أن الإنسان له وجودان : أحدهما سابق فى الأزل ، والآخر لاحق فيما لا يزال ، فيحتمل أن يشير بالسابق إلى الوجود الأصلى ، وباللاحق إلى التجلى الفرعى ، أو إلى أصل ظهور القبضة أولا ، ثم ظهور الفروقات ثانيا ، وهذا يناسب قوله « موكب الإبداع » ، وحديث القبضة مروى عن جابر رضى الله عنه(٢) قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول شىء خلقه الله ؟ فقال : نور نبيك ياجابر ، خلقه ثم خلق منه كل خير ، وخلق بعده كل شىء ، وحين خلقه أقامه قدامه(٣) فى مقام القرب اثنى عشر ألف سنة ، ثم جعله أربعة أقسام فخلق العرش من قسم ، والكرسى من قسم ، وحملة العرش وخزنة الكرسى من قسم .

وأقام القسم الرابع فى مقام الحب اثنى عشرة ألف سنة ، ثم جعله أربعة أجزاء ، فخلق القلم من قسم ، واللوح من قسم ، والجنة من قسم .

وأقام القسم الرابع فى مقام الخوف اثنى عشرة ألف سنة . ثم جعله أربعة أجزاء فخلق الملائكة من جزء ، والشمس من جزء ، والقمر والكواكب من جزء .

---

(١) لم أجد فيما عندى من الكتب إلا ما روى ابن حبان فى كتاب العظمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » .

(٢) رواه عبد الرزاق فى مسنده .

(٣) أى فى مكانة التقديم والإعزاز ، وقوله « فى مكان القرب » تفسير له ، لا تحديد له مكانى والله تعالى أعلم .

وأقام القسم الرابع فى مقام الرجاء اثنى عشرة ألف سنة ، ثم جعله أربعة أجزاء ، فخلق العقل من جزء ، والعلم من جزء ، والحلم والعصمة والتوبة من جزء .

وأقام الجزء الرابع فى مقام الحياء اثنى عشرة ألف سنة ، ثم نظر الله تعالى إليه فرشح النور عرقا فقطر منه مائة ألف وأربع وعشرون ألف قطرة ، فخلق الله من كل قطرة روح نبى أو رسول ، ثم تنفست أرواح الأنبياء ، فخلق الله من أنفاسهم نور الأولياء، والسعداء والشهداء والمطيعين من المؤمنين إلى يوم القيامة ، فى حديث طويل .

وهذا الحديث وإن كان ضعيفاً ، فله شواهده تعضده .

منها حديث عمر رضى الله عنه ، قال . قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عمر أتدرى من أنا ؟ أنا الذى خلق الله تعالى أول كل شىء نورى فسجد له(١) ، فبقى فى سجوده سبع مائة عام ، فأول شىء سجد له نورى، ولا فخر . يا عمر أتدرى من أنا ؟ أنا الذى خلق الله العرش من نورى ، والكرسى من نورى ، واللوح والقلم من نورى ، والشمس والقمر من نورى ، ونور الأبصار من نورى ، ونور العقل الذى فى رءوس الخلق من نورى ، ونور المعرفة فى قلوب المؤمنين من نورى ولا فخر .

وذكر الورتجبى فى تفسير قوله تعالى ـ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين(٢) ـ عن جعفر الصادق : قال : أول ما خلق الله نور محمد صلى الله عليه وسلم قبل كل شىء ، وأول من وحد الله فى خلقه عز وجل ذرة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأول ما جرى به القلم (لا إله الا الله محمد رسول الله) صلى الله عليه وسلم .

وقال فى تفسير الآية : فيها إشارة إلى أوليته عليه الصلاة و السلام فى عبودية الله، وإشارة إلى بدء وجوده فى إتيانه من العدم بنور القدم ، وانقياده فى أول تجلى جلاله .

قلت : وعلى هذا المحققون من الصوفية، وانظر قول العارف القطب الكبير الشيخ ابن مشيش رضى الله عنه فى تصليته المشهورة. اللهم صل على من منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار ».

ثم قال : « ولا شىء إلا وهو به منوط ، إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط » .

وقال فى بردة المديح .

وكيف تدعوا إلى الدنيا ضرورة من لولاه لم تخرج الدنيا من العدم(٣)

(١) فسجد هذا النور لله رب العالمين . (٢) الآية : ٨١ من سورة الزخرف .
(٣) لما اقترف آدم الخطيئة ، وكان قد رأى على قوائم العرش مكتوباً : لا إله إلا الله =

وقال أيضاً :

فإن من جودك الدنيا وضرتها   ومن علومك علم اللوح والقلم

ولا يعترض مثل هذا إلا جاحد محجوب ، نعوذ بالله من غم الحجاب وسوء الحساب وشدة العذاب ، وبالله التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ثم حض على التفكر والاعتبار ليعرف ما عليه من النعم الغزار ، فقال :

اعقل فأنت نسخة الوجود   لله ما أعلاك من موجود

قلت : ذكر أهل التاريخ أن الوجود كله خلقه الله على صورة الآدمي ، من عرشه إلى فرشه ، ولعل تلك القبضة النورانية النبوية كانت على صورة الإنسان ، ثم تفرعت منها الأكوان كلها ، فاختصر الله الوجود بأسره من هذا الآدمي ، فهذا دليل على شرفه على الكون ، هذا معنى قوله « فأنت نسخة الوجود » أي مختصر منه ، ويقال : الولد نسخة أبيه .

وقال الجيلي رحمه الله :

وتنساك تحوى بالحقيقة كلها   أشرت بجد القول ما أنا خادع

وقال الششترى رضى الله عنه :

« وأنت مرآة النظر   قطب الزمان وفيك يطوى ما انتشر »

من الأواني . . . .

وقوله « لله ما أعلاك من موجود » تعجب من شرفه ، كقولك : لله دره ، أي أمرك لله لا يفهمه غيره ، ما أعلا قدرك عند الله ، إن عرفت أصلك وفصلك ، وقمت بواجب ذلك ، وإلا فأنت في أسفل سافلين .

قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : قرأت مرة « والتين والزيتون » إلى أن انتهيت إلى قوله تعالى – لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين[1] – ففكرت في معنى الآية فكشف عن اللوح المحفوظ ، فإذا فيه مكتوب – لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم – روحا وعقلا ، – ثم رددناه أسفل سافلين – نفساً وهوى اهـ .

= محمد رسول الله ، فسأل ربه : بحق محمد أن يغفر له : فقال الله تعالى : إذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك ، رواه الحاكم والبيهقى .

(انتهى من النفحات الشاذلية جـ٣ صـ٦٥ للشيخ العلامة سيدى حسن العدوى) .

(١) الآية : ٤ ، ٥ .

ثم بين وجه كونه نسخة الوجود ، فقال :

أليس عيك العرش والكرسى والعالم العلوى والسفلى

قلت : اشتمال الإنسان على العالم العلوى والسفلى ، يحتمل أن يكون ذلك من جهة معناه أو من جهة حسه ، أما من جهة المعنى فلا شك أن الروح أصلها ملكوتية ، لا يحصرها كون ، كما قال فى الحكم :

(وسعك الكون من حيث جثمانيتك ، ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك) .

لكن الإنسان لما جهل نفسه وتركها محجوبة بهواها ، انحجبت روحه ، وانحصرت فى هذا الكون ، فإذا عرفها وخرق عوائدها انخرقت له العوائد وخرجت روحه عن الكون بأسره ، فلم يحجبها عن الله أرض ولا سماء ، ولا عرش ولا كرسى ، فحينئذ تستوى روحه على الوجود بأسره من عرشه إلى فرشه ، فينطوى فى جوفه العرش والكرسى والأفلاك وغير ذلك ، وهو الذى قصد الششترى رضى الله عنه بقوله :

أغمض طرفك ترى وتلوح اسرارك
وافن عن الورى تبدو لك اخبارك
وبصقل المرا يه يزول اغبارك

قال :

الفلك فيك يدور ويضىء ويلمع
والشموس والبدور فيك تغيب وتطلع
فاقرا معنى السطور التى فيك اجمع
لا تغادر سطر واحد من سطورك وادر
آش هو القمر الذى فيك يسرى

وقوله « فاقر معنى السطور » أخ أعلم أن الصوفية رضى الله عنهم يطلقون على هذه الاجرام الحسية رسوما وأشكالا وسطوراً ، ووجه الإطلاق الدلالة على المعانى ، فكما أن الحروف تدل على المعانى ، كذلك هذه الأجرام الحسية ، المقصود منها هو قبض المعانى اللطيفة ، وكما أن القارىء إذا حفظ المعنى محى الرسوم ، كذلك العارف إذا قبض المعنى غاب عن الرسوم ، ولا يحتاج إليها . بل تمتحى من نظره ، قال ابن العريف رضى الله عنه فى بعض كلامه : « وإنما يتبين الحق عند اضمحلال الرسم واندراس الوسم ، والإنسان لوح»

وتحقيق صورته وتشكيلها وتسويتها وتحسينها سطور، مكتوب فيها بقلم القدرة. سبحان البديع الصانع، سبحاني ما أعظم شأني، أنا وحدي لمن عرفني».

فهذا معنى السطور التي في الإنسان، فإذا حفظ هذا المعنى محى رسمه واسمه، وبقي معناه، والله تعالى أعلم.

وأما من جهة حسه فقد قال بعضهم: إن جسد بني آدم مشتمل على ما اشتمل عليه العالم بأسره، جعله الحق تعالى نسخة الوجود، يحاكي بصورته كل موجود، ففيه جسم كثيف ونور لطيف، نصفه ساكن، ونصفه متحرك، نصفه نور ونصفه ظلمة، وجعل فيه العناصر الأربعة، واستودع فيه قوة الجاذب والدفع، والضرر والنفع، وجعل قلبه خزانة لسره، ولسانه ترجمان ذلك، وعيناه حارستان وأذناه مخبرتان، ورجلاه مطيتان، ويداه خادمتان، وجعل رأسه عرشه، وصدره كرسيه، وجانباه شرقه وغربه، وجعل حركته كحركة الشمس والقمر والنجوم، وتركيبه على تركيب العالم العلوي، فجعل في ظهره أربعة وعشرين فقارة، على عدد الساعات، وفي جسده ثمانية وعشرين مفصلا، على عدد المنازل، وفي جوفه اثنى عشر معنى، على عدد البروج والشهور، وفيه ثلاثمائة وستة وستون عرقا نافضة، ومثلها ساكنة على عدد أيام العام، وجعل معدته بيت ماله، وكبده قسامه، وجعل لحمه كالتراب، وعظامه كالجبال، وشعره كالنبات، وعروقه كالأنهار، وجواهره معادن، وهي تسعة: لحم، ودم. وعظم. وعصب. ومخ. وشحم. فهذه ستة خفية. وثلاثة ظاهرة، وهي: الجلد، والشعر، والظفر، وفيه اثنا عشر عنصراً. سبعة في الرأس: العينان، والأذنان، والمنخران والفم، والباقي في الجسد: الثديان والمخرجان والسرة، إلى غير ذلك مما لا يدرك، كما ذكره الشطيبي. في الفصل الأول، فانظره.

قال الشيخ عبد الوارث: فأنت لباب هذه العوالم كلها فإذا أطعت الله أطعته بها كلها، وإذا عصيته فكذلك، فلأجل ذلك عظمت المعاصي منا، فتواعدنا عليها بالعذاب الأليم، وعظمت الطاعة فوعدنا الله عليها بالثواب الجسيم.

قلت: وفي هذا المعنى أنشدوا:

إذا كنت كرسياً وعرشاً وجنة ... وناراً، وأفلاكا تدور وأملاكا
وكنت من السر المصون حقيقة ... وأدركت هذا بالحقيقة إدراكا
ففيم التأني في الحضيض تثبطاً ... مقيما مع الأسرى، أما آن إسراكا

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه : الخلق كلهم عبيد مسخرة ، وأنت عبد الحضرة ، ثم جمع ما تقدم ، فقال :

ما الكون إلا رجل كبير وأنت كون مثله صغير

قلت قد تقدم أن الإنسان نسخة من العالم حسا ومعنى ، ولا يستغرب هذا ، فقد قالوا : إن الناموسة فيها ما فى الفيل ، وزادت عليه بالجناح، فانظر كيف اجتمع فى البعوضة ما افترق فى الفيل ، مع صغر جرمها ، فكذلك الإنسان : اجتمع فيه ما افترق فى الكون، وزاد عليه بسر الروح ، وهو العقل الأكبر ، وكون الإنسان رجلا صغيراً هو فى حق من غلبت عليه البشرية ، وأما من غلبت روحانيته فقد صار هو العالم الأكبر ، والكون العالم الأصغر ، لأن الروح تستولى عليه ، ويصير فى جوفها كشيء تافه ، بل ينمحى بالكلية ، وإلى هذا أشار ابن الفارض بقوله :

وإنى وإن كنت ابن آدم صورة فلى فيه معنى شاهد بأبوتى(١)

والمعنى الذى فيه هو اللطيفة الروحانية السابقة فى موكب الإبداع على جيش الاختراع، والله تعالى أعلم .

ومما عظم به أمر الإنسان : جمعه بين الضدين ، وإلى ذلك أشار بقوله :

فأنت لست من قبيل الأرض حتى إذا رميت فيها تمضى

قلت : قد خص هذا الإنسان بعجائب لم توجد فى غيره ، فهو سماوى أرضى ، روحانى جسمانى ، نورانى ظلمانى ، لطيف كثيف .

واعلم أن الله سبحانه لما أراد أن يتعرف إلى هذا الإنسان ، وضع هذا الروح فى هذه الجثة الجثمانية . لطيفة لاهوتية مودعة فى كثيفة ناسوتية ، فمن غلبت لطافته على كثافته كان روحانياً والتحق بالروحانيين ، ومن غلبت كثافته على لطافته كان جسمانياً والتحق بالبهائم ، ومن توسط نال شيئاً من طبع البهائم وشيئاً من طبع الروحانيين ، وكان من أهل اليمين ، فأنت أيها الإنسان لست من قبيل الأرض كالبهائم ، حتى إنك إذا مت صرت تراباً وتمضى هباء ، لكنك مركب من روح وشبح ، فإذا مات الشبح بقيت الروح ، إما فى غبطة أو حسرة ، فالموت ليس عدما محضاً ، وإنما هو انتقال من دار إلى دار ، ومن حال لل حال . قال تعالى — فأما إن كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم الآية(٢) .

---

(١) ولعل فى هذا إشارة إلى النور المحمدى الذى سرى فى ظهور الأنبياء من عهد آدم ، وابن الفارض من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم، والله أعلم .

(٢) سورة الواقعة ، الآيتان : ٨٨ و ٨٩ .

ومما ينسب للغزالي رضي الله عنه بعد موته وجدت عند رأسه ، وقيل لغيره :

قل لإخوان رأوني ميتا   فبكوني ورثوني حزنا
أتظنون بأني ميتكم   ليس ذاك الميت والله أنا
أنا في الصور ، وهذا جسدي   كان لباسي وقميصي زمنا
أنا كنز وحجاب طلسم   من تراب ، قد تهيا للفنا
أنا در قد حواني صدف   حرت(١) عنه . فتخلى وهنا
أنا عصفور وهذا قفصي   كان سجني ، فألفت السجنا
أشكر الله الذي خلصني   وبنا لي في المعالي وطنا
كنت قبل اليوم ميتاً بينكم   فحييت ، وخلعت الكفنا
فأنا اليوم أناجي ملكا   وأرى الحق جهاراً علنا
عاكفا في اللوح أقرا وأرى   كل ما كان ويأتي أو دنا
وطعامي وشرابي واحد   وهو رمز ، فافهموه حسناً
ليس خمراً سائغاً أو عسلا   لا ، ولا ماء ، ولكن : لبناً
هو مشروب رسول الله إذ   كان لسر من فطره فطرتنا
لحي ذي الدار نوم مفرق   فإذا ما مات طار الوسنا
لا تظنوا الموت موتا إنه   لحياة وهو غاية لمنا
لا ترعكم هجمة الموت فما   هو إلا انتقال من هنا
فاخلعوا الأجساد من أنفسكم   تبصروا الحق عيانا بينا
وخذوا في الزاد جهداً لاتنوا   ليس بالعاقل منا من ونى
أحسنوا الظن برب راحم   تشكروا السعي وتأتوا أمنا
ما أرى نفسي إلا أنتم   واعتقادي أنكم أنتم أنا

---

(١) حرت : رجعت ، وفي الأصل الذي راجعنا عليه ، صرت ، ولا ندري ما معنى والله تعالى أعلم .

عنصر الأنفاس منا واحد — وكذا الأجسام جسم عمنا
فتى ما كان خير فلنا — ومتى ما كان شر فلنا
فارحمونى ترحموا أنفسكم — واعلموا أنكم فى إثرنا
أسئل الله لنفسى رحمة — رحم الله صديقاً أمنا(١)
وعليكم منى سلام طيب — وسلام الله بر وثنا(٢)

ثم قال :

فاحتل على النفس فرب حيله — أنفع فى النصرة من قبيله

قلت : يقول رضى الله عنه : احتل أيها الإنسان على نفسك وسايسها جهدك ، حتى تردها إلى مولاها ، فإذا رجعت إلى مولاها أتتك بطرائف العلوم ، وفتحت لك مخازن الفهوم ، ولا حيلة أنفع فيها من أن تأخذ بزمامها وتدفعها إلى شيخ التربية يفعل بها ما يشاء ، وتمتثل ما يأمرك به ،وأما غير هذا فتعب وعنت لا يجدى ولا يفيد ، وجرب ففى التجريب علم الحقائق ، والتوفيق بيد الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

فائدة : قال شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه : اعلم أن البيبان ، أى الأبواب كلها مغلوقة بين الله وعبده إلا باب نفسه ، من لم يدخل على الله من باب نفسه لا يدخل أبداً ، من عادى نفسه فاز بإقبال الخالق عليه ، ومن صادق نفسه فاز بإقبال مولاه عليه ، لكن مصادقة النفس هذه التى ذكرنا لا تكون إلا بصحبة عارف بالله إن وجده ، وأما قبل وجوده فلا . فإذا عادى الإنسان نفسه فلا بأس به ، لأن هذه النفس خيرها ما له حصر ، لا يعلم قدره إلا الله ، وشرها ما له حصر، لا يعلم قدره إلا الله ، ومن استشرف على خيرها هام فيه وفاته شرها ، ومن استشرف على شرها هام فيه وفاته خيرها، ويرحم الله القائل :

وسمعت الخطاب : ما ذاتى — من مكان قريب
يا حياتى وأنت فى ذاتى — حاضر لا تغيب

---

(١) أى قال : آمين .

(٢) ثنا : أى ثناء ، قصرها للوزن .

هذا والله من دخل على مولاه من باب نفسه ، ويكفيك فى النفس شرفا قوله ﷺ « من عرف نفسه عرف ربه(١) » .

ومن كلام شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن المجذوب نفعنا الله بالجميع .

من أين جيتى يا ذى الروح الهايما روحانيا
الساكنا فى ابساط أحوالها ربانيا

وقال أيضا :

راعى من النفس جهدك ومسى وصبح عليها
لعلها تدخل بيدك تعود تصاد بيها

صار الأمر كما قلنا : عداوة النفس تمكنك من نواصى الخلق، أنت تزيد عداوة لنفسك والخلق يزيد إقبالا عليك ، وأنت تزيد بعداً من مولاك ومصاحبة لنفسك تجمع بينك وبين هواك ، أنت تزيد عداوة من نفسك وأنت تزيد قربا من ربك وإقبالا منه عليك ، وأنت تزيد قربا من مولاك ، وأنت تزيد بعداً من الخلق ، وذلك لأنك إذا قربت من مولاك يشم الخلق فيك رائحة لا يعرفونها ، فيحصل الإنكار منهم عليك ، لأن « من جهل شيئاً عاداه(٢) .

---

(١) قال فى المقاصد الحسنة : « قال أبو المظفر السمعانى فى الكلام على التحسين والتقبيح العقلى من القواطع : إنه لا يعرف مرفوعاً ، وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ الرازى . (يعنى من قوله) .

وكذا قال النووى : إنه ليس بثابت .

وقيل فى تأويله : من عرف نفسه بالحدوث : عرف ربه بالقدم ، ومن عرف نفسه بالفناء : عرف ربه بالبقاء » اهـ .

وعقد له الجلال السيوطى فصلا كبيراً فى كتابه « الحاوى » فراجعه فإنه جيد جداً .

(٢) وقد قال الإمام الشافعى رضى الله عنه : « العلم جهل عند أهل الجهل ، كما أن الجهل جهل عند أهل العلم » .

جرت عادة الله تعالى أن الداخل إلى الله منكور ، والخارج إلى الخلق مبرور .

قال الشاعر :

من يخطب الحسناء يصبر على البذل[1]

ثم رجع إلى توبيخ من ينكر عالم المعانى، وهو العالم الروحانى ، فقال :

يا منكر المعقول والمعانى ما الصنع فى أمثلة القرآن

قلت : مضمن كلامه فى الرد على من ينكر المعانى ويقر المحسوسات أن يقال له : لو كان الأمر محصوراً فى المحسوسات ما احتاج الله تعالى أن يضرب لنا الأمثال للأمور المعنوية بالأمور الحسية ، لنفهم بسرعة ، كضربه مثلا للعلم النافع بالماء النازل من السماء الذى يطهر الأرض وتمتلىء منه الأودية فى قوله تعالى ـ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها[2] ـ الآية ، فإن العلم يطهر النفوس من ظلمات الجهل والشك والشرك ، ويطهر القلوب من كدر الأغيار ، والأرواح من لوث الأنوار ، وتمتلىء منه القلوب : كل على قدر وسعه ، كما أن الماء يطهر الأرض من الأدناس والأنجاس ، وتمتلىء منه الأودية ، كل على قدر وسعه ، وكقوله تعالى ـ مثل نوره كمشكاة[3] ـ الآية ، وكقوله تعالى ـ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء[4] ـ الآية، إلى غير ذلك ، فدل ذلك على أن الأمر على قسمين، منه ما هو حسى يدرك بالحس ، ومنه ما هو معنوى يدرك بالعقل والروح ، أو السر ، ولما كان قد يخفى على بعض الناس ضرب الله له الأمثال بالأمور المحسوسة ، تقريباً للفهم ، والله تعالى أعلم .

فما تقول أيها المنكر لعالم المعانى فى هذه الأمثلة التى ضربها الله فى كتابه تقريباً لفهم المعانى .

---

(١) وقال آخر :

من يطلب الحسناء لا يغله المهر

(٢) سورة الرعد ، الآية : ١٧ .

(٣) سورة النور ، الآية : ٣٥ .

(٤) سورة يونس ، الآية : ١٠١ .

قلت : وهذا الذى قاله الناظم لا ينهض فى الرد على المنكر ، لأن المعانى التى يثبتها الصوفية إنما هى معانى الصفات وأسرار الذات التى قامت بها الأشياء ، لا هذه المعانى التى ضرب الله لها الأمثال ، فإنما هى أمور عقلية يدركها العقل ويقرها أهل الظاهر ، ولا ينكرها أحد .

نعم عندنا آيات تشهد بظاهرها لعـــالم المعانى ، كقوله تعالى — الله نور السموات والأرض(١) — إن الذين يبايعونك(٢) — الآية — قل انظروا ماذا فى السماوات(٣) — الآية — هو الأول والآخر والظاهر والباطن(٤) — إلى غير ذلك من الآيات الدالة على غوامض التوحيد وأسرار التفريد ، ومن لم يبلغ فهمه هذا فشأنه التسليم ، وإلا وقع فى الإنكار على أولياء الله ، فيصبح من الصم البكم الذين لا يعقلون .

والحاصل : أن عالم المعانى لا يدرك إلا بصحبة أهـــل المعانى ، ولا يؤدى بالعبارة ، وإنما يرمز إليه بالإشارة ، فمن لم يفهم الإشارة فلا سهم له فيه ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

بعداً أرى فيك عن الإشارة   هل تنكرن رواية العبارة

قلت : يقول رضى الله عنه لهذا المنتقد : أرى فيك بعدا عن فهم الإشارة، فكيف تفهم المعانى وهى لا تؤدى إلا بالإشارة ؟ وإذا بعدت عن فهم الإشارة فقد وردت رواية العبارة بإثبات ما تنكر من المعانى ، هل تنكر رواية العبارة بعد أن بعدت عن فهم الإشارة ، فما تقول فى آيات وأحاديث تدل على ثبوت المعانى والعالم الروحانى، وكأنه يشير إلى الآيات التى قدمنا آنفاً من قوله — الله نور السموات والأرض — إلخ .

والحديث القدسى : «يقول الله تعالى : عبدى مرضت فلم تعدنى(٥)» الحديث ففيه ثبوت عالم المعانى ، والله تعالى أعلم .

---

(١) سورة النور ، الآية : ٣٥ .

(٢) سورة الفتح ، الآية : ١٠ .

(٣) سورة سيدنا يونس عليه الصلاة والسلام ، الآية : ١٠١ .

(٤) سورة الحديد ، الآية : ٣ .

(٥) رواه مسلم فى آخر صحيحه (باب عيادة المريض من كتاب البر والصلة) .

ثم وبخه على وقوفه مع عقله فقال :

يا جاهلا أقصى الكمال وقفا على عقول وهمها لا يخفى

قلت : عقول بني آدم ضعيفة محصورة ، لا تدرك من التوحيد والمعرفة إلا افتقار الصنعة إلى صانعها، ثم تستدل على صفات هذا الصانع بما تدرك من المصنوعات، كوحدانيته وقدمه وبقائه وقدرته وحياته ، إلى سائر صفاته المعلومة ، وهي لا تأمن الخطأ ولا تسلم من الوهم والخواطر ، لأنها في محل البعد ، ومالها إلا الإيمان بالغيب ، فمن وقف مع عقله وجعل ما أدركه به هو أقصى غاية الكمال ، فهو مغبون،وبالجهل المركب مفتون ، قال تعالى ـ وخلق الإنسان ضعيفاً[1] ـ وهو عام يصدق بضعف العقل وغيره ، أي ضعيفاً من كل شيء ، وقال ابن الفارض :

فثم وراء النقل علم يدق عن مدارك غايات العقول السليمة

بخلاف ما أدركته الروح أو السر من المعاني اللطيفة والأسرار القديمة،فإن ذلك أذواق وكشوفات ومشاهدات ، لا يبقى معها وهم ولا ظن ولا خاطر ، وقال المجذوب :

طالع النهار على قلبي حتى نظرت بعينيّا
أنت دليلي يا ربي أنت أولى مني بيّا

واعلم أن النفس والعقل والقلب والروح والسر : تطورات للروح اللطيفة النورانية كما تقدم ، وكل واحد من هذه التطورات له حد من العلم والإدراك لا يتجاوزه

أما النفس فحد إدراكها : زينة ظاهر الكون اغتراراً بمتعة ظاهره ، وغفلة عن عبرة باطنه ، لاشتغالها بحظوظها وهواها ، فهي لا تلتفت إلى خالقها ومولاها ، فإذا نبهت أقرت حينئذ ، ثم رجعت إلى نومها ، كمن طرش قائماً فأفاق ، ثم رجع إلى نومه .

وأما العقل فحد إدراكه وعلمه : افتقار الصنعة إلى صانعها على ما تقدم : معقول عن مجرد ذلك .

---

(1) سورة النساء ، الآية ٢٨ .

وأما القلب لحد إدراكه تعشقه وتوجهه إلى خالقه بترك الأغيار وطلب الأنوار، انطلق من العقال فى طلب الكمال ، ولكنه من وراء الحجاب ، لم يفتح له الباب .

وأما الروح لحد علمها وإدراكها مواجهة أنوار الملكوت ، طالبة أسرار الجبروت ، قد استراحت من تعب السير ، لكنها لم تتمكن من السر :

وأما السر فنتهى إدراكه أسرار الجبروت ، قد نفذت البصيرة من الوقوف مع أنوار الملكوت ، وهذا منتهى السير ، قال تعالى — وأن إلى ربك المنتهى[1] — .

ثم يبقى الترقى فى المكاشفات والمشاهدات والعلوم والأسرار ، إذ لا نهاية لها ـ وقل رب زدنى علما ـ .

قال فى العوارف : واعلم أن الاتصال والمواصلة أشار إليه الشيوخ، وكل من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو فى رتبة من الوصول ، ثم يتفاوتون :

فنهم من يجد الله بطريق الأفعال ، فيفنى عن فعله وفعل غيره ، لوقوفه مع فعل الله ويخرج فى هذه الحالة من التدبير والاختيار ، وهذه رتبة فى الوصول .

ومنهم من يترقى إلى مقام الفناء ، مشتملا على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة ، مغيبا فى شهوده عن وجوده، وهذا ضرب من تجلى الذات لخواص المقربين، وهذه رتبة فى الوصول وفوق هذا مقام حق اليقين ، ويكون من ذلك فى الدنيا للخواص لمح وهو : سريان نور المشاهدة فى كلية العبد حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه، حتى قالبه ، وهذا من أعلى رتب الوصول ، وإذا تحققت الحقائق يعلم العبد من هذه الأحوال الشريفة أنه بعد فى أول المنزل فأين الوصول ، هيهات ، منازل طريق الوصول لا تنقطع أبد الآباد فى عمر الآخرة الأبدى فكيف فى العمر القصير الدنيوى ؟ انتهى .

وذكر الناظم للإنسان طوراً آخر ، فقال :

أول أطوارك منذ أول	الحس والتمييز والتخيل
والعقل والذكر معاً والفكر	هيهات ، بل وراء ذلك طور

(١) سورة النجم ، الآية : ٤٢ .

قلت : الأطوار هي الأحوال التي ينتقل إليها الإنسان من أول نشأته ، كطور اجتنانه وطور طفوليته ، ثم شبوبيته ، ثم كهولته ثم شيخوخته ، قال تعالى - وقد خلقكم أطواراً(١) - هذا باعتبار الذات الحسية ، وأما باعتبار المعاني الباطنية فأول ما يدرك الإنسان الحس ، فيحس بألم الجوع وأضراره والبرودة وغير ذلك من الأمور الضرورية ، ثم التمييز بين أمه وغيرها ، وبين القريب والبعيد، ثم الخيال ، وهو أول منشأ الخوف والوهم ، فيخاف من أمور يعتقد أنها تضر ، ويحب أموراً يعتقد أنها تنفع .

ثم عقل التمييز بين الضار والنافع الحقيقي ، والمراد بالعقل : نهايته ، لأن هـــذه الأمور كلها أطوار للعقل . لكن لما كان ضعيفاً جعل يتطور هكذا ، وأول خلق العقل عند اجتنان الولد في بطن أمه ، ثم لا يزال ينمو حتى يكمل ، وهو نور خص به هذا الآدمي من دون الحيوانات شرفا له ، وهو يتفاوت في النور بحسب القسمة الأزلية .

ثم بعد العقل : القلب ، وهو محل الذكر .

ثم بعد القلب : الروح ، وهي محل الفكر ، وهو التفكر في عجائب المصنوعات .

هذا غاية ما أدركه العامة ، وبقي مرتبة السر ، وهي محل الشهود ، والنظرة ، وهو الذي حجب عن العوام ، وهو الذي أشار إليه بقوله « هيهات » بل وراء ذلك طور ، وهو مقام السر ، وهو خارج عن مدارك العقول ، لا يناله إلا أفراد الفحول ، وإلى ذلك أشار بقوله :

ما ناله الجمهور والوراد وإنما يناله الأفراد

قلت الوراد : جمع وارد ، وهو الذي يقصد الماء للشرب ، يعني أن هذا السر الذي هو وراء العقول والأفكار المتحيرة ما ناله جمهور الناس ، ولا كل من قصده وأراده ، وإنما ناله الأفراد من الرجال ، دلهم الحق تعالى أولا على أوليائه من أهل هذا السر ، وأطلعهم على ما أودعهم من خصوصية اصطفائه ، فأسلموا إليهم أنفسهم ، وانقادوا إليهم بكليتهم ، حتى قالوا لهم : ها أنتم وربكم ، فهؤلاء هم الذين أطلعهم على مكنون سره ، وأسرار غيبه ، فإن باحوا بها أبيحت دماؤهم غيرة عليه من مولاهم ، كما تقدم ، وهو الذي أشار إليه الشيخ أبو مدين بقوله :

---

(١) سورة نوح عليه الصلاة والسلام ، الآية : ١٤

وفى السر أسرار دقاق لطيفة ... تراق دمانا جهرة لو بها نحا

ثم قسم العقل على ثلاث مراتب على اصطلاح القدماء ، فقال :

منفعلا يدعى ومستفاد ... وعقل تخصيص لمن أراد

قلت : هذا اصطلاح القدماء ، جعلوا العقول ثلاثة : عقلا يسمى منفعلا ، هو العقل الغريزى المجعول فيه من غير اكتساب ، وعقلا يسمى مستفاداً . وهو المكتسب بالمجاهدات والرياضات والتجريبات ، ولذلك يقول العامة : كل محنة تزيد عقلا ، وعقلا يسمى عقل التخصيص ، وهو : الذى خص الله به أنبياءه ورسله ، وقد ينتهى إلى بدايته العقل المستفاد بالرياضة ، وهو عقل أكابر الأولياء ، فنهاية كمال عقل الأولياء بداية عقل الأنبياء ، ولذلك كانت نهاية الولى بداية النبى ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

وحيث فيه ينتهى الولى ... فمن هناك يبتدى النبى

قلت : فنهاية الولى بداية النبى ، ونهاية النبى بداية الرسول ، ونهاية الرسول بداية نبينا (محمد) صلى الله عليه وسلم .

وكلهم من رسول الله ملتمس ... غرفا من البحر أو رشفا من الديم

وواقفون لديه عند حدهم ... من نقطة العلم أو من شكلة الحكم

فأول قدم النبى : الجمع بين الحقيقة والشريعة ، لأنه لا سير له ، لأن السير فى ميادين النفوس ، وهم مطهرون منها ، فقد خاضوا بحر التحقيق ، ثم رجعوا إلى التشريع ، وأما قول أبى يزيد : خضنا بحراً وقفت الأنبياء بساحله(١) ، فمراده أنه دخل البحر ولم يخرج

---

(١) والمعنى القريب الذى يفهمه أكابر الناس وأصاغرهم من أهل العلم أن ما بين الأنبياء والخلق جميعاً بحر التوحيد ، الأنبياء واقفون على ساحل منه يدعون الناس إلى دين الله .

فالأولياء خاضوا هذا البحر أول الناس ، استجابة لدعوة الأنبياء إياهم .

وهذا معنى من المعانى ، والله أعلم .

والذين خاضوا فى أعراض الأولياء ، وأولوا هذا الكلام تأويلا فاسداً لم يتحلوا من آداب الدين شيئاً ، ولو عرفوا لكفوا عن تكفير أكابر المسلمين وأوليائهم واستباحة أعراض الذين كانوا يبيتون لله ركعا وسجودا وما طعموا لذة النوم مدة حياتهم : إرضاء لله .

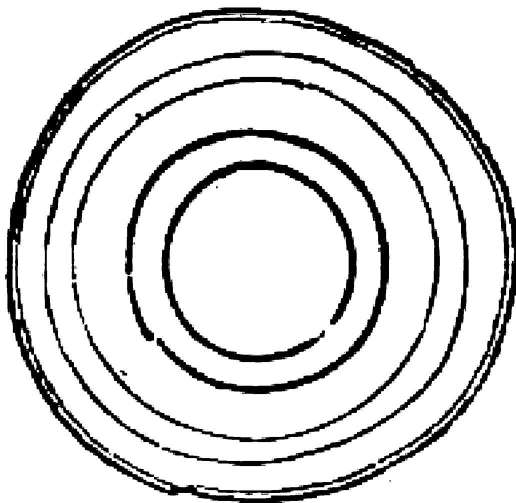
إلى ساحل بر الشريعة ، فهو إقرار منه بالتقصير ، لأنه قال هذا فى حال الجذب ، والمجذوب ناقص حتى يصحو من سكره ويرجع إلى البقاء ، بخلاف الأنبياء عليهم السلام ، فقد عرفوا البحر وخاضوه ، وخرجوا إلى البر ليسلكوا الناس .

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه فى تأويله : فمعنى وقفت الأنبيـــاء بساحله من الجانب الآخر ، على ساحل الفرق ، يدعون الخلق إلى الخوض فيه ، أى فلو كنت كاملا لوقفت حيث وقفوا .

قال فى لطائف المنن : وهذا الذى فسر به الشيخ هو اللائق بمقام أبى يزيد ، وقد قدمنا عنه أنه قال : جميع ما أخذ الأولياء كزق مملوء عسلا ، ثم رشحت منه رشاحة ، فما فى باطن الزق للأنبياء ، وتلك الرشاحة هى للأولياء، والمشهور عن أبى يزيد هو التعظيم لمراسم الشريعة والقيام بكمال الأدب . انتهى .

وأما قول من قال : إن دائرة الولى أوسع من دائرة النبى ، فمراده بذلك أن الأنبياء عليهم السلام لشدة قربهم من الحضرة مشدد عليهم فى الأدب والحضور والهيبة والتعظيم والإجلال ، فأقل شىء يصدر منهم يعاتبون عليه ، بخلاف الأولياء فدائرتهم أوسع من جهة طلب الأدب والحضور ، فهم موسع عليهم من جهة الأدب ، وكذلك دائرة الشهداء ، وهم المجاهدون نفوسهم فى طلب الحق ، دائرتهم أوسع، وبعدهم دائرة الصالحين، وبعدهم العوام .

وهذه صورة الدوائر فى الحس، فالنقطة هى الحضرة مثــلا ، والدائرة الأولى للنبيين ، والثانية للصديقين ، وهم الأولياء ، والثالثة للشهداء . وهم السائرون ، والرابعة للصالحين ، ومن ورائهم عموم المسلمين :



وكلما كثر القرب وقع التضييق فى الطلب للقيام بحسن الأدب . وبقدر التضييق فى الطلب يقع التوسع فى العلوم ، لأن المدد على قدر القرب ، واعلم أن ترق الأنبياء محجوب عن الأولياء ، كما أن ترق الأولياء محجوب عن العوام .

قال الغزّالى رضى الله عنه : اعلم أن منازل السلوك لا غاية لها ، ولا يعرف السالك منها إلا ما رقى عنه ، ولا يعرف ما بين يديه إلا بطريق الإيمان بالغيب ، كما أخبر الله به ، فكما أن الأجنة لا تعرف أحوال الطفولية ، والطفولية لا تعرف أحوال العقـــلاء ، والعقلاء لايعرفون أحوال القضايا الربانية ـ مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ـ والله تعالى أعلم .

ثم كمل الـكلام على عقل التخصيص الذى اختص به الخواص ، فقال :

وفيه تجلى جمل المعارف فمن رآها قيل له عارف

قلت : الضمير لعقل التخصيص ، أى وفى عقل التخصيص تظهر وتجلى جمل المعارف الربانية والعلوم اللدنية ، لأنه ما سمى عقل التخصيص حتى تطهر من الأغيار وتهذب من الرعونات والأكدار ، إما بالأصالة أو بالمجاهدة ، فإذا تطهر من الأغيار ملىء بالمعارف والأسرار ، فالمعارف هى العلوم ، والأسرار هى الأذواق ، فمن رآها وذاقها يقال له : عارف ، ومن لم يصل لهذا المقام وكان من أهل الدليل يقال له : عالم .

والفرق بين العالم والعارف : أن العالم دون ما يقول ، والعارف فوق ما يقول .

العالم يصف الطريق بالنعت ، والعارف يصفها بالعين ، لأنه سار معها وعرفها ، والعالم إنما نعتت له فقط .

العالم محجوب ، والعارف محبوب .

العالم من أهل اليمين ، والعارف من المقربين .

العالم من أهل البرهان ، والعارف من أهل العيان .

العالم من أهل الفرق ، والعارف من أهل الجمع .

العالم من أهل قوله تعالى ـ إياك نعبد ـ والعارف من أهل قوله تعالى ـ وإياك نستعين ـ

العالم يدلك على العمل ، والعارف يخرجك عن شهود العمل .

العالم يحملك حمل التكليف ، والعارف يروحك بشهود التعريف .

العالم يدلك على محافظة الصلوات، والعارف يدلك على ذكر الله مع الأنفاس واللحظات .

العالم يدلك على الأسباب ، والعارف يدلك على مسبب الأسباب .

العالم يدلك على شهود الوسائط ، والعارف يدلك على محرك الوسائط .

العالم يحذرك من الوقوف مع الأغيار ، والعارف يحذرك من الوقوف مع الأنوار فتزج بك فى حضرة الجبار .

العالم يحذرك من الشرك الجلى ، والعارف يخلصك من الشرك الخفى .

العالم يعرفك بأحكام الله ، والعارف يعرفك بذات الله .

العالم يدلك على العمل لله ، والعارف يدلك على العمل بالله .

العالم يدلك على العمل خوفاً وطمعاً ، والعارف يدلك على العمل محبة وشكراً .

والحاصل : أن من لم يسعده الله بملاقاة العارف ، فلا شك أنه فى هو نفسه تالف ، ولله در صاحب بداية السلوك ، حيث يقول :

إن لم تلاق عارفا فى مدتك لا عاش عمر عيشه كعيشتك

وحقيقة العارف هو : الذى فنى عن نفسه وبقى بربه وكل غناه فى قلبه ، لا يحجبه جمعه عن فرقه ، ولا فرقه عن جمعه ، يعطى كل ذى حق حقه ، ويوفى كل ذى قسط قسطه ، والله تعالى أعلم بغيبه .

وهذا المقام الكريم لا يناله إلا من له حظ عظيم ، كما أبان ذلك بقوله :

فهذه ميادين الأبطال ليست لكل جبان بطال

قلت : الميادين جمع ميدان بالفتح والكسر ، وهو مجال الخيل ، استعير هنا للخروج من من ضيق الأشباح . إلى عالم الأرواح ، وهو فضـــاء الشهود والتنزه فى حضرة الملك المعبود ، لأن فيه تتسع دائرة العلوم ، وتجرى نتائج الفهوم ، فيه تجول الأفكار فى عظمة الواحد القهار .

والأبطال : جمع بطل ، وهو الشجاع ، والجبان ، هو : الخواف .

يقول رضى الله عنه : هذه العلوم والمعارف التى تتجلى فى قلوب العارفين ، وتجول فى سعة رياضها أفكار المقربين ، هى ميادين الأبطال ، ومجارى أسرار الرجال ، لا ينالها البطالون ولا يدخل فى هيجاتها الخوافون ، بل ما نالها إلا أهل الحزم ، وما طلب جهادها إلا أولو العزم . وفى ذلك يقول الجيلى رضى الله عنه :

وإياك جزعا لا يهولك أمرها فما نالها إلا الشجاع المقارع

وقال آخر :

أيها العاشق معنى حسنا مهرنا غال لمن يخطبنا

جسد مضنى وروح فى العنا   وجفون لا تذوق الوسنا
وفؤاد ليس فيه غيرنا   فإذا ما شئت أد الثمنا

وفى التحقيق : ما ثم إلا سابقة التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ثم قرر ما تقدم ، وهو أن دخول الميدان لا يصلح للجبان ، فقال :

هل يصلح الميدان للجبان   أو يكمل الزرع بلا إبان

قلت : الإبان هو : الوقت، يعنى أن ميادين القتال لا يدخلها إلا أبطال الرجال ، فالجبان لا يتركه الفزع أن يدخل الميدان .

قال شيخ شيخنا رضى الله عنه : ثلاثة أصناف من الناس لاينالون من هذا الطريق شيئاً : الخواف ، والمستحى ، والمتكبر ، وإذا شجع نفسه ودخل فى طريق الخصوص فلايستعجل الفتح قبل إبانه ، لئلا يعاقب بحرمانه ، فمن غرس شجراً أو زرع زرعا فلا يطمع أن يثمر قبل وقته ، كذلك شجرة المعرفة تنبت فى قلب المريد حين ملاقاته بالشيخ ، فلا تزال تنمو شيئاً فشيئاً حتى تثمر فى وقتها المعلوم ، لكن إن كان يحرسها ويخدم عليها ويسقيها ، طلعت متناهية فى الخضورة والبهجة ، وأطعمت سريعاً ، وإن فرط فيها أبطأت ، وربما ماتت ، وحرسها هو : العزلة وعدم خلطة العوام ، وخدمتها هو : الذكر والفكر ، وسقيها هو الجلوس بين يدى الأشياخ واستعمال الأحوال والواردات ، ونهاية إطعامها هو الطمأنينة بالله والتمكين فى المعرفة بالله ، والغنى بالله عن كل شىء ، فحينئذ يكون من الأبطال ، ويصلح لدخول الميدان ، فتربية الشيوخ إنما هى لهذه الشجرة التى هى شجرة المعرفة، فما دام صاحبها يفتقر إلى من يسقيها له ، فلا بد من مدد الشيخ ، فإذا أثمرت واشتدت عروقها استغنت عن ماء غيرها ، وبالله التوفيق .

ثم تعجب من إنكار الناس ما لم يحيطوا به علماً ، فقال :

ما أنكر الناس لما لم يعرفوا   ما أهجر الولاف لما لم يألفوا!؟

قلت : ما تعجبية مبتدأ بمعنى شىء ، والجملة بعدها خبر ، والولاف جمع والف ، من ألف الشىء إذا أولع به ، أى شىء عظيم صير الناس منكرين ما لم يعرفوا ، وهاجرين ما لم يألفوا ، تعجب رضى الله عنه من إسراع إنكار الناس على أهل هذه الطريق ، مع أنهم

لا معرفة لهم بها ، ومن إسراعهم فى هجران أهلها لتعاطيهم أموراً لم يألفوها ، ولا غرابة فى ذلك ، إذ الإنكار على الخصوص سنة ماضية ، فإن ثلث القرآن كله فى الإخبار عن تكذيب الصادقين ، وكذلك إنكار ما لم يؤلف فإنه هو السبب فى تكذيب الرسل ، قالوا ـ ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين[1] ـ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون[2] ـ قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا[3] ـ فكل من أتى بخرق العوائد التى اعتادها أهل زمانه فلا بد من الإنكار عليه : سنة ماضية ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

قال فى لطائف المنن : واعلم أن الله تعالى ابتلى هذه الطائفة بالخلق ، ليرفع بالصبر على من آذاهم مقدارهم ، وليكمل بذلك أنوارهم ، ولتحقيق الميراث فيهم ليؤذوا كما أوذى من قبلهم فيصبروا كما صبر من قبلهم ، ولو كان من أتى بهدى أطبق الخلق على تصديقهم هو الكمال فى حقهم ، لكان الأولى بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد صدقه قوم هداهم الله بفضله ، وحرم من ذلك آخرون حجبهم الحق عن ذلك بعدله ، فانقسم العباد فى هذه الطائفة إلى معتقد ومنتقد ، ومصدق ومكذب ، وإنما يصدق بعلومهم وأسرارهم من أراد الحق سبحانه أن يلحقه بهم ، والمعترف بتخصيص الله وعنايته فيهم قليل ، لغلبة الجهل واستيلاء الغفلة على العباد، وكراهة الخلق أن يكون لأحد منهم شفوف فى منزلة واختصاص منه ، ألم تسمع قوله تعالى ـ ولكن أكثر الناس لا يعلمون[4] ـ ومن أين لعموم العباد أن يعلموا أسرار الحق فى أوليائه ، وشروق نوره فى قلوب أصفيائه ، انتهى المراد منه .

قلت : واحتجاب الأولياء عن العامة لطف كبير من الله بأوليائه ، واعتناء عظيم منه بأسرار أحبائه ، فإن إقبال الناس على الولى قبل التمكين فتنة كبيرة ، وانظر ما قال الشيخ ابن مشيش : أسألك اعوجاج الخلق علىّ حتى لا يكون لى ملجأ إلا إليك . ولله در القائل :

استتار الرجال فى كل أرض ... تحت سوء الظنون قدر جليل
ما يضر الهلال فى حندس الليـ ... ـل سواد السحاب، وهو جميل

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ٢٤ . والقصص ، الآية : ٣٦ .

(٢) سورة الزخرف ، الآية : ٢٣ .

(٣) سورة لقمان ، الآية : ٢١ .

(٤) سورة الأعراف، الآية : ١٨٧ . وهى كثيرة فى القرآن الكريم .

وفيه أيضاً لطف كبير بعامة عباده ، إذ لو أظهر سرهم لعامـــة الناس لكان كل من آذاهم حارب الله ورسوله ، لقوله عليه الصلاة والسلام فى الحديث القدسى : يقول الله عز وجل من آذى لى ولياً فقد آذنى بالحرب(١) ، فقد قيد الحديث بعد معرفتهم ، فأخفاهم الله لطفاً بخلقه .

وقد ضرب بعضهم مثلا لهذا ، فقال : مثل إذاية العامة لأخفياء أولياء الله كمثـــل الأعمى إذا رمى بمكازته على رجل صاحب بصر فأوجعه ، فإنه يقوم إليه حتى إذا وجده أعمى كف عنه وعذره ، ولم يبق فى قلبه حرج عليه ، وربما أخذ بيده ودله على الطريق.

وقد سأل رجل إبراهيم بن أدهم على العمران ، فدله على المقبرة ، فضربه حتى شجه ، فلما قيل له هذا إبراهيم بن أدهم ، فجعل الرجل يقبل يده ورجله ، ويقول له : اعذرنى فإنى لا أعرفك ، فقال له إبراهيم : والله ما رفعت يديك من ضربى إلا وأنا أسأل لك المغفرة .

ثم دعاهم إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، فقال :

أليس قد جبلت العقول على الذى جاء به التنزيل

قلت : جبل على الشىء : طبع عليه وألفه ، ولا شك أن العقول مجبولة على تصديق ما جاء به القرآن ، وهو قد جاء بالحقيقة والشريعة ، إلا أن التشريع فيه كثير ، وذكر الحقيقة قليل ، لأن أهلها قليلون ، وإذا تأملت فى القرآن وجدته يشرع ، ثم يحقق ، يقول سبحانه افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا ، حتى يظن الجاهل أن الأمر بيد الخلق ، ثم يقول — ولو شاء ربك ما فعلوه(٢) — ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد(٣) — ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين(٤) ـ وما تشاءون إلا أن يشاء الله(٥) .

فقوم وقفوا مع ظاهر الشريعة ، فحجبوا عن الحقيقة ، وهم أهل الحجاب ، وقوم نفذوا إلى شهود الحقيقة وأنكروا الحكمة ، وهم أهل الجذب ، وقوم جمعوا بينهما ، وهم أهل الكمال .

---

(١) رواه أحمد ، والحكيم ، وأبو يعلى ، والطبرانى ، وأبو نعيم ، وابن عساكر .
(٢) الآية : ١١٢ من سورة الأنعام .
(٣) الآية : ٢٥٣ من سورة البقرة .
(٤) الآية : ١١٨ من سورة هود .
(٥) الآية : ٣٠ من سورة الدهر .

فعلم الحقيقة هو علم الباطن ، وهو علم العالم الروحانى ، وعلم عالم المعـانى الذى ينكره شكر ،وليس ثم شىء غير هذا .

فثبت أن القرآن ورد بما أنـكروا ، فقامت الحجة ، وتبينت المحجة، وبالله التوفيق .

ثم ضرب مثلا للحقيقة والشريعة فى الحس ، فقال :

هل ظاهر الشرع مع الحقيقة إلا كأصل الفرع فى الحديقة

قلت : الشريعة عمل الجوارح ، والحقيقة معرفة البواطن ، فالشريعة أن تعبده ، والحقيقة أن تشهده ، فالشريعة من وظائف البشرية ، والحقيقة من وظائف الروحانية ، الشريعة قوت البشرية ، والحقية قوت الروحانية ، وما نقص من أحدهما يزاد فى الآخر ، فافهم ، وما مثل الشريعة الظاهرة مع الحقيقة الباطنية ، إلا كأصل شجرة فى بستان ، وهو الحديقة ، فأصل الشجرة المغروز فى الأرض مثل الحقيقة،والفرع الظاهر على وجه الأرض، مثل الشريعة ، فلا قيام للشريعة إلا بالحقيقة الباطنة ، ولا ظهور للحقيقة إلا بالشريعة ، فمن نظر إلى الباطن ووحد الله وجد كل شىء قائماً بالله ، ولا فاعل سواه ، ومن نظر إلى ظاهر العبد وجد له اختياراً فى الجملة ، يقوم إذا شاء و يجلس إذا شاء ، ويفعل ويترك باختياره فى الظاهر ، وعلى هذا وقع التـكليف ، وهو الشريعة ، ويسمى الـكسب عند المتكلمين .

فالتحقيق أن العبد مجبور ، لـكن فى قالب الاختيار ، فمن نظر للجبر الباطنى سماه حقيقة ، ومن نظر لقالب الاختيار سماه شريعة .

أو تقول : من نظر لعالم القدرة وجد الحقيقة محضة ، ومن نظر لعالم الحكمة وجد الشريعة محضة ، فالواجب على الإنسان أن تكون له عينان : إحداهما تنظر لعالم القدرة فيوحد الله ، والأخرى تنظر لعالم الحـكمة فيتأدب مع الله ، وليس اسمه القادر بأولى من اسمه الحـكيم ، فمن أهمل إحداهما سقط من عين الله ، فمن تحقق ولم يتشرع فقد تزندق لإبطاله الحـكمة ، ومن تشرع ولم يتحقق فقد تفسق لقصور نظره عن شهود القدرة ، فلا يخلو من شرك خفى ، وإنما لم يكفر ، لانه يقر بوجود القدرة ، لـكنه لم يعمل بما علم ، فهو كعالم غير عامل . والله تعالى أعلم .

تنبيه : قد يبلغ الوالى إلى مقام فى الوصول يقال له « افعل ما شئت فقد غفرت لك(١) »

ومعنى ذلك : أن الله تعالى يتولاه ويأخذه عن نفسه ، وينطوى وصفه بوصفه ، ونعته بنعته ، فيكون محفوظاً من شهود نفسه ، فيكون فعله كله بالله .

وفى القوت فى « كتاب المحبة » — إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب(٢) — .

وفى البخارى : « وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم (٣) » .

وفى كتاب « القصد » للشاذلى : يبلغ الوالى مبلغا يقال له أصحبناك السلامة ، وأسقطنا عنك الملامة ، افعل ما شئت ا هـ .

وليس هذا قولا بإسقاط التكليف ، فما دامت البشرية موجودة فلا بد من التكليف ، فإذا انهدمت البشرية ، وتخلصت الروحانية إلى مولاها ، سقط حينئذ التكليف ، فافهم .

قال فى نوادر الأصول « من حظه من أهل التقريب الجلال والجمال ، وقد أقيم فى الهيبة والأنس ، قد غاب عن العقوبة ، ولكنه يخاف التحويل والهوىّ والسقوط لما ركب فى نفوس بنى آدم من الشهوات « فهى أبداً تهوى بصاحبها إلى الإخلاد والبطء ، وإنما يسكن خوف التحويل إذا خلص إلى الفردانية ، وتحقق بالوحدانية ، لتلاشى الهوى منه والشهوة بكشف الغطا ولا يذهب خوف ذلك وإن سكن ، لبقاء خيال ذلك فى حق غير الأنبياء ، أما الأنبياء فلم يبق لهم ظل الهوى فبشروا بالنجاة ، فلم تضرّبهم البشرية لأنهم لم يبق لهم نفوس فتستد وتحرر إذ أمنت السقوط ، ومن بعدهم بقى لهم فى نفوسهم شىء ، فنعوا البشرى وأنهم عليهم الأمر صنعاً لهم ، لتكون نفوسهم منقمعة بخوف الزوال ، هذا هو

(١و٣) كما قيل لأهل بدر. فى الحديث الصحيح : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » رواه البخارى ، ومسلم ، والإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذى عن على ، وأبو داود عن أبى هريرة ، وأحمد عن ابن عباس ، وعن جابر رضى الله عنهم .

(٢) هذا لفظ حديث شريف نصه : « عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له » ذكره الديلمى ولم يخرجه ولده فى مسنده .

الأصل فافهمه ، هذا بعد أن قرر أن الشوق وخوف القلق من حبه لا يذهب على المجذوب المحدث ، وأن كان بينه وبين مولاه من الأسرار ما يسكن عنه خوف التحويل، وإنما يتوهم ذلك من وقف في الجلال والجمال ، فسكن شوقه بلذة ما نال من القربة ، فانظره اهـ.

ثم ضرب مثلا آخر ، فقال :

والشرع جار وصحيح العقل كحذوك النعل معاً بالنعل

قلت : حاصل كلامه أن ظاهر الشريعة وباطن الحقيقة كتطبيق النعل على النعل ، بحيث لا يفوت أحدهما على الآخر ، كذلك الحقيقة الباطنية مع الشريعة الظاهرة ، متلازمتان ، لا تفوت إحداهما الأخرى ، فما ظهر على العبد من عمل الشريعة ، فإنما هو من مدد الحقيقة قال تعالى — وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة(١) ـ وقال تعالى ـ وما تشاءون إلا أن يشاء الله(٢) .

أو تقول : ما ظهر على العبد من عمل الحكمة ، فإنما هو من فعل القدرة ، فالقدرة باطنة والحكمة ظاهرة .

وسأذكر لك شيئاً من بحر القدرة وشيئاً من بحر الحكمة ، ليظهر لك الفرق بينهما مع اتحادهما محلا ، فنقول وبالله التوفيق :

بحر القدرة بحر زاخر وأمره قاهر ، ليس له أول ولا آخر ، يظهر ويبطن ، ويحرك ويسكن ، ويقبض ويدفع ، ويعطي ويمنع ، ويخفض ويرفع ، بيده مقادير الأمور ، وعلى قطب دائرة الأفلاك تدور ، وتطير إليه قلوب المشتاقين ، وتعوم في طرف لجته أرواح السائرين ، وتخوض في وسط لججه أسرار الواصلين ، ولا تعرف كنه عظمته قلوب العارفين ، غاية منتهاها الدهش والحيرة ، ثم المكوف في الحضرة .

وأما بحر الحكمة فهو أيضاً بحر زاخر ، وأمره ظاهر ، يظهر الأسباب ، ويسدل الحجاب ، يربط الأحكام بالعلل ، ويقرر الشرائع والملل ، يغطي ما يبرز من عنصر القدرة بردائه ، ويستر ما يبدو من أسرار الربوبية بعز كبريائه ، ينور الطريقة ، ويصون الحقيقة ،

(١) الآية : ٦٨ من سورة القصص .
(٢) الآية : ٢٩ من سورة التكوير .

يظهر العبودية، ويبطن الحرية، من وقف معه كان محجوباً، ومن نفذ منه إلى بحر القدرة كان واصلا مجذوبا. ومن نظر إليهما معاً كان كاملا محبوبا، وبالعناية مصحوبا.

واعلم أن القدرة والحكمة: كل واحدة تنادى على صاحبتها بلسان حالها، أما القدرة فتقول للحكمة: أنت تحت قهرى ومشيئتى، لا تفعلى إلا ما نشاء، ولا يصدر منك إلا ما أريد، فإن أردت خلاف رددتك، وإن سبقتينى أدركتك.

وتقول الحكمة للقدرة: أنت تحت حكمتى وعند أمرى ونهيى، فإن عصيتنى أدبتك، وربما قتلتك، ثم إن اتفق فعلهما كان ذلك الفعل طاعة وحقيقة نورانية، وإن اختلف فعلهما، بأن أظهرت القدرة خلاف ما تريد الحكمة، كان معصية، وهى حقيقة ظلمانية، فتبين أن الحقيقة لا تفارق الشريعة، إذلا قيام لها إلابها، والشريعة لا تخرج عن الحقيقة، لأنها ستر لها ورداء يصونها.

فإن قلت: ظهور المعاصى والذنوب حقيقة بلا شريعة، فأين التلازم الذى ذكرت؟

قلت: النهى عن فعلها وتسميتها معاصى هو من جهة الشريعة، فلولا الشريعة، ما سميت معاصى، وانظر ما قاله صاحب العينية:

فإن كنت فى حكم الشريعة عاصياً   فإنى فى حكم الحقيقة طائع

فلولا الشريعة لم تتميز الطاعة من المعصية، فالشريعة صادقة بالواجبات والمباحات والمحرمات، فمهما صدر شىء من هذه الثلاثة فهو شريعة، فثبت التلازم، وهو معنى قول الناظم «والشرع جار» و «صحيح العقل» إلخ وهو على حذف مضاف، أى: ومدرك صحيح العقل، والمراد بالعقل: عقل التخصيص المتقدم، الذى اختص به الأنبياء، وينتهى إليه عقل الأولياء، لأنه هو الذى يدرك علم التحقيق، لا مطلق العقل كما تقدم، ويحتمل أن يريد الناظم: أن ما أتى به الشرع كله موافق لإدراك العقول، كما قال البوصيرى رضى الله عنه:

لم يمتحنا بما تعيا العقول به   حرصاً علينا، فلم نرتب ولم نهم

فمسائل الشريعة كلها موافقة لما يقتضيه العقل، فما حرم الله تعالى شيئا إلا لحكمة، وهى ما فيها من البعد عن الله، وما أوجب شيئا إلا لحكمة، وهى كونه يقرب إلى الله، ومسائل الفقه كلها لحكمة، فمنها ما أدركه الناس، ومنها ما لم يدركوه، ويقولون فيه:

إنه تعبدى ، لكن هذا الاحتمال وإن كان ظاهر الناظم ليس فيه رد على المنكر لإثبات علم الحقيقة ، لأن هذا الأمر يثبته أهل الظاهر ويقررونه ، وسياق الكلام إنما هو فى الرد على أهل الحقائق فتأمله ، والله أعلم .

ثم ضرب أيضا مثلا للشريعة الظاهرة مع الحقيقة الباطنة باليواقيت التى تكون فى البحر ، فقال :

ما مثل المعقول والمنقول ... إلا كدر زاخر مجهول
حتى إذا أخرجه الغواص ... لم يكن للدر إذن خلاص
وإنما خلاصه فى الكشف ... عن الغطاء حيث لا يستخف
فالصدف الظاهر ثم الدر ... معقولة والجهل ذاك البحر

قلت : المراد بالمعقول هنا هو علوم الحقائق العرفانية والأسرار الربانية ، وتسميتها معقولا مجاز ، لكنه قد قدم أن عقل التخصيص الذى هو للخواص يدرك علم الحقيقة ، فيسمى حينئذ ما أدركه معقولا بهذه النسبة ، وحاصل هذا المثال أن الروحانية التى هى محل علوم الحقائق مثلها كالدرة ، وهى الياقوتة الكبيرة ، والبشرية التى هى محل العلوم النقلية كالصدف لتلك الياقوتة ، والجهل الذى عم الناس وأحاط بهم كالبحر ، فمن دوخه بحر الجهالة لم يلتفت إلى در ولا صدف ، بل غرق فى بحر الجهالة وأتلف ، ومن أيقظه الله من دوخته ، ونبهه من غفلته ، غاص بفكره يمينا وشمالا فاستخرج ياقوتة سوداء مستورة فى صدفها ، لا يظهر منها إلا الصدف وهى نفسه ، فإذا قنع بالاعتناء بظاهرها ولم يذهب إلى من يخلصها ويكشف له عن باطنها ، بقى فقيراً على الدوام ، وإن أراد أن يخلصها بنفسه بقى متعوبا معها على الدوام ، وربما أفسدها ، وكذلك إن ذهب بها إلى غير عارف ماهر بتصقيل اليواقيت أفسدها له أيضا ، وإن ذهب بها إلى عارف ماهر غواص فى البحر عارف بتصقيل اليواقيت كشف له عنها فى أقرب ساعة ، فصار غنيا موسعا عليه ينفق منها كيف يشاء ، قال تعالى - لينفق ذو سعة من سعته (١) .

قال فى الحكم فى تفسيرها ، لينفق ذو سعة من سعته ، الواصلون إليه ، ومن قدر عليه رزقه ، السائرون .

---

(١) سورة الطلاق ، الآية : ٧ .

هذا حاصل كلام الناظم مع ما فى حمله عليه من التعسف ، لكن بهذا الحمل يجرى على نسق ما قبله ، ويمكن حمله على ظاهره ، فتكون الألفاظ كالصدف ، والمعانى كالدر ، والجهل بذلك كالبحر ، لكن هذا الأمر لا نزاع فيه بين أهل الظاهر وأهل الباطن ، والكلام إنما هو فى المعانى التى هى ضد المحسوسات ، وهو الذى شرحنا به .

فقوله : « ما مثل المعقول والمنقول » ، هو على حذف مضاف : أى محل المعقول ومحل المنقول .

وقوله : «إلا كدر زاخر» يقرأ بالإضافة لزاخر على حذف مضاف ، أى كدر بحر زاخر وقوله «مجهول» : نعت لدر، لا لزاخر، وقوله : لم يكن للدر إلخ ، معناه أن الدر حين يخرجه الغواص لم يكن مستخلصا من صدفه ، وإنما خلاصه بالكشف عنه من عارف به كما تقدم ، بحيث يصير ظاهراً لا يستخفى ، وباقى الكلام ظاهر .

ثم قال رحمه الله :

وإنما المعقول فى شكل الحروف ... كما يكون الدر فى جوف الصدوف

قلت : هذا البيت من تتمة ما قبله ، والمراد بالحروف رسوم البشرية الظاهرة . وقد تقدم أن اصطلاح الصوفية يطلقون الحروف والرسوم والأشكال على صور الأكوان الحسية ، والمعنى : وإنما المعقول الذى هو المعانى اللطيفة فى شكل الرسوم الحسية كالدر فى الصدف .

أو تقول : وإنما المعانى فى رسوم الأوانى كاليواقت فى أصدافها ، فالأوانى أصداف ، والمعانى يواقيت ، فمن وقف مع الحروف والأشكال ، وقنع بتحسين خطوطها وتزيين أشكالها ، فاته الاطلاع على جواهر العلوم ويواقيت الفهوم ، وبقى جاهلا مضيقاً عليه فى أرزاق العلوم ، ومقتراً عليه فى نتائج الفهوم ، ومن نفذ إلى ما فى باطنها من الدرر والجواهر الحسان كان من الأغنياء : أهل الشكر والإحسان .

ويحتمل أن يريد بالحروف معناها الأصلى ، وهى الألفاظ الدالة على المعانى . والمراد بالمعقول علم الباطن ، فإنه موجود فى القرآن ، لكنه باطنى خارج عن ظاهر ماتؤديه الحروف .

قال سيدنا على كرم الله وجهه : « إن للقرآن ظاهراً وباطناً ، وحداً ومطلعاً » قالوا : فالظاهر للنحاة والقراء ، والباطن المفسرين وأصحاب المعانى ، والحد للفقهاء والعلماء ، والمطلع لأرباب الكشف والتحقق » اهـ . والمطلع بفتح اللام هو محل الاطلاع ، كأن القرآن

حكاة يطلع منها على أسرار فيه تعالى ، وبالله التوفيق .

ثم ضرب مثلا آخر للعلم الظاهر والباطن ، فقال :

هل ظاهر الشرع وعلم الباطن إلا كجسم فيه روح ساكن

قلت : ظاهر الشرع هو العلم الظاهـــر ، وهو العلم المنقول . والعلم الباطن هو العلم الموهوب .

أو تقول : العلم الظاهر هو علم الحكمة ، والعلم الباطن هو علم القدرة .

أو تقول : العلم الظاهر هو علم البشرية ، والعلم الباطن هو علم الروحانية .

أو تقول : العلم الظاهر هو علم العبودية ، والعلم الباطن هو علم الربوبية ، فالأول : علم الأوراق ، والثاني : علم الأذواق ، وعلم الربوبية هو : علم الفناء والبقاء والسكر والصحو والجمع وجمع الجمع ، وغير ذلك ، وهذا العلم لا يؤدى بالعبارة ، وإنما يرمز إليه بالإشارة ، لأنه ذوق لا علمى .

فإن قلت : علم الطريقة متعلق بالقلوب ، وهى باطنية ، فكيف لا يكون من علم الباطن ؟

قلنا : لما كان يؤدى بالعبارة ، والعبارة تظهره وتوضحه ، صار من قبيل علم الظاهر ، وهو تصوف أهل الظاهر ، وأما تصوف أهل الباطن فلا يدرك بالعبارة ، وقد تقدم قول الشيخ :

إياك أن تطمع أن تحـــوزه من دفتر أو شعر او أرجوزة

وهذا هو علم الباطن عند المحققين .

وقال الشيخ عبد الوارث : العلوم ثلاثة : ظاهر، وباطن، وباطن الباطن ، كما أن الإنسان له ظاهر ، وباطن ، و باطن الباطن . اهـ .

فجعل علم الشريعة ظاهراً ، وعلم الطريقة باطناً ، وعلم الحقيقة باطن الباطن ، وهو حسن ، إلا أن الجمهور حصروا العلم فى القسمين ، والأمر قريب .

فقال : العلم الظاهر مع العلم الباطن، كجسم فيه روح كامن ، فالجسد لا يقوم بغير روح ، والروح لا تظهر من غير جسد ، وإذا خلى الجسد من الروح كان ميتاً ، ولا عبرة به ، ولذلك كان من تشرع ولم يتصوف فقد تفسق ، لأن أعماله أشباح بلا أرواح ، وإذا خلت الروح من الجسد بطنت ولم يظهر لها وجود ، ولذلك كان من تحقق ولم يتشرع فقد تزندق

لأنه تصير حقيقته عريانة بلا كسوة ، فيقتل عليها ، فإن كان محقاً وغلبه السكر كان شهيداً وإن كان مدعياً كان بعيداً ، ومن الحضرة طريدا ، والله يعصمنا من الزلل ويوفقنا لصالح القول والعمل ، بجاه الحبيب مولانا محمد صلى الله عليه وسلم وعظم وبجل .

ثم ذكر أصل النزاع الذى بين أهل الظاهر والباطن ، فقال :

لو عمل الناس على الإنصاف ... لم تر بين الناس من خلاف

قلت : الإنصاف هو : الرجوع لقول الغير بعد وضوح دليله ، أو الإقرار بالحق بلا مكابرة ، فلو اتفق الناس على الإنصاف ، وأقروا بالحق أينما ظهر من غير مراء ولا جدال ، لم يبق خلاف بين الناس ، إذ الطريق واضح ، والحق لائح ، والداعى قد أسمع ، ما التحير بعد هذا إلا من العمى كما قال البلخى ، لكن طباع النفوس لا ترضى بحط الرءوس ، ومن كان رئيساً لا يرضى أن يصير مرءوساً ، وهذا سبب الخلاف والاختلاف بين الأمم : فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، واتفاق الناس كلهم على الحق خلاف الحكمة قال تعالى — ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم(١) — قيل : للاختلاف وقيل : للرحمة. فالله يرحمنا وأحباءنا برحمته الخاصة والعامة آمين .

ثم إن الحق غريب وأهله غرباء فى كل زمان، قال عليه الصلاة والسلام «طوبى للغرباء(٢)» وإلى هذا أشار بقوله :

واعلم رعاك الله من صديق ... أن الورى حادوا عن التحقيق
إذ جهلوا النفس والقلوبا ... وطلبوا ما لم يكن مطلوبا
واشتغلوا بعالم الأبدان ... فالكل تاه منهم ودان
وأنكروا ما جهلوا وزعموا ... أن ليس بعد الجسم شىء يفهم

قلت : ذكر رحمه الله أن الخلق حادوا ، أى أعرضوا عن طريق التحقيق التى هى علم الحقيقة فى عين الشريعة ، أو علم الربوبية فى عين العبودية ، وذكر أن سبب إعراضهم عن ذلك أربعة أمور :

---

(١) ١١٨ من سورة هود .

(٢) ولفظ الحديث كاملا : «طوبى للغرباء : أناس صالحون فى أناس سوء كثير من يعصيهم أكثر من يطيعهم» رواه الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو .

الأول : جهلهم بحال نفوسهم وقلوبهم ، فلم يدروا هل هي مريضة أو صحيحة ، وهل هي باقية على أصلها أو تغيرت ، ومن شعر بشيء أنكر وجود الطبيب، ومن ردها إلى أصلها يبقى مريضاً على الدوام والتحق بمرتبة العوام .

الثاني : انطماس بصيرتهم حتى اشتغلوا بطلب ما لم يطلب منهم ، وفرطوا فيما طلب منهم فاشتغلوا بطلب الرزق المقسوم والحرص على الدنيا وجمعها واحتكارها ، وتركوا ما طلب منهم من حقوق مولاهم والتفكر فيما أولاهم ، لحادوا عن الطريق، وأنكروا معالم التحقيق .

وفي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما بال أقوام يشرّفون المترفين ويستخفون بالعابدين ، ويعملون بالقرآن ما وافق أهواءهم ، وما خالف أهواءهم تركوه فعند ذلك يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، يسعون فيما يدرك بغير سعي من القدر المقدور والأجل المكتوب والرزق المقسوم ، ولا يسعون فيما لا يدرك إلا بالسعي من الجزاء الموفور والسعي المشكور ، والتجارة التي لا تبور » .

قال إبراهيم الخواص: « العلم كله في كلمتين ولا تتكلف ما كفيت، ولا تضيع ما استكفيت » .

الثالث اشتغالهم بعالم الأشباح دون التعريج إلى عالم الأرواح ، فاشتغلوا بخدمة الحس وعلم الحس وعمل الحس ، وغفلوا عن علم القلوب وعمله ، وأنكروا ما يدل عليه ، فصارت خدمتهم حسية وعلومهم حسية رسمية ، وأعمالهم بدنيـــة حرفية ، والحق من وراء ذلك كله ، وهذا كله بعد عن الوصول إلى التحقيق إلا بسابقة التوفيق ، فكل من اشتغل بخدمة الحس فهو بعيد في حال قربه ، منقطع في حال وصوله ، وهذا معنى قوله : « فالكل ناء منهم ودان » أي فالكل منهم ناء أي بعيد ، وهو دان أي قريب .

وفي مناجاة الحكم : « إلهي ما أقربك مني ، وما أبعدني عنك » إلخ .

الرابع : إنكارهم لهذا المقام الذي جهلوا ، وهو علم التحقيق ، الذي هو الزوال ، ويسمى العالم الروحاني ، وزعموا أنه ليس شيء زائد على الأجسام الحسية ، وهم معذورون في الإنكار ، إذ لا يعرف البلد إلا من وصلها :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده   ولا الصبابة إلا من يعانيها

وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق .

ثم هؤلاء الجهال لم يقنعوا بالإنكار حتى كفروا من قال بشيء من ذلك ، كما قال :

وكفّروا وزندقوا وبدّعوا   إذا دعاهم اللبيب الأورع

قلت : هذا من الحرمان ، وعلامة الخذلان،إذا دعاهم أحد إلى التحقيق قالوا:إنه زنديق، وإذا خرق عوائد نفسه فى دواء قلبه قالوا : إنه صاحب بدعة ، وهذا كله حجاب وستر لأوليائه ، فإذا سمع المريد شيئاً من ذلك فليطلب نفسا ، فتلك عناية به ، نعم ينبغي أن يحزم نفسه فى ستر السر الذى عنده ، وإن أفشى شيئاً من ذلك فسيف الحلاج فوق رأسه ، ثم المنكر على الصوفية فى أقوالهم وأحوالهم إن كان ذلك من عدم فهمه فقد يعذر بجهله ، لضعف مدركه وضيق عطنه(١) كما قال الحضرمى رضى الله عنه فى كتابه « صدور المراتب ونيل المراغب » ونصه بعد كلام : والجاحد لمن يوحى إليه شيء من هذا الكلام وما يفهمه فهو معذور مسلم له حاله من باب الضعف والتقصير ، وهو مؤمن إيمان الخائفين ، ومن يفهم شيئاً من ذلك فهو لقوة إيمان واتساع دائرة ، ومشهده مشهد واسع ، سواء كان مورد نور أو ظلمة بحسب ما فى القوابل من الودائع الموضوعة على أى صفة كانت . انتهى .

وإن كان تعصباً وتزكية لنفسه ، وإرادة الترفع على غيره فهو هالك مثبور ، وعلامة الأول الوقوف على حد ما يقع به التعبير من غير زيادة ولا تشنيع ، وعلامة الثانى التشنيع واتساع الدعوى والهروب من مواطن التحقيق ، ومن رزقه الله التسليم فهو أولى .

وقد سئل النووى رحمه الله عن ابن العربى الحاتمى فقال : الكلام كلام صوفى ، — و ـ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت(٢) ـ الآية ، وكذلك قال ابن أبى زرعة فى شأنه أيضاً،وفى ابن الفارض ، وذكر فيه كلام الناس من المنكرين وغيرهم ، وقال : إن يعترض على الكلام ويترك القائل لاحتمال توبته اهـ .

قلت : وإنكار أهل الظاهر على أهل الباطن لعدم فهم مقصودهم ، ولعدم الوصول إلى مقامهم ، ولذلك كان التسليم أولى ، بل هو نصف الولاية ، والله أعلم .

ثم ذكر سبب إعراضهم عن دعاهم إلى الله فقال :

كل يرى أن ليس فوق فهمه ... فهم ولا علم وراء علمه

محتجبا عن رؤية المراتب ... هل يسمى عالما وطالب

---

(١) جمعه : أعطان ، وهى : مبارك الإبل .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٤١ .

قلت : هذه سنة الله فى خلقه ، قال تعالى -كل حزب بما لديهم فرحون(١) ـ كل من كان فى مقام يرى أنه لا مقام فوق مقامه ، فإن شوّق إلى ما وراء ذلك أنكره ، وحكمة ذلك تمام الحكمة الكلمة التى سبقت له فى الأزل ، فإن كان ممن سبق له شىء من هذه الخصوصية إذا شوقته تشوق وطلب ، فيوصله الله إلى ما سبق له ، بخلاف ما إذا لم يسبق له شىء من ذلك ، إذا ذكرت له مراتب الرجال أنف وقال « كان ذلك فيما مضى » خوفا أن يسقط له جاهه ومرتبته من عين الناس ، فباء بالخيبة والإفلاس ، واحتجب عن مراتب الكمال ، وتخلف عن مقامات الرجال ، والعياذ بالله من مثل ذلك ، ودعواه أن لافهم فوق فهمه ، ولا علم فوق علمه ، جهل عظيم ، فإن فوق كل ذى علم عليم ، ومنتهى العلم إلى الله العظيم ، كما أخبر تعالى فى كتابه الحكيم وقال تعالى ـ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا(٢) ـ واتساع دائرة العلوم ، وفتح مخازن الفهوم إنما هى منح إلهية ، ومواهب اختصاصية ، لا تنال بكسب ولا احتيال ، وإنما تنال بفضل الكبير المتعال مع حكمة صحبة الرجال ، والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

وقوله « عل » أخ لغة فى « لعــــل » أى إنما أنكر لعله يسمى عالما وطالبا للعلم ، وهذه علامة الرياء أعاذنا الله منها بمنه وكرمه ، ثم استبعد الناظم أن يصدر مثل هذا عن له عقل كامل ، فقال :

هيهات هذا كله تقصير ... يأنفه الحاذق والنحرير

قلت : النحرير ، هو : الذى يحقق الأمور ويحررها ، يعنى أن القناعة بعز الناس ومدحهم مع فوات الحظ من الله بمعرفته الحقيقية لا يرضاها من كان صادقا نحريراً ، بل لا يرضاها الجاهل فضلا عن العالم .

قال فى الحكم « استشرافك أن يعلم الناس بخصوصيتك ، دليل على عدم صدقك فى عبوديتك » اهـ

ثم حرض على النهوض إلى الله تعالى ، فقال :

فمن يرد موارد المواهب ... فكيف يرضى هذه الغياهب
فالعلم ما يلفى إليه حد ... بل ظاهر يخفى ، وخاف يبدو
والعلم لو كانت له نهايه ... يوقف عند حدها أو غايه

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ٥٣ ، والروم ، الآية : ٣٢ .
(٢) سورة الإسراء ، الآية : ٨٥ .

ما كان أذكى مرسل وأسمى ... قيل له : قل رب زدنى علما
فمش بما لديك ما حييت ... وجنب التعنيف والتعنيت
والكل قد يعجبه الكلام ... فالزم هدى نفسك والسلام

قلت : حاصل كلامه أن من أراد أن ينهل من مـــوارد المواهب والأسرار ، وتشرق عليه شموس الأنوار ، فلا يرضى لنفسه الإنكار على أولياء الله ، فيحارب بذلك مولاه ، ولا يحصر العلم فيما عنده ، وينكر أن يكون فوق علمه علم ، أو فوق حاله حال ، أو فوق مقامه مقام ، فلا يرضى بهذه المذاهب السخيفة إلا ذوو الهمم الضعيفة ، فالعلم لا يوجد إليه حد ينتهى إليه ، بل هو كالشموس والأقمار والنجوم ، لا يزال غارباً وطالعاً ومتوسطاً ما دام الدهر ، فعلوم العارفين كالشموس ، وعلوم السائرين كالأقمار ، وعلوم عامة أهل اليمين كالنجوم ، وهى فى الجميع ، تارة تظهر وتشرق بقوة الواردات ، وتارة تخفى بضعف الواردات ، ولا حد للعلوم والمعارف والأسرار ، فلو كان لها حد تنتهى إليه ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى له ــ وقل رب زدنى علما[1] ــ وهو سيد العارفين ، فدل على أن العلم لا نهاية له ، قال تعالى ــ وفوق كل ذى علم عليم[2] ، واعلم أن جميع العلوم الرسمية كلها يبقى معها الافتقار إلى غيرها ، أو إلى الزيادة منها ، إلا علم الشهود إذا تحقق واطمأن العبد بالله ، فإنه يحصل له الغنى الأكبر ، ولا يلتفت إلى علم آخر أبداً ، كمن عنده الفلوس أو الدراهم أو الذهب ، ثم وجد الإكسير ، فلا شك أنه يزهد فيما كان عنده ، ولا يلتفت إليه ، كذلك العارف لم تبق له حاجة إلى شىء إلا إلى مولاه .

قال سيدى عبد الرحمن الفاسى رضى الله عنه : كنت أعرف أربعة عشر علما ، فلما أدركت الحقيقة سرطت[3] ذلك كله ، ولم يبق لى إلا التفسير والحديث والمنطق اه فإذا حصل لك أيها المريد علم المعرفة ، فمش بما لديك منها ما حييت ، فهذه هى الحياة الطيبة التى لا يعقبها موت أبداً ، وجنب التعنيف والتعنيت ، فالتعنيف التغليظ فى الكلام ، والتعنيت

---

(١) سورة طه ، الآية : ١١٤ .
(٢) الآية : ٧٦ من سورة يوسف عليه الصلاة والسلام .
(٣) أى بلعت ، ومنه قولهم : الأخذ سريطى ، والقضاء ضريطى ، قوله « سريطى » بضم السين وتشديد الراء مع الفتح وإسكان الياء ، وكذلك « ضريطى » بمعنى إذا أخذ ابتلع وعند الرد يتعب .

المنازعة والمغالبة ، لأن هذه الحال من شأن الجهال ، فلا تبدى ما يفتح به عليك ، ولا تنكر مالا ينتهى إليه علمك ، ولا تنازع من نازعك ، فللحقيقة رب يحميها ، والطريقة نفس تصطفيها والنزاع لا يجلب إلا الشر فى الدنيا والنقص فى الدين ، وكلام القوم يعجب كل سامع إليه ، فلا يغرنك من الناس استحسانهم له ، حتى تطالبهم بحقائقه وتطمع فى سلوكهم عليه ، فإن ذلك يتعبك ويفتح لك باب الدعوى والرعونة والشهوة ، فالزم إصلاح نفسك وهداها ، ولا تلتفت إلى ما سواها ، قال تعالى — يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم(١) — الآية .

وقال الفضيل رضى الله عنه . هذا زمان احفظ فيه لسانك ، وأخف مكانك ، وخذ ما تعرف ، ودع ما تنكر ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعاً ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخويصة نفسك(٢) اهـ .

رزقنا الله العمل به إلى الممات فى عافية دائمة وستر جميل ، آمين .

هذا آخر الفصل الرابع بحول الله وقوته .

يتلوه الفصل الخامس ، وبه الختام ، ختم الله لنا بالحسنى والمعرفة على التمام .

وحاصل هذا الفصل الإنكار على بعض الفقراء ، تشبهوا بالفقر ولبسوا على الناس ، فأشار إلى الرد عليهم فى هذا الفصل ، فقال .

الفصل الخامس فى فقراء العصر ، ومتشبهى الوقت .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : هذا الفصل فى مقابلة الذى قبله إذ ذاك فى الرد على أهل النقص من المتفقهة ، وهذا فى ذم المخلطين من المتفقرة ، وهو من أهم ما يعرفه الصادق فى هذا الزمان ليحكم به على نفسه لا غير ذلك ، وذلك لما فى الوقت من الفساد والتخليط ، لاسيما وقد ورد أن فى صحف إبراهيم عليه السلام : « وعلى العاقل أن يكون عارفا بزمانه(٣) » ومعرفة الزمان وأهله أمر مهم ، فلا بد من العلم به جملة وتفصيلا ، لأن من تعلم العلم لنفسه

---

(١) الآية : ١٠٥ من سورة المائدة .

(٢) وفى حديث آخر . « إذا رأيت الناس قد مرجت عهودهم ، وخفت أماناتهم وكانوا هكذا — وشبك بين أنامله — فالزم بيتك ، واملك عليك لسانك ، وخذ ما تعرف ودع ما تنكر ، وعليك بخاصة نفسك ، ودع عنك أمر العامة » رواه الحاكم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .

(٣) رواه أبو نعيم فى حديث طويل فى ترجمة أبى ذر الغفارى رضى الله عنه بلفظ « بصيرا » بدل « عارفا » .

تور ، ومن تعلم العلم للناس تحير ، ومن لاقى الناس بالنية أفلح،ومن لا قاهم بالاعتراض خسر ، ولكل قوم حثالة ، وهؤلاء الذين يذكر أوصافهم بعدهم : حثالة المتشبهين فارحمهم وعظمهم ، ولبهم وذكرهم ، وحذر الصادقين من فعلهم ، ثم إن تمادوا فلا تشغل بهم ولا تغير إلا حيث يجب عليك التغيير ، بحكم الشرع . فهو فى كل أمر بين متفق عليه تقدر عن تغييره من غير أن يؤدى لمنكر آخر أعظم منه،أو مثله. وبالله التوفيق . انتهى.

ثم افتتح بتغيير الطريق الذى كان عليها السلف الصالح ، فقال :

إذا علمت كيف كان الحال	فى الشيخ والتلميذ ثم حالوا
فاعلم بأن أهل هذا العصر	قد شغلوا بمحدثات الأمر
إذ أحدثوا بينهم اصطلاحا	لم أر للدين به صلاحا
وصنفوا بينهم أحكاما	أكثرها كانت لهم حراما
والتهجوا مناهج منكوسه	وارتكبوا طريقة معكوسه

قلت : لما أخبر فى كتابه ما كان حال الصوفية المحققين ، وما كان حال شيوخ التربية ، أخبرك هنا أن ذلك قد حال ، أى تغير ، ولم يبق على حاله ، فلا تغتر بمن يدعى حالة مع الله حتى تختبره فى حب الدنيا والميل إليها إن أردت أن تصحبه ، وإلا فلا عليك فيه ، لحسن الظن بعباد الله ليس فوقه شىء من الخير ، وسوء الظن بعباد الله ليس فوقه شىء من الشر ، وماذا علينا إذا اعتقدنا أن الناس كلهم صالحين وأولياء ، لا والله لا يزيدنا ذلك إلا قربا من الحق ، مع المحافظة على رسوم الشريعة .

وقد قال الصحابى الجليل سيدى عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما : من خادعنا فى الله انخدعنا له[1] ، اه (وفى) الحديث «المؤمن غر كريم، والمنافق خب لئيم[2]».

---

(١) وذلك أنه كان يكثر من تحرير الرقاب ، فإنه كان إذا رأى عبداً من عبيده يصلى أعتقه ، فقالوا له : إنهم يخدعونك ، فقال : «من خدعنا فى الله انخدعنا له» رضى الله عنه وأرضاه .

(٢) الحديث رواه أبو داود ، والترمذى ، والحاكم .

والغر بكسر الغين هو الذى يغتر لحسن ظنه ونيته ، والخب بفتح الخاء وكسرها هو: الخداع قاله المنذرى ، والمؤمن يلتمس المعاذير : يلتمس سبعين عذراً لأخيه المؤمن ، سيما أهــل النسبة ، فالواجب تعظيم الجانب حرمة لمن انتسب إليه ، فإن كان كاذبا فعليه كذبه ، وإدخال ألف رجل فى الولاية أفضل عند الله من إخراج ولى واحد منها ، والخلق عيال الله فمن مدح عياله أحبه ومن تنقص عياله أبغضه .

قال فى « النصيحة الكافية » : وأما الفقراء فيسلم لهم فى كل شىء لا يقتضى العلم إنكاره ، قال الشارح : ما لا يقتضى العلم إنكاره على ضربين .

أحدهما ما يعرفه الناس ويعتقدونه كذلك ، فهذا لا ينكره أحد على أحد .

الثانى ما يعتقدون قبحه ونقص المتصف به لعارض غلب عليه ، وهو الذى يحتاج إلى التنبه به والتوصية بترك إنكاره ، كترك الخوف ومجانبة الأسباب ، فإن الناس ينتقصون صاحب ذلك ويحملونه على العجز والكسل ويتهمونه بالطمع والتشوف إلى ما فى أيدى الناس ، وكلبس المرقعات ، فإنهم يرون أن صاحبه اتخذه شبكة يصطاد به ، وجعله بابا لسؤال ومسلكا للاغترار ، مع أنه قد يكون كذلك وقد ، لا ، فالسلامة فى التسليم ، فمن انتمى لطريق القوم وانتسب إليهم يسلم له حاله فى مثل ذلك .

ثم قال فى « النصيحة » وما وجب إنكاره أنكر عليهم مع اعتقاد كمالهم .

قال الشارح : لأن انتسابهم لجناب الحق مقتض لذلك ، يعظم المنتسب له ، ولو كان فى نفس الأمر كاذباً ، قال فى « العدة[1] » لأن وجود انتسابه شاهد بتعظيمه للجناب الذى انتسب إليه فى نظره ، ولذلك ما تعرض أحد قط لمنتسب بأذى إلا أصابه منه ضرر ، لأن الحق سبحانه يغار لهتك جنابه إلا بأمر منه ، فإذا وقع المنتسب فى أمر فيه حق من حقوق الله : أقيم عليه الحق ، وحفظت حرمته فى نسبته ، لحديث « لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله[2] » الحديث ا هـ .

---

(١) أى « عدة المريد الصادق » لسيدى أحمد بن زروق .

(٢) وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة: « لا تكونوا عونا للشيطان على أخيكم » وفى « المقاصد الحسنة » ما لفظه « لا تكن عوناً للشيطان على أخيك » رواه البخارى فى حديث الذى أتى به إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو سكران ، وقال رجل من القوم : « اللهم العنه » فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله » من حديث محمد بن إبراهيم

قال : وبالجملة فالنسبة لها حق عظيم :

رأى المجنون فى البيداء كلبا ... فجر له من الإحسان ذيلا

فلاموه على ما كان منه ... وقالوا : لم أنلت الكلب نيلا

فقال : دعوا الملامة إن عينى ... رأته مرة فى حى ليلى

ثم قال فى « النصيحة » : إذ لا يبعد أن تكون للولى الهفـــوة والهفوات ، والزلة والزلات ، قال الشارح : ويفهم من تعبيره بالمفرد المختوم بتاء الوحدة وبجمع القلة : أن وقوع ذلك منهم نادر ، وذلك لأن الشيطان لا تسليط له على قلوبهم ، وإنما يطوف بها كالسارق .

وقال فى كتاب « الانتباه » لا سبيل للشيطان إلى دخول قلوب الأولياء التى هى معدن الأسرار ومظهر الأنوار ، فلا يحوم حولها إلا سارقا،والسارق إنما يقضى غرضه من الغافل والنائم ، وهم فى مقام الانتباه واليقظة ، فإذا استشعروا شيئاً من همزاته رموه بشهب أدلة التوحيد ، فانقلب خائبا لمانع حماية الرحمن ، كما قال تعالى — إن عبادى ليس لك عليهم سلطان(١) — والتعبير بالسلطان يدل على الغلبة . والله أعلم ، أى لا غلبة لك عليهم ، فبان بهذا أنه وإن رام القرب منهم فلا ينال غرضه . وإن توصل إلى بعض الوسوسة ، فمحلها ظاهر القلب لا باطنه الذى هو محل المعرفة بالله ، ولا يستقر لها أى الوسوسة قرار ، لثبوت يقظتهم وقوة نور بصائرهم ، فإذا استشعرها القلب كان كما أخبر الله عنهم ، بقوله — إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذاهم مبصرون(٢) — فانظر لم ينف عنهم حكم الوسوسة ، ولكن أثبت لهم اليقظة المتضمنة نفى الإغواء الذى هو الإصرار ، كما وصف من ذكر أهل الغفلة فى الآية الثالثة اهـ .

ثم قال فى « النصيحة » : « الأولياء محفوظون ، والحفظ يجوز معه الوقوع فى المعصية ، أى بخلاف العصمة ، إلا أنه لا يجوز معه الإصرار ولا يقتدى به فى مثلها ، وقد سئل الجنيد رضى الله عنه : أيزنى العارف ؟ فقال : وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، وقال ابن عطاء الله

---

(١) ٤٢ من سورة الحجر .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية : ٢٨ .

رحمه الله : ليت شعرى ، لو قيل له: أتتعلق همة العارف بغير الله ؟ لقال : ولا ينكر على الفقراء إلا محرم مجمع على تحريمه ، ولا يسلم لهم إلا فيما له صورة ، ليباح لها من الأفعال . انتهى كلام النصيحة .

وإنما نقلته مع غيره لينزل عليه ما يذكره الناظم من التشنيع على متفقرة وقته ، فقوله : إذا علمت أحوال الصوفية والشيوخ والتلامذة كيف كانت أحوالهم على ما وصفت لك فى كتابى ، علمت أن أهل العصر خرجوا عن طريقهم ، واشتغلوا ببدع محدثات فى أمور الدين، فلا تقتد بهم ، وانههم بالتى هى أحسن — إن قدرت — وإلا فشأنك بنفسك ولا تنتقده ، فإن البواطن لا يعلم ما فيها إلا الله ، وليست كل بدعة محرمة ، فإن فيها ما هو واجب ، وما هو مكروه ، وما هو مباح ، فالبدعة المحرمة هى التى تنقض قاعدة من قواعد الشرع ، كتحليل حرام ، أو تحريم حلال ، وجل أحوال الصوفية إنما هى بدع مستحسنة ، أو مباحة ، كتعليق السبحة والقيام للذكر جماعة ، وغير ذلك .

وقوله : « إذا أحدثوا بينهم اصطلاحا » الخ ينظر فى هذه الاصطلاحات ، فإن كانت لا تغير شيئاً من قواعد الدين فلا اعتراض ، وإلا فليرشدهم برفق ، وقوله « وصنفوا » إلخ أى صنفوا تصانيف فيما أحدثوا من البدع ، وأكثرها كانت حراما عند الصوفية ، وينظر فيها اليوم بميزان الشريعة كما تقدم .

وقوله «وانتهجوا » أى سلكوا مناهج وطرقا منكوسة ، أى غير مستقيمة ، وارتكبوا طريقة معكوسة مع طرق الصوفية ، فطريق الصوفية ترك الدنيا وأهلها ، وإيثار الزهد والخمول ، فكل من مال للدنيا وأهلها ، أو مال لحب الشهوة ، فقد عكس طريقهم وسلك طريقة منكوسة .

وفى بعض الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليجاء يوم القيامة بأقوام معهم من الحسنات أمثال جبال تهامة ، حتى إذا جىء بهم جعل الله أعمالهم هباء ثم قذفهم فى النار ، قيل : يا رسول الله بين لنا هؤلاء حتى نعرفهم ، قال : إنهم كانوا يصومون ويصلون ويأخذون وهنا من الليل ، ولكنهم كانوا إذا عرض لهم شىء من الحرام ، وفى رواية «من الدنيا» وثبوا عليه وثبة الأسد على فريسته» اه أعاذنا الله من النفاق، ثم قال:

تالله قد كان طريقا قاصداً   والآن ما تلقى إليه وارداً

قلت : يريد أن طريق التصوف كان طريقاً قاصداً ، أي مقصوداً مسلوكا ، والآن لا نجد عليه وارداً ، أي سالكا ، أو كان قاصداً أي متوسطاً معتدلا ليس فيه إفراط ولا تفريط ثم جاء قوم أفرطوا ، وقوم فرطوا ، وخير الأمور أوسطها ، ثم قال :

فهذه طريقة قد درست وشجر أغصانها قد يبست

قلت : معنى درست : ذهبت واضمحلت ، ودروسها باندراس أهلها ، وشبهها بالشجر لأنها أصل وفروع ومادة، ويبس أغصانها يؤدي إلى عدم ثمرتها ، ولا يكون إلا لما دخل على أصلها من الاختلال ، إما من جهة المريد ، لعدم صدقه ، أو من جهة الشيخ لعدم كماله .

ثم قال :

كانت إذن مواردا شريفه فاستبدلت مذاهباً سخيفه

قلت : كانت طريق التصوف مشارب ومناهل شريفة ، من شرب منها شربة المحبة لا يظمأ بعدها أبدا ، كانت إذا شرب المريد من خمرة شيخه سكر ، وصحا ، وفنى عن أوصافه المذمومة ، وبقي بأوصاف محمودة، فاستبدلت تلك الطريقة بمذاهب سخيفة، أي قبيحة خسيسة، يسلكها كل سخيف خسيس ، والخير لا ينقطع إلى أن يأتي أمر الله ، وقال الله تعالى — ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها(١) — فقال :

قد أسست على صحيح العقل وأسها الآن بمحض الجهل

قلت : كانت طريق التصوف مؤسسة على الكتاب والسنة وإلهامات العارفين الذين تنورت عقولهم ، وانصقلت مرآة قلوبهم ، فتجلى فيها ما كان حقاً ، وزهق منها ما كان باطلا ، فكانت طريقتهم مبنية على التحقيق ، ثم صارت مؤسسة على التحديس والتخمين ومجرد التقليد ، بلا ذوق ولا وجدان ، فادعاها كل جاهل ولهان بحب الدنيا سكران ، نسأل الله العصمة من مواطن الخذلان ، فقال :

يدعى الذي يمشي عليها سالك وسالكوها اليوم حرب هالك

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٠٦ .

قلت : السالك هو الذى يرى الخلق ويستدل بهم على الحق ، والمجذوب هو الذى يرى الحق ويستدل به على الخلق ، والسالك المجذوب هو الذى يرى الخلق بعين الجمع ، لا يحجبه خلق من حق ، ولا حق عن خلق ، وقد تقدم فى محله ، فكانت طريق القوم يسمى الذى دخل فيها سالكا ، أى سائرا إلى الله ، قال الناظم فى زمانه :

. . . . وسالكوها اليوم حزب هالك

لما رأى فيهم من الخلل ، ثم قال :

بها عاش القوم بخير عيشه فصيرت بعدهم معيشه

قلت : كانت طريق التصوف من دخل فيها حييت روحه بمعرفة الله ، وطابت حياته بذكر الله ، فعاش عيشة طيبة ، قال تعالى — من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة(١) — فالحياة الطيبة هى الغنى بالله .

وقال السرى السقطى : من عرف عاش ، ومن مال إلى الدنيا طاش ، والأحمق يغدو ويروح بلاش(٢) اهـ .

ثم صارت عند قوم حرفة ومعيشة ، يتمعشون بها ، ويتخذونها شبكة يصطادون بها الدنيا والجاه(٣) ، والعياذ بالله ، ثم قال :

وكانت تضاهى الكوكب المنيرا والآن أضحت حائطا قصيرا

قلت : كانت طريق القوم رفيعة القدر ، عالية الشأن ، « تضاهى » أى تشابه وتحاكى الكوكب المضى فى الرفعة والإشراق ، لما يظهر على أهلها من شروق الأنوار ، وابتهاج الأسرار ، فكان لا يدخلها ولا ينتسب إليها إلا الأخيار من الزهاد والعباد ، الذين علت همتهم ، وصلح قصدهم ونيتهم ، والآن صار ينتسب إليها الأشرار والفجار ، فتجد فيها هذا قائداً وهذا باشا ، وهذا حرصى ، وغير ذلك ، فنهم من يتخذها حصنا يتحصن بها من عواقب ظلمه ، يظن ذلك ينفعه بزعمه ، ومنهم من يتخذها حرفة ، فصارت كالحائط القصير(٤)

(١) ٩٧ : من سورة النحل .

(٢) أى بلا شىء ، ولفظ « من عرف عاش » : هكذا هو بالأصل الذى بين أيدينا ، ولعله : « من عرف الله عاش » .

(٣) هذا فى وقته وزمانه ، أما الآن فنعوذ بالله من الفجور واستحلال الحرام .

(٤) فإن الحائط القصير يثب عليه كل من هب ودب .

يتخطاه القوى والضعيف ، وسبب ذلك عدم سقوطهم على شيخ التربية ، إذ لو وجدوه لأمرهم بخرق عوائد أنفسهم ، فيفرون منه ، لكنهم انتسبوا للأموات ، ووجدوا راحة نفوسهم ، فبقوا مع عوائدهم ، فازداد حجابهم والعياذ بالله ، ثم قال :

إذ صار لا يعلم منها إلا   أكلا ورقصا وغنى وسؤلا

قلت : الحصر فى قوله « لايعلم منها » الخ يقتضى أن الطريق الموجودة فى زمانه ، ليس فيها علم ولا حال ، ولا ذوق ، ولا معرفة ، ولا شهود ، وإنما يعرف منها الأكل والرقص والغناء والسؤال .

وقال الشيخ عبد الوارث : لم يبق منها إلا الأكل بلا صيام ، والرقص دون أحوال ، والتواجد بلا وجد ، والتملق لأنفسهم وهواهم وسلاطينهم اهـ

وإنما كانت طريق القوم مقصودة لتهذيب القلوب ورياضة النفوس ، والتخلص من أوصاف البشرية ، والتخلق بأخلاق الروحانية ، ومعرفة الشهود والأدب مع الملك المعبود ، وقد يوجد فيها ما ذكره الناظم ، لكنه لم يكن مقصوداً ، وإنما كان دواء ولعل الناظم تحقق ذلك من فقراء زمانه بأمارة ، وإلا فالتسليم لأهل النسبة أولى كما تقدم ، ثم قال :

وكانت على الإنصاف والنصيحة (١)   فهى على الإسراف والفضيحة (٢)

قلت : كانت طريق القوم مبنية على الإنصاف ، فكان أربابها ينصفون من أنفسهم ، ويرجعون إلى الحق ، ويقبلونه من قائله كائنا من كان ، وكانوا يتناصحون : ينصح بعضهم بعضاً ، وينصح جميع المسلمين ، كل من يلقاهم أرشدوه ، وعلى الله دلوه ، ثم صارت مبنية على الإسراف فى الكلام ، وفى كل شىء ، ترى أحدهم يتكلم ألف كلمة يقضى فائدة واحدة ، وصارت فضيحة ، إذا نصح أحدهم عنف وغضب وجهه ، وأغلظ فى القول ، حتى يفضح

---

(١) قديماً .

(٢) الآن ، وذلك كما قلنا فى زمانه ، فكيف يكون وصفه لمتصوفة زماننا لو رآهم : الذين لا هم لهم إلا الأكل والرقص كرقص اليهود حول عجلهم . ونسو أن التصوف علم وسلوك وأدب .

من ينصحه ، وقد قالوا : « من نصحك وحدك فقد نصحك ، ومن نصحك مع الناس فقد فضحك » والله تعالى أعلم ، ثم قال :

تعرف بالخلق والإيثار   والآن بالحقد ، وبالإقتار

قلت : كانت طريق القوم يعرف أهلها بالأخلاق الحسنة ، كالحلم والسخاء والإيثار ، وهو الإعطاء من الإقتار (١) كما قال الشاعر :

ليس العطاء من الفضول سماحة   حتى تجود وما لديك قليل

وكان من أخلاقهم أيضاً التواضع ، وسلامة الصدور ، وحسن الخلق مع كل مخلوق ، ثم تبدلت هذه الأخلاق بالحقد ، والحسد ، والكبر ، والبغض ، والغضب ، والقلق ، والشح ، والبخل ، والترفع ، وهو الأشار (٢) ، فصار المنتسبون يبغض بعضهم بعضاً ، ويحسد بعضهم بعضاً لتمكن حب الجاه والدنيا من قلوبهم ، نسأل الله السلامة من الجميع ، ثم قال :

وكانت أجل غبطة وخطه   والآن فهي بدعة وخلطه

قلت : كانت طريق القوم أجل ما يغتبط ، أي يفرح بها وينافس فيها ، لأنها كانت طريق الوصول إلى الغناء الأكبر ، قال تعالى ـ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون (٣) ـ وكانت أجل خطة ، أي حرفة وأرفع رتبة ، إذ لا طريق أرفع منها ، فصارت بعد ذلك بدعة وتخليطا لقلة أهل الصفا ، وبالله التوفيق ، ثم قال :

كانت على مجرد الصيام   والآن في مجرد الطعام

قلت : كانت طريق التصوف مبنية على تصفية القلوب ورياضة النفوس بخرق عوائدها وتحكيس مألوفاتها ، فمن كان طبعه نهمة الطعام أمروه بالصيام ، ومن كان مولعاً بالكلام أمروه بالصمت ، ومن كان مولعاً بجمع الدنيا أمروه بالزهد ، ومن كان مبتلى بالجاه أمروه بالخمول ، وهكذا ، وليست طريقتهم محصورة في الصيام ولا في غيره ، بل الشيخ كالطبيب عامل كل واحد بما فيه دواء نفسه والسلام ، ثم قال :

---

(١) أي مع القلة ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل الصدقة جهد المقل ، وابدأ بمن تعول » رواه أبو داود والحاكم .

(٢) الأشار : صاحب الأشرة ، وهي : البطر .

(٣) سورة المطففين ، الآية : ٢٦ .

في السماع كان غلق الباب والآن عند جفن جواب(١)

الجفنة هي : القصعة الكبيرة ، والجوابي جمع جوبة ، وهي حفرة كالصهريج ، شبهت بها القصعة الكبيرة .

قلت : قد تقدم أن السماع إنما هو رخصة ، ويشترط فيه الإخوان والزمان والمكان ، فإذا كان وقت السماع أغلقوا الباب لئلا يدخل معهم من ليس بأهله ، وتقدم أيضاً أن الأكل ، ينبغي فيه فتح الباب ليدخل من يحتاج إلى الأكل ، وفي ذلك الدلالة على الكرم وسماحة النفس وغنى القلب وعدم الشح والحرص .

وقال الناظم في فقراء وقته : إنهم عكسوا الأمر ، ففتحوا الباب عند السماع ليجمعوا عليهم الناس ، وأغلقوها عند الطعام حرصاً وشحا ، نعوذ بالله من ذلك ، ثم قال :

وقولنا الشيوخ والإخوان هم الذين سلفوا وبانوا
ماتوا ولما يتركوا من وارث إذ هؤلاء القوم كالبواعث

قلت : قد تقدم أن الأرض لا تخلو ممن يقوم الله بحجته، وراجع ما تقدم لنا عند قوله « إن الذي سألت عنه مات . . . . »

قال الشيخ زروق رضي الله عنه . وشبه هؤلاء بالبراغيث من وجوه .

أحدها : ما هم عليه من الرقص والتطاير كالبراغيث .

الثاني : ما هم فيه من الإذاية والتنغيص لمن جاوروه ، تارة بالغيبة وتارة بغيرها .

الثالث : خساسة همتهم باعتبار سكنى المواضع المزبلة(٢) والاشتغال بالأكل دون غيره مع ظهورهم بالضعف والمسكنة(٣) . انتهى .

---

(١) ومنه قوله تعالى ـ يعملون له ما يشاء من محاريب، وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، الآية : ١٣ من سورة سبأ ، والجفنة ، هي ما يوضع فيه الطعام ، والمقصود أنهم الآن لا يتبعون الدين ، وإنما يتبعون الجفان المليئة بالطعام ، ونسأل الله السلامة .

(٢) المزبلة: المتفرقة والبعيدة والمقصود: أنهم ليسوا بمجتمعين، إنما هم متفرقون في كل شيء وإن كانت بالباء ، المزبلة ، فالمقصود أنهم يسكنون الأماكن القذرة ، وذلك لإظهار الفاقة وشكاية الخالق للخلق ، والعياذ بالله تعالى .

قلت : وقد تقــدم ما فى الرقص فى باب السماع محرراً وتعظيم أهل النسبة مطلوب ، وحسن الظن واجب أو مندوب ، والتسليم وقاية ، والانتقاد جناية ، وتأمــل ما وقع لابن هارون من القراد حيث نقصه فى باطنه ، فسلبه من ساعته ، وفقد ما كان عنده من العلوم والأنوار حتى تاب إلى الله وذهب إليه وتحلل منه ، والقصة مذكورة فى طبقات الشعرانى ، وكذلك قصة الفقيه البلقينى مع بائع الحشيش ، حيث اعترض عليه بقلبه : ففقد علمه وحاله حتى تاب وأمره أن يجلس معــه ويأتى بخبز ولحم ، حتى كل من اشترى الحشيش أطعمه الفقيه اللحم والخبز ، وهذا كله وبال الإنكار على أهل النسبة ، والله تعالى أعلم ، ثم قال :

فكل ما اليوم عليه الناس من مدعين الفقر فيه باس

قلت : هذه الكلّيّة لا تسلم له ، لصحة نقيضها ، وهى الجزئية السالبة ، وهو بعض ماعليه الناس من الفقر لا بأس به ، قال صلى الله عليه وسلم « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى يأتى أمر الله(١) » .

قال المحققون من العلماء : إن هذه الطائفة مؤلفة من ثلاث فرق : أولياء ، وعلماء ، ومجاهدين ، فهؤلاء الفرق لا تنقطع حتى يأتى أمر الله ، وكأن الناظم لما رأى كثرة التخليط عمم الأمر .

وقال الشيخ عبد الوارث : كل ما هم عليه من محدثات الامور ففيه بأس ، أى عيب ، فالباس من غير همز ، هو : العيب ، وبالهمز هو الحديد انتهى .

لكن: ما قاله فى تفسير الباس غير صحيح ، إذ الباس هو الحزم والشدة، بهمز وبغير همز، ثم ذكر العلة ، فقال :

إذ نقضوا الأصول والأركانا وصيروه فى الورى مهانا
وهدموا بنيانه المشــيدا وصيروه مخلا ومخدا

= صوفية اليوم فيهم من البراغيث قرب
فيهم صفات ثلاث أكل ورقص ودب
هذا الذى قصده الشيخ زروق رحمه الله ورضى عنه .

(١) رواه البخارى ، والحديث عدة طرق وروايات ، وهو موجود فى أغلب كتب الحديث .

قلت : نقض الأصـول والأركان هو : إهمالهـا والعمل بأضدادهـا .

وأصول التصوف خمسة :

تقوى الله فى السر والعلانية .

واتباع السنة فى الأقوال والأفعال .

والإعراض عن الخلق فى الإقبال والإدبار .

والرضى من الله فى القليل والكثير .

والرجوع إلى الله فى السراء والضراء .

هكذا قال الشيخ زروق فى بعض تآليفه ، وقال فى شرحه لهذا المحل : «وأما نقضهم الأصول فبإثبات ما ليس منها فى محلها ، كاستبدالهم الزهد بالحرص ، والورع بالطمع ، والتقوى بوقعة الربانية ، (أى ما فيه ربآ) ، والأركان كالأصول ، مثل الجوع ، والسهر ، والصمت ، وكثرة الأعمال فنقضوا ذلك بوجود : البطالة ، والكسل ، وجعلهم لكل ما اثبتوه تأويلا ووجها ، يرونه عين الهدى والصراط المستقيم ، نسأل الله العافية ، وإنما «صيروه مهانا» أى الطريق ، بما أظهروا فيه من خلاف الحق الذى لا يعرف به أحد إلا استخف بطريقه ، وهذا أمر واضح من هذه الأزمنة ، حتى لا يكاد أحد من المعترضين فى هذه الأزمنة يعتقد أحداً ، بل ولا طريقة صحيحة، ويحتج لذلك بأن فلانا المستظهر بكذا ظهر منه كذا ، وفلانا وقع منه كذا ، وهذا من أولئك ، فالله حسيب المغيرين والفاتحين الباب بأعمالهم ، وإلا فالمنكر يستحق الإنكار معذور ، بل مأجور ، فاعرف ذلك» . انتهى كلامه .

وقوله : «وصيروه محملا ومخمدا» أى لما هدموا أصوله وضيعوا حقوقه ، صار عند الناس مخمولا لا يعرف ، ومخموداً لا يظهر لما أدخلوا فيه من التخليط ، والله تعالى أعلم .

ثم تمم أوصافه ، فقال :

ونثروا الفروع والأصولا وجعلوا معلومها مجهولا

قلت : النثر هو الطرح ، يعنى أنهم لم يأخذوا بأصل ولا فرع ، لم يتمسكوا من الطريقة بشىء إلا بمجرد النسبة ، فصيروا ما كان معلوما منها عند أهلها مجهولا عندهم حيث لم يعرفوه .

وقال الشيخ زروق : معناه أنهم لم يأتوا بالطريقة بأصل ولا فرع ، بل عملوا منها بعض وتركوا بعضاً ، فاشتبهت أمورهم على من ينظر إليهم ، لأنه يجد من الطريقة شيئا يدعوه للاعتقاد ، ويجد من مخالفتها أشياء يدعوه للانتقاد ، وهو من أعظم المصائب ، ثم قال :

واحتسبوا فيها بغير حسبه   صيروها ضحكة ولعبه

قلت : الاحتساب الأول من الحساب ، يعني أنهم حسبوا من الصوفية من غير حسبة ، أي نية صادقة .

وقال الشيخ زروق : معناه أنهم عدوا منها ما ليس بقربة ، واعتقدوا أنه قربة، كالرقص ونحوه من توابع السماع والاجتماع ، وهو عين الضلال . انتهى .

وفيه مقال عند أهل الذوق .

وقال الشيخ عبد الوارث : أي نسبوا إليها من غير أن يظهر عليهم شيء من آثارها الدالة على صدق نسبتهم ، فصيروها بذلك ضحكة ولعبة ، وأما الطريقة فعلو شرفها وعلو مرتبتها باقية ، ثم قال :

وجعلوها للغني مغرما   والفقير نهبة ومغنما

قلت : لما لم تكن لهم نية صادقة في طلب مولاهم ، صيروا طريقتهم مغرما للغني منهم ، يغرمونه وينصفونه(1) أحب أم كره يتسببون له بأدنى شيء ويأخذون منه كرها وحياء مالا يعطيه طوعا وسخاء ، وصيروها للفقير منهم نهبة ومغنما ، أي ينتهب الفقير من الغني ، ويغتنم ما يأخذ منه وليس قصده شيئاً آخر ، وهذه في غاية خسة الهمة ، ثم قال :

وافتضحوا واصطلحوا لديها   فصار ما كان لها عليها

قلت : لما لم يتحقق لهم من الطريقة إلا مجرد النسبة من غير عمل ولا صحبة ، لم تظهر عليهم نتيجة الطريقة ، فافتضحوا .

من ادعى بما ليس فيه   فضحته شواهد الامتحان

---

(1) أي يشاركونه ماله .

وقوله : « وافتضحوا واصطلحوا » أى على سكوت بعضهم عن بعض ، فلا يغير أحد على أحد ، وهذا سبب الهلاك ، قال تعالى ـ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه[1] ـ وقال بعضهم : ما زالت الصوفية بخير ما اختلفوا ، فإذا اتفقوا فلا خير فيهم ، وقد تقدم تأويله والكلام عليه عند قوله :

« مذاهب الناس على اختلاف . . . ومذهب القوم على ائتلاف »

وقال الشيخ عبد الوارث فى تفسيره : قوله اصطلحوا أى : اسكت عنى أسكت عنك ، لما روى عن بعض أمثالهم أنه أتى إلى قوم جاهلين، فقال لهم: أنا جبريل، فأتاه ذوو العاهات والمرضى فمسح عليهم ، ويجدون لذلك راحة ، فأقبلوا عليه بأنفسهم وأموالهم ، فسمع به بعض أهل العقول ، فأتى إليه ، فقال : إنى أريد أن أخلو بك ، فخلا به ، فقال له : يا هذا ما وجدت على من تكذب إلا على جبريل ، فقال : ما ضرك بكذبى ، اذهب أنت إلى قوم آخرين ، وقل : أنا ميكائيل ، واتركنى والقوم الجاهلين .

هذا جزاء الجهلة ، ولو أنكر بعضهم على بعض لفر الناس عنهم ، وتنغصت عليهم دنياهم ، انتهى .

ثم قال :

الولائم :

وكان الشيخ أبو مدين رضى الله عنه إذا عرض أحد على أصحابه فى حضور وليمة يشبعهم من طعامه قبل أن يحضروا الوليمة ، لئلا يظهر عليهم الشره والحرص ، فتنتقض النسبة فهذا منه غيرة على النسبة أن تمتهن ، جزاه الله عن طريق القوم خيراً ، إلا إذا كانت حال غالبة ، فلا كلام على صاحبها ، والله تعالى أعلم ، ثم قال :

حق لمن كان عليهم منكرا إذ كل ما يبصر منهم منكرا

قوله « حق » يحتمل أن يكون خبراً عن مبتدأ مضمر ، أى الإنكار حق ، وأن يكون مبتدأ حذف خبره ، أى حق لمن أنكر على الفقراء ثابت ، والأحسن أنه خبر عن مصدر

---

(1) ٧٩ سورة المائدة .

من أن فالفعل ، أى حق لمن كان منكراً على الفقراء أن يفعل ذلك كقولك: حق لك أن تفعل كذا وكذا ، أى فعلك كذا وكذا حق .

قلت : قد تقدم أنه لا ينكر على الفقير إلا ما كان محرماً مجمعاً على تحريمه، ولا تأويل فيه وعلى تقدير التغيير يكون برفق ولين ، وإذا كان فيه حد أو أدب يكون المؤدب له كالعبد يؤدب ابن سيده ، ولا تسقط حرمة النسبة عنه بسبب ما صـــدر منه ، وهذا التغيير إنما هو لمن هو مكلف به كقضاة العدل وأهل الحسبة الذين يتقون الله ، وإلا فالسلامة فى التسليم .

وقد قال شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه : والمعترض على الفقراء كمن يدخل يده فى الغيران : الغار الأول لا يجد فيه شيئاً ، والثانى كذلك ، وقد يصادف لفعة تلدغه فيهلك من ساعته ، اه . بالمعنى .

وهذا من الناظم تحامل ، وفيه تسليط على الجانب ، فالصواب حذفه، ولا سيما العارف لا يرى إلا الكمال . والعارف وجوه من التأويلات والمحامل ، بل لا يقع بصره إلا على الكمال

يكمل نقصان القبيح كماله ... فما ثم نقصان وما ثم باشع

وكل قبيح إن نسبت لحسنه ... أتتك معانى الحسن فيه تسارع

لو علموا ما جهلوا ما صاروا ... حيث انتهوا ترمقهم أبصار

يعنى أنهم لو علموا من طريق الصوفية ما جهلوا منها ما رمقتهم الأبصار ، حيث ما انتهوا وأينما ظهروا .

قلت : وفيما قاله نظر ، لأن من خرق عوائد نفسه وخرج عن أبناء جنسه قطعا ترشقه الأبصار ، ويكثر عليه الصياح والإضرار ، سنة ماضية فى حق الصادقين ، نعم من بقى من الفقراء أو المنتسبين منهم فى زيهم لم ينظر إليه أحد ، وهو دليل برودته

فقد قالوا : الداخل على الله منكور ، والخارج إلى الناس مبرور. وقالوا أيضاً : مدح العوام للخواص هجنة : أى نقص فيهم ، وتسليط الناس على الأولياء فى بدايتهم سنة جارية وما ذلك إلا لخروجهم عن عوائدهم وارتحالهم عن عالم حسهم ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

لو لم يكن بعض لبعض عاكس　　　ما لقبوا بعصبة الكساكس

قلت : مذهب الصوفية الألفة والموافقة قلباً وقالباً ، فقلوبهم قلب واحد ، يحب بعضهم بعضاً ، ويخدم بعضهم بعضاً . وقد تقدم شروط عقد الاخوة عن الغزالى فيما تقدم ، فالصوفية على قدم الصحابة ، قال تعالى فى حقهم ـ أذلة على المؤمنين[1] ـ أى متعاطفين أذلاء على المؤمنين ـ أعزة على الكافرين[2] ـ أى غالبين عليهم شدة وغلظة ، وقال فى الآية الأخرى ـ أشداء على الكفار رحماء بينهم[3] ـ فكل من لم يكن على هذا المذهب فلا نصيب له فى طريق القوم ، وقال الناظم فى فقراء عصره : إنهم متعاكسون بعضهم لبعض ، أى متنافرون ، كل واحد بعكس رأى صاحبه ، لشدة نفرة قلوبهم ، وذلك لبقاء حب الدنيا فى القلوب ، فلو خرج منها حب الدنيا لتطهرت وصفت وتعاطف بعضها على بعض ، فلو لم يكونوا متعاكسين لايجتمعون إلا على حظ بطونهم ، ما سماهم الناس بعصبة الكساكس . وصاروا يقال لهم « الكساكسية » .

قلت : ولأجل هذه العلة كان بعض الشيوخ يمنع أصحابه من حضور [4].

رزقنا الله من حسن الظن به وبأوليائه وبسائر عباده الحظ الأوفر ، بمنه وكرمه آمين . ثم هذه الكلية التى ذكرها لا تسلم له ، والله تعالى أعلم .

ثم قال رحمه الله :

عار لمن لم يرض العلوما　　　ويعلم الموجود والمعدوما
ولم يكن فى بدءه فقيها　　　وسائر الاحكام ما يدريها
والحد والأصول واللسانا　　　والذكر والحديث والبرهانا
ولم يكن أحكم علم الحال　　　ولا درى مقاصد الرجال

(١و٢) ٥٤ من سورة المائدة .

(٣) ٢٩ من سورة الفتح .

(٤) هكذا بالأصل الذى راجعنا عليه ولعلها « من حضور هؤلاء » والله أعلم .

ولم ينزه صفة المعبود	ولا درى مراتب الوجود
والنفس والعقل معاً والروحا	ويطرى منه صدره المشروحا
وعلم سر النسخ والمنسوخ	أن يتعاطى رتبة الشيوخ

قلت : قوله « عار » خبر مقدم « وأن يتعاطى » مبتدأ مؤخر ، أى تعاطى رتبة الشيوخ والتقدم للشيخة وخة «عار» أى عيب على من «لم يرض العلوم» بضم الراء، أى يتمهر فيها حتى تصير طوع يده ليكون فى أموره على بينة من ربه ، ويعلم الموجود الحقيقى ، وهو الحق الواجب الوجود ، والمعدوم حقيقة ، وهو ما سوى الله ، ولم يكن فى ابتداء أمره فقيها ، إذ لا يحل لامرىء أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه ، وهو أيضاً لا يدرى سائر الأحكام ، فلا يفرق بين ما يحل له ويحرم عليه ، فقد يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف ، وهو أيضاً لم يدر حدود الأشياء ورسومها ، وكأنه يشير إلى فن المنطق ، ولم يدر أيضاً فى الأصول ، والمراد أصول الفقه ، كمعرفة الواجب والمندوب والمكروه والحرام ، والخاص والعام ، والمطلق والمقيد ، والقياس والإجماع ، وغير ذلك مما هو مقرر فى فن علم الأصول ، ولم يدر أيضاً علم اللسان ، وهو العربية والتصريف واللغة ، وفن البيان ، ولم يدر أيضاً معانى الذكر أى القرآن العظيم ليتمكن من التدبر فيه ، ولم يدر أيضاً حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، إذ التصوف مبنى على الكتاب والسنة وإلهامات العارفين(١) .

وقال الجنيد رضى الله عنه : « علمنا هذا مؤيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يكتب الحديث ويجالس العلماء لا يقتدى به فى هذا الشأن اه » .

ولم يعرف أيضاً البرهان ، أى علم البرهان ، وهو علم العقائد التوحيدية ، وهو علم الكلام ، فتكون عنده العقائد برهانية ، ثم تصير بعد ذلك عيانية ، ولم يكن أيضاً أحكم ، أى أتقن علم الحال والمقام ، بحيث يكون سلك طريق الأحوال ، ثم سكن فى المقامات ، وهذا هو المسمى بالسير . فمقامات اليقين ينزل فيها الفقير أولا بالحال ، ثم تصير مقاما .

قال فى الحكم : « حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال ، وحسن الأحوال من التحقق

---

(١) وإلهامات العارفين نفسها ما لم تكن مقيسة على الكتاب والسنة، فإن العارف لا يعمل بها ، وهذا أمر مشهور بين الصوفية المتمسكين بالدين رضى الله عنهم .

فى مقامات الإنزال ، فلا بد أن يكون سلك مقام الزهد حالا ، ثم مقاما ، وكذلك : الورع والرضى ، والتسليم ، والمراقبة ، والمشاهدة ، وغير ذلك ، وهذا هو الذوق الصريح ، وأما من كان يأخذها من الكتب ويقلد فيها فلا تصح مشيخته ، وضرره أكثر من نفعه ، ولم يكن أيضاً درى مقاصد الرجال فى عبارتها وإشارتها ورموزها وألغازها ومقاصدهم ، هل إصلاح الظواهر أو البواطن ، أو هما معاً ، ولم ينزه أيضاً صفة المعبود عن الحدوث أو الحلول أو الاتحاد أو غير ذلك من النقائص ، ولا درى أيضاً مراتب الوجود من : الملك ، والملكوت ، والجبروت ، إذ الترقى إنما يكون فى هذه العوالم ، فيترقى من شهود الملك إلى الملكوت ، إلى الجبروت ، وقد تقدم تفسير هذه العوالم عند قوله :

« وعلموا مراتب الوجود » اه

ولم يدر أيضاً معنى : النفس ، والعقل ، والقلب ، والروح ، والسر ، وقد تقدم لنا أن المحل واحد ، وهو الروح ، وهى التى تتطور إلى العقل وما بعده باعتبار المجاهدة والرياضة ، وقد تقدم بيان ذلك مراراً .

ولم يدر أيضاً معنى الصدر المشروح ، وما علامة شرحه ، وعلامة شرحه ما قاله عليه الصلاة والسلام : . . . « التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والتزود لسكنى القبور والتأهب ليوم النشور » اه

ويرجع إلى اليقظة من الغفلة ورفع الهمة عن الدنيا وما فيها ، وإنما اشترطت معرفة الصدر المشروح ، لأن الشيخ يشترط فيه أن تكون له فراسة يطلع بها على أحوال البواطن فيعرف المشروح من المقبوض ، وفى بعض النسخ ولم « يدر منه » أى من نفسه ، وفى بعضها « معنى » وهى أحسن ، ولم يدر أيضاً سر الناسخ من المنسوخ فى الكتاب والسنة ، وهذا من شأن أهل التفسير ، وهو مقرر فى محله .

ثم هذا الذى ذكره الناظم لا يشترط منه شئ إلا علم الأحوال أو ما يلزمه فى نفسه من العلم الضرورى ، وقد تقدم هذا المعنى مستوفياً عند قوله :

« وعند ما قال بهذا المطلب قالوا جميعاً : أنت شيخ الركب »

فراجعه ثم إن شئت ، وبالله التوفيق ، وهو الهادى إلى سواء الطريق .

ثم قال :

يا عجبا من جاهل مبداه   في رتبة الكون ومنتهاه

قلت : مبدأ الإنسان في رتبة الكون ومنتهاه التقدم له والتأخر عنه ، لجيش الأرواح سابق على الكون ، وباق بعد طيه فهو أول الكون ومنتهاه ، فالإنسان شبه بالصمدانية الأزلية ، لأن فيه الأولية والآخرية ، والظاهرية ، والباطنية ، فروحه أول الكون وتبقى بعد فنائه . وهي ظاهرة بالإنسان إذ لا ظهور لها إلا به ، باطنة فيه ، وفيه سبع من صفات المعاني : القدرة ، والإرادة ، والعلم ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام كما في البخاري « إن الله خلق آدم على صورته[1] » وفي رواية غيره « إن الله خلق آدم على صورة الرحمن » أي على صفته في الجملة ، وإن كانت أوصاف الباري عظيمة لا تشبه أوصاف العبد ، لكن لها شبه ونموذج في الجملة .

وقال صاحب الرموز في فتح الكنوز ، على قوله صلى الله عليه وسلم « من عرف نفسه عرف ربه » قد ظهر لي من سر هذا الحديث ما يجب كشفه ويستحسن وصفه ، وهو : أن الله سبحانه وضع هذه الروح في هذه الجثة الجثمانية لطيفة لاهوتية مودعة في كثيفة ناسوتية دالة على وحدانيته تعالى وربوبيته ، ووجه الاستدلال من عشرة أوجه :

الأول : أن هذا الهيكل الإنساني لما كان مفتقراً إلى محرك ومدبر ، وهذا الروح يدبره ويحركه ، علمنا أن هذا العالم لا بد له من محرك ومدبر .

الثاني : لما كان مدبر الجسد واحداً ، علمنا أن مدبر هذا العالم واحد ، لا شريك له في تدبيره وتقديره ، قال تعالى ـ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا[2] ـ .

الثالث : لما كان لا يتحرك هذا الجسد إلا بتحرك الروح وإرادته ، علمنا أنه لا يتحرك كائن بخير أو شر إلا بتحريك الله وقدرته وإرادته .

---

(1) سبب هذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يضرب عبده على وجهه فقال له : « إن الله خلق آدم على صورته » أي على صورة هذا الإنسان ، فالضارب له كأنما ضرب وجه أبيه آدم ، وما ورد من كلام الصوفية في معنى هذا الحديث ـ في اعتقادي ـ أنه على سبيل الإشارة والرمز لا الحقيقة ، والله أعلم .

(2) ٢٢ سورة الأنبياء .

الرابع : لما كان لا يتحرك فى الجسد شىء إلا بعلم الروح وشعورها ، لا يخفى على الروح من حركات الجسد شىء ، علمنا أنه تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

الخامس : لما كان هذا الجسد لم يكن فيه شىء أقرب إلى الروح من شىء ، علمنا أنه تعالى قريب إلى كل شىء ، ليس شىء أقرب إليه من شىء ، ولا شىء أبعد إليه من شىء ، لا بمعنى قرب المسافة ، لأنه منزه عن ذلك .

السادس : أنه لما كان الروح موجوداً قبل الجسد ، ويكون موجوداً بعد عدمه ، علمنا أنه تعالى موجود قبل خلقه ، ويكون موجوداً بعد عدمهم ، ما زال ولا يزال ، وتقدس عن الزوال .

السابع : لما كان الروح فى الجسد لا تعرف له كيفية ، علمنا أنه تعالى مقدس عن الكيفية .

الثامن : لما كان الروح فى الجسد لا تعرف له كيفية ، ولا أينية ، بل الروح موجود فى سائر الجسد ما خلا منه شىء فى الجسد ، كذلك الحق سبحانه موجود فى كل مكان(١) وتنزه عن المكان والزمان .

التاسع : لما كان الروح فى الجسد لا يحس ولا يجس ولا يمس ، علمنا أنه تعالى منزه عن الحس والجس والمس .

العاشر : لما كان الروح فى الجسد لا يدرك بالبصر ، ولا يمثل بالصور ، علمنا أنه لا تدركه الأبصار ، ولا يمثل بالصور والآثار ، ولا يشبه بالشموس والأقمار ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

تنبيه : قد اشتهر على ألسنة كثير من الصوفية أن « من عرف نفسه عرف ربه» حديث ، وليس كذلك ، وإنما هو من كلام يحيى بن معاذ الرازى ، حسبما نص عليه الحافظ البدر الزركشى ، والحافظ السيوطى فى « الدرر المنتثرة فى الأحاديث المشتهرة » ، ونصه : حديث

---

(١) قوله « فى كل مكان » نوع من التقريب العقلى ، إذ لو قلنا « فى كل مكان » لكان له مكان ، وهو سبحانه وتعالى كما قال الشيخ نفسه منزه عن المكان والزمان ، فافهم ترشد .

« من عرف نفسه عرف ربه » قال النووي غير ثابت ، وقال السمعاني : هو من كلام يحيى ابن معاذ الرازي اهـ .

وكل فن يرجع فيه لاربابه، والصوفية رضى الله عنهم لحسن ظنهم : كثيراً ما يتساهلون في الاحاديث ، هكذا كما قال الشيخ سيدى مسلم فى كتابه .

وإنما تعجب الشيخ من الجهل بهذين الامرين ، لان هذين الموقفين هما أصل التوجه والمعاملة ، ومظهر التحقيق والمواصلة ، وبالله التوفيق .

ثم قال متمما لما تعجب منه :

وكيف يهدى وهو لم يهدى لقد عدى ظلما وقد تعدى

قلت : من لم يأخذ أدبه من المتأدبين أفسد من اتبعه ، من لم يرب لا يربي، من لم يهد بنفسه لا يهدى غيره ، من لم يسلك الطريق لا يسلكها لغيره ، بل يتلف نفسه ومن تبعه ، «لقد عدا» أي جاوز الحد ظلما ، أي من جهة الظلم لقد تعدى طوره ، ولم يعرف قدره .

ثم قال :

من لم ينل مراتب الإراده كيف يوطى للهدى سجاده

قلت : من لم يحصل مراتب الإرادة ويسلكها جذباً وسلوكا «كيف يوطى» أي يبسط سجادة ويقعد عليها لهداية الناس ، فمن فعل ذلك فقد غر الناس ، من لم يصحب العارفين من أهل الكمال لا يغر بأولاد الرجال .

ثم قال :

كيف يدل طرق الاسفار من لم يزل فى جحره كالفار

قلت : الجحر بتقديم الجيم هو الغار . وقد تقدم أن الشيخ بمنزلة شيخ الركب ، فلا بد أن يكون عارفا بالمنازل والمناهل ، قد سلك الطريق وعرفها ، وعلم وعرها وسهلها ، وأما من كان لازما بيته قاعداً فى جحره كالفار ، فلا يمكن أن يدل على الطريق ، لانه يتلف من تبعه قطعاً .

قال فى بداية السلوك :

أتكتفى بالوصف فى السير فالوصف لا يغنى عن الخبير

قال الشارح بعد كلام العلماء : إنما نبهت على ما تصح به الوجهة إلى الله ، لا عن السر الذى تمتد منه الوجهة ، الذى لا يتصور الكشف عنه إلا لمن انفقأ الحجاب عن عين قلبه ، وكان له نصيب ميراث من فراسة نبيه صلى الله عليه وسلم فى أحوال صحابته ، فهذا العلم هو الذى لا يمكن التعبير عنه بالمقال ، ولا يصح الأمر حتى يؤمر وينهى ، ويعطى ويمنع ، ثم قال : أرأيت لو أن رجلا أو رجالا وصفوا لك الطريق من دارك إلى مكة ، وكتبوا لك كتابا فيه جميع المنازل والمناهل ، والمواضع المخوفة والمأمونة ، ثم تهت ، أينفعك ذلك الكتاب ، وقد أحاط بك بحر السراب ، وانقطعت عن حى الأعراب ؟ بل تدمن بالهلاك وكتابك فى يدك ، هذا فى الطريق الحسى ، فما بالك فى الطريق الباطنى المعنوى التى هى قليل خطارها ، كثير قطاعها ، اهـ . بالمعنى .

ومن هذا المعنى قالوا : « إن الميت لا يربى » لأن من مات لا يدل على الطريق بالفعل ، وقالوا : أيضاً الثدى الميت لا يرضع الولد ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

أليس هذا كله محال لم يستقم لشخص منه حال

قلت : الإشارة تعود إلى التقدم إلى الشيخوخة(١) من غير استحقاق ، وذلك عند أهل الحق محال ، لم يستقم لمن تبعه حال ، بل ضرره أقرب من نفعه ، لبئس المولى ولبئس العشير .

ثم قال :

يا قاصدا علم طريق السالف لا تقتدى بهذه الطوائف

ما منهم من علم المقصود منه ولا الوارد والمورود

لم يعرفوا حقيقة الطريقه فالقوم جهال على الحقيقه

فاحذرهم خشية يفتنوكا واترك سبيلا لم يزل متروكا

---

(١) أى إلى التقدم إلى أن تكون شيخ تربية .

قلت : هذا تحذير من منفقرة وقته ، يقول : يا قاصداً علم طريق الصوفية المتقدمين المحققين لاتقتدى بهذه الطوائف : الجهلة المبتدعين، فليس منهم من علم المقصود من الدخول فى طريق القوم ، ولا كيفية الورود، أى المرور عليها ، ولا موروودها أى مشروبها ما هو، إذ لا ذوق عندهم ، ولا حال ، وإنما الناس من عوام الجهال ، لم يعرفوا طريقة ولا حقيقة والجاهل لا يقتدى به ، ولا يكون إماما أبداً ، قال تعالى ـ قل هذه سبيلى أدعو إلى الله : على بصيرةأ نا ومن اتبعنى(١) ـ والجاهل لا بصيرة له .

فإن قلت : قد وجد كثير من الأولياء أميين، وكانوا أئمة يقتدى بهم فى الباطن .

قلت : مثل هؤلاء كانوا متعطشين إلى الله ، جادين فى طلب الحق ، فلما علم الله صدقهم دلهم على ولى من أوليائه ، فلما كشف الحجاب عنهم ، علمهم الله ما جهلوا ، فكانوا أعلم الناس بالله ، وقد قال بعضهم : ما اتخذ الله وليا جاهلا إلا علمه(٢) وغيرهم من فقراء الوقت لم يكن لهم ذلك فبقوا جاهلين ، ثم هذا الذى قاله الناظم ليس على التعميم ، إذ لا تخلو الأرض من قائم لله بحجته ، وشيخ التربية لا يخـــلو الزمان منه أبداً ، إذ لا يمكن أن يكون القطب إلا بعد التربية ، وهو لا تخلو الأرض منه ، كما هو مقرر عند أهل الفن ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

فإن غدا الأمر عليك مشكلا　　وشئت أن تعلمه مفصلا

فسوف ألقى لك قول الحاذق　　يفصل بين المدعى والصادق

يعنى إذا صار الأمر مشكلا عندك ، ولم تعلم الصادق من الكاذب ، والجاهل من العالم والمحق من المدعى ، والسنى من المبتدع ، واغتررت بظهور الكرامات ، وكثرة الاتباع ،

---

(١) سورة سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام ، الآية : ١٠٨ .

(٢) وقصة السيد / أحمـــد الفرغل مع ابن حجر مشهورة ، وذلك أن ابن حجر رأى الفرغل ماراً مع بعض تلاميذه ، فقال ـ فى سره ـ : ما اتخذ الله من ولى جاهل ، فكشف الله حاله للفرغل ، فلما رجع لقيه فرد عليه بقوله : اتخذنى وعلمنى يابن حجير « بالتصغير » ، فرجع عن إنكاره عليه . وفضل الله واسع . والله تعالى أعلم .

وكثرة الطعام ، ولم تدر بمن تقتدي ، فها أنا أخبرك وآتي إليك قول الطبيب الحاذق يحكم بين المدعي والصادق ، ثم ذكر ذلك القول الفاصل ، فقال :

قول الفقير : إني فقير فللظهور أبداً يشير

قلت : كون قول الفقير : « أنا فقير يشير للظهور » ليس على إطلاقه، بل فيه تفصيل .

قال الشيخ زروق رضي الله عنه : أما قول الفقير : أنا فقير فهو إشارة للظهور كما قال ، وذلك محمود ومذموم بحسب قصده ، وهو على ثلاثة أوجه :

أحدها : أن يقصد به التبري مما كان عليه من الجهالة والنفي ، ليكون له عوناً على عدم العود لما كان عليه ، وهذا أمر لا بأس به إن وقف على حده .

الثاني : أن يقوله يستنجد به من عسى أن يرجو فيه خيراً أو عاصياً متمرداً ، أو متذكراً يقظان ، أو مريداً متوجهاً ليكون له عوناً على البر والتقوى ، فهذا أيضاً لا بأس به إن لم يتعد به محله ، وعلامة صاحب هذين الوجهين : أن يقول ذلك مع انكسار وتبر واستغفار وحمد واستبشار .

الثالث : أن يقول ذلك بقصد التبجح والاستتباع ، وإظهار المزيد ، والتعزز بالنسبة والانتساب ، وطلب الرياسة وإشاعة الأمر في العموم ، والتعرض لكل أحد ، والتعريض به ، وشاهد الحال لا يخفى إلخ .

قلت : وذم من هذا وصفه لا يخفى ، وهو الذي يفسر به الناظم ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

وبسطه وليس غير عارف مخافة ليست من المعارف
وقبضه وليس ذا إراده فهو على غير طريق الساده

قلت : الغالب على العارفين البسط فرحاً بالله وبالوصول إليه ، والغالب على المريدين القبض ، لأنهم في محل المجاهدة والمكابدة ، فإذا رأيت الفقير انبسط وانشرح من غير وارد قبل تحصيل المعرفة بالله فبسطه وانشراحه مخافة وحمق ، ليست من المعارف ، إذ لا يليق بحاله إلا القبض ، إذ لاحظ للنفس فيه ، وإذا رأيته مقبوضاً ولم تظهر عليه أحوال الإرادة فاحذره ، فهو على غير طريق السادة المتقدمين ، ولا يلزم من الحذر الاستحقار ، فتعظيم النسبة مطلوب .

ثم قال :

وأخذه مما بأيدي الناس دون اضطرار فهو ذو إفلاس

قلت : أخذ المريد من أيدى الناس ، وسؤاله لهم من غير ضرورة ، تدل على إفلاسه . وأنه فقير بطنه ، يريد جمع الدنيا ، اللهم إن كان قصده إعانة شيخه أو فقير مثله ، فلا بأس به ، والحاصل أن الفقير لايقبض لنفسه إلا ما كان مضطراً إليه وإن قبض شيئا بلا ضرورة أخرجه عنه سريعا ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

ولبسه ما كان ذا اشتهار فسره عار عن الأسرار

قلت : لبس الفقير ما فيه الشهرة عند الناس ، إن كان بإذن من شيخه فلا عليه ، فإن الشيخ طبيب، وإن كان بغير إذن فلا يخلو من حظ، فإن النفس تحب أن تعرف ، وقد قالوا : خالفوا تعرفوا ، فلعلها تريد ميل القلوب ، فمن فعل ذلك فاحذره ، فإن سره خال من الأسرار والعياذ بالله ، لأن الصادق لا يحب أن يذكر ولا يظهر ، والسر لا يكون إلا مدفونا ، والله تعالى أعلم .

ثم قال .

وأكله من سائر المآكل دون انتهاء فهو غير واصل

قلت : الناس على ثلاثة أقسام :

قسم عوام ، لا توجه لهم ، فهم يأكلون كل ما تبيحه الشريعة .

وقسم عارفون واصلون ، تحقق فناؤهم وبقاؤهم ، فهم يأخذون من يد القدرة ، فهؤلاء أيضاً لا كلام عليهم .

وقسم مريدون متوجهون ، فهؤلاء ينبغى لهم ألا يتعاطوا كل ما تشتهى نفوسهم ، بل ينبغى لهم مخالفتها فى ذلك ، إذ لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين ، فإذا رأيت الفقير يأكل من سائر المآكل ، شهوات وشبهات، ولا يتحاشى من شىء ، وهو دون انتهاء فى المعرفة ، فهو غير واصل ، لا يأتى منه شىء ، ولا يحصل على طائل ، إلا أن يتوب ، والله تعالى اعلم .

ثم قال .

وسمعه مواقع الألحان بغير موت النفس فهو عان

قلت : قد تقدم الكلام على السماع ، وحاصله : أن الفقير إذا حصل له الفناء فى الذات ، وعرف كيف يسمع ، فالسماع فى حقه مطلوب ، لما فيه من زيادة الخمرة ، وإن النفس لما ماتت لا تميل إلا إلى الحضرة ، ولا تسمع إلا منها .

قال : بعض من صح سماعه : أنا لا أسمع من النغم إلا أنا أنا ، أو أنت أنت .

وقال الششترى : « أما بالله أنطق ، ومن الله أسمع ، فمثل هذا يزيد بالسماع ما لا يزيد بغيره ، ومن لم يبلغ هذا المقام فالسماع عليه مكروه أو حرام ، فمن رأيته يسمع الألحان ولم تمت نفسه فهو عان(١) أى فى عناء وتعب ، لا يزيده ذلك إلا بعدا ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

وحبه السماع لا محاله بقية فيه من البطاله

قلت : السماع إنما هو دواء ورخصة للضعفاء تقوية لحالهم ، فإذا حصل الشفاء استغنى عن الدواء ، فإذا رأيت الفقير يحب السماع ، ويميل إليه على الدوام ، فاعلم أن فيه بقية من البطالة ، والبطالة ضد المجاهدة ، ومن لا مجاهدة له لا مشاهدة له ، ومن لا سير له لا وصول له ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

ورقصه فيه بغير وارد يسلبه عنه فقير وارد

قلت : قد تقدم الكلام على الرقص والتحرير فيه عند قوله فى السماع ، والرقص فيه دون هجوم الحال ، إلخ ما يغنى عن إعادته .

فرقص الفقير بغير وارد يسلبه عن الشعور بنفسه ، فهو غير وارد ، أى غير شارب من شراب القوم ، إلا أن يكون تواجدا أو مساعفة لمتواجد ، فلا بأس به ، ولا يعترض على صاحبه .

أو تقول : رقص الفقير أو زعقه أو صراخه من غير وارد ، فهو بدعة غير وارد فى الشرع ، والله تعالى أعلم :

---

(١) العانى هو : الأسير ، والقصد هنا أنه أسير شهواته والشيطان ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

وأخذه الخلع بغير الخلع بعد عن الحق بعين الجمع

قلت : قد تقدم الكلام على الخلع ، فإذا رأيت الفقير يأخذ ما خلع عنه من الثياب عند ورود الأحوال بعد أن طرحها عنه، فهو عائد إلى صدقته، كالكلب يعود فى قيئه(١)، فهو بعيد عن الحق بعين الجمع ، أى حيث يظن الجمع ، يعنى أنه بعيد من حيث يظن القرب، ففيه جهل مركب ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

وحطه الراس بغير جرم على أخيه غير فعل القوم

قلت : قد تقدم أن حط الرأس عند فعل ما لا ينبغى : ليس من شأن الصوفية ، ولا عمل عليه ، فإذا فعله الفقير فقد أخطأ ، إذ ليس نص من الشارع ، فهو قريب من البدعة .

ثم قال :

وقد ذكرنا حكم الاستغفار أعنى القيام ليس عرفاً جارى

قلت : قد تقدم أيضاً حكم الاستغفار ، وأنه لم يجر به عرف .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : هذه الثلاثة ، يعنى أخذ الخلع ، وحط الرأس ، والقيام للاستغفار ، ليس من مطلب الطريقة ، ولا من موجبات الحقيقة . ولا من أحكام الشريعة ، وإن كان لها وجه من التأويل ، فتركها أولى ، والتسليم للعامل بها لازم لمحل الاشتباه ، والله تعالى أعلم ، اه .

ثم قال :

وميله للعرب والأعاجم علة نفس ، وهو فيه آثم

قلت : من شأن الفقير فى بدايته الفرار من الناس والاستيحاش منهم ، حتى يتمكن الحضور فيه على التمام ، وحينئذ لا بأس أن يخالطهم بجسمه ، ويفارقهم بقلبه ، وأما ميله للناس وحب مخالطتهم فهو دليل على إفلاسه ، إذ الاستئناس بالناس من علامة الإفلاس .

---

(١) أخذها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العائد فى هبته كالعائد فى قيئه » .

وقال بعضهم : من خالط الناس داراهم ، ومن داراهم راءاهم ، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا ، فهلك كما هلكوا ، ولله در الشيخ الحضرمى حيث قال :

عش خامل الذكر بين الناس وارض به   فهو أسلم للدنيا وللدين
من عاشر الناس لم تسلم ديانته   ولم يزل بين تحريك وتسكين

وقال بعضهم : من خالط الناس وظن السلامة من الإثم ، فقد رام المحال ، كمن خالط النار بالحطب وظن سلامته من الاحتراق .

ثم قال :

سفره إن لم يكن إليه   منه فلا حقيقة لديه

قلت : سفر المريد إن كان بالله لله ، فانيا عن نفسه ، خاليا من حظوظه ، فهو فى غاية الكمال ، وإن كان بالنفس للنفس ، فهو فى غاية النقصان ، وجلوس هذا أفضل من سفره ، وإن كان بنفسه لله ، فهو متوسط ، وسفره أفضل من جلوسه ، ليتحقق كماله ، فتحصل أن السفر على ثلاثة أقسام : سفر بالله إلى الله ، وسفر بالنفس للنفس ، وسفر بالنفس لله .

فالأول محمود قطعا ، والثالث ملحق به ، والثانى مذموم قطعاً

ومنطوق الناظم هو : الثانى و الثالث ، ومفهومه هو : القسم الأول ، لكن الثالث ملحق بالأول ، كما تقدم ، خلافا لظاهر كلام الناظم ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

وإن أشار للمرام الأول   وجهل العقل فعنه فاعدل

قلت : لعله أراد بالمرام الأول : عالم القدرة ، وأراد بالعقل : عالم الحكمة ، فإنها من مدركات العقل ، فإذا أشار المريد إلى الحقيقة الأولية ، وجهل ما أدركه العقل من الأكوان التى وقع بها التجلى فاعدل عنه ، لأنه إن كان مجذوبا فهو ناقص ، وإن كان مدعياً فهو ساقط فالأكوان ثابتة بإثباته ممحوة بأحدية ذاته ، فلا بد من إثبات الواسطة والموسوط ، ونفى عالم الحكمة يؤدى للزندقة ، لإبطال الأحكام ، والله تعالى أعلم .

وقال : الشيخ زروق رضى الله عنه : إشارته للمرام الأول تنبيه على من قال بقول

الفلاسفة من اعتبار العقل الاول ويسمونه : الفعال ، وهو مذهب فاسد خارج عن حدود المعقولات ، لما تضمنه من قدم العالم ، والقول بحوادث لا أول لهـــا ، وإليه أشار بقوله . جهل العقل ، أعنى جهل حقيقته ، حتى سماه بغير اسمه ، وحكم له حكمه اه .

ثم قال :

أو قال بالظهور والحلول فبدعة يقدح فى الأصول

قلت : مراده بالظهور : ظهور الذات العالية لبصر الحس ، حتى تدرك بالبصر الحسى ، وقد قال تعالى ـ لا تدركه الأبصار(١) ـ وإنما تدركه البصيرة ، فإذا انفتحت وقوى نورها استولت على البصر ، فصار الحكم لها ، فالبصر لا يرى إلا الحس ، والبصيرة لا ترى إلا المعنى ، وقد يتلطف الحس فيصير كأنه معنى ، فيكون ما تراه البصيرة فى معد العيان ، وهو محل الشهود ، إذ الحس لا يفارق المعنى ، وأما الحلول فمعناه إثبات السوى ، وحلول الألوهية فيه ، وهو كفر صراح ، فمن ادعى شيئاً من الظهور أو الحلول فارفضه ، فقد أتى ببدعة تقدح فى أصول إيمانه ، والعياذ بالله من الزلل .

ثم قال :

وقوله : أنا الذى أهواه قبل الفنا عنه فما أقصاه

قلت : إذا قال الفقير : وأنا من أهوى ومن أهوى أنا ، قبل تحقق فنائه ، فما أبعده عن الصواب ، وإذا تحقق فناؤه فلا يقول ذلك إلا مع من يصدقه فى حاله ، وإلا تعرض لقتله .

ثم قال :

أو يدعى فى علمه اللدنى بلا تقى ، فذاك غير سنى

قلت : متى ادعى الفقير أن له علمـــا لدنيا ، ولم تظهر عليه تقوى ولا مجاهدة ولا رياضة ، وإنما ذاك خرافات لا طائل تحتها ، ومن ادعى ذلك فهو غير سنى قال تعالى :

---

(١) ١٠٣ من سورة الأنعام ،

ـ واتقوا الله ويعلمكم الله(١) ـ فمن لا تقوى له لا يعلمه الله شيئا ، ولله در القائل(٢) :

شكوت إلى وكيع سوء حفظى فأومأ لى إلى ترك المعاصى
وقال اعلم بأن العلم فضل وفضل الله لا يؤتاه عاصى

والمراد بوكيع الفقيه المحدث الضابط من أشياخ الإمام الشافعى(٣) .

وفى الحكم ، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته ، اهـ .

ثم قال :

وحكمه إن كان فوق الحال فذاك مقطوع عن الرجال

قلت : ينبغى للفقيه أن يكون حاله فوق مقاله ، وقدمه أكبر من صيته ، فإذا كان يدعى مراتب الرجال ويحكم على نفسه بها قبل وصوله إليها بشهادة أهل الفن ، فهو مقطوع عنهم والعياذ بالله من الدعوى .

ثم قال :

أو قال أنا الشيخ فاتبعونى بغير علم فهو ذو جنون

قلت : للفقير لا يدعى الشيخوخة حتى يأذن له شيخه ، فإذا أذن له فلا بأس أن يعرف بنفسه لقصد الاتباع به ، وأما إذا لم يؤذن له ، أو لم يكن له شيخ، وقال أنا الشيخ فاتبعونى فهو أحق بجنون ، سواء كان له علم أم لا ، إذ من لا شيخ له : لا علم له بطريق السير أصلا ،

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٢ .

(٢) هو للإمام الشافعى رضى الله عنه ، والنص الذى نحفظه :

شكوت إلى وكيع سوء حفظى فأرشدنى إلى ترك المعاصى
وأخبرنى بأن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصى

والله تعالى أعلم .

(٣) فى الأصل ، من أشياخ الإمام البخارى ، وهو خطأ ، لأن وكيعاً توفى عام ١٩٦ هـ والبخارى ولد عام ١٩٤ هـ فالبخارى لم يره ، رحم الله الجميع .

ومن لاعلم له فهو جاهل ، والجاهل يقود الجاهل ، كالأعمى يقود الأعمى : إلى أين المصير(١)، وإن لم يأذن له شيخه فهو ذو دعوى ، ومبتلى بهوى ، والهوى شعبه من الجنون ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

أو قال صوفى أنا ، ولما يدر حدود النفس فهو أعمى

قلت : إذا قال الفقير : أنا صوفى ، ولم يفرق بين حدود النفس وحدود :العقل،والقلب والروح ، والسر ، فهو أعمى .

أو تقول : لم يفرق بين الروحانية والبشرية ، فهو أعمى عن طريق الخصوصية .

أو تقول : لم يعرف ما فيه ضرر نفسه فينكف عنه ، وما فيه نفعها فيبادر إليه ، ولا شك أن من كان هكذا فهو أعمى عن طريق السير ، إذ السير إنما هو فى فعل ما يقتل النفوس ، وترك ما تحيى به ، ومن لم يعرف ما ينفعه وما يضره فلا بصيرة له . فهو أعمى ، وهذا أقرب لشرح النظم ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

وحبه القوم بلا اتباع ليس له فيه من انتفاع

قلت : محبة القوم فيها خير كثير ، من أحب قوما حشر معهم(٢) ، لكن لا ينتفع بها فى طريق التصفية والتهذيب إلا باتباع ما أشاروا إليه به ، وأما الحرمة والبركة فتحصل بقول الله : عمل بعملهم أو لم يعمل للحديث(٣) ، والله تعالى أعلم .

---

(١) إلى حفرة من حفر جهنم يترديان فيها سويا : القائد الجاهل بالطريق والمقود ، نسأل الله تعالى السلامة .

(٢) هذا لفظ حديث شريف رواه الحاكم ، والمروزى فى الزوائد على كتاب « الزهد » لابن المبارك ، ويعضده قوله عليه الصلاة والسلام :

« من أحب قوماً حشره الله فى زمرتهم » رواه الطبرانى ، والضياء المقدسى عن أبى قرصافة .

(٣) قال رجل للنبى ﷺ : المرء يحب القوم ولما يلحق بهم ؟ فقال له النبى ﷺ : « المرء مع من أحب » رواه البخارى ، ومسلم ، والإمام أحمد ، والثلاثة عن بن مسعود .

ثم قال :

وفعله ما فى عموم الشرع ... يمنعه النص ففعل بدعى

قلت : فعل ما يمنعه النص فى عموم الشريعة حرام ، إلا لضرورة ، فإن الضرورات تبيح المحظورات[1] ، فإن فعل الفقير شيئاً من ذلك فهو بدعى . وأما ما لم يرد نص فى تحريمه ولا تحليله ، فإن فعله بنية القربة فهو بدعة أيضاً لتغييره أحكام الشريعة [2] ، وإن فعله استراحة للنفس ، أو جلبا لحال ، أو لدواء مرض أصابه فهو مطلوب . فقد سئل الجنيد عن السماع ، فقال : كل ما يجمع العبد بالله فهو مباح اه .

وبيت الناظم فيه تقديم وتأخير ، أى وفعل الفقير ما يمنعه النص فى عموم الشرع ، ففعل بدعى . والله تعالى أعلم .

ثم قال :

وإن تشيخ بنهى إذن ... من شيخه باء بكل غبن

قلت : الفقير إذا تشيخ ، أى صير نفسه شيخاً ، وتقدم لمرتبة الشيخوخة من غير إذن من شيخه فقد باء ، أى رجع بكل غبن وخسارة ، إذ لو رآه شيخه أهلا لها لقدمه لها ، وأما انتقاله عنه إلى غيره فهو أقبح [3] وهو إفساد لبذرة الإرادة ، وهذا فى حق شيخ التربية ، وأما غيره فلا يضره الانتقال عنه ، إذ المريض إذا لم يشف على يد طبيب انتقل إلى غيره وهذا ، أى انتقال المريد لم يذكره الناظم ، وتقدم فى محله ، والله تعالى أعلم .

---

(١) قاعدة فقهية ، ولكنها ليست على إطلاقها ، وإنما هى مقيدة بقيود ، وتستعمل فى أضيق الحدود ، وإذا لم تصادم نصاً شرعيا ، فليرجع فى شروطها وقيودها إلى كتب الفقه .

(٢) كل ما لم يرد فيه نص بالتحريم ولا بالتحليل فهو مباح ، والغناء والرقص وما إلى ذلك من أفعال المجان ، محرم بنص الحديث الشريف « الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء الزرع » رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن جابر ، وخصوصاً فى هذا الزمن الذى اتخذوا فيه التصوف تجارة وطبلا ومزماراً ، وتركوا العمل بالكتاب والسنة ، كفانا الله شرهم .

(٣) لأنها طعن فى شيخه الذى أخذ عنه الطريق ، وانشقاق بدون مبرر .

ثم قال :

فهذه وشبهها موانع ... وهي على الطريق كالقواطع
هل هي إلا علل في الفقر ... جالدها كل جليـــد صقر

قلت : الإشارة تعود إلى كل ما قدمه من الفصل إلى هنا من مساوىء منفقرة الوقت : يعني أن هذه الأمور التي قدمنا وشبهها هي في طريق القوم : موانع تمنع المريد من الوصول إلى مقصوده ، وهي على طريق التصوف ، كاللصوص والقطاع ، وما هي أيضاً إلا علل في طريق الفقر ، فمن جاهدها وجالدها فهو كالصقر . أي البازى في الشجاعة والزعامة ، والمجالدة هي المضاربة بالسيوف ، والرجل الجليد هو الصبار ، أي جالد هذه الملل وصرفها عن نفسه ، صبار شجاع زعيم ، يفوز بالخير الجسيم ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

حتى إذا جدلها(١) صريعة ... لم يتوقع بعدها وقيعـــه

قلت : التجديل هو الصرع والإسقاط ، يعني أن الفقير إذا غلب نفسه وجاهدها حتى غلبها وصرعها وقتلها ، أمن حينئذ من غوائلها ، ولم يتوقع منها بعد ذلك وقيعة ، ولا فتنة ألبتة ، وبالله التوفيق .

ثم قال :

يا صاح لا يفتنك الزمان ... فها لديك الشرح والبيان

قلت : لما نصحك وحذرك قال لك : يا صاحبي لا يفتنك الزمان وأهله ، فقد شرحت لك أحوال الناس وبينتها حتى تركتك على بينة تعرف منها الصادق والكاذب ، فلا تغتر حتى يأكلك من والاك ، ولا تسيء الظن حتى تسد باب رحمة مولاك ، وابتغ بين ذلك سبيلا ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

فالحق لا يعرف بالرجال ... والعين لا تصلح بالمحال

---

(١) جدله : ألقاه على الجدالة : أي الأرض .

قلت : هذا مثل مشهور، وهو أن «الحق لايعرف بالرجال، بل الرجال يعرفون بالحق» أى باتباعه ، فمن عرف الحق بالرجال أصبح فى غاية الضلال ، اعرف الحق تعرف أهله .

وقد قال على كرم الله وجهه : «لو عرفت الله بمحمد ﷺ لما عبدته ، ولكن الله عرفنى بنفسه فعرفته . ثم عرفت محمداً بالله» .

فانظر هذا المقام الذى لم يحجبه عن الله ولا عن رسوله ﷺ .

وقوله : « والعين لا تصلح بالمحال » أى ما شاهدته العين وتحققته لم يتطرق إليه محال ولا ريب ، فليس الخبر كالعيان ، فلا تغتر بالسماع حتى ترى بعينك وتتحقق ، وحينئذ تقدم أو تأخر ، وفى بعض النسخ : « والعين لا تصلح بالكحال » بالكاف، ولعل معناه أن العين الكحلاء غنية عن الكحل ، فهى جميلة لا تحتاج إلى أن يصلحها الكحل[1] ، فكذلك الحق معروف لا يتوقف على معرفة الرجال ، بل معرفة الرجال متوقفة على معرفة الحق ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

والحق فى كل الأمور أولى   لو رآه الباطل لاضمحلا

قلت : لا شك أن متابعة الحق والأخذ به فى كل الأمور أولى ، ومتى جاء الحق زهق الباطل واضمحل ، قال تعالى - بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق[2] - إذ الباطل لا يقوم للحق أصلا .

قيل لسهل رضى الله عنه : من أين تأكل؟ قال : من عند الله ؟ قال : أينزل عليك من السماء ؟ قال : لو لم تكن الأرض له لأنزله من السماء .

قال : أنتم لا يقوم أحد لكم بحجة ، فقال : الحق لا يقوم له شىء اه .

---

(١) ولم لا يكون « بالكحال » بتشديد الحاء بعدها ألف . فربما استقام المعنى ووضح أكثر ، فإن العين لا تصلح بالكحال (أى الذى يحاول إصلاحها) ، وإنما تكون جميلة بخلقتها هكذا ، والله تعالى أعلم .

٢) ١٨ من سورة الأنبياء .

وقيل المسئول حاتم ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

وإذا علمت سنن الأقوام   إذن فهاك القوس والمرامى

قلت : السنن بالفتح الطريق ، وبالضم جمع سنة ، يقول لما أخبرتك بسنن الصوفية فقد أعطيتك أقواسهم ، وكشفت لك عن مبلغ مرامهم ، وحيث تنتهى سهامهم فلا تغتر بحبال سحرة فرعون وأعصيتهم الباطلة ، ودع الميل إلى عصى موسى التى هى ـ تلقف ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ـ [1] وكذلك المتشبهة مع سادات الصوفية ، قاله الشيخ عبد الوارث .

ثم قال :

هذا هو الطريق فاقصد جله   فقد جمعنا لك منه جله

يعنى أن ما ذكرته فى كتابى هذا هو أساس الطريقة، فابن عليه يستقم بنيانك، وارفض ما سواه تفلح ، فاقصد العمل بما فيه أو جله ، فقد جمعت لك من سنن القوم جملة صالحة ، وبالله التوفيق .

ثم قال :

وقد ذكرنا كل ما اشترطنا   وما على آخره أتينا

قلت : أخبر رحمه الله أنه أتى على ما شرطه فى أول كتابه من بيان سنن الفقير ، وقد أتى على آخره ، وذكر جميع فصوله الخمسة ، فجزاه الله عن المسلمين خيراً .

وفى أمثاله قال القائل :

جزى الله الرجال جزاء خير   فى كل ما أظهروا لنا وأبدوا

لقد عظمت فضائلهم علينا   لما للمؤمنين هدوا وأهدوا

ثم ختم كتابه بالدعاء ، فقال :

وفقنا الله إلى التوفيق   وقادنا لقادة التحقيق

---

(١) سورة الأعراف ، الآيات ١١٧ – ١١٩ .

قلت : التوفيق هو خلق القوة على الطاعة ، وقادة التحقيق هم العارفون بالله ، سأل من الله التوفيق ، وأن يسوقه إلى شيوخ التحقيق ، إذ بذلك يكمل التوفيق . وبالله التوفيق .

ثم ختم بالصلاة على رسول الله ﷺ ليقبل دعاؤه ، ويقبل على كتابه ، فقال :

وبعد هذا فصلاة الله تترى على الهادى العظيم الجاه
ما غردت ورقاء فى الأغصان وحن مشتاق إلى الأوطان

قلت : تترى أى يتبع بعضها بعضاً ، والتغريد الصياح بصوت حسن ، والورقاء بالمد الحمامة ذات النقط فى ريشها .

وقوله : العظيم الجاه ، أشار به إلى حديث عنه صلى الله عليه وسلم : « توسلوا بجاهى فإن جاهى عند الله عظيم » .

وفى حديث آخر « مكتوب تحت ساق العرش : من اشتاق إلى رحمتى رحمته ، ومن سألنى أعطيته ، ومن توسل إلى بمحمد ﷺ لم أخيبه » .

اللهم إنا توسلنا إليك بجاه حبيبك مولانا محمد ﷺ أن تمتع أسرارنا بمعرفتك ، وتنزه أفكارنا فى رياض قدسك ، وأن تحفظ قلوبنا من الميل إلى غيرك ، نحن وأحبابنا ومن تعلق بنا آمين .

ثم أبد هذه الصلاة بشيئين أحدهما فان ، والآخر باق .

فالأول : تغريد الحمام فى الأغصان ، والثانى حنين المشتاق إلى الأوطان ، فإن الأرواح تحن إلى أوطانها على الدوام ، ولو بعد الحمام ، ولو اتصلت بالنعيم الروحانى المقيم ، فلا بد أن يبقى معها الاشتياق إلى الترقى ، والنظر أبداً ، والفرق بين الشوق والاشتياق ، أن الشوق يزول بالملاقاة ، بخلاف الاشتياق ، فلا يزول بالوصول ، وإلى ذلك أشار ابن الفارض بقوله :

وما بين شوق واشتياق فنيت فى تول بحظوة أو تجل بحضرة

ثم ختم بالحمد كما بدأ ، ليكون الكتاب مكتنفاً بالحمد ، فيعظم خطره ، ويرفع قدره ، فقال :

والحمد لله الذى ختمنا بحمده كما به بدأنا

قلت : حمد الله على توفيقه الحمد لله فى البداية والنهاية ، وذلك من علامة بلوغ الأمل والمرام ، وقد تقدم الكلام عليه فى أول الكتاب فلا نعيده .

والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ، والحمد لله رب العالمين .

هذا آخر التعليق المبارك، نسأل الله سبحانه أن يتقبله بأحسن قبول ، وأن يبلغ به من طالعه أو سمعه كل مقصد ومأمول ، بجاه الحبيب الأعظم والرسول الأكرم سيدنا ومولانا محمد سيد العرب والعجم ﷺ وعلى آله وأصحابه أولى النزاهة والفضل والكرم .

ووافق الفراغ من تبييضه عشية يوم الخميس ، أوسط شهر رمضان سنة إحدى عشرة ومائتين وألف .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

تقديم

الفصل الاول : فى اصله من ٢٤ ـ ٥٦

تم بحمد الله

كتاب

(الفتوحات الإلهية)